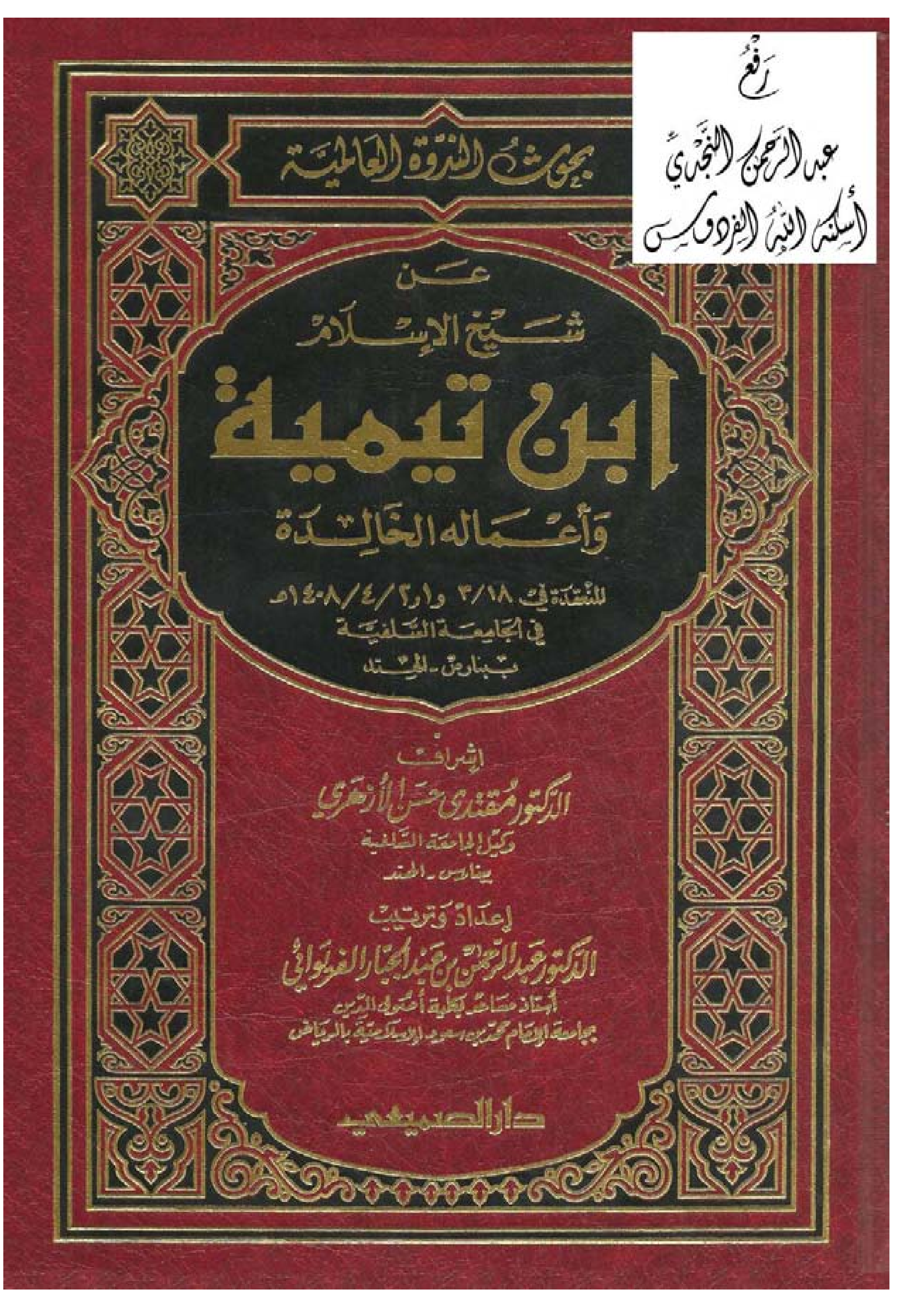

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
بحوث الندوة العالمية
عن
شيخ الإسلام
ابن تيمية
وأعماله الخالدة
المنعقدة في ٣/١٨ و١، ٢/٤/١٤٠٨هـ
في الجامعة السلفية
ببنارس - الهند
إشراف
الدكتور مقتدى حسن الأزهري
وكيل الجامعة السلفية
ببنارس - الهند
إعداد وترتيب
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي
أستاذ مساعد بكلية أصول الدين
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض
دار الصميعي

بحوث الندوة العالمية
عن
شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله الخالدة

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بحوث الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله الخالدة

المنعقدة في ١٨/٣ و١و٢/٤/١٤٠٨هـ
في الجامعة السلفية
ببنارس - الهند

إشراف
الدكتور مقتدى حسن الأزهري
وكيل الجامعة السلفية
ببنارس - الهند

إعداد وترتيب
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي
أستاذ مساعد بكلية أصول الدين
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
صفر ١٤١٢ هـ - اغسطس ١٩٩١ م
الطبعة الثانية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار الصميعي للنشر والتوزيع
هاتف وفاكس: ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩
الرياض - السويدي - شارع السويدي العام
ص.ب: ٤٩٦٧ - الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية



كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الجامعة السلفية كانت قد عقدت ندوة عالمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله الخالدة في ربيع الآخر ١٤٠٨ هـ، وقد تكرم معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، حفظه الله، مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض برئاسة هذه الندوة وبإلقاء بحثه القيم فيها. وبذلك اكتسبت الندوة أهمية بالغة، وارتفعت معنوية القائمين على الجامعة السلفية في سبيل ممارسة مثل هذه الأنشطة، وسنحت الفرصة أمام الباحثين والكتاب لتزويد المستمعين بالمعلومات النافعة عن شخصية إسلامية جبارة لعبت دوراً بارزاً في شرح مبادىء الإسلام والدفاع عن حياضه وتقويم رجاله وأعمالهم. ولعل هذه هي أول ندوة علمية انعقدت عن ابن تيمية في الهند، وأسهم فيها بالبحوث والمقالات نخبة من العلماء والباحثين الذين مثلوا الجامعات الرسمية والمدارس الإسلامية بالهند. وقد دلت على أهمية الندوة الرسائل الكثيرة التي وردت إلى الجامعة من المطلعين على خبر انعقادها، فقد أثنوا على هذه المبادرة العلمية، وأبدوا حرصهم على اقتناء البحوث التي ألقيت في هذا الملتقى.

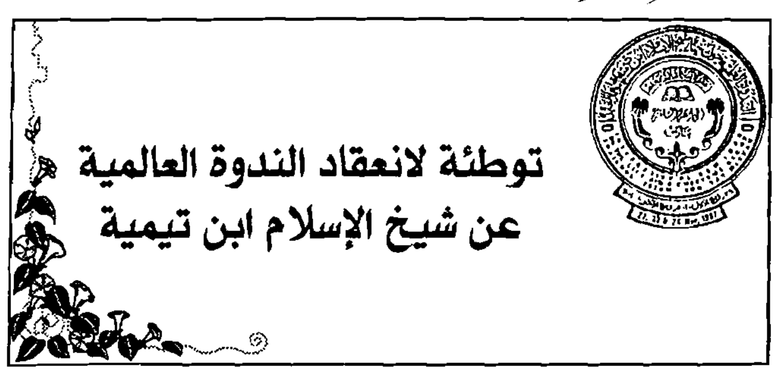
وقد كانت هذه البحوث باللغتين: العربية والأردية، ولكن أغلبها كانت بالأردية، وكانت النية معقودة على طبع هذه البحوث كاملة وبدون تأخير، أولاً بالعربية وثانياً بالأردية. وقد بدأ عمل الترجمة عقب انتهاء الندوة فوراً تحت إشراف الدكتور عبد الرحمن الفريوائي، ولكن كثرة البحوث وطولها

واشتغال القائمين على الترجمة بأداء مسئولياتهم في التدريس والدعوة وتوقف التصفيف والطبع حيناً بعد آخر، كل ذلك قد أخر ظهور هذه البحوث إلى هذا الوقت، ولعل التصريح بالمعوقات يكون شفيعاً لدى كل من انتظر صدور هذه البحوث من كتابها الأفاضل والقراء الكرام. أما نشر البحوث كاملة فإننا لم نتمكن من ذلك في هذه الطبعة العربية، ونرجو أن الله تعالى يسهل لنا طبعها بالأردية بالكمال والتمام.

وفي ختام هذه السطور نرى من الواجب أن نشيد بجهود الشيخ عبد الوحيد عبد الحق، - رحمه الله - الأمين العام السابق للجامعة، فإنه قد تحمل كثيراً من المشاق في سبيل عقد هذه الندوة، وبذل ما في وسعه في تحقيق نجاحها، ولكن وافاه الأجل المحتوم قبل أن تظهر هذه المجموعة. فالله تعالى نسأل أن يتغمده بغفرانه، ويمطر عليه شآبيب رحمته ورضوانه، ويسكنه بحبوحة جنانه، ويكتب النجاح والازدهار للجامعة السلفية التي خدمها بإخلاص وأمانة نحو ربع قرن من الزمن. ونزجي أخلص الشكر إلى العلماء والباحثين الذين قدموا بحوثهم إلى الندوة، وإلى جميع القائمين على الجامعة السلفية، وعلى رأسهم أبو الحسن عبيد الله الرحماني رئيس الجامعة، والشيخ شاهد جنيد محمد فاروق السلفي أمين عام الجامعة، حفظهما الله تعالى، فقد تكرما برعاية الندوة وبتشجيع القائمين عليها، جزاهما الله تعالى خير الجزاء.

والله تعالى نسأل أن يجزل المثوبة لجميع المساهمين في الندوة، ولمترجمي البحوث إلى العربية، ولجميع من سعى في الطبع والإخراج. وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، ويوفق الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(د. مقتدى حسن بن محمد ياسين)
الجامعة السلفية ببنارس
في ٤/٢/١٤١٢ هـ.



توطئة لانعقاد الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ابن تيمية

عقدت الجامعة السلفية ببنارس ندوة عالمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأعماله العلمية الخالدة.

وقد تكرم معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض برئاسة هذه الندوة مشكوراً.

وشرفها بالحضور كل من سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي أمين عام ندوة العلماء بلكنئو.

ومعالي الأستاذ ضياء الرحمن الأنصاري وزير الدولة لشئون البيئة والغابة بالحكومة الهندية.

وسعادة الدكتور محمد هزاع الغامدي من الظهران بالمملكة العربية السعودية.

وكذا حضرها عدد كبير من العلماء والباحثين من جامعات الهند الرسمية والمدارس الإسلامية.

والجامعة السلفية طرحت الموضوع المذكور أمام العلماء والباحثين للبحث والمناقشة إدراكاً منها بأن أكثر المسلمين في الهند قد وقعوا فريسة الشرك والبدع، وانقسموا شيعاً وأحزاباً، تحقيقاً للمصالح واتباعاً للأهواء. وإن واقعهم المرير يصور لنا ابتعادهم عن الشريعة الإسلامية، وركونهم إلى أعمال الشرك والبدع، وتشتتهم من الناحية الفكرية والعملية، وتحاربهم فيما بينهم على أتفه الأسباب.

فكلنا نرى أن المسلمين لا يزالون يحتكمون إلى القوانين الوضعية، معرضين عن الشريعة الإسلامية، وشاكين في صلاحيتها لجميع الأمكنة والعصور.

ولا تزال الرحال تشد إلى القبور والأضرحة، ويتم الاحتفال بموالید الأنبياء والصلحاء ووفياتهم، ويستغيث المسلمون بالأموات.

وحيث إن المسلمين قد ضلوا سواء السبيل، وتخلوا عن الهداية الربانية فقد وجدت الاتجاهات المنحرفة والأفكار الضالة سبيلها إلى صفوفهم، وقضت على ما في نفوسهم من تقوى الله تعالى واتباع توجيهات الإسلام السامية حتى ذهبت ريحهم وهانوا على أعدائهم.

وهذا الواقع المرير يفرض على دعاة المسلمين وقادتهم أن يفكروا في طريق الخلاص، ويتخذوا الوسائل التي تساعد في سبيل العودة بالمسلمين إلى مصادر الدين الأصلية، وتعويدهم على الاحتكام إلى الكتاب والسنة في شئون الحياة دقها وجلها.

وفي تاريخ المسلمين الطويل شخصيات كبيرة عرفت بالإصلاح والتجديد، ومآثرهم تساعد دون شك في ترشيد الجهود التي تبذل في سبيل النهوض بالمسلمين.

ومن هذه الشخصيات الفذة شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ملأ الدنيا بأعماله العلمية ومواقفه الخالدة.

وقد أشبه عصرنا كثيراً ذلك العصر الذي عاش فيه ابن تيمية، فبدع العقيدة والأعمال التي منيت بها الأمة الإسلامية في ذلك العصر كأنها عادت من جديد في العصر الراهن، ونشط أعداء الإسلام في إضعاف صلة المسلمين بدينهم، وفي زرع الشبهات نحو القيم الإسلامية في نفوسهم، وفي دعوة ضعاف العقول والسذج إلى المبادىء الهدامة والأفكار الزائغة، وفي زعزعة ثقة المسلمين بالأفراد والجماعات التي تحمل راية الحق وتقوم بالدفاع عن الإسلام وعن عقيدتها ومثلها.

وقد حظيت هذه المبادرة بإعجاب الباحثين وتقديرهم، وخاصة الباحثين الذين درسوا ابن تيمية وخدموه وكتبوا عنه، فقد بلغنا عن سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي أنه حبذ الفكرة وأثنى على مجهود الجامعة السلفية في سبيل تنظيم الندوة عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأبدى أمله في أن الندوة تكون حافزاً قوياً للمشتغلين بمؤلفات ابن تيمية ودراساته.

وكذلك أثنى على هذه الفكرة عديد من العلماء والباحثين الذين يدركون أهمية دراسة الشخصيات الإسلامية الفذة التي لعبت في عصورها بدور إيجابي فعال وما في هذه الدراسة من دروس وإيحاءات للعلماء والطلاب.

ولكن في الوقت نفسه سمعنا بعض الأصوات من هنا وهناك تبدي الاستياء والاستغراب حول انعقاد هذه الندوة وخاصة في الجامعة السلفية. ونحن لم نستطع معرفة سبب هذا الاستغراب والدافع إليه، ولكننا لا نزال مقتنعين بإصابة الفكرة وإفادة الندوة، ونرجو أن الناس يتعودون النظر إلى الأمور العلمية بالمنظار العادل السليم، والله الموفق.

وقد بلغ عدد البحوث المقدمة إلى الندوة أربعين بحثاً، تناولت جوانب رئيسية من حياة ابن تيمية وأعماله ومواقفه، وحاولت إبراز النواحي العلمية والدعوية التي تجلت فيها عبقرية ابن تيمية ومواضع نبوغه وتفوقه.

ومساهمة العلماء والباحثين في هذه الندوة قد دلت بوضوح على مدى عنايتهم بشخصية ابن تيمية والإعجاب بمنهجه في البحث والتحقيق وفي القيام بالدعوة والإصلاح، وفي الوقت نفسه أضافت إلى المكتبة الإسلامية ثروة علمية نافعة.

ولا شك أن هذه الندوة قد لعبت دورها في التعريف بشخصية ابن تيمية التي تعد حلقة ذهبية في سلسلة المجددين والمصلحين.

وفي ربط المسلمين بماضيهم المجيد وحثهم على الاستفادة منه، فإن الجيل الذي نسي أو تناسى ماضيه لن يرجى له مستقبل مزدهر في خضم الحياة.

وفي إزالة الحواجب والستور التي حاول أهل الأهواء والأغراض إلقاءها على شخصية ابن تيمية وأعماله التجديدية.

وفي استنهاض الهمم على نشر التراث العلمي الذي خلفه ابن تيمية، وتمهيد السبل للانتفاع به.

وشخصية مثل ابن تيمية لن يوفى حقها بندوة واحدة أو ندوتين، بل ينبغي أن تكون مادة ابن تيمية وآثاره العلمية موضع دراسة مستقلة في بعض الجامعات والمراكز العلمية، حتى تخرج مؤلفاته إلى النور بمختلف لغات العالم. والجامعة إذ أقامت هذه الندوة فإنها تأمل أن تكون هذه البداية طيبة، وأن تتوالى المؤتمرات واللقاءات لأداء بعض ما علينا من الواجبات نحو هذه الشخصية الفذة.

وفيما يلي كشف عن أسماء الباحثين المشاركين في الندوة وعناوين بحوثهم، ثم تقرير موجز عن سير أعمال الندوة في أيامها الثلاثة، وكذلك التوصيات والقرارات.

(د. مقتدى حسن ياسين الأزهري)





كشف العناوين التي طرحتها الجامعة أمام الباحثين للكتابة والبحث

١ ـ عصر ابن تيمية من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية.

٢ ـ العناصر الأساسية لتكوين شخصية ابن تيمية العلمية.

٣ ـ الاتجاه السياسي لدى ابن تيمية.

٤ ـ ابن تيمية وجهوده في إثراء الفقه الإسلامي.

٥ ـ ابن تيمية وجهوده في خدمة السنة المطهرة.

٦ ـ جهود ابن تيمية في الإصلاح والتجديد.

٧ ـ ابن تيمية وموقفه من التصوف.

٨ ـ مقاومة ابن تيمية للبدع والخرافات.

٩ ـ ابن تيمية ومعارضوه.

١٠ ـ ابن تيمية ومعاصروه المعروفون (دراسة مقارنة).

١١ ـ ماذا يستفيد المسلمون اليوم من حياة ابن تيمية ومواقفه؟

١٢ ـ ابن تيمية يقاوم التعصب المذهبي.

١٣ ـ ابن تيمية مفسراً.

١٤ ـ ابن تيمية وموقفه من علم المنطق.

١٥ ـ ابن تيمية وموقفه من العلوم والفلسفة اليونانية.

١٦ ـ ابن تيمية في ضوء كتابه منهاج السنة النبوية.

١٧ ـ تأثير ابن تيمية في مختلف طبقات الأمة (العلماء والكتاب والدعاة وغيرهم).

١٨ ـ تعريف موجز بمؤلفات ابن تيمية.

١٩ ـ دراسات وبحوث عن ابن تيمية ومكانته العلمية.

٢٠ ـ موقف ابن تيمية من المذاهب الأربعة.

٢١ ـ شيوخ ابن تيمية وتلاميذه (تعريف موجز بهم).

٢٢ ـ ابن تيمية والعقيدة السلفية.

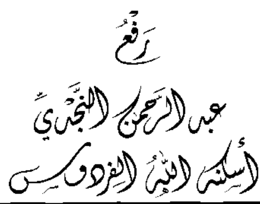
٢٣ ـ ابن تيمية مع اللغة العربية وآدابها.

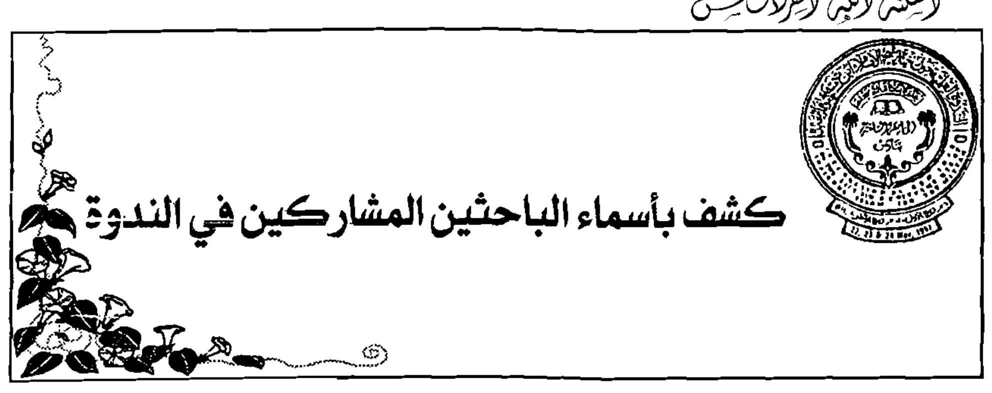
٢٤ ـ ابن تيمية وموقفه من علم الكلام.

٢٥ ـ دراسة موسعة لمجموع فتاوى ابن تيمية.

٢٦ ـ موقف ابن تيمية من اليهودية والنصرانية.







كشف بأسماء الباحثين المشاركين في الندوة

١ ـ معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي / مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٢ ـ سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي / أمين عام ندوة العلماء بلكنؤ.

٣ ـ د. محمد هزاع الغامدي / مطار الظهران الدولي، الظهران.

٤ ـ د. محمد لقمان السلفي / رئاسة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض.

٥ ـ الدكتور عبد العليم بن عبد العظيم البستوي / رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

٦ ـ د. عبد العلي عبد الحميد / لندن.

٧ ـ د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي / الجامعة السلفية بنارس.

٨ ـ د. سيد عبد الحفيظ السلفي / أمين عام دار العلوم الأحمدية السلفية بدربنغة.

٩ ـ د. محمد سيد، أحمد المسير / كلية أصول الدين بالأزهر، القاهرة.

١٠ ـ د. مسعود الرحمن خان الندوي / جامعة علي كره الإسلامية بالهند.

١١ ـ د. محمد ياسين مظهر صديقي / جامعة علي كره الإسلامية بالهند.

١٢ ـ د. محمد راشد الندوي / جامعة علي كره الإسلامية بالهند.

١٣ ـ د. كفيل أحمد القاسمي / جامعة علي كره الإسلامية بالهند.

١٤ ـ د. عبد الباري أحمد مجتبى / جامعة علي كره الإسلامية بالهند.

١٥ ـ د. ظفر الإسلام/ جامعة علي كره الإسلامية بالهند.

١٦ ـ أشهد رفيق الندوي / إدارة علوم القرآن بعلي كره.

١٧ ـ د. محسن العثماني الندوي / جامعة جواهر لال نهرو بدلهي.

١٨ ـ الشيخ أبو العرفان الندوي / ندوة العلماء بلكنؤ.

١٩ ـ الشيخ برهان الدين السنبهلي / ندوة العلماء بلكنؤ.

٢٠ ـ الشيخ عبد السلام الرحماني / سراج العلوم بغوندة.

٢١ ـ الشيخ أبو العاص الوحيدي / سراج العلوم بغوندة.

٢٢ ـ الشيخ عبد المبين منظر / شمس العلوم بستي.

٢٣ ـ الشيخ عبد العليم ماهر / دار التوحيد، بستي.

٢٤ ـ د. اى. كى. أحمد كتى / جامعة كالي كت بكيرالا.

٢٥ ـ الشيخ محمد عبد الله طاري / جمعية أهل الحديث في كشمير.

٢٦ ـ الشيخ عبد الرشيد بت طاهري / الكلية السلفية بكشمير.

٢٧ ـ الشيخ عين الباري العالياوي / المدرسة العالية بكلكته.

٢٨ ـ الشيخ عبد الواحد عبد القدوس / مدرسة خير العلوم، بستي.

٢٩ ـ الشيخ محمد يوسف كوكن العمري / جامعة مدراس بالهند.

٣٠ ـ الشيخ حبيب الرحمن العمري الأعظمي / جامعة دار السلام بعمر آباد.

٣١ ـ الشيخ زبير أحمد القاسمي / جامعة رحماني خانقاه مونغير.

٣٢ ـ الشيخ محمد نعيم رحماني / جامعة رحماني، مونغير.

٣٣ ـ الشيخ أنيس الرحمان القاسمي/ الإمارة الشرعية، فلواري شريف، بتنه.

٣٤ ـ الشيخ محمد أحمد الأثري / الجامعة الأثرية دار الحديث بمئو.

٣٥ ـ الشيخ محمد الأعظمي / الجامعة العالية العربية بمئو.

٣٦ ـ الشيخ عبد العزيز العمري الأعظمي / الجامعة الأثرية دار الحديث بمئو.

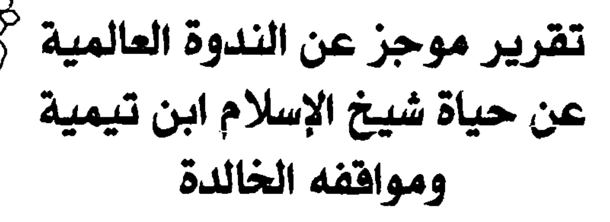
٣٧ ـ د. حفيظ الدين كرماني / جامعة بنارس الهندوكية ببنارس.

٣٨ ـ د. أبو الحسن أختر / جامعة بنارس الهندوكية ببنارس.

٣٩ ـ د. يوسف حسين أحمد / جامعة الأزهر بالقاهرة.

٤٠ ـ الأستاذ محمود خليفة غانم / سفارة مصر بالهند.





تقرير موجز عن الندوة العالمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ومواقفه الخالدة

(إعداد / الدكتور عبد الرحمن بن
عبد الجبار الفريوائي)

عقدت الجامعة السلفية في رحاب الجامعة ندوة عالمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأعماله العلمية الخالدة، في ٢٩/ ربيع الأول و١ و٢ ربيع الآخر عام ١٤٠٨ هـ.

وقد طرحت لجنة الندوة عدة مواضيع أمام العلماء والباحثين للبحث والمناقشة وأرسلت إليهم الدعوة للمشاركة فيها ببحوثهم العلمية حول شيخ الإسلام وعلومه وأعماله التجديدية والإصلاحية.

الجلسة الافتتاحية

وقد بدأت الجلسة الافتتاحية تحت رئاسة معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بالمملكة العربية السعودية، وقد افتتحها معالي الأستاذ ضياء الرحمن الأنصاري وزير الدولة لشئون الغابة بالحكومة الهندية، في الساعة العاشرة يوم الأحد ٢٢/ نوفمبر المصادف ٢٩/ ربيع الأول، بتلاوة آي من الذكر الحكيم.

وبعد تلاوة آيات من القرآن الكريم، قدم طلاب الجامعة نشيد الجامعة

السلفية باللغة الأردية، ثم قدم فضيلة الشيخ عبد الوحيد الرحماني شيخ الجامعة تعريفاً موجزاً بالجامعة وألقى الضوء على أهدافها ومشاريعها وما قامت به من خدمات قيمة في مجال التدريس والتأليف وتخريج عدد كبير من طلبة العلم الذين ساهموا في الهند وخارجها في مجاله الدعوة والإرشاد والتأليف والترجمة والتحقيق.

● وبعد ذلك ألقى الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي كلمة موجزة حول عصر شيخ الإسلام، وأشار إلى جهوده في مجال خدمة العلم والدين والعقيدة، وإلى أهمية الاستفادة من علوم شيخ الإسلام وجهوده في الإصلاح والتجديد.

● وبعد ذلك قدم الدكتور مقتدى حسن الأزهري وكيل الجامعة كلمة الترحيب رحب فيها بالضيوف الكرام، وشرح أهداف هذه الندوة المنعقدة في رحاب الجامعة التي أنشئت لنشر مذهب السلف، وذكر أن العناوين التي طرحتها اللجنة على الباحثين للبحث والمناقشة روعيت فيها متطلبات العصر الحاضر وظروف الأمة الإسلامية الصعبة.

كما أشار فضيلته إلى جهود المدارس الإسلامية في سبيل التعليم والدعوة والإرشاد.

● ثم قدمت رسالة شفوية مسجلة من سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والدعوة والإفتاء بالرياض، ونص الرسالة منشور في الصفحات القادمة.

ونقل هذه الرسالة إلى الأردية فضيلة الدكتور محمد لقمان السلفي الموجه الديني، ومدير قسم الترجمة بمكتب سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

● وبعد ذلك قدمت رسالة معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف أمين عام رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة (الذي كان من المقرر أن يرأس هذه الندوة العلمية، ولكنه لم يتمكن من السفر إلى الهند لأسباب) قدمها فضيلة الدكتور عبد العليم بن عبد العظيم البستوي نيابة عن معالي الأمين العام.

ثم نقل الدكتور عبد العليم هذه الرسالة إلى اللغة الأردية على الفور.

ونص هذه الرسالة منشور مع كلمات الندوة.

● ثم ألقى معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ورئيس الندوة، كلمته القيمة، وشكر سماحة الشيخ العلامة المحدث عبيد الله الرحماني رئيس الجامعة السلفية والشيخ عبد الوحيد بن عبد الحق السلفي أمين عام الجامعة، وسائر المسئولين عن هذه الدعوة للمشاركة في الندوة العلمية، وقال:

(إن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله وتولاه يكن في قلبه للجامعة السلفية احتراماً كبيراً، ونقل كلامه في الجامعة بأن الجامعة السلفية عندي لها منزلة كبيرة وأهمية بالغة).

ونقل الشيخ عبد السلام المدني المدرس بالجامعة كلامه إلى اللغة الأردية.

● وبعد ذلك ألقى سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي الأمين العام لندوة العلماء كلمته، وكان موضوع محاضرته (مأثرة ابن تيمية الكبرى التركيز على أن النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة والهداية).

وقد لخص سماحته كلامه باللغة الأردية في بداية المحاضرة، وقدم ترجمته بالأردية في الجلسة المسائية الشيخ نذر الحفيظ الندوي المدرس بندوة العلماء.

● ثم جاء الشاعر المصري الأستاذ محمود خليفة غانم سكرتير الملحق الثقافي بالسفارة المصرية بدلهي، وأنشد قصيدته القيمة في شيخ الإسلام وحياته وأعماله التجديدية وقد أعجب المستمعون بهذه القصيدة حتى أصروا على استماعها من الشاعر مرات وكرات في أثناء جلسات الندوة.

● وكان الخطاب الختامي لهذه الجلسة لمعالي الأستاذ ضياء الرحمن الأنصاري وزير الدولة لشئون الغابات بحكومة الهند، الذي أشاد بذكر جهود الجامعة السلفية في مجال التعليم الديني والدعوة والإرشاد ونشر اللغة

العربية، وذكر أننا بحاجة ماسة إلى علوم شيخ الإسلام ابن تيمية لأن المشاكل والمحن التي واجهها شيخ الإسلام في القرن الثامن الهجري قد تجددت، فإن الناس قد تأثروا في عهده بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني، ونلاحظ الآن أن العصر العلمي التقني قد انبهرت به عقول المسلمين، فالعالم بحاجة إلى العلماء والمفكرين الذين يقومون بدورهم كما قام شيخ الإسلام لإيجاد الحلول الناجعة عن مشاكل العصر، وعلوم شيخ الإسلام تنير الطريق للدعاة والعلماء والباحثين بهذا الصدد.

وفي أثناء خطابه الرسمي ندد بما أحدث الإيرانيون في العام الماضي من فتنة وفساد في أثناء الحج في مكة المكرمة، وصرح بأنه جريمة كبرى، وجرأة على الله، وأعلن من هذا المنبر أمام هذا الحشد الكبير من العلماء والمحققين ووفود المدارس الإسلامية بأنه ينقل شعور عامة المسلمين، واستنكارهم هذه الحادثة الأليمة الفاجرة، وقال: إني أندد بالإيرانيين وأستنكر أعمالهم الإجرامية وأؤيد المملكة العربية السعودية على جميع ما قامت وتقوم به للقضاء على المجرمين الطائفيين الذين حاولوا ويحاولون إحداث الفتن في الحرمين الشريفين الآمنين.

وقال معاليه: إن المسلمين يزورون الحرمين الشريفين بقلوبهم الخاشعة، ونفوسهم المتضرعة، وهم يبتغون رضا الله، ولا يريد أي واحد منهم أن يضيع دقيقة من وقته الثمين ولا يريد أي شيء غير الحرمين ومناسك الحج والزيارة في غاية من الطمأنينة والأمن، أما هذه المظاهرات والمشاغبات وإحداث الفتن وإدخال الرعب في قلوب المؤمنين في بلد الله الأمين فالهدف من ذلك كله إرضاء رغبات الطائفيين الذين يحاولون زرع الرعب والفتنة في نفوس الناس.

ونقل خطابه إلى العربية على الفور فضيلة الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأزهري.

وهكذا انتهت الجلسة الافتتاحية بحمد الله وتوفيقه.

الجلسة الثانية

بدأت الجلسة الثانية من الندوة في هذا اليوم في الساعة الرابعة عصراً برئاسة معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكان مقرر هذه الجلسة فضيلة الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأزهري.

● وكان معالي مدير جامعة الإمام الدكتور التركي أول محاضر في هذه الندوة، الذي قدم بحثه تحت عنوان: (تجدد المشكلات التي واجهها ابن تيمية يقتضي مجاهدتها من جديد). وفصل القول في هذا الموضوع الحساس، وصور الأوضاع أدق تصوير، بل وضع النقاط على الحروف كما يقولون. والبحث منشور في الصفحات القادمة. ومما قال معاليه في بحثه القيم: وهذا التشابه في المعتقدات والأفكار والمسالك والمصائر بين الضالين القدماء والمحدثين حقيقة تاريخية وواقع قائم ينبغي أن يعيهما الحفيظون على السنة والمشتغلون بالدعوة إلى الإسلام، ففي الوعي العميق بهما زاد نفيس من العلم والفقه يرتفقه أهل الحق وهم يردون الأمة إلى الطريق الصحيح والمنهج القويم، ومن هذا الزاد النفيس النافع: زيادة اليقين بأن من يتجافى عن منهج السنة يهلك لا محالة، وإدراك أن الدعاوي الحديثة والفتن المعاصرة ليست سوى أفكار قديمة أخرجت في ألفاظ معاصرة، وفي وسائل جديدة، والاستفادة من جهود أئمة الهدى في نقض الفتن المعاصرة.

وقال في حديثه: لقد واجه شيخ الإسلام ابن تيمية مشكلات كبرى في عالمه، وفي عصره، فاستعان بالله عز وجل، وجرد نفسه لمواجهتها بعلم وبصيرة، وثبات جنان وقوة بيان، ثم اختار نماذج محددة من تلك المشكلات منها معاداة السنة أو ادعاؤها بغير دليل، ومنها تمزيق الأمة الإسلامية، ومنها موالاة أعداء الإسلام، وذكر أن هذه المشاكل التي واجهها شيخ الإسلام في عصره، فهل هناك من يواجه هذه المشكلات الجديدة بمثل ما واجهها شيخ الإسلام، وقال في آخر بحثه: لئن تشابهت قلوب المبطلين ـ الغابرين والمحدثين ـ وتشابهت أفكارهم ومسالكهم بالباطل، فإن الحق هو

الذي يوجد موكب المؤمنين المستقدمين منهم والمستأخرين، وإذن فليقبل موكب ابن تيمية، ولينهض اليوم رجال بمثل ما نهض به من جهاد.

• وبعد ذلك قدم الأستاذ نذر الحفيظ الندوي بحث سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي باللغة الأردية.

• ثم جاء فضيلة الشيخ أبو العرفان الندوي الأستاذ بدار العلوم بندوة العلماء وقدم بحثه القيم باللغة الأردية تحت عنوان: (موقف ابن تيمية من المنطق والعلوم العقلية) ومن المعلوم أن شيخ الإسلام كسر طاغوت المنطق والفلسفة، ووجه إليها انتقادات شديدة، فشرح الباحث الفاضل موقف شيخ الإسلام من العلوم اليونانية، وذكر أن شيخ الإسلام أول شخصية أحس بأن هناك اختلافاً كبيراً في المعقولات اليونانية، وألف في الرد على هذه العلوم كتابه القيم: الرد على المنطقيين، وكتباً أخرى.

ولخص الباحث آراء شيخ الإسلام من كتاب الرد على المنطقيين، وشجع طلبة العلم على الاستفادة من علوم شيخ الإسلام في هذا الفن.

• وبعد ذلك قدم فضيلة الشيخ برهان الدين السنبهلي أستاذ التفسير بندوة العلماء بحثه بالأردية حول موضوع: (ابن تيمية وعلم التفسير) وذكر أقوال أهل العلم في إثبات إمامة شيخ الإسلام وتبحره في هذا الفن ثم ذكر نماذج من علوم شيخ الإسلام وآراءه في أصول التفسير، وأثبت إمامته وبراعته في هذا الفن، وذكر ضرورة تجميع تفاسير ابن تيمية في صورة أوسع.

• ثم قدم فضيلة الشيخ عين الباري العالياوي المدرس بالمدرسة العالية بكلكتا بحثه بالأردية تحت عنوان: (مآثر ابن تيمية التجديدية). وتوسع في بيان هذه المآثر التي تركت آثاراً بعيدة في إصلاح المجتمع الإسلامي، وأشار إلى أمور جيدة ونقاط مهمة من آثار دعوة شيخ الإسلام من إصلاح العقيدة، والرد على البدع والمبتدعة، وجهوده في القضاء على ظاهرة التحليل في النكاح والطلاق، وإصلاح طبقة العلماء والفقهاء وغيرها من الأمور.

• ثم قدم فضيلة الشيخ محمد الأعظمي الأستاذ بالمدرسة العالية

بمئوناته بهنجن بحثه القيم باللغة الأردية حول موضوع: (موقف ابن تيمية من وحدة الوجود). ولخص آراء شيخ الإسلام من الفتاوى في أسلوب سهل وبإيجاز جيد، وذكر جهود شيخ الإسلام في كشف حقيقة هذا المذهب الإلحادي، وتحذيره الأمة من شره وخبثه.

● وبعد ذلك قدم فضيلة الشيخ عبد الواحد بن عبد القدوس المدني بحثه باللغة الأردية تحت عنوان: (ابن تيمية ترجمان القرآن)، أوضح فيه مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير من خلال مؤلفاته، ومقدمة أصول التفسير، وبين أنه كان ينتهج منهج المحدثين في باب التفسير، وقد أبان شيخ الإسلام عن منهجه في الرسالة القيمة في أصول التفسير.

ثم أعلن عن انتهاء الجلسة.

ندوة المحاضرات العامة

أعلنت الجامعة السلفية مسبقاً عن عقد هذه الندوة العامة للمحاضرات باللغة الأردية بعد عشاء هذا اليوم لتعميم الدعوة السلفية وتذكير المسلمين، حيث كان من المنتظر أن يحضر المستمعون من أقطار الهند، فنظمت الجامعة هذه الندوة العامة، وبدأت الجلسة بتلاوة آيات من القرآن الكريم.

● وكان أول خطيب هذه الحلقة القارىء عبد الرشيد الذي ألقى كلمته الموجزة حول مبادىء الإسلام.

● ثم جاء فضيلة الشيخ أبو الحسن علي الندوي وألقى محاضرة قيمة ركز فيها على أهمية الدعوة الإسلامية وضرورة نشرها بين الأمم الكافرة بالحكمة والموعظة الحسنة، وذكر أن أحسن وسيلة وأنفعها لنشر الدعوة الإسلامية في الأمم هو التزام المسلمين أنفسهم بتعاليم الدين الحنيف، والتحلي بالأخلاق الإسلامية.

كما شجع المسلمين على الاستمرار في الدعوة إلى الله، وبين أهمية المحافظة على الشخصية الإسلامية.

● وكان بعد ذلك خطيب هذه الحلقة فضيلة الشيخ مختار أحمد الندوي الذي ألقى كلمته حول مبادىء الإسلام، وركز على محافظة المسلمين عليها.

● ثم جاء بعد ذلك فضيلة الدكتور محمد لقمان السّلفي الذي تكلم في موضوع بعثة الأنبياء والرسل وحول مقاصد النبوات والرسالات، وذكر تعاليم الأنبياء، وركز فضيلته على شرح عقيدة التوحيد، ورد على مظاهر البدع والشرك والوثنية.

● ثم كان خطاب فضيلة الشيخ عبد المتين بن الشيخ محمد الجوناكدهي الذي ألقى كلمته حول الإيمان والعمل الصالح بأسلوبه الخاص، وبين أهميتهما في الدين وأنهما مطلوبان من كل مؤمن.

ثم أعلن عن انتهاء الجلسة وذلك في الثانية عشر ليلاً، والحمد لله أولاً وآخراً.

الجلسة الثالثة

بدأت أعمال الندوة العلمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ومواقفه الخالدة في يومها الثاني في الساعة التاسعة صباح يوم الاثنين ٢٣/ نوفمبر ١٩٨٧م المصادف غرة ربيع الآخر ١٤٠٨هـ، بتلاوة آيات من الذكر الحكيم ونشيد الجامعة السلفية، ترأس الجلسة سعادة الدكتور محمد راشد الندوي الأستاذ بقسم اللغة العربية بجامعة علي كره الإسلامية.

وكان مقرر هذه الجلسة فضيلة الدكتور مقتدى حسن الأزهري وكيل الجامعة السلفية، وقبل بدء سلسلة قراءة البحوث، قدم مقرر الجلسة تعريفاً موجزاً عن الباحثين الذين اشتركوا في هذه الجلسة.

● وكان أول باحث في هذه الجلسة فضيلة الدكتور محمد لقمان السلفي الموجه الديني، ومدير قسم الترجمة بمكتب سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز بالرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والدعوة

والإفتاء والإرشاد بالرياض، وكان موضوعه: (ابن تيمية حامل راية الكتاب والسنة).

● وكان البحث الثاني في هذه الجلسة للدكتور اي. كي. أحمد كتي من جامعة كالي كت بكيرالا تحت عنوان: (موقف ابن تيمية من التصوف في ضوء شرحه لفتوح الغيب للشيخ عبد القادر الجيلاني). وبما أنه لم يتمكن من حضور الندوة قرأه الشيخ محيي الدين الكاتب باللغة العربية.

● وكان بعد ذلك بحث الدكتور محمد ياسين مظهر صديقي الأستاذ بجامعة علي كره الإسلامية تحت عنوان: (ابن تيمية ودراسة التاريخ الإسلامي). باللغة الأردية.

وضح فيه سعادة الدكتور نبوغ شيخ الإسلام في التاريخ وتمكنه العجيب من تحليل الأحداث والوقائع. ونقل عن شيخ الإسلام أنه يرى أن حكومات الأمويين والعباسيين يشتمل عليها اسم الخلافة، وإن لم تدخل في باب خلافة النبوة.

والجدير بالذكر أن الباحث الفاضل قد حصل على جائزة السيرة النبوية من حكومة باكستان الإسلامية من فخامة الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق.

● وكان البحث الرابع في هذه الجلسة حول موضوع: (مآثر ابن تيمية التجديدية). قدمه فضيلة الشيخ زبير أحمد القاسمي من الجامعة الرحمانية من خانقاه مونكير باللغة الأردية.

● ثم قدم بحث فضيلة الدكتور عبد الحفيظ السلفي أمين عام الجامعة الأحمدية السلفية بدربهنجه تحت عنوان: (ابن تيمية والرد على البدع والخرافات). قدمه باللغة الأردية الشيخ محمد أشفاق المدني المدرس بالجامعة الأحمدية.

● وقدم بعد ذلك سعادة الأستاذ محمود خليفة غانم سكرتير الملحق الثقافي بسفارة جمهورية مصر بدلهي جزءاً من قصيدته الرائعة في الثناء على شيخ الإسلام.

● ثم قدم فضيلة الشيخ عبد المتين منظر البستوي أمين عام مدرسة شمس العلوم بسمرا بمديرية بستى بحثه باللغة الأردية تحت عنوان: (العناصر التي كونت شخصية ابن تيمية).

● وكان بعد ذلك بحث الشيخ أنيس الرحمن القاسمي حول موضوع (شيخ الإسلام ابن تيمية وانتقاد الحديث) باللغة العربية.

● ثم قدم فضيلة الدكتور محسن العثماني من جامعة جواهرلال نهرو بدلهي بحثه باللغة العربية وعنوانه: (العوامل التي كونت شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية).

ثم أعلن عن انتهاء هذه الجلسة، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

الجلسة الرابعة

بدأت أعمال هذه الجلسة في مساء يوم الاثنين عصراً بتلاوة آي من الذكر الحكيم تحت رئاسة فضيلة الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي الأستاذ بقسم اللغة العربية بجامعة علي كره الإسلامية.

● وكان أول بحث في هذه الجلسة تحت عنوان: (الإمام ابن تيمية ونهضة الفقه الإسلامي) قدمه الدكتور ظفر الإسلام الأستاذ بالقسم الديني بجامعة علي كره الإسلامية باللغة الأردية.

● ثم قدم الشيخ أشهد رفيق الندوي عضو إدارة علوم القرآن بعلي كره بحثه باللغة الأردية في موضوع: (مقارنة بين منهج ابن تيمية ومنهج الفراهي في التفسير).

● وكان بعد ذلك بحث الشيخ عبد السلام الرحماني وكيل جامعة سراج العلوم ببوندهيار تحت عنوان: (ابن تيمية وموقفه من الحسين ويزيد) باللغة الأردية.

● ثم قدم الدكتور عبد الباري الأستاذ بالقسم العربي بجامعة علي كره

الإسلامية بحثه القيم باللغة الأردية وعنوانه: (نظريات شيخ الإسلام الاجتماعية في ضوء كتاب اقتضاء الصراط المستقيم).

● وكان البحث الخامس في هذه الجلسة للدكتور كفيل أحمد القاسمي الأستاذ بالقسم العربي بجامعة علي كره الإسلامية، وعنوانه: (ابن تيمية في نظر المقريزي).

● ثم جاء الشيخ عبد العليم ماهر السمراوي المدرس بدار التوحيد بمديرية بستى. وقدم بحثه باللغة الأردية تحت عنوان: (شيخ الإسلام ابن تيمية ومعارضوه).

● ثم جاء سعادة الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي رئيس هذه الجلسة وقرأ بحثه: (ابن تيمية كمصدر عند ابن كثير) باللغة العربية.

● ثم قدم الشيخ نعيم الرحماني بحثه باللغة الأردية وموضوعه: (ابن تيمية والفقه الإسلامي).

● وكان البحث التاسع في هذه الجلسة للشيخ حبيب الرحمن الأعظمي العمري عضو إدارة التحقيق الإسلامي بجامعة دار السلام بعمر آباد بمدراس، وموضوعه: (دروس للدعاة والعلماء في حياة ابن تيمية وأعماله التجديدية) باللغة الأردية.

وحيث لم يتمكن من حضور الندوة، فقد قرأ الدكتور مقتدى حسن الأزهري ملخص البحث.

● ثم جاء الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي من الجامعة السلفية، وقد سبق أنه درس هذا الموضوع بتوسع في رسالته للدكتوراه التي قدمها إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ونظراً إلى ضيق الوقت أشار فضيلته إلى مباحث رسالته وخلاصة ما جاء فيه من إفادات علمية ونتائج من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية.

وبعد الرد على بعض الأسئلة الموجهة أعلن عن انتهاء هذه الجلسة، وبالله التوفيق.

الجلسة الخامسة

المنعقدة في صباح يوم الثلاثاء، ترأس هذه الجلسة فضيلة الأستاذ عبد العليم بن عبد العظيم البستوي ممثل رابطة العالم الإسلامي في هذه الندوة.

وبدأت الجلسة بتلاوة آيات من الذكر الحكيم ثم قدم نشيد الجامعة.

● وكان البحث الأول لهذه الجلسة: (ابن تيمية والتصوف) قدمه فضيلة الشيخ محمد أحمد الأثري المدرس بدار الحديث الأثرية بمئو.

● ثم قدم سعادة الدكتور محمد راشد الندوي رئيس قسم اللغة العربية بجامعة علي كره الإسلامية بحثه القيم باللغة الأردية حول موضوع: (أثر ابن تيمية في المفكرين العرب المعاصرين).

● ثم جاء فضيلة الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأزهري وقدم بحثه القيم باللغة العربية وكان موضوعه: (شيخ الإسلام ابن تيمية ومعارضوه).

● ثم جاء فضيلة الأستاذ المحقق الدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي وقدم بحثه القيم حول موضوع: (شيخ الإسلام ابن تيمية ومنهجه في الدعوة الإسلامية) باللغة العربية مع شرحه وبيانه باللغة الأردية في أسلوبه العلمي المتزن الرفيع.

● وقدم بعد ذلك بحث فضيلة الشيخ عبد الرشيد طاهري الكشميري حول موضوع: (ابن تيمية في ضوء منهاج السنة النبوية).

قدمه الشيخ غلام محمد بت الكشميري.

● ثم قدم فضيلة الشيخ أبو العاص الوحيدي المدرس بجامعة سراج العلوم ببوندهيار بحثه باللغة الأردية تحت عنوان: (ابن تيمية وعلم المنطق).

● وقدم بعد ذلك بحث الدكتور محمد سيد أحمد المسير أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر بالقاهرة، وموضوعه: (البشائر المحمدية في دراسات ابن تيمية) أرسل الباحث كلمته، وقرأ ملخصه الدكتور عبد العلي الأعظمي.

● وكان بعد ذلك بحث آخر حول موضوع: (دروس وعبر من سيرة ابن تيمية) قدمه باللغة الأردية فضيلة الشيخ عبد الله بت من جمعية أهل الحديث من كشمير.

● ثم جاء الشيخ عبد الله بن عبد التواب المدني النيبالي وقدم ملخصاً باللغة الأردية لمقال فضيلة الشيخ الدكتور صالح الفوزان الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية.

● كما قام الشيخ رفيع أحمد عاقل البستوي مبعوث رابطة العالم الإسلامي في جزر فيجي، وألقى كلمة موجزة حول إمكانية الاستفادة من علوم شيخ الإسلام في القضاء على ظاهرة الشعوذة والتصوف.

ثم أعلن عن انتهاء هذه الجلسة وبالله التوفيق.

الجلسة السادسة والأخيرة

كانت هذه الجلسة الختامية لأعمال الندوة، عقدت يوم الثلاثاء عصراً تحت رئاسة الدكتور عبد الباري أستاذ قسم اللغة العربية بجامعة علي كره الإسلامية.

● وكان أول بحث قدم في هذه الجلسة تحت عنوان: (جهود ابن تيمية الإصلاحية والتجديدية) قدمه الدكتور أبو الحسن أستاذ قسم اللغة الفارسية بجامعة الهندوكية ببنارس باللغة الأردية.

● ثم قرأ الدكتور مقتدى حسن الأزهري بحث الأستاذ محمد يوسف كوكن العمري مؤلف (حياة ابن تيمية)، الذي أرسل بحثه إلى الندوة وكان موضوعه: (جهود ابن تيمية الإصلاحية التجديدية).

● وكان آخر بحث في هذه الجلسة للدكتور محمد هزاع الغامدي موظف مطار الظهران الدولي بالمملكة العربية السعودية. تحت عنوان: (موقف ابن تيمية من الروافض).

وكان هذا آخر بحث قدم إلى الندوة.

ثم بدأ ممثلو وفود الجامعات والمدارس يبدون آراءهم حول الندوة العلمية فقام الشيخ أبو العاص الوحيدي وأثنى على جهود الجامعة السلفية المكثفة في مجالات التدريس والتعليم والإفتاء والدعوة والإرشاد والتصنيف والتأليف والترجمة، وألقى الضوء على جهود خريجي الجامعة خارج الهند وداخلها، وذكر أن هذا اللقاء الإسلامي يترك آثاراً طيبة في توطئة العلاقات الأخوية الدينية بين المدارس والجامعات والمشتغلين بالعلوم والفنون.

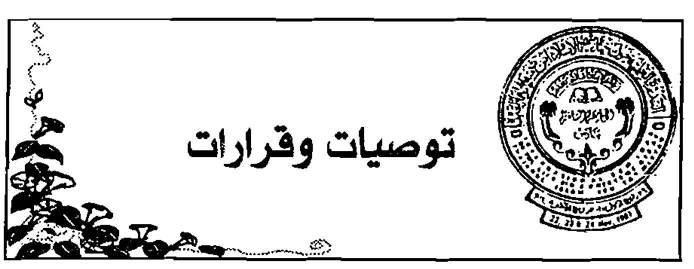
ثم قام فضيلة الدكتور عبد الباري أستاذ القسم الديني بجامعة علي كره الإسلامية وألقى الضوء على أهمية هذه الندوات العلمية لحل مشاكل المجتمع، وأثنى على جهود الجامعة السلفية في هذا المجال.

ثم قام سعادة الدكتور ياسين مظهر الصديقي أستاذ قسم اللغة العربية بجامعة علي كره الإسلامية، وأبدى سروره وإعجابه بهذه الندوة، والندوات الأخرى التي نظمتها الجامعة السلفية سابقاً، وأشاد بذكر جهود الباحثين الذين ساهموا في هذه الندوة ببحوثهم القيمة، وذكر أن هذه الندوة ستنير الطريق أمام الباحثين الإسلاميين، ويستفيد من بحوثها طلبة العلم في حياتهم العلمية والعملية.

ثم قدم الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأزهري تقريراً موجزاً عن أعمال الندوة وجلساتها في خلال ثلاثة أيام وذكر أسماء الباحثين وعناوين بحوثهم، فذكر أنه قد وصل إلى لجنة الندوة (٤٦) بحثاً، كتب منها (٢٦) بحثاً باللغة الأردية، و(١٣) بحثاً باللغة العربية، وكان فيها سبعة بحوث أرسلها أصحابها ولم يتمكنوا من الحضور لسبب أو آخر.

وبمناسبة إحداث الإيرانيين فتنة في الحرم المكي في العام الماضي، جرى الحديث من أول الجلسة حول هذه الفتنة وقد رأت اللجنة توضيحاً أكثر في المسألة فقام فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري وكشف عن حقيقة هذه الفتنة وأصحابها.

● ثم قرئت قرارات الندوة التي أعدتها اللجنة المنبثقة عن الندوة وفيما يلي نص القرارات والتوصيات:



(أ) البيان الختامي للندوة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فبدعوة ومبادرة كريمة من الجامعة السلفية ببنارس بالهند عقدت في رحاب الجامعة في الفترة من ٢٢ إلى ٢٤ نوفمبر ١٩٨٧م الموافق ٢٩ ربيع الأول إلى ٢ من ربيع الآخر ١٤٠٨هـ الندوة العالمية عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ومواقفه الخالدة.

وكانت الندوة تضم حشداً هائلاً من المستمعين بلغ عدة آلاف كما تضم عدداً كبيراً يزيد عن مائة عالم ومفكر من داخل الهند وخارجها، وقد ساد الندوة جو من التآلف الإسلامي وروح الأخوة الإسلامية العظيمة.

وانقسمت أعمال الندوة بعد حفل الافتتاح الحاشد الذي حضره ممثلون رسميون وعدد كبير من مدراء الجامعات والمعاهد الإسلامية إلى محاضرات متخصصة في موضوع الندوة، وإلى محاضرات عامة تعالج الواقع الإسلامي والتحديات الإسلامية المعاصرة، وبعد أن قدمت الأبحاث وألقيت المحاضرات العامة والمتخصصة وانبثقت من خلال هذه وتلك آراء ومرئيات، شكل أعضاء الندوة لجنة لتلقي التوصيات وصياغتها تتكون من الأساتذة الآتية أسماؤهم:

١ ـ الدكتور عبد الحليم عويس الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض رئيساً.

٢ ـ الشيخ أنيس الرحمن الأعظمي شيخ الجامعة المحمدية بمنصورة ماليغاؤن، (الهند) مقرراً.

٣ ـ الدكتور ياسين مظهر الصديقي الأستاذ بجامعة علي كره الإسلامية، (الهند) عضواً.

٤ ـ الشيخ صفي الرحمن المباركفوري المدرس بالجامعة السلفية بنارس، (الهند) عضواً.

٥ ـ الدكتور محمد راشد الندوي رئيس القسم العربي بجامعة علي كره الإسلامية، (الهند) عضواً.

٦ ـ الدكتور محسن العثماني الأستاذ المساعد بجامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي، (الهند) عضواً.

٧ ـ الشيخ سعيد الأعظمي رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي ندوة العلماء لكناؤ، (الهند) عضواً.

٨ ـ الشيخ نور عالم الأميني رئيس تحرير مجلة الداعي بدار العلوم ديوبند، (الهند) عضواً.

٩ ـ الشيخ محفوظ الرحمن الفيضي مساعد شيخ الجامعة الإسلامية فيض عام مئو، (الهند) عضواً.

١٠ ـ الشيخ حبيب الرحمن النعماني الأمين العام للجامعة الإسلامية مفتاح العلوم مئو، (الهند) عضواً.

وترى الندوة اعتماداً على ما جاء في أعمال الندوة وبناء على إلحاح الحاضرين بالإجماع أن هناك أمراً خطيراً لا يمكن تجاهله في أي اجتماع إسلامي في هذه الظروف، وهذا الأمر الخطير يتعلق بالفتنة الخمينية التي تشبه أن تكون غارة جديدة على العالم الإسلامي تتواكب مع الغارات

الصليبية والصهيونية وتصرف المسلمين عن توجيه طاقاتهم في معالجة قضاياهم الملحة. وعلى رأسها تحرير القدس وفلسطين وأفغانستان.

ولهذا يجمع أعضاء المؤتمر على أن تعظيم مكة المكرمة والأشهر الحرم وشعائر الحج من شعب التوحيد الخالص، ومن دلائل الإيمان بالله وكتابه ورسوله ﷺ، ومن علامات تقوى القلوب.

وإن المسلمين الأولين والآخرين أجمعوا على ذلك وتواصوا به، ولا يشذ عنهم إلا هالك، وإن الفتنة الخمينية في الحرم والإلحاد فيه بظلم منذ قامت الثورة الإيرانية حتى بلغ الأمر ذروته في حج عام ١٤٠٧هـ إنما هو فجور لا يتلبس به قوم يعظمون ما عظم الله ورسوله ويتبعون سبيل المؤمنين. وأن دفع الفتنة عن الحرم إنما هو أمر منوط ممن ولاهم الله أمر الحرم من المسلمين. وقد قيض الله آل سعود بمشيئته وفضله للدفاع عن الحرمين الشريفين وحمايتهما وخدمتهما، وقد بذلوا الغالي والنفيس في هذه المهمة الشريفة واعتبروها تكليفاً وتشريفاً من الله لهم، تحقق لقاصدي بيت الله الحرام في عهدهم من الراحة والأمن وتوفير أفضل السبل ما يعتبر صفحة مشرقة في تاريخ المسلمين.

ولهذه الاعتبارات كلها تنوه الندوة بالجهود الجليلة التي تبذلها المملكة العربية السعودية عبر مسيرتها كلها في خدمة الحرمين الشريفين ورعاية حجاج بيت الله الحرام قياماً بواجبها ووفاءً بمسؤولياتها تجاه الأمة الإسلامية.

وتذكر الندوة بالتقدير وهي تعالج موضوع ابن تيمية والتحديات التي واجهها من الرافضة في عصره أن أمن الحج لم يتحقق بصورته الكاملة بعد العصور الإسلامية الزاهرة إلا في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله والعهود التي تلت مما يدل على توفيق الله تعالى للمملكة العربية السعودية ويؤكد قدرتها وجدارتها لتحمل هذه المسئولية.

وتبدي الندوة تضامنها مع المملكة العربية السعودية في موقفها الشرعي والأمني تجاه كل ما من شأنه أن يضر بحرمة الأماكن المقدسة وسلامة الحجاج والمعتمرين، وتطالب الندوة بمنع المظاهرات والمسيرات والصور

والهتافات وحمل اللافتات أياً كان شكلها منعاً باتاً في الحج ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ كما تطالب الندوة بتبصير المسلمين جميعاً بالمخططات التي تستهدف تمزيقهم عرقياً وطائفياً، وبكشف أئمة الضلال الذين يساعدون أعداء الأمة على تنفيذ مخططاتهم، وتطالب الندوة كذلك بضرورة قيام علماء الإسلام ودعاته بتأليف الكتب والرسائل ونشر المقالات وإلقاء المحاضرات التي تتناول حرمة الحرمين الشريفين وتبصير المسلمين بمسئولياتهم تجاه مقدساتهم الإسلامية.

(ب) التوصيات والقرارات:

وفي ضوء كل هذا تقدم الندوة التوصيات والقرارات التالية:

١ ـ توصي الندوة بإنشاء أقسام خاصة في بعض الجامعات الإسلامية لإعداد البحوث والدراسات حول حياة ابن تيمية وأعماله ومواقفه.

٢ ـ توصي الندوة بترجمة مؤلفات ابن تيمية إلى اللغات الهندية ولا سيما الأردية لتعميم النفع بها.

٣ ـ تخصيص المنح الدراسية لعدد من الطلاب لإجراء البحوث حول شخصية ابن تيمية وفكره ومواقفه.

٤ ـ توصي الندوة بعقد مزيد من المؤتمرات والندوات في مناسبات مختلفة وأماكن متعددة لدراسة أفكار ابن تيمية ونشرها.

٥ ـ كما توصي الندوة بطبع جميع مؤلفاته بعد تحقيقها وتصحيحها بدقة كاملة.

٦ ـ إعداد كتب دراسية ومنهجية تعرف بأفكار ابن تيمية الإصلاحية وتقدم حياته ومواقفه نموذجاً للأجيال الجديدة.

٧ ـ تأليف كتب عن الملل والنحل التي قاومها ابن تيمية في عصره وعالجها في ذكره، وعلى رأس هذه الكتب ما يتصل بتعاون الرافضة مع التتار.

٨ ـ نشر فتاوى ابن تيمية على أساس القضايا الموضوعية التي تعالجها، فتنشر كل قضية في كتاب مستقل كالصلاة والجهاد والنكاح مع شيء من الدراسة والتحليل وحذف المكرر، إبرازاً لفقه ابن تيمية، وتيسيراً لتناوله على جمهور المسلمين.

٩ ـ وتوصي الندوة بإنشاء أكاديمية يطلق عليها (أكاديمية شيخ الإسلام ابن تيمية) تتخصص في دراسة أعماله وتحقيقها ونشرها. ويكون مقرها الجامعة السلفية ببنارس.

١٠ ـ وتوصي الندوة بعقد مسابقات وتخصيص جوائز حول ابن تيمية وفكره ومواقفه ويا حبذا تخصيص جائزة سنوية لأفضل عمل يصدر حول شخصية ابن تيمية أو فكره وموقفه.

١١ ـ الندوة إذ تشيد بالجهود التي بذلتها بعض المؤسسات العلمية لإخراج فكر ابن تيمية وعلى رأسها جهود جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، توصي كذلك بمتابعة هذه الجهود وبالتنافس في هذا المجال الكريم.

١٢ ـ الندوة وهي إذ تبرىء الإمام ابن تيمية مما زور عليه، تدعو إلى الوقوف بحزم ضد محاولات تشويه التاريخ الإسلامي أو النيل من الصحابة والتابعين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وأخيراً تقرر الندوة انطلاقاً من البحوث التي قدمت والمناقشات التي دارت والمحاضرات التي ألقيت إدانة الفتنة الخمينية في الحرم وإدانة أية محاولة لإفساد فريضة الحج وتمزيق الوحدة الإسلامية وإذابة الأخوة الإسلامية في نعرات طائفية أو سياسية. حتى لا يعيد التاريخ نفسه في حركات قرمطية جديدة، وتعتبر الندوة البيان الختامي الوارد في الفقرة (ألف) السابقة قراراً من قراراتها وجزءاً لا ينفصل عن الفقرة (ب) التي تضمنت التوصيات.

إن الندوة إذ تختتم توصياتها وقراراتها، لتنتهز هذه الفرصة لتناشد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله أن يقف بكل

الوسائل ضد الفتن الطائفية وأن يتخذ من الإجراءات ما يكفل قمع الفتنة في مهدها حتى يبقى الحج خالصاً للمسلمين محققاً لمعاني الأخوة الإسلامية، والندوة تؤيد كل التأييد ما قامت به المملكة العربية السعودية الرشيدة وما يمكن أن تقوم به لتحقيق هذا الهدف الإسلامي العظيم. »

ونسأل الله جمع كلمة المسلمين على كتابه وسنة رسوله ﷺ، ورد كيد المبطلين الذين فرقوا دينهم واتخذوه هزواً ولعباً. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٥٣). صدق الله العظيم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

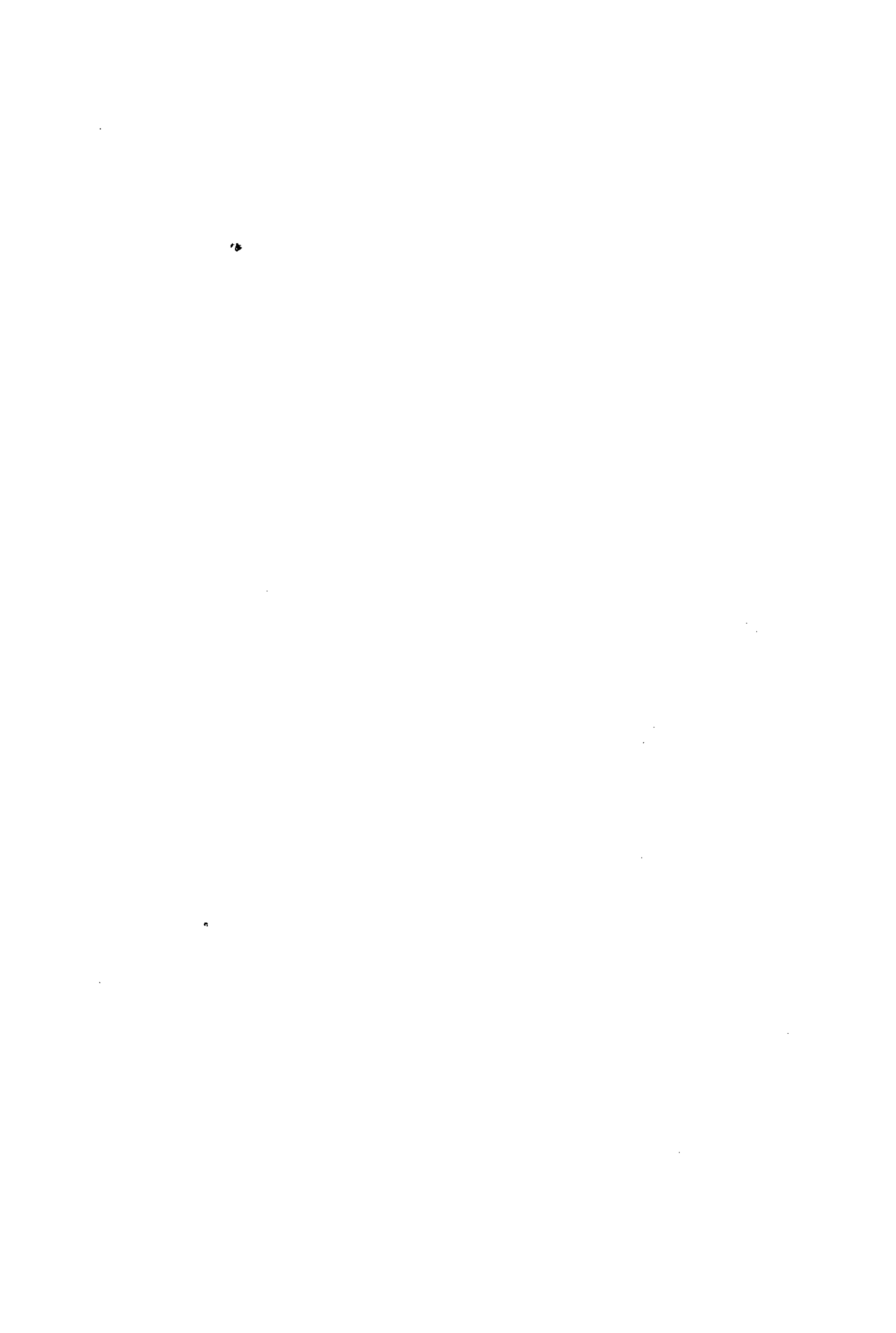
ثم قام الدكتور مقتدى حسن الأزهري وكيل الجامعة السلفية، وأشاد بموقف القائمين على الجامعة السلفية، وعلى رأسهم سماحة الشيخ المحدث أبو الحسن عبيد الله الرحماني رئيس الجامعة، وفضيلة الشيخ عبد الوحيد عبد الحق أمين عام الجامعة، حيث تحملوا كل المسؤوليات وقدموا كل دعم وكل تشجيع لإقامة الندوة، وبذلوا عنايتهم البالغة لإنجاحها في كل خطوة ولحظة.

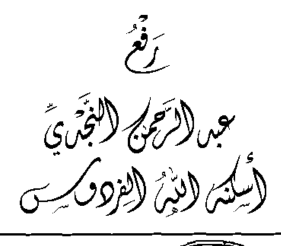
ثم تقدم بالشكر الجزيل الوافر إلى صاحب المعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وإلى سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي أمين عام ندوة العلماء بلكنؤ، وإلى صاحب المعالي الأستاذ ضياء الرحمن الأنصاري وزير الدولة بالحكومة الهندية، وكذلك إلى أصحاب الفضيلة العلماء والباحثين الذين ساهموا ببحوثهم وجهودهم في نجاح الندوة، وإلى كل من بذل جهداً في تنظيم هذا الملتقى الطيب وتوفير الجو الملائم المريح للضيوف والمستمعين، وأخيراً تضرع إلى المولى عز وجل أن يجعل هذا اللقاء مباركاً نافعاً، ويمهد به السبيل لفهم ابن تيمية وأعماله ومواقفه، ويوفق للانتفاع بالدراسات التي أجريت حول ابن تيمية وبالمؤلفات التي تركها هذا الإمام الجليل في موضوعات مختلفة، ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه سميع

مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(إعداد/ د. الفريوائي)









إلى شيخ الإسلام ابن تيمية

بقلم: محمود خليفة غانم
عضو اتحاد الكتاب بجمهورية مصر العربية
ملحق المكتب الثقافي بسفارتها
بالهند ــ نيودلهي

من القصيدة التي ألقاها الشاعر في اليوم الأول للندوة العالمية حول شيخ الإسلام ابن تيمية: حياته العلمية ومواقفه الخالدة، والتي عقدتها الجامعة السلفية ببنارس من ٢٢ إلى ٢٤ نوفمبر ١٩٨٧م.

هرعت لتلبية الدعوة ... وجئت أشارك في الندوة
وفي رحلة العمر نحو العلا ... ضربت بدولتكم خيمتي
إلى الهند جئت وفي جعبتي ... حنين البذور إلى التربة
وفي مصر كنت لها بلبلا ... أغرد مستلهماً أيكتي
وياكم شدوت وأصغت إلى ... غنائي البلابل من دوحتي
ومن نيل مصر ارتويت وفي ... ثراها الخصيب نمت بذرتي
وشعري لساني وفكري له ... ينابيع غذت بها جعبتي
فؤادي على زورقي سابح ... بنهر الحياة إلى ميعتي
وعقلي بآفاتها طائر ... جناحاه قاما بحريتي
وسفني تجوب البحار التي ... تركت بآفاقها بصمتي
وأهوى من الفكر رحلاته ... وكم رحلة لي وكم جولة

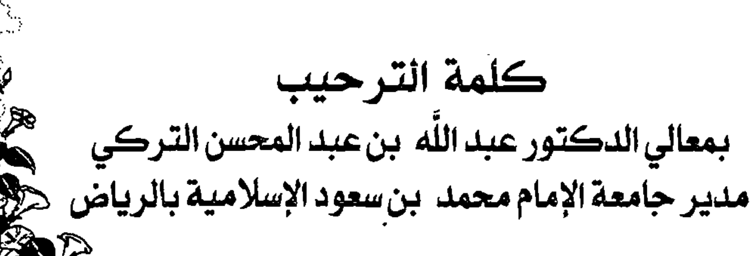
وكم علم بز في فنه وكم شاعر كان في صحبتي
وكم من فقيه وكم عالم وكم من أديب غزوا فكرتي
شرفت بمن جمعتني بهم خلايا العقول على ساحتي
ومن بينهم من به نلتقي وإن غاب جسماً عن الحفلة
أقدم نفسي لكم شاعراً فهل تقبلون له مدحتي؟
سمعت به فسعيت إلى فقيه، وقوة شخصية
لأنا افتقدنا فقيهاً به تجدد آراؤه أمتي
وقفت على منبر مثلما وقفت أغني على ربوتي
سألت التقى أما جئتنا لتحيي الموات من السنة
وهذي نصوص بلا منقذ لواها ركام من الغفلة
وفينا الكتاب غريب القرى شكانا، وعانى من الغربة
ونحن انتسبنا لدين الهدى وتهنا بمعنى الحنيفية
وغصنا وضعنا على دربنا تشتت كل على فرقة
فإن كان ديننا واحداً فكيف اجتمعنا على الفرقة؟
أما من ولي أما من نبي أما من رسول لذي المحنة؟
إلهي سألتك فالطف بنا فإني أعترتني لذا دهشتي
أمعجزة منك ترقى بنا تشد الرؤوس من الهوة؟
أحقاً غدونا بإسلامنا خياراً مع الخير من أمة؟
وتاريخ أمتنا شاهد بأنا مرضنا من الفتنة!
وعصر الصحابة فيه القذى على عهد (عثمان) بالنكبة
وأمر الخلافة فينا هوى إلى اليوم تمشي بقومية
وما زال إسلامنا حائراً على سنة أو على شيعة
وبين المذاهب صرنا معاً وكل تعصب للفكرة
وهد التعصب طاقاتنا وبدد مستودع الثروة
كأنا قبائل عدنا إلى قتال سجال بلا هدأة

وباسم التحرير صرنا معاً بلاداً فرادى بلا عصبة
يفرقنا حبنا للحياة وحب التسلط والنعرة
وصرنا مطامع أعدائنا بلا منعة وبلا هيبة
تداعت علينا القوى كلها تداعي أكول على القصعة
وما قلة نحن في جمعنا ولكن غثاء على كثرة
ولو صارعت قوة نفسها تصير القوى دونما قوة
لماذا ابتلينا بأعدائنا ومن بيننا قاصري النظرة
فيأجوج من كل فج أتت ومأجوج في نسلها هبت
بزي جديد وأسماء شتى لتقتسما الكون بالسلطة
وباسم التحرر أغلالنا لنقتسم الظلم بالقسمة
وباسم السياسة خرنا قوى لنحلم في الصحو بالرحمة
قراراتنا توصيات بلا ضمان يقيها من السقطة
وأصواتنا لم تجد من صدى وكم من محافل دولية
يذكرني عصرنا بالشبيه له، وهو عصر (ابن تيمية)
وإن ماج عصر بأفكاره فلا بد للعلم من هبة
مرايا العقول له صورة وفيها دليل صدى الكلمة
ففي كل عصر رجال زكت وكم رجل قيس بالأمة
وفي الله جاهد لم يبتئس فأبلى، ولم يخش من لومة
هنا عالم قف بنا واتئد هنا من تمسك بالعروة
ورام النبي مكان الهدى ولا بد من حامل الراية
تأسى به وبأصحابه ولا بد للحق من شدة
وأعلن حرباً على ما سوى شريعة أحمد بالحجة
تصدى لمن خالفوا رأيه ومن حاربوا الدين بالبدعة
تقصى الأئمة في كتبهم بمنهاجه الحر في النظرة
وساح بتاريخ أسلافه وصاحبهم واثق الخطوة

وأصـــــدر آراءه لا يـــــنـــــي عـــن الـــحـــق آراؤه عـــزت
ألا حـي يـا شـعـر مـن كـرمـوا وأصـغـوا إلـى الـقـلـب فـي الـخـفـقـة
وطـوف بـعـلـم (ابـن تـيـمـيـة) وعـرج عـلـى نـفـسـه الـحـلـوة







كلمة الترحيب

بمعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، أرسل الرسل مبشرين ومنذرين وختمهم بمحمد ﷺ أفضل الأولين والآخرين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أُرسل إلى الناس أجمعين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فيسعدني كثيراً أن أرحب في هذه المناسبة العظيمة المباركة، إن شاء الله تعالى، بمعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، حفظه الله تعالى، وبالعلماء والباحثين الأفاضل الذين شرفوا هذه الندوة العلمية ممثلين عن المدارس الإسلامية والجامعات الحكومية، والمؤسسات التعليمية والثقافية بالهند وخارجها.

أرحب بجميع هؤلاء الضيوف الكرام في هذه الندوة العلمية، أصالة عن نفسي، ونيابة عن رئيس الجامعة السلفية ونائبيه وأمينها العام وأمين صندوقها وجميع أعضاء المجلس الإداري والمدرسين والطلاب.

وأتقدم إليهم بالشكر الجزيل الوافر على تكرمهم بقبول دعوتنا المتواضعة وعلى تشريفهم هذه الندوة بقدومهم الميمون.

ضيوفنا الأماثل! إن هذا الملتقى العظيم تأتي أهميته بحيث أنه يجسد

مبدأ الأخوة الإسلامية الذي حقق عبر التاريخ أهدافاً كبيرة، وأسدى إلى البشرية أيادي بيضاء، وربط بين أبناء بني آدم بالرباط الأخوي الوثيق مع تباعد الأوطان وتباين الألوان، وهذا المبدأ العظيم الذي نادى به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً، هو سر نجاح المسلمين ووسيلة تغلبهم على الصعوبات والموبقات. وتأتي أهميته بحيث أنه يضع أمام العلماء والباحثين موضوعاً للبحث والمناقشة يمتاز بالحيوية والخصوبة، ويضمن تناوله بالإخلاص والأمانة الظفر بحلول المشكلات التي تواجه الأمة الإسلامية في العصر الراهن. وتأتي أهميته بحيث أنه يتمتع برعايته من العلماء والمسؤولين الكبار الذين يسهرون لمصالح الأمة، ويضحون في سبيل نهضتها ورقيها بكل ما يملكون من الغالي والرخيص.

ضيوفنا الكرام: إن الجامعة السلفية التي نظمت هذه الندوة العلمية، مؤسسة تعليمية إسلامية تعنى بتدريس علوم الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح، وبتعميم اللغة العربية في ربوع الهند، وبنشر الدعوة الحقة بين المسلمين وغيرهم، ولست أرى حاجة للإطالة في سبيل إلقاء الضوء على نشاطاتها المتنوعة وإنجازاتها العديدة، ولكن الجدير بالعناية أن هذه الجامعة تحاول أن تكون نقطة الاتصال بين المؤسسات التعليمية السلفية في البلاد وبين الجامعات الإسلامية العربية في العالم الإسلامي، وخاصة في المملكة العربية السعودية التي نشطت في هذا العصر نشاطاً قوياً ملموساً، وركزت عنايتها حول دراسات الكتاب والسنة، ونظمت شئون البحث والدراسة على مستوى عالٍ، واهتمت بنشر التراث الإسلامي بثوب جديد اهتماماً واسعاً، وفتحت أبوابها لأبناء المسلمين في العالم، إن هذا الموقف العظيم له دوره في تشجيع البحوث والدراسات الإسلامية وفي احتضان الطلاب الذين يرغبون في تزويد أنفسهم بالعلوم والمعارف التي تصلح أن تساهم في بناء المجتمع الإسلامي السعيد.

وتفضل هذه الجامعة أن تكون تربية الناشئة الإسلامية مقدمة على النواحي الأخرى، وأن تكون أصول العقيدة الإسلامية هي المرحلة الأولى التي تؤسس عليها حياتها الفكرية. وأملنا قوي في أن تبقى هذه الجامعة

مركزاً للتعليم والتربية، ومنطلقاً للدعاة والمرشدين، ونقطة اتصال بين الحركات الإسلامية العالمية التي تعمل لصالح الإسلام والمسلمين، وصرحاً منيعاً لعلوم الكتاب والسنة والعقيدة السلفية التي أهملت في هذه البلاد طويلاً. واعترافاً بالجميل لا بد هنا من التنويه بموقف المملكة العربية السعودية من هذه الجامعة، فإن تشجيعها لها قد استمر منذ التأسيس إلى الآن، جزى الله القائمين عليها خير الجزاء!

ضيوفنا الأماجد: إن البلاد الهندية تشبه القارة، يزيد فيها عدد المسلمين على مائة مليون، وقد توطنوا هذه البقاع من القرن الأول الهجري، ومن هنا كان طبيعياً أن يبذلوا جهودهم للحفاظ على دينهم وثقافتهم وحضارتهم في هذه البلاد، وفي سبيل ذلك أنشأوا المدارس، وألفوا الكتب، وبلغوا الدعوة، وهذه الوسائل قامت بدورها، فظهرت ثمارها ونجح المسلمون في الحفاظ على كيانهم الديني والثقافي إلى هذا العصر، وسوف ينجحون في العصور التالية إن شاء الله تعالى.

ومدارس المسلمين في هذه البلاد تشبه الحصون المنيعة للدين الإسلامي، فقد نجحت بعون الله تعالى وتوفيقه في صد أخطر الهجمات على الدين الإسلامي، هجمات الصليبية الحاقدة والشيوعية الملحدة والفرق الضالة والمضلة الأخرى. وهذه المدارس تعد حقاً روافد للعمل الإسلامي في البلاد فإنها هي التي تغذي الحركات الإسلامية وتعد الدعاة والكتاب الذين يتحملون مسؤولية نشر الدعوة الحقة والدفاع عن الإسلام.

وعدد هذه المدارس مع اختلاف مستواها كبير جداً، فقد بلغ عدد المدارس التابعة لجمعية أهل الحديث وحدها أكثر من ألف مدرسة، ما بين صغيرة وكبيرة، وليست الجماعات الأخرى أقل حظاً من الجمعية في هذا المجال.

ولا شك أن هذه الناحية في تاريخ المسلمين مشرقة حقاً، ولكن الناظر إلى واقعهم المعاصر يتأسف جداً إذ يرى أن أغلبيتهم في البلاد وقعت فريسة للشرك والبدع، وأنهم ابتعدوا عن الإسلام كل الابتعاد، وانقسموا

شيعاً وأحزاباً تحقيقاً للمصالح واتباعاً للأهواء. إن واقعهم المرير يصور لنا ابتعادهم عن الشريعة الإسلامية، وركونهم إلى أعمال الشرك والبدع، وتشتتهم من الناحية الفكرية والتعليمية، وتحاربهم فيما بينهم على أتفه الأسباب، فكلنا نرى أن المسلمين لا يزالون يحتكمُون إلى القوانين الوضعية، ويشك غيرهم في صلاحية الشريعة الإسلامية، ويطالب بإلغاء هذا الدستور الإلٰهي العظيم، وإبعاده عن الحياة كلية ويجاريه بعض المسلمين أيضاً، ولا تزال الرحال تشد إلى القبور والأضرحة، ويتم الاحتفال بمواليد الأولياء والصلحاء ووفياتهم، ويستغيث المسلمون بالأموات معرضين عن التوجيه الرباني الكريم الذي يرشد جميع المسلمين فيقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٨٦)، وحيث أنهم قد ضلوا سواء السبيل، وتخلوا عن منبع الهداية الربانية، فقد وجدت الاتجاهات المنحرفة والأفكار الضالة سبيلها إلى صفوفهم، وقضت على ما في نفوسهم من تقوى الله تعالى واتباع أحكام شريعته حتى ذهبت ريحهم، وهانوا على أعدائهم، وتصوير المسلمين هذا الذي عرضناه ليس من فنون الخيال أو تحبير القلم واختراع الفكر، بل حالة المسلمين في البلاد الهندية وحدها تصدق قولنا هذا، بل تعرض أكثر مما قلنا وصورنا، وهذا الوضع يفرض على دعاة المسلمين وقادتهم أن يفكروا في طرق الخلاص، ويتخذوا الوسائل التي تساعد في سبيل العودة بالمسلمين إلى مصادر الدين الأصلية وتعويدهم على الاحتكام إلى الكتاب والسنة في شئون الحياة الصغيرة والكبيرة. وفي تاريخ المسلمين الطويل الحافل شخصيات كبيرة عُرفت بالإصلاح والتجديد، ومآثرهم تساعد دون شك في ترشيد الجهود التي تبذل في سبيل النهوض بالمسلمين. ومن هذه الشخصيات الكبيرة: شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، إن مآثره الخالدة غنية عن التعريف والبيان، ملأ الدنيا بأعماله العلمية ومواقفه الخالدة، وعصره يشبه كثيراً العصر الذي نعيش فيه، وبدع العقيدة والأعمال التي منيت بها الأمة الإسلامية في ذلك العصر كأنها عادت من جديد في العصر الراهن. وهذا الرجل العبقري الفذ قد أثر في كثير من مصلحي الهند

وقادتها، وهم جميعاً يتفقون على أن تَتَبُّع سيرة هذا الرجل واجب علمي وإصلاحي في هذا العصر. ومن هنا رأت الجامعة السلفية وضع هذا الموضوع أمام العلماء والباحثين للبحث والمناقشة، راجية أن آثار ابن تيمية العلمية تنير الطريق للدعاة والمصلحين، وتساعدهم في توجيه كلمة الإصلاح إلى الجيل المعاصر بأبلغ أسلوب. ولنا مثال حي في نجاح دعوة الإصلاح والتجديد على الأسس العلمية المستقاه من الكتاب والسنة، وهو مثال نجاح دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ودعوة الشهيدين أحمد بن عرفان الشهيد والشاه محمد إسماعيل الشهيد رحمهم الله تعالى، فإنهما قد سارتا على منهج السلف الصالح رضي الله عنهم، منهج التمسك بالكتاب والسنة، وهذا هو المنهج الذي دعا إليه ودافع عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. إن الشهادات التي أدلى بها أهل العلم والعدل تواترت على نجاح الدعوتين، واعترفت بأن منهجهما هو أفضل المناهج والأساليب للقيام بعمل الإصلاح والترشيد في جميع العصور والأزمان، وإذ يسر الله لنا اجتماع هذه النخبة الطيبة من العلماء والباحثين في هذه الندوة، فإننا نرجو أن دراسة شخصية ابن تيمية وأعمالها الخالدة تنشط على مر الأيام، والأجيال القادمة تنتفع بأفكاره التجديدية أكثر فأكثر. والذي يجعلنا نستبشر بهذا الصدد موقف المملكة العربية السعودية من هذه الشخصية الفذة الفريدة ومن أعمالها العلمية النافعة، فقد رأينا أن المملكة حرسها الله تعالى قد جندت طاقات العلماء والباحثين، وأخرجت مجموعة صالحة من مؤلفات شيخ الإسلام إخراجاً علمياً رائعاً جذاباً، ولا تزال المملكة ترعى وتشجع العاملين في هذا الحقل، نفع الله بجهودها الإسلام والمسلمين.

وقبل أن أختم هذه الكلمة أرجو من الضيوف المحترمين التكرم بعدم المؤاخذة على ما صدر منا من تقصير في أداء واجب الضيافة، فإن ذلك شيء ما تعمدناه، والعذر عند كرام الناس مقبول. وحتى يكون الختام مسكاً، أتقدم بالشكر الجزيل الوافر إلى خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز، أيده الله تعالى، وولي عهده الأمين سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز حفظه الله تعالى، وإلى الأسرة الملكية الكريمة، وإلى ضيفنا المكرم

رئيس هذه الجلسة صاحب المعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي حفظه الله وتولاه مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

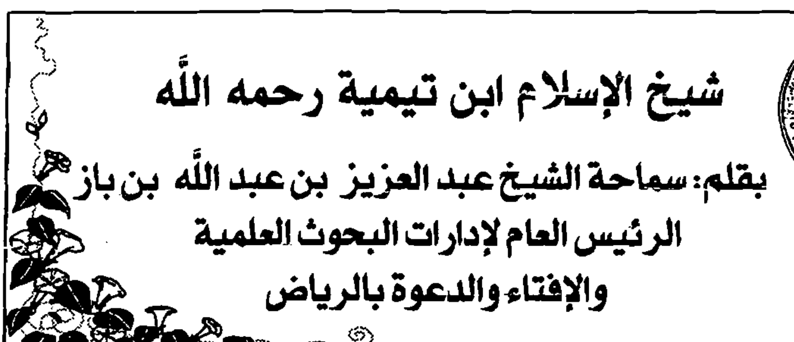
وأرجو أن الجامعة السلفية تواصل مسيرتها العلمية والدعوية، بعون الله وتوفيقه، وبتوجيهات ومشورات الدعاة والقادة المخلصين.*

وفي النهاية أسأل المولى عز وجل أن يرعاكم ويوفر لكم الصحة والعافية، ويوفق الجميع لما يحب ويرضاه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(تحرير وتقديم: الدكتور مقتدى حسن الأزهري)





شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

بقلم: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية
والإفتاء والدعوة بالرياض

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه. أما بعد:

فقد سرني كثيراً ما علمت من عزم الإخوة القائمين على الجامعة السلفية في مدينة بنارس بالهند، على عقد ندوة علمية عن حياة شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله وعن مآثره العلمية وجهوده الدعوية وجهاده في سبيل الله ودعوته للأمة الإسلامية إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وقد طلبوا مني ـ جزاهم الله خيراً ـ أن تكون لي مشاركة فيها بمقال عن شيخ الإسلام، ولما كان هذا عملاً جليلاً وخطوة مباركة نحو التعريف بشيخ الإسلام ومؤلفاته ولإظهار فضله وعلمه ولإزالة بعض الشُبه التي قد تكون عالقة بأذهان بعض المسلمين حول حياة شيخ الإسلام ودعوته، فقد رأيت أن أشترك مع الإخوة الأفاضل أصحاب البحوث والمقالات في هذه الندوة بكلمة مختصرة لعدم تمكني من البسط في ذلك لكثرة مشاغلي، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق القائمين على الندوة

لجمع البحوث التي تُقرأ في الندوة وإعدادها إعداداً علمياً ونشرها في كتاب، ينتفع به المسلمون ويعلمون به دعوة شيخ الإسلام ومنهجه وأسلوبه في الدعوة إن شاء الله. فأقول وبالله التوفيق وعليه التكلان في كل صغير وكبير:

إن ابن تيمية: هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني الدمشقي رحمه الله.

وُلد في مدينة حران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وستمائة من الهجرة، وتربى في بيت علم وفضل، فأبوه وجدُّه كلاهما من كبار علماء عصره وقد نشأ في تصون وصلاح وطهارة وتقى، هكذا شهد له كل من اعتنى بتاريخه من معاصريه وتلاميذه. وأخذ العلم من كبار مشايخ عصره. عني بالتفسير، وبالحديث، وسمع الكتب الستة، والمسند للإمام أحمد ومعاجم الطبراني، وما لا يحصى من الكتب والأجزاء. وأخذ الفقه وأصوله عن والده وغيره من المشايخ، وبرع فيهما وأحكم الفرائض ونظر في الكلام والفلسفة وبرز في ذلك كله على أهله. ولم يطرق باباً من أبواب العلم إلا وقد فتحه الله له على مصراعيه. حتى قال فيه أحد معاصريه: قد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سُئل عن فن من العلم، ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من جميع الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك. ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه، ولا تكلم في علم من العلوم، سواء أكان من علوم الشرع أم من غيرها، إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكان له اليد الطولى في حسن التصنيف.

وقد درس رحمه الله جميع المذاهب والآراء في العقيدة المنتشرة في عصره فدرس مذهب الأشاعرة ودرس الفلسفة والمنطق وآثارهما السيئة على الإسلام وعقيدته. وكان شديد الحرص على معرفة آراء الصحابة واتجاهاتهم الفقهية.

وعلى ضوء هذه الدراسة العميقة للكتاب والسُنَّة وبهذا الحرص الشديد

على الوصول إلى الحق وبعقله الكبير تأهل رحمه الله لِما لم يتأهل له الآخرون لا في عصره ولا فيما سبق من العصور القريبة من عصره، وبلغ رتبة المجتهد المطلق حيث توافرت فيه جميع الشروط المطلوبة للاجتهاد. وقد نهج رحمه الله المنهج الذي عاد بالإسلام إلى عهد الصحابة في عقائده وأصوله وفروعه، ودافع عن الإسلام الصحيح بكل ما أُوتي من قوة البرهان والحجة، ولم يبال في هذا السبيل بأي إنسان، ما دام الدليل معه، وبذلك أزال ما علق بالإسلام من شُبَه وبدع. والتف المسلمون العارفون به حوله واستفادوا منه النور الذي قذف الله في قلبه ونشروه للعالم. كما كثر مخالفوه وأعداؤه ولا غرابة في هذا. فإن الداعي إلى الحق لا بد أن يواجه من يوجد العراقيل في سبيل دعوته من أهل الأهواء والبدع، ولكنه لا يبالي بلومة لائم ولا يخاف الأذى والمشاكل التي تعترض طريقه. وهذا كان ديدن شيخ الإسلام في حياته كلها. فإنه كان رحمه الله قوياً في إيمانه، مخلصاً لدعوته، جريئاً في الحق، مواصلاً دعوته، وصابراً محتسباً في الله. ما زال يزيح الستار عن الوجه الوضّاء للإسلام ويدعو إلى الإسلام الصحيح حتى لقي ربه.

ومن أجل هذا كله اتفق أئمة ذلك العصر على تسميته بشيخ الإسلام وأثنوا عليه بأنه شيخ الإسلام وبحر العلوم وترجمان القرآن وأوحد المجتهدين ونحو هذه الألفاظ. وقد ساق الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي أقوال كثير من الأئمة في الثناء على شيخ الإسلام في كتابه (الرد الوافر).

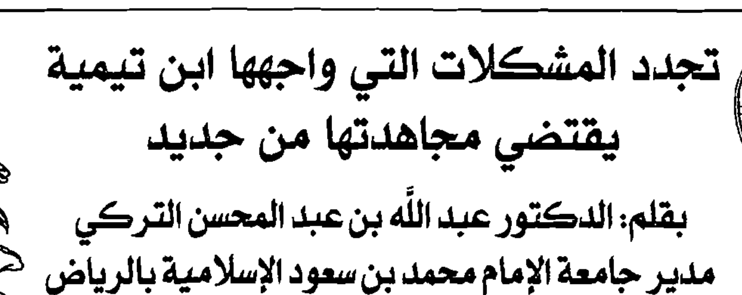
وقد ذكر الحافظ ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (٢/٣٩٣) قول ابن الزملكاني - وهو من هو في العلم والفضل والإمامة والرياسة - عن شيخ الإسلام: أنه لم ير من خمسمائة سنة، أو قال أربعمائة سنة، الشك من الناقل، وغلب ظنه أنه قال: من خمسمائة سنة، أحفظ منه.

وقال الحافظ الذهبي: ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون (انظر الرد الوافر ص/ ٣٤ والأعلام العلية ٢٣ -

٣٠). وقال في مكان آخر: وهو أعظم من أن يصفه كلمي، وينبه على شأوه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته: تحتمل أن توضع في مجلدين. فالله تعالى يغفر له، ويسكنه أعلا جنته، فإنه كان رباني الأمة وفريد الزمان وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين، رأساً في العلم، يبالغ في أمر قيامه بالحق والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد، ولا لاحظتها من فقيه. (انظر العقود الدرية: ص/٣٩ ـ ٤٠)، ولا يخفى أن هذه الكلمة الموجزة لا تكفي أبداً لبيان ما كان عليه شيخ الإسلام من الدرجة العليا في جميع ميادين العلم وما قام به من الجهاد العلمي لإرساخ دعائم النهضة الدينية في عصره، والدعوة إلى الكتاب والسُنَّة، ونبذ كل ما علق بهذا الدين من أفكار وآراء لا تمت إليه بصلة، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير.

وكانت وفاته رحمه الله ليلة الاثنين في العشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وسبعمائة عن ثمان وستين سنة إلا قليلاً. فرضي الله عنه وأرضاه ورفع درجاته في المهديين ونفعنا والمسلمين بعلومه إنه سميع قريب. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين.





تجدد المشكلات التي واجهها ابن تيمية يقتضي مجاهدتها من جديد

بقلم: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

الحمد لله الذي يهدي الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه. والصلاة والسلام على من تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

تفصل القرون العديدة، والعصور المديدة، بين الناس.

فيعيش قوم في القرن الثامن الهجري ويعيش قوم آخرون في القرن الخامس عشر الهجري مثلاً.

وعلى الرغم من هذه الأزمان المتطاولة التي تفصل بين هؤلاء وأولئك فإنهم يتشابهون في معتقداتهم المنحرفة، وأفكارهم وتصوراتهم الباطلة، وفي مواقفهم المعاندة للحق.

قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾. (البقرة: ١١٨).

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ

ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (التوبة: ٣٠).

والتشابه في المعتقدات والتصورات الباطلة، ينتج سلوكاً باطلاً منحرفاً يؤدي إلى مصير متشابه:

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (التوبة: ٦٩).

وهذا التشابه ـ في المعتقدات والأفكار والمسالك والمصائر ـ بين الضالين ـ القدماء والمحدثين ـ حقيقة تاريخية، وواقع قائم ينبغي أن يعيها الحفيظون على السنة والمشتغلون بالدعوة إلى الإسلام، ففي الوعي العميق بهما زاد نفيس من العلم والفقه يرتفقه أهل الحق وهم يردون الأمة إلى الطريق الصحيح والمنهج القويم.

ومن هذا الزاد النفيس النافع:

- زيادة اليقين بأن من يتجافى عن منهج السنة يهلك لا محالة.

- إدراك أن الدعاوى الحديثة، والفتن المعاصرة ليست سوى أفكار قديمة أخرجت في ألفاظ معاصرة، وفي وسائل جديدة.

- الاستفادة من جهود أئمة الهدى السابقين في نقض الفتن المعاصرة. وليس معنى ذلك أن يقعد الدعاة، أو أن تقصر هممهم دون بذل الوسع في تفنيد الشبهات الجديدة.

إن المعنى المقصود هو: أن هناك مشكلات بعثت من جديد ـ وهي ذات جذور في الماضي ـ وأن أئمة الهدى السابقين قد عالجوا هذه المشكلات في جذورها الأولى، وكان لهم فيها ـ من ثم ـ بصر وخبره.

لقد واجه شيخ الإسلام ابن تيمية مشكلات كبرى في عالمه، وفي

عصره فاستعان بالله عز وجل، وجرد نفسه لمواجهتها بعلم، وبصيرة، وثبات جنان، وقوة بيان.

ولقد دلتنا دراستنا للنتاج العلمي لابن تيمية، كما دلنا وقوفنا على قضايا عصرنا على أن معظم المشكلات التي واجهها ابن تيمية قد تجددت اليوم وعادت جذعة.

وهذا برهان على أن المفسدين والمرجفين يدعون لذات المعتقدات الفاسدة وإن فصلت بينهم قرون وعصور.

ومن المتعذر أن نعرض لكافة القضايا التي واجهها ابن تيمية فهي من التشعب والضخامة بحيث استغرقت مؤلفات ابن تيمية كلها تقريباً.

ولكننا سنختار نماذج محددة من تلك المشكلات، مجتهدين في ربطها بالواقع: استجلاء لحقيقة أن ما كان بالأمس، يجري اليوم.

معاداة السنة:

النموذج الأول هو: أن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ واجه مشكلة (معاداة السنة)، أو ادعاؤها بغير دليل.

قال ـ رحمه الله ـ: (فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق ـ أي الفرق المخالفة للسنة ـ بحكم الظن والهوى فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة ويجعل من خالفها أهل البدع، وهذا ضلال مبين فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء

وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها: تصديقاً وعملاً وحباً وموالاة لمن ومعاداة لمن عاداها).

ولبث ابن تيمية يوضح معالم السنة، ويميز بين أوليائها وأعدائها، وينتصر لها بالقول والفعل والموقف، حتى عد - بحق - مُحيياً مجدداً لمنهج أهل السنة والجماعة.

وكان جماع سعادته أن يرى سنة رسول الله ﷺ منصورة والبدعة مقهورة.

قال - في كتابه إلى الملك الناصر -: (أما بعد: فقد صدق الله وعده ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأنعم الله على السلطان، وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تعهد في القرون الخالية، وجدد الإسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته على الدولة الماضية ويحقق في ولايته خبر الصادق المصدق، أفضل الأولين والآخرين، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رؤوس الممرين).

إن هذه المشكلة التي واجهها ابن تيمية تجددت اليوم، فهناك - في أيامنا هذه - من يحارب السنة ويعاديها.

وهناك دول قامت لتحارب السنة، وتنشر ما يخالفها.

وهناك من يدعي السنة وهو يوالي أعداءها من أهل الزيغ الرافضين لها أولئك الذين ينكرون السنة أصلاً، ويبغضونها اعتقاداً وشعوراً.

فهل هناك من يواجه هذه المشكلة الجديدة بمثل ما واجهها به ابن تيمية.

تمزيق الأمة:

والنموذج الثاني أن ابن تيمية واجه مشكلة «تمزيق الأمة» الإسلامية ولذا جاهد من أجل ائتلاف الأمة ووحدة الجماعة.

قال - رحمه الله -: (إن الله أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن البدعة

والاختـلاف): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ (سـورة الأنعام، الآية: ١٥٩). وقال النبي ﷺ: (عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة). فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يرشده ويهديه فعل ذلك).

إن هذه المشكلة التي واجهها ابن تيمية تجددت اليوم، فهناك من مرد - وهو يدعي الإسلام - على تمزيق وحدة المسلمين بالتهييج الطائفي، وبتسعير الحروب، وبإثارة الفتن في الحج.

فهل هناك من يواجه هذه المشكلة الجديدة بمثل ما واجهها به ابن تيمية.

موالاة أعداء الإسلام:

والنموذج الثالث أن ابن تيمية واجه مشكلة ملؤها الخيانة، والغدر، فإن قوماً يدعون الإسلام قد والوا أعداء الإسلام، وفرحوا بانتصارهم.

ولندع شيخ الإسلام يقص علينا قصة هؤلاء الخونة.

قال - رحمه الله -: (إن المسلمين - خاصتهم وعامتهم - عند الرافضة كفار مستباحو الدم.

ولهذا السبب يعاونون الكفار على الجمهور من المسلمين، فيعاونون التتار على الجمهور، وهم كانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكزخان ملك الكفار - إلى بلاد الإسلام، وفي قدوم هولاكو إلى بلاد العراق، وفي أخذ حلب ونهب الصالحية، وغير ذلك بخبثهم ومكرهم، لما دخل فيه من توزر منهم للمسلمين وغير من توزر منهم.

وبهذا السبب نهبوا عسكر المسلمين لما مر عليهم وقت انصرافه إلى مصر في النوبة الأولى.

وبهذا السبب يقطعون الطرقات على المسلمين.

وبهذا السبب ظهر فيهم من معاونة التتار والإفرنج على المسلمين والكآبة الشديدة بانتصار الإسلام ما ظهر.

وكذلك لما فتح المسلمون الساحل ـ عكا وغيرها ـ ظهر فيهم من الانتصار للنصارى وتقديمهم على المسلمين ما قد سمعه الناس.. وكل هذا الذي وصفت بعض أمورهم، وإلا فالأمر أعظم.

ولهذا اتفق أهل العلم بالأحوال: أن أعظم السيوف التي سلت على أهل القبلة ممن ينسب إليها، وأعظم الفساد الذي جرى على المسلمين ممن ينتسب إلى أهل القبلة، إنما هو من الطوائف المنتسبة إليهم.

وهم يوالون اليهود والنصارى والمشركين على المسلمين. وهذه من شيم المنافقين.

ولهذا لما قدم التتار إلى البلاد، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، أرسلوا إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصليب وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسرارهم ما لا يحصى عدده إلا الله وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً، يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار.

ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم.

ولما نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان، كان بينهم شبيه عزاء).

إن هذه المشكلة التي واجهها ابن تيمية تجددت اليوم.

فها هي دولة خميني توالي أعداء الإسلام، وتتحالف معهم سراً وعلانية. فهل هناك من يواجه هذه المشكلة بمثل ما واجهها به ابن تيمية؟

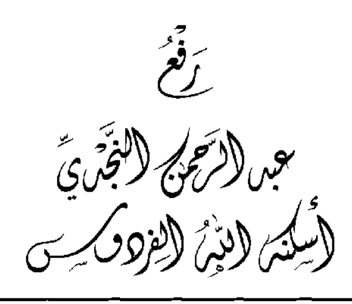
لئن تشابهت قلوب المبطلين ـ الغابرين والمحدثين ـ وتشابهت أفكارهم ومسالكهم بالباطل.

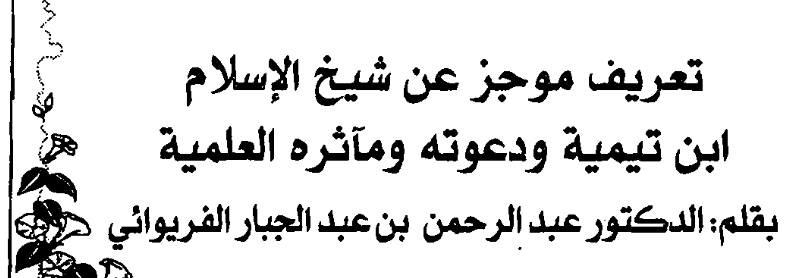
فإن الحق هو الذي يوحد موكب المؤمنين: المستقدمين منهم والمستأخرين، وإذن فليتصل موكب ابن تيمية.

ولينهض اليوم رجال بمثل ما نهض به من جهاد.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.







تعريف موجز عن شيخ الإسلام ابن تيمية ودعوته ومآثره العلمية

بقلم: الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، أما بعد:

فإنه من دواعي السرور والغبطة أن تنظم الجامعة السلفية هذه الندوة العلمية العالمية حول شخصية شيخ الإسلام ومواقفه الخالدة لخدمة العقيدة والدين، إن هذه الشخصية العملاقة ومآثرها الخالدة لجديرة بالدراسة والبحث والنشر، لما في ذلك من تعبير صحيح لديننا الحنيف، وحلول ناجعة لمشاكل المسلمين الكثيرة المتنوعة.

ولد شيخ الإسلام عام ٦٦١هـ في مدينة حران، وعاش في بيئة عريقة في العلم والدين والتقوى، وكانت الحنابلة بكثرة كاثرة في حران ودمشق بعد سقوط عاصمة الخلافة (بغداد) عام ٦٥٦هـ إثر غارات التتر، وقد حوت عدداً كبيراً من أهل العلم في مختلف الفنون، وكانت دور العلم منتشرة، كما كانت للحنابلة شوكة بانتشار علمائهم ومدارسهم.

وأما من الناحية العقائدية فكان المذهب الأشعري - المرفوض لدى الإمام الأشعري نفسه - هو المذهب السائد في البلدان الإسلامية لدعم الأمراء والسلاطين لهذا المذهب من عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى عصور المماليك.

وكانت الحنابلة على مذهب الإمام أحمد في الأصول والفروع، وكانت بينهم وبين الأشاعرة مناظرات ومناقشات، وكانت البدع والخرافات منتشرة في صفوف المسلمين مع رواج الفلسفة، والكلام، والمنطق، والتصوف، والشعوذة والرفض والباطنية في أمة الإسلام كما كان عصره يموج بالاضطراب السياسي، والمنازعات الحربية، ومن جهة أخرى كان أمراء الدول والسلاطين يعتمدون على المشايخ والقضاة في شئون الدولة الدينية لما لأهل العلم من تأثير على قلوب جماهير المسلمين وعقولهم. وكان عصره شبيهاً بعصرنا هذا، مليئاً بالاضطرابات الفكرية، والسياسية، والاجتماعية والاقتصادية فتأثر بها، وأثر فيها بمشاركته الفعالة لإصلاح شئون الإسلام والمسلمين.

وقد نفع الله بجهوده المخلصة الأمة الإسلامية من عصره إلى يومنا هذا بما لا ينكره إلا مكابر أو جاهل، ودعوته السلفية في نمو وازدهار، ورقي يوماً بعد يوم، على رغم أنوف الحاقدين والحاسدين. وصدّق الله قول القائل: كل صاحب بدعة، ومن ينتصر له، لو ظهروا لا بد من خمودهم، وتلاشي أمرهم، وهذا الشيخ تقي الدين ابن تيمية، كلما تقدمت أيامه تظهر كرامته، ويكثر محبوه وأصحابه.

وقال الحافظ ابن حجر: شهرة إمامة الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام في عصره باقٍ إلى الآن على الألسنة الزكية، ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أو تجنب الإنصاف.

ركز شيخ الإسلام جهوده من عنفوان شبابه على شرح العقيدة السلفية، وإبراز منهج المحدثين في الأصول والفروع، ودارت لأجله مناظرات عظيمة، ومعارك شديدة بينه وبين معاصريه من علماء الكلام، والفلسفة، والفقه، والتصوف، وفي سبيله سجن واعتقل، وأوذي مرات عديدة، كما توجه شيخ الإسلام إلى إصلاح أحوال المسلمين السياسية، وقاد مسيرة الجهاد ضد التتر والروافض، وقد اشتهر أمره في هذه المجالات حيث

صارت بعض الجوانب الأخرى من جهوده وخدماته مغمورة في خضم هذه الخدمات التي انبهرت بها العقول، وأذعنت لها القلوب.

برز شيخ الإسلام في جميع العلوم والفنون، واشتغل بالتعليم والتدريس والتصنيف والوعظ والإرشاد والدعوة والإفتاء وتحرير الفتاوى.

وقد التزم في كتاباته وفتاواه منهج المحدثين النقدي، واعتنى باستخدام النصوص الصحيحة في بحوثه وكتاباته، وقد منحه الله الحافظة الواعية التي هي أساس العلم والعمل والتأمل، وحضور البديهة، والاستقلال الفكري، والإخلاص في طلب الحق، والطهارة من أدران الهوى، مع فصاحته، وقدرته البيانية، والشجاعة والصبر، وقوة الاحتمال، وقوة الفراسة والهيبة.

وأطبق أهل العلم على الثناء البالغ على شيخ الإسلام، وعلى إمامته في كثير من الجوانب العلمية والإصلاحية، وقد صرح غير واحد منهم أنهم لم يروا مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وقد ذكر الإمام ابن ناصر الدين الدمشقي ما يقارب تسعين من أهل العلم الذين لقبوه بشيخ الإسلام. وهو من أئمة الإسلام الذين اشتهروا بكثرة التآليف المتنوعة، وتحرير الفتاوى، وقد تميز بين أهل العلم والفن بكثرة استدلاله بالنصوص الشرعية الصحيحة، وآثار السلف الثابتة مع مراعاة قواعد الرواية والدراية، واتباع مناهج الفقهاء المحدثين في اختيار الأدلة الصحيحة، والتنبيه على صحة الحديث وسقمه.

وقد ترك ثروة علمية عظيمة في شرح أصول الإسلام ومقاصده، والرد على أهل الزيغ والإلحاد.

وكان سر نجاح دعوته ـ بعد توفيق الله عز وجل وتأييده ـ إخلاصه ومعرفته التامة بالحديث وعلومه وآثار السلف، وبمناهج المحدثين، والاعتماد على فقههم وبصيرتهم، ولعل هذا هو السر في بقاء علومه، ودعوته ومنهجه، على الرغم من المحاولة المستمرة للقضاء على مؤلفاته، ومؤلفات أصحابه، إذ من النادر رواج المؤلفات التي تؤلف في أبواب الردود والمناقشات، وفي المسائل الفقهية المتنوعة، إلا أن مؤلفات شيخ الإسلام كانت مدعمة بالأدلة النقلية والعقلية التي تلفت أنظار أهل العلم، وتحثهم

على الاحتفاظ بها، والاستفادة منها على مر الدهور وفي أحلك الظروف.

ومما يجب التنويه والإشادة بذكره أن شيخ الإسلام ابن تيمية مع نبوغه في العلوم والفنون، وتفوقه على معاصريه كان أشد الناس مراعاة لآداب الإسلام وأخلاقه القيمة في معاملته معهم، وكان من أدقّ الناس في نقل أفكار منافسيه، وأحرصهم على الإنصاف مع خصومه في أثناء التأليف والمناظرة، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وما انتقم من أحد بل عفا عن أعدائهِ عند المقدرة، وقد حاولوا النيل منه مراراً بل القضاء على حياته، ولكن حينما تمكن منهم عفا عنهم! وقال: (أما أنا فهم في حل من حقي ومن جهتي) وكان القاضي زين العابدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: (ما رأينا أتقى من ابن تيمية، ولم نبق ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا).

ولم يتردد في مجابهة الحكام، والسلاطين، والعلماء، والمشايخ بكلمة الحق، مع زهده عن المناصب الدنيوية.

توفي شيخ الإسلام عام ٧٢٨هـ، وعمره سبع وستون سنة، والمدة الزمنية التي استمر فيها بتأليف الكتب والرسائل، وتحرير الفتاوى تحتوي على أكثر من نصف قرن، وقد تنوعت مؤلفاته إلا أنها تدور حول شرح مذهب السلف الصالح في الأصول والفروع، وفي إثبات أن منهجهم وطريقهم هو أعلم وأحكم وأسلم في جميع أبواب الدين، وأن طريق أهل التأويل والتخييل والرأي من الفلاسفة والمتكلمين والمتفقهة والمتصوفة والروافض والملاحدة والباطنية وغيرهم من أهل الأهواء والبدع طريق باطل ومنهج خاطئ.

شخص شيخ الإسلام داء المسلمين المفتونين بالمنطق والفلسفة والكلام في أنهم وقعوا في تأويل نصوص الكتاب والسنة متأثرين بالفلسفة والمنطق والكلام والتصوف كما درس أحوال الفرق الضالة والمبتدعة.

وهذه المؤلفات والرسائل تربو على ثلاث مائة مجلد، بل هي تبلغ

خمس مائة مجلد، وقد صرح الذهبي بأنها تصل إلى ألف مصنف بل أكثر إلا أن المؤلفات التي وصلت إلينا مطبوعة أو مخطوطة، وصل إلينا من أسمائها ما يبلغ (٥٩١) مؤلف. وفيها (١٠٢) كتاب يتعلق بالتفسير وعلومه، و(٤١) كتاباً في الحديث وعلومه، و(١٣٨) كتاب في الفقه والفتاوى، و(٢٢٨) في أصول الفقه، و(١٢٦) كتاب في العقائد والكلام، و(٧٨) كتاباً في الزهد والسلوك والتصوف والأخلاق. و(١٧) كتاباً في الرد على المنطق والفلسفة و(٧) رسائل وجهها إلى بعض الأمراء والسلاطين وإلى بعض وجهاء البلدة ومشايخها ويشتمل (٥٤) كتاباً على علوم متفرقة.

وتتلخص جهوده العلمية والإصلاحية في الآتي:

أ ـ قام بشرح منهج السلف الصالح في الأصول والفروع، وأثبت بالبراهين العقلية والنقلية أن منهج السلف هو وحده الذي ينبغي على المسلم اتباعه، وأنه هو أسلم وأدل وأسد منهج لشرح الإسلام، وبين أن داء كل من عارض هذا المنهج الصحيح من أهل الأهواء في فهم الشريعة إما أنهم يستدلون بأدلة عامة، أو بنقل باطل أو بقياس فاسد، وقال: «وكل من اعتقد نفي ما أثبته الرسول ﷺ حصل في نوع من الإلحاد بحسب ذلك، وهؤلاء كثيرون في المتأخرين، قليلون في السلف، ومن تدبر كلام كثير من مفسري القرآن، وشارحي الحديث، ومصنفي العقائد النافية والكلام وجد فيه من هذا ما يتبين له به حقيقة الأمر».

ولقد أبان شيخ الإسلام نفسه عن منهجه وإكثاره الكلام في الأصول. قال العلامة أبو حفص عمر بن علي البزار المتوفى سنة (٧٤٩) تلميذ شيخ الإسلام:

ولقد أكثر ـ رضي الله عنه ـ التصنيفَ في الأصول فضلاً عن غيره من بقية العلوم، فسألته عن سبب ذلك والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء. فقال لي ما معناه: الفروع أمرها قريب، فإذا قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله؛ ما لم يتيقن خطأه، وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات

والأهواء كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية، والقدرية، والنصيرية، والجهمية، والحلولية، والمعطلة، والمجسمة، والمشبهة، والراوندية، والكلابية، والسلمية وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، الظاهرة على كل دين، العلية، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم. ولهذا قلّ أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة، مقبلاً على مقولاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه أو اعتقاده. فلما رأيت الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حججهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، وزيف دلائلهم، ذباً عن الملة الحنيفية، والسنة الصحيحة الجلية. ولا والله ما رأيت فيهم أحداً ممن صنف في هذا الشأن، وادعى علو المقام؛ إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام. وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم حكميات وعقليات، وإنما هي جهالات وضلالات، وكونه التزمها معرضاً عن غيرها أصلاً ورأساً. فغلبتْ عليه حتى غطتْ على عقله السليم فتخبط حتى خبط فيها خبط عشواء، ولم يفرق بين الحق والباطل، وإلا فالله أعظم لطفاً بعباده من أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبته، ويبطل الباطل وينفيه. ولكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال. وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يزن به العبد الواردات؛ فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق، وما هو من قبيل الباطل. ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟ هذا باطل قطعاً يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (سورة النور، الآية: ٤٠).

قال الشيخ الإمام قدس الله روحه: فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها

بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية[1].

ترك شيخ الإسلام منهجاً علمياً رصيناً لفهم كتاب الله العزيز وشرح أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وألف في ذلك رسالته المشهورة المعروفة بمقدمة في أصول التفسير، كما شرح ووضح دقائق مصطلح الحديث، وشرح أحاديث كثيرة في ثنايا مؤلفاته، وفي رسائل مستقلة، وبين مقاصد الشريعة في كتاباته الكثيرة في ضوء الآثار السلفية. ونبه على أخطاء من أخطأ من أهل العلم في هذين المجالين.

وتكلم على المسائل الفقهية التي يجري فيها الخلاف بين أهل العلم بكل حرية وانطلاقة في العصر الذي كانت مدينة دمشق والقاهرة تزخر بالعلماء والمشايخ في مختلف العلوم والفنون إلا أنهم جمدوا على تقليد المذاهب الفقهية وتعصبوا لها، وأعرضوا عن فقه الصحابة والتابعين وأهل الحديث من المحدثين والفقهاء.

ومن المسائل الفقهية التي جرّت بينه وبين معاصريه معارك كلامية: مسألة التطليقات الثلاثة في مجلس واحد، أو بلفظ واحد، ومسألة الحلف بالطلاق.

وقد كتبت مؤلفات وبحوث ورسائل في هذه المسائل إلا أن معارضي شيخ الإسلام في هذه المسائل لم يستطيعوا إلى وقتنا الحاضر أن يقارعوه بالحجة والبرهان، وألجأت تحديات المجتمع الإسلامي المعاصرة علماء البلاد الإسلامية إلى الاستفادة من آراء شيخ الإسلام في الأحوال الشخصية، في مسائل النكاح والطلاق والوقف.

ألف شيخ الإسلام بعض المختصرات في بيان مذهب السلف مثل الفتوى الحموية الكبرى، والعقيدة الواسطية، والرسالة التدمرية.

كما قام بالرد على القائلين بشد الرحال إلى البلدان لزيارة قبور الأنبياء

---

(١) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيق صلاح الدين المنجد (ص٣٤ ـ ٣٥).

والصالحين، وناقش مسألة التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين، وبين المشروع من الممنوع.

ورد على كبار فقهاء عصره في هذه المسائل التي فتحت عليه أبواب الصراعات والنزاعات والمشاكل على مصراعيها واستمرت هذه النزاعات إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى.

قام بالرد على الفلاسفة، والمتكلمين، وكسر طاغوت المنطق اليوناني الذي دخل وتغلغل في العلوم الإسلامية الشرعية وفي أصول الفقه في أواخر المائة الخامسة، أو أوائل المائة السادسة من كتابات الغزالي (ت ٦٠٦هـ) الذي ألبسه ثياباً إسلامية في زعمه، والحقيقة أنه تعلمه من ابن سينا وهو تعلمه من كتب أرسطو.

وكان لآرائه النقدية أثر كبير على عقول علماء الغرب إلى قرون متأخرة حيث استفادوا من نقد ابن تيمية مباحث المنطق والفلسفة.

كما قام بالرد على أفكار إخوان الصفا، وابن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض وغيرهم من المتصوفة الذين أدخلوا في دين الإسلام الإلحاد والزندقة.

ورد على أفكار ابن سينا، والرازي وغيرهما من المتكلمين الذين كان لهم تغلغل في المنهج الإسلامي.

إن فتنة التشيع والرفض ومفاسد حركات الرفض وآثارها السيئة على أمراء المسلمين وسلاطينهم وحكوماتهم، وعلى جمهور المسلمين علمائهم وعوامهم كانت من أهم ما توجه إليه شيخ الإسلام، فقام بالرد على فرق الشيعة والروافض، وكشف أستارهم، وفند آراءهم ومزاعمهم، وفضح كيدهم ضد الإسلام والمسلمين ودولهم، وكتابه «منهاج السنة في نقض كلام الشيعة القدرية» يعتبر موسوعة علمية عظيمة في الرد على خزعبلات الرفض والتشيع. وإثبات عدالة الصحابة، وتصويب منهج أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

إن قيمة آراء شيخ الإسلام تتجلى وتزداد أهميتها في عالمنا المعاصر بما يرى ويشاهد أهل السنة من عداء سافر، ومكيدة خبيثة ضد الإسلام والمسلمين من هذه الطائفة الدخيلة على الإسلام والمسلمين.

وهناك مسألة مهمة وخطيرة وهي قداسة شخصية الرسول لدى المسلمين، ونرى بين آونة وأخرى بعض سفهاء الأحلام من الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذين يحاولون النيل من شخصية رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ، ومعظم دراسات المستشرقين على السيرة النبوية تشتمل على المطاعن الموجهة إلى شخصية الرسول، وأصحابه، وزوجاته، كما نلمس هذه الظاهرة في البلاد الشرقية، وقد حدث مثل هذا في عصر شيخ الإسلام، فألف كتابه العظيم (الصارم المسلول على شاتم الرسول) الذي يعتبر أحسن كتاب ألف في موضوعه.

إن حركة التنصير التي يسمونها التبشير والتي ظهرت في صورة أقوى، عدو للإسلام والمسلمين لا تخفى حقيقتها ولا أضرارها على كل من عرف تاريخها، وخاصة على المسلمين في شبه القارة الهندية، وأن شيخ الإسلام له فضل السبق في الرد على معتقداتهم والدفاع عن الإسلام وعقيدته ورسوله في كتابه العظيم: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، ويعتبر هذا الكتاب موسوعة علمية عظيمة، ومن أحسن المراجع في الرد على النصرانية المحرفة، وفي إثبات دلائل النبوة وبيان المعجزات.

ومن الموضوعات المهمة التي تناولها شيخ الإسلام بالبحث والدراسة مسألة السياسة الشرعية، والاقتصاد الإسلامي، ولا شك أن السياسة الشرعية والاقتصاد الإسلامي من الموضوعات التي يحتاج إليها الحكام والسلاطين وأصحاب الثروة في كل زمان ومكان، وقد استفاد علماء الاقتصاد في البلاد الإسلامية من آراء شيخ الإسلام في ترتيب نظام إسلامي اقتصادي جديد يساير الركب الحضاري المتقدم في عالمنا المعاصر.

وهناك جانب مهم من جهود شيخ الإسلام العظيمة لإصلاح المجتمع الإسلامي، وذلك بدراسة حالة الأمة الاجتماعية وتقديم الحلول الإسلامية

لتحافظ الأمة على شخصيتها الإسلامية، فإن التأثر والتأثير الحاصلين في المجتمعات يلعب دوراً مهماً في تاريخ البشرية، ولا يخفى ما لاقى المسلمون من مشاكل اجتماعية بعد اختلاطهم بالأقوام والملل الكافرة إثر امتداد الحكم الإسلامي وسعة رقعة بلاد الإسلام، ولا يخفى أضرار تشبه المسلمين بالكفار والمشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهذا من الأمور المهمة التي يلمسها كل مثقف ومطلع على أحوال المسلمين الذين فتنوا بحضارات الغرب والشرق، وخضعوا لها، وبدأت آثارها السيئة تظهر في وقت مبكر في المجتمع الإسلامي الذي صار ضحية هذا الانحلال الخلقي، ومفاسد هذا الاختلاط والتأثر والتأثير واضحة جداً في قضايا العقيدة والفكر وفي السياسة والاجتماع وفي شئون الزواج والطلاق، والمأكل والمشرب والأعياد وغير ذلك من مظاهر الاجتماع.

ونظراً إلى أهمية مسألة التشبه وما يرتب عليه من أمور قام شيخ الإسلام بتأليف كتابه العظيم: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) وأثبت بالأدلة القطعية أن التشبه بجميع أنواعه حرام على الأمة الإسلامية في جميع مجالات الحياة ونقح هذه المسألة تنقيحاً علمياً عظيماً أتى فيه بما لم يأته الأوائل.

قاد شيخ الإسلام المعارك العظيمة ضد التتر الذين دمروا البلاد الإسلامية وقتلوا، ونهبوا أمماً لا يحصون، وأعاد بذلك ـ بفضل الله ومنه وتأييده وتوفيقه ـ الثقة في نفوس المسلمين، وكتب الله الفوز لعساكر الإسلام تحت قيادة شيخ الإسلام الذي قدم كل غال ورخيص لإعادة مجد الإسلام، ونشر الأمن في بلاد الإسلام.

كما كان لجهاده ضد الروافض الشيعة أثر كبير في القضاء على أعداء الإسلام، واستقرار بلاد الإسلام، وإنه موقف مشرف جداً، ولا يحتاج بيان ما للمجاهد في سبيل الله من أجر جزيل عند الله عز وجل.

وهذه المسائل التي درسها شيخ الإسلام في عصره، وتناولها بعده بالشرح والبيان أصحابه وتلاميذه، كانت موضوع الساعة في جميع العصور

والأزمنة والأمكنة ولا تقل أهميتها في عالمنا المعاصر، بل تزداد أهميتها نظراً إلى كثرة المسائل والمشاكل التي تواجه العالم الإسلامي.

ونحمد الله على أنه قد زالت كثير من العقبات والحواجز التي كان أهل العلم والاجتهاد يواجهونها في سبيل الاستفادة من علوم السلف وخاصة علوم شيخ الإسلام، ويرجع هذا الفضل إلى مشايخ الدعوة السلفية في نجد والحجاز ومصر والشام وشبه القارة الهندية، ولا بد من تنويه جهود ملوك آل سعود وأمرائهم في سبيل نشر مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم من دور النشر العلمية من مصر والمملكة العربية السعودية، ومن منبر الجامعات الإسلامية في المملكة العربية السعودية.

ومن جانب آخر كثرت الدراسات حول شيخ الإسلام وأفكاره وعلومه ودعوته من طلبة العلم في المملكة العربية السعودية، ومصر، والهند، وبلاد الشام، والعراق، ومن قبل المستشرقين والمستغربين، وساعدت هذه الأمور في إقبال شباب الإسلام على علوم شيخ الإسلام والاستفادة منها.

وقد ظهرت آثار هذا الإقبال في حياة الشباب العلمية والدينية للمطلع على أحوالهم في البلاد الإسلامية العربية، كثر الله سوادهم.

وخلاصة ما سبق أن شيخ الإسلام ابن تيمية من الشخصيات النادرة التي تركت هذه الثروة العلمية العظيمة التي فيها حلول لمشاكل المسلمين في عالمنا المعاصر، وفيها مقنع للباحث أن يفهم الشريعة الإسلامية حسبما فهمه السلف الصالح.

والجدير بالذكر أن معظم المباحث العلمية التي أثارها، ونقحها شيخ الإسلام كانت مرجعاً مهماً لمعظم الكتابات العلمية من معاصريه إلى يومنا هذا باعتراف كثير من المستفيدين وبتصريح شيخ الإسلام نفسه، ووجد هناك عدد كبير من محبي علوم شيخ الإسلام الذين انتهجوا منهجه في نشر السنة والعقيدة من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمصلحين.

أمثال ابن قيم الجوزية الذي اشتهر بمحبته لشيخ الإسلام وعلومه، وابن كثير، والذهبي، وابن عبد الهادي، وابن أبي العز الحنفي شارح

العقيدة الطحاوية، والسفاريني، والإمام محمد بن عبد الوهاب وأصحابه وتلاميذه وعلماء هذه السلسلة، والشوكاني، والأمير اليماني، وولي الله الدهلوي، والشاه عبد العزيز الدهلوي، والنواب صديق حسن البوفالي، ورشيد رضا، وأحمد شاكر، ومحب الدين الخطيب، ومحمد حامد الفقي، وجمال الدين القاسمي، والآلوسي، والسيد نذير حسين المحدث الدهلوي، وعلماء الأسرة الغزنوية، وثناء الله الأمرتسري، ومحمد إبراهيم السيالكوتي، ومحمد بشير السهسواني، والمحدث شمس الحق العظيم آبادي، والمحدث عبد الرحمن المباركفوري، ومحمد حسين البتالوي، وأبي الكلام آزاد، ومحمد عطاء الله حنيف الفوجياني، ومحمد حنيف الندوي، والعلامة تقي الدين الهلالي رحمة الله عليهم أجمعين، والمحدث محمد ناصر الدين الألباني، والمحدث عبيد الله الرحماني المباركفوري، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظهم الله وتولاهم، وعامة علماء أهل الحديث شرقاً وغرباً.

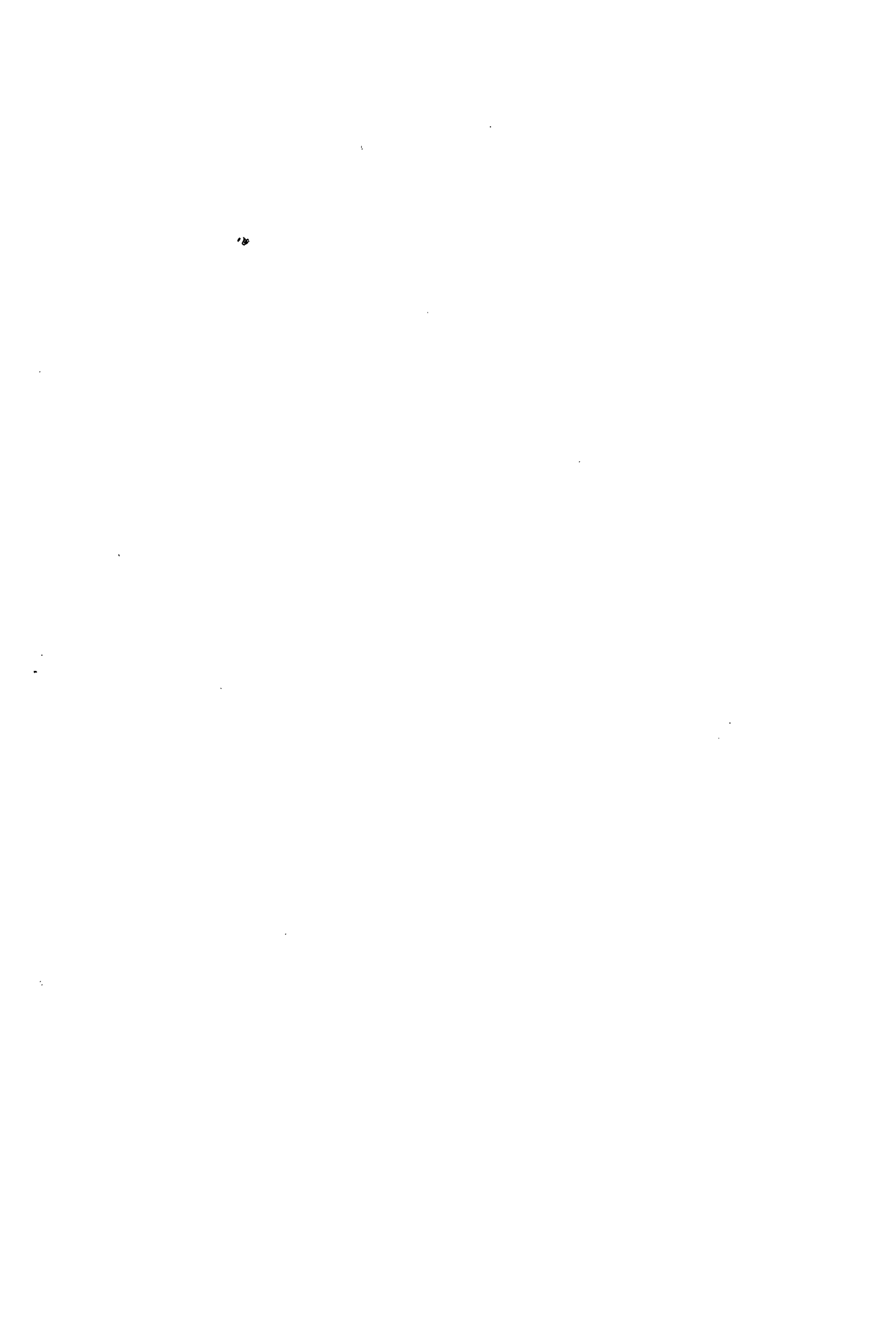
هذه قائمة موجزة لمحبي علوم شيخ الإسلام الذين نفع الله بجهودهم، وجهادهم، الدعوة الإسلامية في ربوع العالم.

وجميع الدعوات السلفية من عصره إلى يومنا هذا نشأت على منهجه وعلومه ومنهج وعلوم تلاميذه بحيث يصدق قول القائل: إنه لم يبق للمسلمين طريق للوصول إلى مذهب السلف الصالح إلا هذه المدرسة العملاقة التي بفضل الله ومنه وكرمه في نمو ورقي وازدهار يوماً فيوماً. إلا أنه وجدت شرذمة من الحاقدين على مذهب السلف من معاصريه وبعده إلى يومنا هذا الذين لم يتورعوا عن توجيه التهم والمطاعن، بل التضليل والتكفير، فكم أوذي شيخ الإسلام في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، وكم أوذي أصحابه وأتباعه في القرون المتتابعة. جزى الله شيخ الإسلام أحسن ما يجازي به عباده المخلصين، ورفع درجاته في جنات النعيم على ما قام من خدمات جليلة في مجال الإصلاح والتجديد.

ونحن نشكر القائمين على هذه الجامعة المباركة الذين نظموا هذه

الندوة العلمية العالمية وأتاحوا لمحبي علوم شيخ الإسلام فرصة ثمينة لإبراز محاسن دعوته وعلومه، وآرائه، ورد المطاعن الموجهة إليه ظلماً وجوراً، عسى الله أن ينفع بهذه الدعوة المباركة العباد والبلاد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.







مأثرة شيخ الإسلام الكبرى التركيز على أن النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة

للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي
الأمين العام لندوة العلماء لكنؤ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

سادتي وإخواني: يسعدني ويشرفني أن أسهم ـ بقدر الإمكان ـ في ندوة علمية خاصة بشيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن تيمية رحمة الله عليه، وقد كان خليقاً بأن تنظم له ندوات كثيرة في أنحاء العالم الإسلامي، فإنه يصح أن يقال: إن هذا العصر عصر ابن تيمية، وقد كان لشخصيته ودعوته ودوره الإصلاحي عودة في هذا العصر، ولكتابته وأفكاره، واتجاهاته انتفاضة لم تكن لمصلح إسلامي أو مؤلف من المؤلفين القدامى، لأسباب تحتاج في شرحها إلى كتاب مستقل.

وقد كانت الهند خليقة بأن تعقد فيها هذه الندوات لوجود صلات عميقة الجذور بين دعوته وجهاده وبين أوضاع هذه البلاد الدينية والعلمية، ولوجود بعض كبار المدافعين عن دعوته ومدرسته وتحقيقاته، كحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي من رجال القرن الثاني عشر

الهجري[1] وخلفائه وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه، وما نالت دعوتهم العلمية والإصلاحية في شبه القارة من ترحيب وقبول حسن، ونشاط وحماس في القرن الثالث عشر وبعده، وقامت على أساسها مدارس تربوية ثقافية، وحركات إصلاحية دعوية.

لذلك أعتقد ـ ومعذرة إلى من يرجع إليهم الفضل في عقد هذه الندوة ـ أنها وإن جاءت في مكانها، فقد جاءت متأخرة عن أوانها، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها، ولكل شيء أجل مسمى.

إن شيخ الإسلام ابن تيمية كان من أفذاذ المحققين والباحثين، والمصلحين المجددين، في تاريخ الإسلام، ومن عماليق الفكر الإسلامي ومن أجمعهم لشعب الإصلاح المطلوب، والدور الإصلاحي والتجديدي الشامل، منها تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد والتقاليد المشركة، ومنها نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وترجيح أسلوب الكتاب والسنة، ومنها نقد الديانات والملل المعارضة والمحاربة للإسلام والرد على الفرق والنحل المنحرفة عن الطريق القويم، والثائرة على الإسلام. فمن الديانات المسيحية المجابهة للدين الإسلامي عقيدة ودعوة، وقوة سياسية، ونفوذاً مادياً، ومن الفرق (الشيعة) التي ما أضر بالإسلام والمسلمين مثلها، وما شكك أحد مثل ما شككت في مدى نجاح جهود سيد الرسل وخاتمهم في دعوته وتربيته، وفي تميز من نشأ في أحضان النبوة، وتخرج في مدرسة الرسالة السماوية والتعاليم النبوية بطريق مباشر، عن الأجيال البشرية وأمم الأنبياء، في الصلاح والاستقامة، والسمو والطاعة لله ورسوله، وشككت في نقاء الكتاب المنزل الأخير وبقائه على أصالته ونصه وفي عقيدة ختم النبوة ووحدة الرسول ـ بما نقوله ونعتقده في الإمامة وأئمتها ـ ومنها تجديد العلوم الشرعية وتنشيط الفكر الإسلامي وتوسيع ثروته وتعميقها، وإثبات الحاجة

---

(١) وهو صاحب الكتاب الفريد في موضوعه (حجة الله البالغة) توفي سنة ١١٧٦هـ وهو المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي، ليراجع كتاب صاحب المحاضرة، الإمام الدهلوي (الجزء الرابع من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام).

إلى الاجتهاد، وكل ذلك في اتزان واقتصاد، واعتراف للأئمة المجتهدين السابقين بالفضل ورد الملام عنهم والتماس العذر لهم.

وتلك كلها مآثر علمية فكرية بطولية لا يستهان بقيمتها، ولا يقلل من شأنها ولا تتيسر ولا تتوفر إلا لمن أراد الله به الخير لهذه الأمة وقيضه للقيام بمهمة الإصلاح والتجديد.

ولكن مأثرته الكبرى الرئيسية في اعتقادي وفي ضوء دراستي المقارنة واستعراضي لتأريخ الفكر الديني، وما قام عليه من مجتمعات ومدارس، وحركات علمية وفكرية وتأليفية، هي تركيزه على حاجة البشرية إلى النبوة، والضغط على أنها الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة، وهو المدخل الرئيسي الكبير إلى تحديد مكانة شيخ الإسلام التحقيقية والتجديدية، ومنزلته بين علماء الإسلام، والدعاة والمصلحين، وذلك يحتاج إلى شيء من الشرح والإفاضة في الموضوع، وبيان (الخلفيات) التي لا يمكن الشعور الحقيقي بمدى أهمية هذه المأثرة وقيمتها، بدون الاطلاع عليها، (وبضدها تتبين الأشياء).

ماذا يثبته القرآن ويعلنه؟

يلح القرآن على أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة، التي لا يشوبها جهل ولا ضلال، ولا سوء فهم ولا سوء تعبير، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم، لا يستقل بها العقل ولا يغني فيها الذكاء، ولا تكفي سلامة الفطرة، وحدة الذهن والإغراق في القياس، والغنى في التجارب، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة، وهم أهل الصدق وأهل التجربة، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٤٣)، وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ (سورة الأعراف، الآية ٤٣). فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وأحكامه

والعمل بها، الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة والوصول إلى دار النعيم.

وقد ختم الله تعالى سورة جليلة من سور القرآن وهي سورة الصافات، وقد نفى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء فقال في آخر السورة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ (سورة الصافات، الآيات: ١٨٠ ـ ١٨٢)، والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض فلما نزه الله نفسه العلية مما يتفوه به المشركون ذكر المرسلين الذين جاءوا بالتنزيه والتقديس الكاملين، والوصف الصحيح البليغ، وسلم وأثنى عليهم لأنهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق، وفي الوصف الصحيح الصادق، وكانت بعثتهم منة على الخلق، ونعمة على الإنسانية، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة فختم كل ذلك بقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ (سورة الصافات، الآية: ١٨٢).

ضلال الفلسفة اليونانية وسر شقائها وخيبتها:

إذن قد ضل وتعب وجاهد في غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى، وما بينه وبين هذا العالم من صلة، وكيفية إحاطته به، وقدرته عليه ونفوذ أحكامه فيه عن غير طريق الأنبياء والمرسلين، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه، وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية، وإنتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضخم في بعض المجالات علمية، وحق عليهم قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (سورة آل عمران، الآية ٦٦).

وهذا سر ضلال الفلسفة الإغريقية الإلٰهية وأقطابها ونوابغها فقد غرهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الغني، وملاحمهم العظيمة التي نظموها، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة، والأقليدس والفلسفة

الطبيعية، والنجوم والفلكيات، فخاضوا في الإلٰهيات وفي موضوع الذات والصفات والخلق، والإبداع فجاؤا بالسخيف المرذول، وبالتهافت المتساقط، وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال والتحكمات والتخمينات، التي صدق حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في وصفها بقوله:

(ظلمات بعضها فوق بعض، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات، لقيل إنها ترهات، لا تفيد غلبات الظنون)[1].

وقال في موضع آخر: لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات[2].

دور ابن تيمية في التركيز على ما جاء عن طريق الأنبياء، وتزييفه لآراء الفلاسفة:

ويأتي ابن تيمية في القرن الثامن الهجري، وهو ـ أي القرن ـ مسحور مبهور بكلام الفلاسفة والمنطقيين، فيجعل الرد عليهم موضوعه الأثير الحبيب، ويركز عليه في كتاباته وبحوثه، فيقول مثلاً معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء:

(يتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل، كيف يتكلمون في غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين، ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردوداً، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً، بكلام فيه تلبيس وتدليس)[3].

وحق عليهم قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ (سورة الزخرف، الآية: ١٩)، وقوله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) تهافت الفلاسفة، ص (١٠٥).
(٢) المرجع السابق، ص (١٢٤).
(٣) منهاج السنة، بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية ٣/ ٢٧٢.

وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ (سورة الكهف، الآية: ٥١).

المقارنة بين الإلٰهيات اليونانية وعلوم الأنبياء وتعاليمهم:

إنه يتعجب حينما يتناول مباحث العلوم الإلٰهية لفلسفة اليونان وأقوال فلاسفتهم الذين يقرنونها بالعلوم والحقائق التي يأتي بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يقول في حماس زائد وقوة بالغة:

(إذا نظر في كلام معلمهم الأول ـ أرسطو ـ وتدبره الفاضل العاقل لم يفده إلا العلم بأنهم كانوا من أجهل الخلق برب العالمين، وصار يتعجب تعجباً لا ينقضي ممن يقرن علم هؤلاء بالإلٰهيات بما جاءت به الأنبياء، ويرى أن هذا من جنس من يقرن الحدادين بالملائكة بل من يقرن دهاقين القرى بملوك العالم، فهو أقرب إلى العلم والعدل ممن يقرن هؤلاء بالأنبياء، فإن دهقان القرية متول عليها كتولي الملك على مملكته، جزء من الملك).

وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء البتة، وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلٰهية، ولست أعني بذلك ما اختص الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا ينال غيرهم، فإن هذا ليس من علمهم ولا من علم غيرهم، وإنما أعني العلوم العقلية التي بينها الرسل للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرب وتوحيده، ومعرفة أسمائه وصفاته، وفي النبوات والمعاد وما جاؤا به من مصالح الأعمال التي تورث السعادة في الآخرة، فإن كثيراً من ذلك لم يشموا رائحتها، ولا في علومهم ما يدل عليها، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب، فذلك أمر أعظم من أن يذكر في ترجيحه على الفلسفة، وإنما المقصود الكلام في العلوم العقلية، دع ما جاءت به الأنبياء فإنه مرتبة عالية[١].

---

(١) الرد على المنطقيين، ص (٣٩٤ ـ ٣٩٥).

(بين ابن سينا أمر النبوة أنها من قوى النفس، وقوى النفوس متفاوتة وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة بل هو أجنبي عنها، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء وأطباء، وهو لم يعرف غير الشعراء فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء بل هذا المثال أقرب، فإن بعد النبوة عن غير الأنبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر، ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء)(١).

ويقول في موضع آخر:

(وأبعد هؤلاء عن النبوة، المتفلسفة والباطنية والملاحدة، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي، وابن سينا عظمها أكثر من ذلك فجعل للنبي ثلاث خصائص:

أحدها: أن ينال العلم بلا تعلم ويسميها القوة القدسية، وهي القوة الحدسية عنده.

والثاني: أن يتخيل في نفسه ما يعلمه فيرى في نفسه صوراً نورانية ويسمع في نفسه لا في الخارج فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين، إنما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرور عندهم.

والثالث: أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولي العالم بإحداث أمور غريبة، وهي عندهم آيات الأنبياء وعندهم ليس في العالم حادث إلا عن قوة نفسانية أو ملكية أو طبعية... وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال.

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء وأرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم،

---

(١) النبوات، ص (٢٢).

صاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء، فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء، وضل بذلك طوائف، وهذا موجود في كلام ابن سينا ومن أخذ عنه[1].

الفرق الأساسي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته:

وقد أشار إلى نقطة علمية مهمة وهو يتحدث عن الفرق المبدئي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته. يقول:

والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل، وهي طريقة الرسل، جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل، وأعداؤهم جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل[2].

توارد علمي والتقاء فكري عقائدي عجيب:

من الموافقات العجيبة والالتقاءات العلمية الدعوية العقائدية التي تثير العجب والإعجاب، ما يجده القارىء المتتبع من حدة التفكر والتوصل إلى نتيجة واحدة، والتركيز عليها، والإلحاح في سبيلها، في رسائل مصلح آخر - تحقق له من النجاح في تغيير مسير التاريخ وإنقاذ البلاد بأسرها من خطر الردة الدينية الحضارية العلمية الشاملة، التي تبناها واحتضنها ملك من أكبر الملوك وأقواهم إرادة وصرامة[3]، وحاول تطبيقها بجميع وسائل الحكومات وطاقاتها، مثل ما حصل له، وهو الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد

---

(١) النبوات، ص (١٦٨).

(٢) النبوات، ص (١٣٥).

(٣) وهو الأمبراطور المغولي جلال الدين أكبر (٩٦٣ - ١٠١٤هـ الموافق ١٥٥٦ - ١٦٠٥م) ابن الملك نصير الدين همايون بن ظهير الدين بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند، ليراجع للتفصيل كتاب المحاضر (الإمام السرهندي) الجزء الثالث من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام - طبع دار القلم - الكويت.

السرهندي، (٩٧١ ـ ١٠٣٤ الموافق ١٥٦٣ ـ ١٦٢٤م).

وذلك إن دل على شيء فإنه يدل على أن الحق واحد، وأن الإخلاص والتجرد في دراسة الكتاب والسنة، واللجوء إلى الله تعالى والإنابة إليه، والتوفيق الإلٰهي ضامن بالوصول إلى الحق والصواب، واللب اللباب، وصدق الله العظيم:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (سورة العنكبوت، الآية: ٦٩).

عجز العقل والكشف وإخفاقهما في إدراك حقائق ما وراء الطبيعة:

أثبت الإمام السرهندي ـ بدوره ـ عجز العقل والكشف وقصورهما في إدراك الأمور الغيبية، والعلوم التي هي وراء طور العقل، والمعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته، وإحراز العلم الذي لا يشوبه شك، والحقائق الثابتة القطعية التي لا تخالجها شبهة ـ بحتمية ويقين، وأن النتائج المكتسبة بهما لا تخلو من الشك والريبة، والخطأ والزلة، وسوء الفهم والتحريف ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين، وإذا كان العقل وراء طور الحس، فإن النبوة وراء طور العقل، ولا سبيل إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه وتحميده وتمجيده إلا النبوة، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم[١].

وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصدد في زلات خطيرة، وأخطاء فاحشة، فكما أن العقل الخالص، والعقل المجرد ليس له وجود، كذلك الكشف الخالص، والكشف المجرد ـ الذي يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية، والأهواء الداخلية ـ صعب الوجود، بل عديم الوجود، وقد زلت أقدام الإشراقيين وأصحاب صفاء النفس وسمو الروح، ووقعوا فريسة الأوهام

---

(١) ليرجع للتفصيل والاطلاع على نصوص الموضوع، رسائل الإمام السرهندي أو كتاب صاحب المحاضرة: (الإمام السرهندي) طبع دار القلم ـ الكويت.

والجهالات. كما زل زعماء العقل والفلسفة، فالعقل والإشراق لا يغنيان في الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئاً، والبعثة المحمدية، والرسالة النبوية هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله ـ تعالى شأنه ـ وصفاته وأحكامه.

وأعلن الإمام السرهندي في قوة ووضوح وفي رسائل كثيرة، أن من المستحيل تجرد العقل وخلوصه، وأن العقل ـ كالحواس الأخرى ـ يتأثر بالعقائد والمسلمات الداخلية، والعوامل والتأثيرات الخارجية، وأن كثيراً من استنتاجاته وأحكامه تتلون بالألوان الخارجية التي يكون وجودها في داخله أو باطنه، وتمتزج بها[1]، وأثبت أن العقل قاصر عن أن يكون حجة وبرهاناً، وأن بعثة الأنبياء هي الحجة البالغة، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة.

ولكن الحقيقة، ولب لباب العلم والعرفان أنه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف، إلا طريق الأنبياء، الذين شرفهم الله ـ تعالى ـ بمنصب النبوة والرسالة ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته، وبملكوت السماوات والأرض، وأخبرهم ـ مباشرة ومن دون وسائط ـ بما يرضاه وما لا يرضاه، وبما يأمر به وما ينهى عنه، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه، وأن نبوتهم ورسائلهم منة عظيمة على هذه الدنيا ونعمة ظاهرة، وما يعطونه من علم جليل بذات الله وصفاته العليا، وأسمائه الحسنى ـ من غير مشقة،

---

(١) ومن عجيب المصادفات والدلائل على صحة نتيجة البحث العلمي الخالص، أن الفيلسوف الألماني الشهير امانويل كانت (Emanuel Kant, 1724 - 1804) بدأ ـ بعد قرابة قرنين من وفاة الإمام السرهندي ـ البحث الموضوعي، والتحقيق العلمي في صلاحية العقل لتجرده، وتحرره عن البيئة وعوامل الوراثة، والعادات والمعتقدات، والحكم الفاصل في قضية ما من القضايا، أنه عين حدوداً لعقل ودوائر في شجاعة ووضوح واستبعد وجود العقل الخالص، ونشر كتابه الخطير (نقد العقل الخالص) (Crifique of Pure Reason) عام ١٧٨١م، الذي أحدث هزة واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية وكما يقول الدكتور إقبال: (إنه هدم أعمال المتنورين وحولها إلى كومة من تراب) (The Reconstruction of Roligios in Islam).

وبدون مقابل ـ لا يمكن إحراز ذرة من ذراته بالتأملات الفلسفية، والبحث والاستدلال، على مدى آلاف السنين، وبالمجاهدات الشاقة، وتصفية النفس، والمراقبة والتفكير لأعوام وسنين.

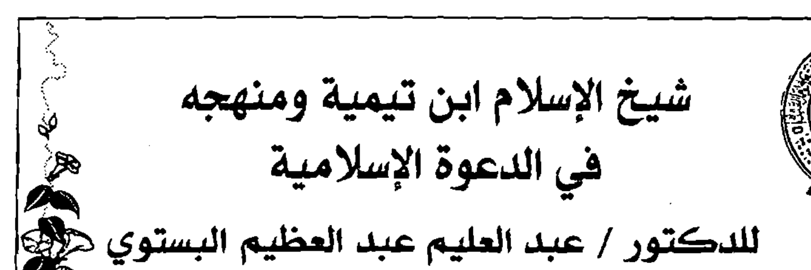
وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون(١).

وبالجملة فإن هذا العمل التجديدي ـ وهو التركيز على النبوة وأنها هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة ـ له قيمته العلمية والعملية الكبيرة والأثر البعيد في الحياة في كل زمان ومكان، وإن كان العصر عصر الفلسفات وما بعد الطبيعيات، أو كان عصر المدنيات والتنظيمات السياسيات، كما هو الشأن الآن، فإن الحياة لا تصلح ولا تستقيم إلا في ضوء الهداية السماوية والتعليمات النبوية، وصدق الله العظيم:

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (سورة المائدة، الآية ١٥ ـ ١٦).



(١) الفكرة مقتبسة من رسائل الإمام السرهندي.



شيخ الإسلام ابن تيمية ومنهجه في الدعوة الإسلامية

للدكتور / عبد العليم عبد العظيم البستوي

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

لا أريد أن أقدم إلى حضراتكم بحثاً موضوعياً أو دراسة متخصصة بجانب من جوانب حياة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني رحمه الله، فهذا عمل قد قام ويقوم به علماء متخصصون ومحققون بارزون، وسوف يقدمون أبحاثهم إليكم، وكل ما أريد أن أذكره الآن هي خواطر سريعة أو لمحات تتعلق بشيخ الإسلام ابن تيمية ومنهجه في الدعوة الإسلامية.

لقد عاش ابن تيمية في حقبة مظلمة من تاريخ الأمة الإسلامية. فقد شهد العالم في سنة ٦٥٦هـ تدمير الخلافة الإسلامية في بغداد على أيدي التتار الذين عاثوا في الأرض فساداً فأبادوا الناس ودمروا العمران وقضوا على مراكز العلم والثقافة. يصف ابن كثير هذه الفاجعة في جمل قليلة، فيقول:

(لما انقضى الأمر المقدور وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس والقتلى في الطرقات كأنها التلول وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت جيفهم وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام. فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء. فإنا لله وإنا إليه راجعون. (البداية والنهاية حوادث ٦٥٦هـ).

وبالإضافة إلى هذه الهجمات الخارجية كان العالم الإسلامي يعاني من مشكلة الصراعات والنزاعات الداخلية بين الأمراء والحكام. فكثرت الفتن والفوضى في البلاد وانتشر اللصوص وقطاع الطرق وساءت الأحوال الاقتصادية وقلت الموارد.

أما من الناحية الفكرية فكان الجمود والتقليد الأعمى هو الطابع العام على المجتمع علماء وعوام وكانت الفرق الكلامية والطرق الصوفية البدعية مسيطرة على الخواص والعوام بحيث كان الخروج منها يعتبر خروجاً على الإسلام نفسه. ولكن من رحمة الله تعالى على هذه الأمة أنه تعهد بحفظ دينها. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها. وقد وفق الله سبحانه وتعالى ابن تيمية لإحياء العالم الإسلامي وإزالة السحب القاتمة التي كانت أخفت مبادىء الإسلام السمحة على كثير من الناس. فما هي تلك الصفات والميزات التي كان يتحلى بها ابن تيمية في دعوته وجهاده؟. إنها كثيرة ولكني أشير فقط إلى أهمها.

١ ـ الدعوة إلى الله على بصيرة:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ هذه هي سنة الأنبياء في الدعوة، وهو أمر أساسي لنجاح كل دعوة، وإن الداعية يجب أن يكون محيطاً بدعوته عالماً بكل ما يتعلق بها، ملماً بكل جوانبها وما يرد عليها من اعتراضات أو شبه وأجوبتها المقنعة، وبقدر تعمق الداعية في هذه الأمور يكون نجاحه. وإذا علمنا أن المصدر الأساسي للدعوة الإسلامية هو كتاب الله وسنة رسوله، فالداعية المسلم يجب أن يكون عالماً بهما عارفاً لمعانيهما ومستحضراً لهما، وهذه هي الميزة الكبرى التي نراها في ابن تيمية رحمه الله، فقد كان بيته بيت علم وفضل وأنه لما اضطر إلى الخروج من بلده حران بسبب غارات التتار كان أحب متاعه إليه الكتب العلمية التي جروها على مركب إلى دمشق، وقد حفظ ابن تيمية القرآن وفهم معانيه ودقائق تفسيره وحفظ السنة، وبالإضافة إلى ذلك فقد أتقن كل

العلوم الرائجة في عصره فتعلم الفقه والعلوم العربية والفلسفة والمنطق وغيرها حتى فاق فيها أصحابها، حتى قال فيه أحد معاصريه:

(قد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك).

وقال ابن دقيق العيد وهو من كبار المحدثين في عصره: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد. وقلت: (ما كنت أظن أن الله بقى يخلق مثلك).

ومن الذي لا يعرف المزي صاحب الموسوعات في علم الحديث وهو يشهد لابن تيمية بقوله: (ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه).

٢ ـ التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

يرى ابن تيمية كغيره من علماء السلف الصالح أن النموذج الكامل للدعوة الإسلامية هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، ولذلك فهم يحرصون كل الحرص على أن يبقى الإسلام غضاً طرياً كما أنزله الله تعالى في كتابه وبينه الرسول ﷺ في سنته ولذلك فإنهم كلما رأوا ثغرة في صرح الإسلام الشامخ ـ صغيرة كانت أم كبيرة ـ سعوا لسدها والوقوف في وجهها فيظن من لم يفهم طريقتهم أنهم لا يهتمون إلا بتلك الجزئية ويغيب عن بالهم أن كل علم مجموعة من أجزاء عديدة، فإذا ذهبت الأجزاء واحدة تلو الأخرى فلن يبقى في الكل إلا اسمه.

رأى ابن تيمية في عصره كثيراً من الانحرافات في العقائد والأعمال قد تغلغلت في عادات وتقاليد المسلمين حتى أصبح الباطل حقاً والحق باطلاً، ومن أنكر على باطل فكأنه يدعو إلى ضلالة، ولذلك فقد كرس جهوده لتصفية أفكار المسلمين وأعمالهم من هذه الانحرافات بالعلم والحجة

والبرهان، ودعا الناس إلى ترك الأفكار الباطلة والبدع والخرافات المنافية لتعاليم الإسلام. لقد دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى والإيمان بكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله من أسمائه وصفاته بدون تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لقد دعا إلى ترك البدع والمنكرات التي كانت تنتشر في صفوف المسلمين باسم التصوف والزهد وقد أوذي في سبيل ذلك كثيراً فصبر واستمر وبين للناس أن عقيدة السلف هي الأعلم والأسلم، وهذه الأفكار مبثوثة في كتبه ومؤلفاته.

وليس هذا في العقائد فقط بل في الفروع أيضاً، يرى الإمام ابن تيمية ـ مع شدة احترامه للأئمة والعلماء ـ أن التعصب لواحد منهم وإهمال جهود وفهوم الآخرين أمر غير صحيح فيقول:

(من تعصب لواحد من الأئمة بعينه فقد أشبه أهل الأهواء سواء تعصب لمالك أم لأبي حنيفة أم لأحمد، ثم غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلاً بقدره في العلم والدين وبقدر الآخرين فيكون جاهلاً ظالماً وأن يأمر بالعلم والعدل وينهى عن الجهل والظلم. قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، وهذا أبو يوسف ومحمد اتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله وهما خالفاه في مسائل لا تكاد تحصى لما تبين لهما من السنة والحجة ما أوجب عليهما اتباعه وهما مع ذلك يعظمان إمامهما).

وكتاب ابن تيمية رفع الملام عن الأئمة الأعلام خير شاهد لهذا الغرض.

٣ ـ الإحاطة الكاملة بأفكار الآخرين:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، فالداعية قد يحتاج إلى جدال ونقاش مع خصومه، ولقد واجه ابن تيمية رحمه الله في حياته أنواعاً من الفرق والمذاهب الكلامية من المسلمين وغير المسلمين فهناك الفلاسفة والمتكلمون والمعتزلة والأشعرية والماتريدية

وأهل التصوف والحلول والروافض والنصيرية والقرامطة واليهود والنصارى وغيرهم، ونرى أن ابن تيمية قد ناقش كل هذه الفرق والأديان في كتبه ومؤلفاته ورد على شبههم وضلالاتهم بالأدلة والبراهين القاطعة. وهنا تتجلى عبقرية ابن تيمية فقد درس كل هذه المذاهب والفرق وعقائدها وشبهاتها دراسة عميقة فسبر غورها وعرف أسرارها ورد على كل صغيرة وكبيرة، وقد خلف عشرات من الكتب الكبيرة أو الصغيرة في هذا الباب، ككتابه الجواب الصحيح ومنهاج السنة وبيان تلبيس الجهمية ودرء تعارض العقل والنقل وغيرها من الكتب التي لا يوجد لها مثيل في بابها في يومنا هذا، والغريب أن ابن تيمية كان يملي بعض هذه الكتب في مجالس معدودة من ذاكرته فقط.

٤ ـ معايشة الأحداث:

من أهم عوامل نجاح أي داعية أن يكون عضواً فعالاً في المجتمع الذي يعيش فيه يشارك في آلامهم وآمالهم وفي هموم المجتمع وأحلامه ويوجههم في السراء والضراء والمنشط والمكره وهكذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني ففي حصار التتار على دمشق عام ٦٩٩هـ خاف أهل دمشق وهرب الأمراء والحكام والعلماء والأعيان وأصبحت دمشق بلا قائد ولا نظام وخرج المجرمون والمفسدون من سجونهم فعاثوا في الأرض فساداً، وهنا وقف ابن تيمية موقف الأبطال الشجعان فجمع كبار من بقي في البلد، واتفق معهم على ضبط الأمور في البلد وخرج على رأس وفد إلى ملك التتار قازان وتحدث معه وطلب منه فك الحصار والعودة حيث أتوا، وقذف الله في قلبه الهيبة والرعب حتى باح قائلاً بعد مغادرة الشيخ:

ومن هذا الشيخ؟ إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه.

وقد وعدهم بالأمان إلا أنه خان العهد ودخل جنوده المدينة ونهبوا وسلبوا ثم رجعوا.

وفي عام ٧٠٠هـ عزم التتار على غزو دمشق مرة أخرى فوقف ابن تيمية موقف المجاهد والمناضل واجتمع بالأمراء والحكام وسافر إلى السلطان في مصر لحثه على مجابهة التتار حتى أصبحت الخطة كاملة فلما بلغ التتار هذا الخبر خارت عزائمهم فتركوا نية الغزو.

ولكنهم عادوا في ٧٠٢هـ وعاد ابن تيمية وأصحابه إلى الحث على الجهاد ومحاربة الغزاة ويعدهم بالنصر ويحلف بالله (إنكم لمنصورون) فيقول له بعض الأمراء: قل: (إن شاء الله) فقال (أقولها تحقيقاً لا تعليقاً) وبدأت المعركة المعروفة بمعركة شقحب، واستبسل ابن تيمية وأخوه وأصحابه فقاتلوا مستميتين ودخلت جنود الشام ومصر في معركة ضارية مع التتار في شهر رمضان حتى هزموهم بإذن الله وانتهى التتار إلى الأبد.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ إن موقف ابن تيمية في غزوات التتار قد جعله ملكاً غير متوج لأهل دمشق وأصبح أهلها يفدونه بكل غال ونفيس وأصبح الأمراء يستشيرونه في كل صغيرة أو كبيرة وهو ينصحهم ويشير عليهم دون أن يقبل أي منصب رسمي وبقي عاكفاً على دروسه ودعوته وفي تصحيح العقائد والأعمال إلا أن مكانته هذه لم ترق في عيون الحاسدين الذين كانوا تولوا بالأمس على أدبارهم وكانوا يرون التزلف إلى الحكام والأمراء شرفاً لهم، فأصبحوا يكيدون له المكائد الواحدة تلو الأخرى ويبحثون فيه عن أمور يتخذونها ذريعة للنيل منه، ولما فشلت محاولاتهم في دمشق لشعبيته العارمة لجأوا إلى السلطان في مصر وأوهموه بأن وجود ابن تيمية خطر على حكومتهم فطلب هناك وحبس في محبس الجب بتهمة أن الله فوق العرش حقيقة وأنه يتكلم بحرف وصوت وبقي في السجن ١٨ شهراً، ولما خرج منه بعد فترة، نفي إلى الإسكندرية ولكن سرعان ما انكشفت الحقيقة وأراد السلطان ناصر بن قلاوون وكان محباً لابن تيمية ومعترفاً بفضله أن ينتقم له ويقتل أعداءه، ولكن ابن تيمية بكمال التسامح أفتى (بأن دماءهم حرام عليه. وأنه لا يحل إنزال الأذى بهم. فقال له السلطان إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك

مراراً، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل. ومن آذى الله فالله ينتقم منه وأنا لا أنتصر لنفسي).

ولم يكن هذا آخر عهد ابن تيمية بالابتلاء بل حبس مرة أخرى أكثر من خمسة أشهر في قلعة دمشق بسبب إفتائه بعدم وقع الطلاق بالحلف به.

ولم يزل الأعداء يكيدون له ولم يزل ابن تيمية يدعو إلى الله ويجاهر بالحق في كل مكان فأخرجوا له فتوى كان أفتى بها قبل سبعة عشر عاماً في النهي عن شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين وحكموا عليه بالسجن مرة أخرى وظل فيه حتى وفاته.

ولكن ابن تيمية بكمال إيمانه وفضله كان يعتبر السجن خلوة وفرصة للانكباب على العلم والتأليف والتصنيف حتى إنه قال لما وصله خبر الحبس للمرة الثالثة: (أنا كنت أنتظر ذلك هذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة) وألف كتباً كثيرة وهو محبوس، ولكن لم يرق الأعداء هذا الحال فسعوا إلى السلطان حتى سحبت منه الكتب والأوراق والمحابر والأقلام. فبدأ يكتب على جدران السجن والأوراق المتناثرة. وحفظ لنا التاريخ شيئاً من ذلك.

وكان يقول وهو محبوس: ما يصنع أعدائي بي. أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي في بلدي سياحة.

هذه هي بعض الدروس التي نستطيع أن نتعلمها من حياة ابن تيمية، وهي أسوة للدعاة والعاملين في سبيل الله أينما كانوا وحلوا. والحقيقة أن حياة ابن تيمية كلها دروس وقدوة.

ولكي تظل أفكار ابن تيمية ومعارفه نبراساً لكل المثقفين في الأجيال القادمة أقترح ما يلي:

١ ـ إصدار موسوعة شاملة لكل مؤلفات ابن تيمية. وإنا لنقدر ذلك الجهد العظيم الذي بذلته الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية في إصدار مجموع فتاوى شيخ الإسلام

ابن تيمية، ولكن هناك مؤلفات ورسائل أخرى خارجة عن ذلك المجموع. فلو قامت جهة ما بإصدار القسم الثاني من الموسوعة فإن ذلك سييسر كثيراً الاستفادة منه في كافة المواضيع.

٢ ـ اختيار مجموعة من كتب ابن تيمية ونشرها باللُّغة العربية والأردية والإنجليزية معاً، مثل كتابه: (رفع الملام، والسياسة الشرعية، ومنهاج السنة باختصار الذهبي وغيرها).

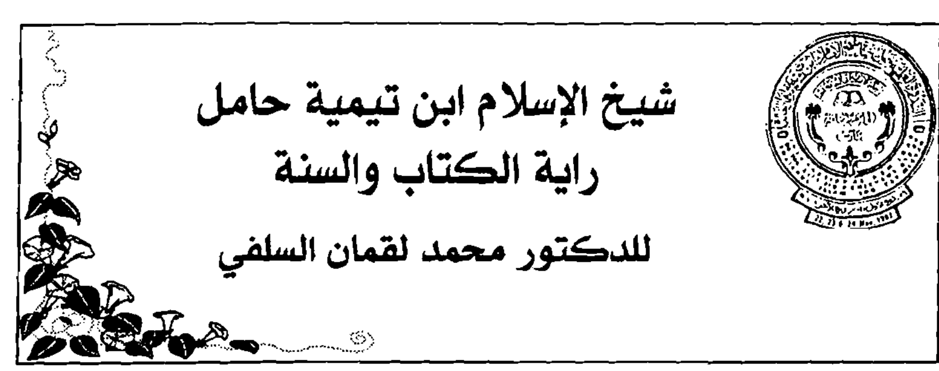
٣ ـ إنشاء أكاديمية باسم (أكاديمية ابن تيمية) للاهتمام بتراثه ومعارفه ونشر كتبه ومؤلفاته.

٤ ـ اختيار مجموعة من الكتب التي ألفت في سيرته ودراسة علومه وأفكاره ونشرها بأكثر من لغة في كافة دول العالم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



شيخ الإسلام ابن تيمية حامل راية الكتاب والسنة

للدكتور محمد لقمان السلفي

الحمد لله العلي القدير الذي هدانا إلى سواء السبيل بكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وجعله رحمة وهدى وبشرى للذين يعملون الصالحات، وبنبيّه الذي بعثه من الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٦٤) وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فمما لا شك عند كل مسلم عالم بموارد الدين الإسلامي ومصادره، أن هذا الدين مبني على أساسين لا ثالث لهما، وهما القرآن والسنة، فالقرآن الكريم هو الأصل الأول الذي يجب على كل مسلم أن يرجع إليه في كل أمر ويحكمه في كل مسألة ويعمل بما ورد فيه من الأحكام الشرعية والأوامر الربانية ويؤمن بكل ما جاء فيه من المبادىء والعقائد. كما أن السنة النبوية هي الأصل الثاني الذي يفزع إليه المسلم عند كل حادث ويسترشد به في جميع أموره العقدية والشرعية والدينية والدنيوية.

والآيات والأحاديث في بيان هذه الحقيقة وتجليتها كثيرة جداً، لا داعي لسردها في هذه العجالة لذا سوف أكتفي ببعض تلك الآيات والأحاديث.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (سورة الأحزاب، الآية: ٣٦).

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (سورة النساء، الآية: ٦٥).

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة النور، الآية: ٦٣).

وقال رسول الله ﷺ: (لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به، أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه)[1].

وقال ﷺ: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)[2].

وقد سلك سبيل التمسك بالكتاب والسنة الصحابة وتابعوهم وأئمة الهدى، فكانوا إذا وجدوا مسألة في القرآن لم يتحولوا عنه إلى غيره، فإذا لم يجدوا في كتاب الله، أخذوا بسنة رسول الله ﷺ ولم يقبلوا منهما بديلاً، ولم يعارضوا نص الكتاب والسنة بالاحتمالات العقلية والخيالات النفسية والعصبية المذهبية، وقد وردت آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين تدل على

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٦/ ٥٨)، وأبو داود في السنة، باب لزوم السنة، (رقم ٤٦٠٥)، والترمذي في العلم، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، وابن ماجه في المقدمة (رقم ١٣)، والحاكم (١/ ١٠٨، ١٠٩)، والدارمي في المقدمة (١/ ١٧١).

(٢) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٣٠ ـ ١٣٣)، والدارمي: (١/ ١٤٤)، وأبو داود في السنة، (رقم ٤٦٠٤)، والترمذي في العلم، (رقم ٢٦٦٠)، وابن ماجه في المقدمة، (رقم ١٢)، والحاكم (١/ ١٠٩).

أنهم لم يرجحوا شيئاً على حديث رسول الله ﷺ في أية حال من الأحوال.

فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اتقوا الرأي في دينكم. وكان يقول: إن أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين يسألوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم[1].

وقال ابن عباس: إنما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فمن قال بعد ذلك برأيه فما أدري أفي حسناته أم في سيئاته[2].

واستمرت الأمة تأخذ عقائدها وأحكامها الشرعية من الكتاب والسنة رأساً. وترى فيهما الكفاية والشفاء. ثم جاء بعد ذلك عصر الفتوح واتسعت رقعة الدولة الإسلامية ودخل في الإسلام كثير من أهل الديانات الأخرى واختلطوا بالمسلمين في كل مكان، وسهل هذا الاختلاط على المسلمين الوقوف على ما عند هؤلاء من مذاهب وأفكار ونظريات وتشريع، فتأثروا بها ووجد أناس أخذوا يفسرون بها الإسلام وعقيدته، ثم جدت فتن وأحداث سياسية كبرى شقت صفوف المسلمين وفرقت جماعتهم وأثارت بينهم مجالات سياسية ودينية اصطبغت بمر الزمن بصبغة الدين، وظهرت في الإسلام فرق جديدة كالخوارج والشيعة والمرجئة، وأخذت تتجادل حول بعض المسائل الدينية، كما وجدت مذاهب فقهية عديدة، ووجد لكل منها متعصبون من عامة المسلمين وخاصتهم وتناحروا فيما بينهم وتباغضوا وتعصب كل حزب بما لديه حتى وصل بهم الأمر إلى رفض الكتاب والسنة ورميهما وراء ظهورهم.

ولكن رغم كل هذه العصبيات والبعد عن المنابع الأصلية للدين، وجد في كل عصر ومصر أئمة مهتدون ومحدثون عظام ومجددون للدين الحنيف. دعوا الأمة الإسلامية إلى التمسك بالكتاب والسنة والعودة إليهما، وبينوا لها

---

(١) انظر: إيقاظ الهمم (ص ١٢).

(٢) المصدر نفسه، (١٣).

أنه لا خلاص لها من أمراضها إلا بالعودة إلى الدين الصحيح والبعد عن الأفكار المستوردة والمذاهب الهدامة والفلسفات والنظريات التي لا صلة لها بالدين الصحيح.

فلما كان القرن السابع الهجري اشتد الأمر وأصْبح الظلام دامساً، وافترقت الأمة إلى فرق ومذاهب، وتناحر المسلمون بينهم من أجل عقائد لا صلة لها بالدين. وتعصب كل صاحب مذهب لمذهبه أشد تعصب حتى نسوا القرآن والسنة، وأخذت الأمة ترزح تحت دياجير الظلام الحالك. فأظهر الله في أواخر القرن السابع الهجري زعيم المجددين وقائد النهضة الإسلامية وحامل راية الكتاب والسنة، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الذي حمل مشعل الدعوة إلى الكتاب والسنة والرجوع إليهما في كل حال وفي كل عصر وبلد، وقد كان رحمه الله قوياً في إيمانه، مخلصاً لدعوته، جريئاً في الحق، لا يبالي بما يلقى من الأذى في سبيله، فأعلن مذهب السلف الصالح في جرأة وصراحة، وهاجم جميع الفرق والمذاهب المنحرفة القائمة في عصره، ودعا الناس إلى طريقة السلف الأول من الصحابة والتابعين وحارب كل غريب مستحدث، وخلص الدين مما لحق به من أوضار أو شابه من فساد.

وفي السطور الآتية سوف أحاول أن أكتب عن ناحية مهمة من نواحي حياته العلمية والدعوية، بل هي أهم ناحية في حياته وأساس دعوته، ألا وهي حمله راية الدعوة إلى الكتاب والسنة وإرجاع الإسلام إلى منابعه الصحيحة وإقامة الحجج الدامغة على أن الإسلام لا يعني غير الكتاب والسنة وأن كل ما هو غير ثابت بأحد منهما فهو مردود ومرفوض لا يساوي جناح بعوضة ولا يعادل ذرة من التراب.

حتى استطاع أن يخلص الإسلام من الشوائب، وقدمه للأمة الإسلامية في صورته الأصلية البعيدة عن الزيغ والضلال.

فأقول وبالله التوفيق:

حياته ونشأته: هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن

عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الدمشقي.

ولد بمدينة (حران) إحدى مدن العراق، وهي الآن في تركيا، وكانت آنذاك مهد العلم والعلماء، ولد في يوم الاثنين الموافق اليوم العاشر من شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة النبوية، هاجر مع أبيه وعمره سبع سنوات إلى مدينة دمشق بعد أن أغار التتار على حران، وتجشم الصعاب مع أسرته في الطريق. كانوا يسيرون ليلاً خوفاً من العدو، وهم يحملون متاعهم الثمين وهو الكتب على عجلة، لعدم توافر الدواب. ويكاد العدو يلحقهم، لولا فضل الله ورحمته.

وكان والده من ذوي الفضل والعلم واشتهر أمره في الوعظ والتدريس والإرشاد والتعليم بجامع دمشق الأعظم حيث تولى مشيخة دار الحديث السكرية[1]، توفي والده سنة ستمائة واثنين وثمانين بدمشق، رحمة الله عليه.

يكاد يجمع المؤرخون على أن ابن تيمية نشأ في عفاف وتقى وصلاح وتصون، وعود نفسه على الاقتصاد في الملبس والمأكل. وكان براً بوالديه ورعاً، عابداً، ناسكاً، صواماً، قواماً، وقافاً عند حدود الله، آمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، راغباً في العلم وناهماً له، لا يمل من المطالعة ولا يكل من البحث.

كلما دخل باباً من أبواب العلم فتحه الله عليه على مصراعيه، ويفوق على حذاق ذلك الفن وأئمته، كان يحضر المجالس والمحافل العلمية من صغره، فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يتحير منه أعيان ذلك العلم.

وكان فصيح اللسان، سريع القراءة، قوي الذاكرة، بل نادرة في الحفظ. وقف حياته للعلم والعلماء، والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله والجهاد في سبيل إعلاء كلمته. أشغلته مهام الأمور الدينية والعلمية، فلم يتزوج ولا تسرى ولا تملك مالاً ولا عقاراً، ولم يهتم بأمور الدنيا قط،

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ، (ص ١٤٩٦)، والبداية والنهاية (١٣/٣٠٣).

أخوه شَرف الدين هو الذي كان يقوم بمصالحه، ما كان يطلب منه غداءاً ولا عشاءاً في أغلب الأحيان.

حج سنة إحدى وتسعين وستمائة وعمره ثلاثون سنة، ورجع وقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، وأصبح شيخ الإسلام والمسلمين بشهادة أصدقائه ومعارضيه، رحمة الله عليه.

كبار مشايخه: سمع من خلق كثيرين، من أكثر من مائتين، وسمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية، ومن هؤلاء: الشيخ شمس الدين والشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم والشيخ أبو اليسر والكمال ابن عبد الله والمجد ابن عساكر والجمال يحيى بن الصيرفي وأحمد بن أبي الخير والقاسم الإربلي والشيخ فخر الدين ابن البخاري والكمال عبد الرحيم وأبو القاسم بن علان وأحمد بن شيبان وزينب بنت مكي.

وأقبل على تفسير القرآن الكريم، وعني بالحديث النبوي، ونظر في الكلام وفي الفلسفة وفي العلوم الأخرى الرائجة في ذلك الوقت، وبرز في كل منها على أهله، وتأهل للفتوى والتدريس وعمره دون العشرين سنة[١].

براعته في تفسير القرآن الكريم: أقبل على تفسير القرآن الكريم وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال وخاطر وقاد، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها.

قال الذهبي: ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، وقال: كان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه. لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين. وقال: حكى لي من سمعه يقول: إني وقفت على مائة وعشرين تفسيراً استحضر من الجميع الصحيح الذي فيها[٢]، وقال ابن كثير: جلس الشيخ تقي الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيء له لتفسير القرآن العزيز -فابتدأ من أوله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخلق

(١) العقود الدرية. (ص ٣) وتذكرة الحفاظ، (ص ١٣٩٦).

(٢) الوافي بالوفيات (٧/ ١٥، ١٦).

الكثير والجم الغفير من كثرة ما يورد من العلوم المتنوعة المحررة[١].

ولقد أملى في تفسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مجلداً كبيراً، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ نحو خمساً وثلاثين كراسة[٢].

براعته في علوم السنة: عني بالحديث النبوي وسمع الكتب الستة والمسند للإمام أحمد مرات ومعجم الطبراني الكبير وما لا يحصى من الكتب، ونسخ الأجزاء، ودار على الشيوخ، وخرج، وانتقى، وبرع في الرجال والطبقات وعلل الحديث وفقهه، وحصل ما لم يحصله غيره، وصار من أئمة النقد، فقل من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزواً إلى أصوله وصحابته. وكان شديد الاستحضار للسنة النبوية وقت إقامة الدليل. وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث أنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عليه. وهكذا نصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين، وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السنن المحمدية، حتى أعلى الله مناره وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له.

كتب الحافظ ابن سيد الناس في جواب سؤالات الدمياطي في حق ابن تيمية: ألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكان يستوعب السنن والآثار حفظاً[٣].

وقال الذهبي في تأريخه الكبير بعد ترجمة طويلة: بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث[٤].

وترجم له ابن الزملكاني ترجمة طويلة وأثنى عليه ثناءاً عظيماً وقال: ما رأينا في عصرنا هذا من يستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٣٠٢).
(٢) الأعلام العلية، (ص ٢٤).
(٣) الشهادة الزكية، (ص ٢٦).
(٤) الكواكب الدرية، (ص ١٥٤).

وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة[1].

وقال الحافظ المزي: ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه[2].

وقال أبو حفص البزار: أما معرفته وبصره بسنة رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله وقضاياه ووقائعه وغزواته وسراياه وبعوثه وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه والمنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم وأحوال مجاهداتهم في دين الله وما خصوا به من بين الأمة، فإنه كان رضي الله عنه من أضبط الناس لذلك وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يرويه منه، فإنه قل أن ذكر حديثاً في مصنف وفتوى أو استشهد به أو استدل به إلا عزاه، في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح أو الحسن أو غيرها، وذكر اسم راويه من الصحابة، وقل أن يسأل عن أثر إلا وبين في الحال حاله، وحال أمره، وذكره.

ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته الأولى بمصر أخذ وسجن وحيل بينه وبين كتبه صنف عدة كتب صغاراً وكباراً وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار وأقوال الصحابة وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم، وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذلك فيها، وفي أي موضع هو منها. كل ذلك بديهة من حفظه، لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه، ونقيت واعتبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلل ولا تغير. ومن جملتها كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول) وهذا من الفضل الذي خصه الله تعالى به[3].

وقال في مكان آخر: وأما ما وهبه الله تعالى ومنحه من استنباط المعاني من الألفاظ النبوية والأخبار المروية وإبراز الدلائل على المسائل،

(١) مقدمة علم الحديث لابن تيمية، ص (٥٤).
(٢) الرد الوافر (ص ١٢٩).
(٣) الأعلام العلية، (ص ٢٤، ٢٥).

وتبيين مفهوم اللفظ ومنطوقه. وإيضاح المخصص للعام، والمقيد للمطلق، والناسخ للمنسوخ وتبيين ضوابطها ولوازمها وملزوماتها وما يترتب عليها وما يحتاج فيه إليها، حتى إذا ذكر آية أو حديثاً وبين معانيه وما أريد به، يعجب العالم الفطن من حسن استنباطه، ويدهشه ما سمعه أو وقف عليه منه[1].

ولأجل هذا قال الذهبي بعد أن أطال الكلام عن ابن تيمية وأثنى عليه كثيراً: وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، والله لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله وأنه ما رأى مثل نفسه لما حنثت[2].

وقال الحافظ عماد الدين الواسطي: والله ثم والله لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علماً وعملاً، وحالاً وخلقاً واتباعاً وكرماً وحلماً وقياماً في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته[3].

دعوته للرجوع إلى الكتاب والسنة:

وقد نهج رحمة الله عليه النهج الذي عاد بالإسلام إلى عهد الصحابة في عقائده وأصوله وفروعه، وإذا استيقن أن ما يقوله هو ما كان عليه الصحابة دافع عنه بالحجة والبرهان واستخدم في هذا السبيل كل ما أوتي من الأسباب العلمية، فأثار إعجاب كبار العلماء وأغضب المبتدعة، واحتسب الأجر ونال الأذى في هذا السبيل.

قال رحمه الله: وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة، المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً، يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ، في شيء من سنته، دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ[4].

وقال: وليس لأحد أن يعارض الحديث الصحيح عن النبي ﷺ بقول

---

(١) المصدر نفسه، (ص ٣١، ٣٢).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة، (٤/ ٣٩٠).
(٣) العقود الدرية، (ص ٣١١).
(٤) رفع الملام عن الأئمة الأعلام، (ص ١٠).

أحد من الناس، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما لرجل سأله عن مسألة فأجابه فيها بحديث، فقال له: قال أبو بكر وعمر، فقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبو بكر وعمر.

وقال: ثم إننا، مع العلم بأن التارك الموصوف معذور، بل مأجور لا يمنعنا أن نتبع الأحاديث الصحيحة التي لا نعلم لها معارضاً يدفعها وأن نعتقد وجوب العمل بها على الأمة، ووجوب تبليغها[1].

وقال رحمه الله: قد ذم الله في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نشأ عليه من دين آبائه، وهذا هو التقليد الذي حرمه الله ورسوله، وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول. وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد. فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والرسول طاعته فرض على كل أحد من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان، في سره وعلانيته وفي جميع أحواله.

ثم ذكر رحمه الله الآيات التي تدل على أن اتباع الرسول من الإيمان، ثم قال: وقد أوجب الله طاعة الرسول على جميع الناس في قريب من أربعين موضعاً من القرآن، وطاعته طاعة لله. إلى أن قال: والمقصود هنا أن التقليد المحرم بالنص والإجماع، أن يعارض قول الله ورسوله بما يخالف ذلك كائناً من كان المخالف لذلك.

وقال: إن الله سبحانه لما ذكر حال من يقول على الله بلا علم بل تقليد السلف، ذكر حال من يكتم ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٧٤).

---

(١) المصدر نفسه، (٥٤، ٦٨).

ومن ادعى إجماعاً يخالف نص الرسول من غير نص يكون موافقاً لما يدعيه، واعتقد جواز مخالفة أهل الإجماع للرسول برأيهم، وأن الإجماع ينسخ النص، كما تقوله طائفة من أهل الكلام والرأي، فهذا من جنس هؤلاء.

وقال رحمه الله: وكثير من الفقهاء المتأخرين أو أكثرهم يقولون: إنهم عاجزون عن تلقي جميع الأحكام الشرعية من جهة الرسول، فيجعلون نصوص أئمتهم بمنزلة نص الرسول ويقلدونهم ولا ريب أن كثيراً من الناس يحتاج إلى تقليد العلماء في الأمور العارضة التي لا يستقل هو بمعرفتها. ومن سالكي طريق الإرادة والعبادة والفقر والتصوف من يجعل شيخه كذلك، بل قد يجعله كالمعصوم! ولا يتلقى سلوكه إلا عنه، ولا يتلقى عن الرسول سلوكه، مع أن تلقي السلوك عن الرسول أسهل من تلقي الفروع المتنازع فيها، فإن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، وهذا كله مبين في الكتاب والسنة، فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لابد للمؤمن منه.

ولهذا جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول، ولا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة.... إلى أن قال: ولكن كثير من أهل العبادة والزهادة أعرض عن طلب العلم النبوي الذي يعرف به طريق الله ورسوله، فاحتاج لذلك إلى تقليد شيخ. وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد، كلها منصوصة في الكتاب والسنة وإنما اختلف أهل الكلام لما أعرضوا عن الكتاب والسنة، فلما دخلوا في البدع وقع الاختلاف، وهكذا طريق العبادة عامة ما يقع فيه من الاختلاف إنما هو بسبب الإعراض عن الطريق المشروع، فيقعون في البدع، فيقع فيهم الخلاف، وهكذا الفقه إنما وقع فيه الاختلاف لما خفي عليهم بيان صاحب الشرع[1].

---

(١) انظر: مجموعة الرسائل الكمالية، (فصل في التقليد) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وقال ابن رجب في طبقاته: وبلغني من طريق صحيح عن ابن الزملكاني أنه سئل عن الشيخ، يعني ابن تيمية، فقال: لم ير من خمس مائة سنة ـ أو قال أربعمائة سنة، والشك من الناقل، وغالب ظنه أنه قال: من خمسمائة سنة ـ أحفظ منه[١].

وقال ابن فضل الله العمري: أخمل من القرناء كل عظيم، وأخمد من أهل البدع كل حديث وقديم، ولم يكن منهم إلا من يجفل عنه إجفال الظليم ويتضاءل لديه تضاؤل الغريم[٢].

وقال الحسن بن حبيب: ابن تيمية بحر زاخر في النقليات، وحبر ماهر في حفظ عقائل العقليات، وإمام في معرفة الكتاب والسنة[٣].

تجديده لمعالم الدين:

ذكر علماء الإسلام أن أهل الإيمان يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أنواع حسب مدارج الإيمان ومراتب العلم والعمل الصالح: السابقون الأولون ثم المقتصدون ثم ضعفاء الطريق. وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل[٤].

فقد أشير في هذا الحديث إلى الدرجات الإيمانية الثلاث، والحديث صريح في الدرجات الثلاث بالنسبة للذين يحاربون البدعة ويجاهدون ضد

---

(١) الرد الوافر، (ص ٥٦).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٩٦).

(٣) المصدر نفسه، (ص ٩٦).

(٤) رواه مسلم في الإيمان، حديث (رقم ٨٠) والترمذي في الزهد، (باب ٣٩)، والنسائي في البيعة، (باب ٣).

الذين يحاربون الدين وشريعته. ولكن الأمر ليس محصوراً في الرد على المبتدعة فقط بل هو سار في جميع ميادين العلم والعمل. ولكن المجال الأكبر والأوسع لهذا هو الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله وتبليغ دين الله إلى البشرية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومواجهة أعداء الله وأصحاب البدع.

والطبقة المثلى من الطبقات الثلاث والدرجة العليا من درجات الإيمان هم الذين اختارهم الله لإصلاح البشرية، ودعوة الشعوب والأقوام إلى الحق الذي لا مرية فيه. وهم الذين يستنيرون بنور النبوة، وينهجون منهج الأنبياء، ويسلكون السبيل الذي هو سبيل الحق والرشاد، وهم ورثة الأنبياء بكل ما تعني الكلمة من المعاني السامية.

ولكن هؤلاء العظماء لا يأتون في كل زمان، ولا يأتون إلا في عدد قليل. إنهم لا يأتون إلا ليصلحوا ما أفسده الناس في عصرهم، وما لم يستطع أن يصلحه عظماء ذلك العصر وعلماؤه ومصلحوه ودعاته. إنهم لا يبالون بالعراقيل التي تواجههم في الطريق، ولا يخافون في الله لومة لائم، ولا يخضعون للمصائب والبلايا التي تريد أن تسد عليهم الطريق إلى الأمام. وهم لا يقفلون أبواب بيوتهم على أنفسهم خوفاً من الشدائد وحفاظاً على أنفسهم، زاعمين أن الفتن أدلهمت، والشرور استولت على الأمور. فلا عليهم إلا أن يحموا أنفسهم من الشرور والفتن. إنهم يأتون في العصر المليء بالفتن والبدع والخرافات، العصر الذي يزعم فيه كبار العلماء أن الحق والدعوة إليه أن لا تتزلزل أقدامهم وأن لا يقعوا فيما وقع فيه الناس. فيأتي ذلك المجدد الذي لا يبالي بأي شيء في سبيل الإصلاح، ويستسقي من نور النبوة ويتقدم لإصلاح معالم الدين التي أفسدها المفسدون من المبتدعة والملاحدة والمنطقيين والفلاسفة وأهل الأهواء والفرق الضالة، ويصعد في الدرجات العلى حتى يصل إلى المكان الذي لا يمكن أن يتصور الوصول إليه عظماء ذلك العصر.

ولقد كانت نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري عصراً مليئاً

بالأحداث السياسية والدينية والفكرية، الأمر الذي هز كيان الأمة الإسلامية وأبعدها من المنابع الصافية للإسلام، وأشغلها بعقائد وأفكار لم تكن تمت إلى الإسلام بشيء. دخلت الفلسفة والمنطق إلى حياة الأمة، وجعلت أفكار اليونان تأخذ مكان العقائد الإسلامية، وانعكست القضيَّة، حيث أصبح المسلمون في معزل عن الكتاب والسنة، فأخذ المسلمون يستنبطون عقائدهم من الفلسفة والمنطق، كما أخذوا يتغلغلون في الدقائق والتفريعات الفقهية، بعيدين عن الكتاب والسنة، وأصبح كل صاحب مذهب فقهي يفرح بما لديه من الآراء والأقيسة ويشنع على الآخرين، واستولى الفكر المذهبي على أذهان الناس، حتى بات الحديث عن الكتاب والسنة حديثاً غريباً، وصارت دعوة الرجوع إلى الكتاب والسنة دعوة شاذة، يؤذى صاحبها، ويبتر لسان المنادى بها، وهكذا تغيرت معالم الدين، وكاد أن ينطفىء - لا قدر الله - مشعل القرآن والسنة لولا أن تداركت رحمة ربنا، فجاء الإمام الرباني شيخ الإسلام والمسلمين تقي الدين أحمد بن تيمية، وقد كانت البلاد الإسلامية بها آلاف من العلماء البارزين والدعاة والمصلحين، ولكن مرتبة العزيمة التي كانت تتطلب نفساً قدسية، لم يتأهل لها غير شيخ الإسلام. فقد ذكر القاضي أبو البركات المخزومي أن بلاد الشام فقط كان بها سبعون مجتهداً. والتاريخ يشهد أن الأئمة والحفاظ والنقاد الذين وجدوا في ذلك العصر لم يوجدوا مجتمعين في عصر آخر، منهم: أبو الفتح ابن سيد الناس الإشبيلي، وشمس الدين المقدسي، وأبو العلي الأنصاري السبكي، والقاضي الزملكاني، وأبو العباس ابن عمر الواسطي، وأبو الفداء عماد الدين، والحافظ أحمد بن قدامة المقدسي، والإمام برهان الدين الفزاري، والحافظ صلاح الدين البعلبكي، والشيخ صفي الدين البغدادي، والحافظ ابن شامة الدمشقي، والشيخ عمر بن الوردي، والإمام أبو العباس ابن حجي، والحافظ البرزالي الإشبيلي، وتقي الدين السبكي، والحافظ جمال الدين المزي، والإمام تقي الدين بن دقيق العيد، والحافظ أبو عبد الله الذهبي وغيرهم كثيرون من الذين ذكر حياتهم وسيرهم الحافظ الذهبي والحافظ ابن حجر العسقلاني في كتبهما. وأخص منهم بالذكر الحافظ المزي، والحافظ

البرزالي، وابن دقيق العيد والحافظ الذهبي. فقد كان كل منهم إماماً في الحديث وعلومه، وخاصة الإمام الذهبي فإن أياديه على الأمة عظيمة، ولا يشاركه في هذه الأفضال إلا الحافظ ابن حجر العسقلاني، فقد حفظا على الأمة الإسلامية سنة رسولها، وضبطا، ودونا، ونقدا وجمعا أحوال الرواة وأخبارهم، وكشفا الصحيح والضعيف، وميزا بين المقبول والمردود، حتى أصبح العمل بالسنة سهلاً ميسوراً للمسلمين. فإنه لا يخفى على من لديه إلمام بتاريخ السنة، أنها مرت بعهدين: العهد الأول عهد التدوين، والثاني عهد التنقيح والتمييز، وهما من فرسان العهد الثاني بل من رواده، حتى أصبحت السنة مدونة ومنقحة وسهلة ميسورة للعمل بها لكل من أراد التمسك بالكتاب والسنة.

ولكن هل تجد أحداً من هؤلاء العظماء استطاع أن يدرك غبار قدمي شيخ الإسلام رحمة الله عليه؟ الجواب لا، فإن شيخ الإسلام فاق أقرانه وأهل عصره في جميع العلوم والفنون، ومع ذلك نال درجة لم ينلها غيره، وهي درجة العزيمة في الدعوة إلى الله ورتبة تجديد معالم الدين وإعادة الأمة إلى حظيرة الكتاب والسنة. حتى أجمع أهل عصره على القول بأنهم ما رأوا مثله وأنه ما رأى مثل نفسه. وقد مرت أقوال الأئمة في عصره للاعتراف بهذا[1].

ولا بأس أن أذكر ههنا ملخص ما ذكره الحافظ ابن كثير عما جرى للشيخ عماد الدين الواسطي. فقد ذكر، أن الواسطي هذا كان في أول الأمر من الفقهاء المتكلمين، وكان يغلب عليه الجدل والكلام والرأي، فلما انتقل من مصر إلى بغداد والتقى بأهلها وعلمائها وتوسعت مداركه وحاسب نفسه وجدها فارغة عن الطمأنينة، فترك سبيل الفقهاء والمتكلمين واتجه إلى التصوف واقترب من المتصوفة، فلما رأى ما عندهم من الغرائب، تكدر طبعه وقرر السفر إلى دمشق وحضر مجلس شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان الدرس الأول عن المتكلمين والفلاسفة وعن فقدهم طمأنينة القلب، وأن

(١) انظر: بحث الشيخ محمد داود الغزلوي بالأردية، (ص ٢١٦ ـ ٢٢٣).

مشاهيرهم اعترفوا بهذا، وشهدوا على أنفسهم بالاضطراب والحيرة اللذين أورثهما الكلام والفلسفة في قلوبهم، فقالوا:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

أو قالوا:

نهاية أرباب العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

يقول الشيخ عماد الدين ما معناه: إن شيخ الإسلام استمر في كلامه وأوضح أن الدواء الناجح لأمراض القلب، والسبب الوحيد لنيل طمأنينته، هو التمسك بما جاء في كتاب الله ورسوله، فانقشع الظلام، وزالت الحيرة، ووجدت نور الحقيقة الذي كنت حيراناً من أجله.

قال: فلما اطلع شيخ الإسلام على أحوالي أوصاني بقراء السيرة النبوية فإنها الوصفة الكافية الشافية من جميع أمراض القلوب[١].

أقول: وهل تعني السيرة النبوية إلا سنة الرسول ﷺ وهل السنة إلا تفسير لكتاب الله، فتبين بذلك أن شيخ الإسلام أوضح للواسطي ولغيره أنه لا نجاة للأمة الإسلامية من جميع أمراضها إلا في اتباع كتاب الله وسنة رسوله، وهذا عين تجديد معالم الدين ودعوة الرجوع إلى الكتاب والسنة[٢].

وقد اعترف الشيخ ولي الله الدهلوي لشيخ الإسلام بجميع تلك المزايا، والأوصاف التي أهلته ليكون مجدداً لمعالم الدين ومحيياً للكتاب والسنة. فقد قال رحمه الله:

وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فإنا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية وحافظ

---

(١) المصدر نفسه، (ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥).

(٢) انظر: العقود الدرية (٣١١، ٣١٢).

لسنة رسول الله ﷺ وآثار السلف، عارف لمعانيهما اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرر لمذهب الحنابلة وفروعه وأصوله، فائق في الذكاء، ذو لسان وبلاغة في الذب عن عقيدة أهل السنة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة اللهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها، وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العلم، أو من يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وحديثه. والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى، وإن كان تضييقه ذلك ناشئاً عن اجتهاد، ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله عنهم فيما بينهم والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير[1].

محاربته للعقائد والأفكار المضادة للكتاب والسنة:

لا يخفى على كل من لديه معرفة بالكتاب والسنة أنهما شملا بيان العقائد والشرائع وجميع ما يحتاج إليه الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية. ولكن جدت في الإسلام فتن وأحداث سياسية كبرى ووجدت مذاهب وأفكار اصطبغت بصبغة الدين، كما ظهرت فرق جديدة مثل الخوارج والشيعة والمرجئة وغيرت معالم الدين، واشتدت هذه الفتن ونشطت الفرق الضالة في عصر شيخ الإسلام، وكادت أن تغطي على حقائق الإسلام وصدقه وبهائه، فجاء شيخ الإسلام ليرد إلى الإسلام نضارته ويدحض الباطل ويكشف زيغ الفرق الباطلة التي أرادت أن تشوه العقائد الأساسية للإسلام وشريعته السمحاء وهاجم جميع الفرق والمذاهب المنحرفة عن الكتاب والسنة القائمة في عصره.

واختص الأشعرية من ذلك بالنصيب الأوفر. كما أنه ناقش مناهج الفلاسفة والمتكلمين في بحث الشئون الإلٰهية ونقدها، وبين أن المناهج التي سلكها هؤلاء وأولئك كانت بعيدة كل البعد عن الصواب، وأنهم أبعد الناس عن معرفة الأمور الإلٰهية، وأن أكثر كلامهم فيها خبط وتخليط، لأنهم لم

---

(١) انظر: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص ٤٦).

يستضيئوا بنور النبوة، فمزُجوا الحق الذي أخذوه من الدين بالباطل الذي بنوه على أصولهم الفلسفية الفاسدة، وحاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة على حساب الدين، فعمدوا إلى النصوص فأولوها بتأويلات بعيدة ومتكلفة حتى تتلاءم مع قواعدهم الفلسفية.

وهكذا الأشاعرة المتأخرون لجأوا إلى التأويل في الصفات الخبرية كغيرهم من الفلاسفة والمعتزلة، وخلاصة القول عن الفرق الثلاث ـ يعني الفلاسفة والمعتزلة والأشعرية عند ابن تيمية ـ: أن مناهجهم في العقيدة بعيدة عن الحق لأنهم جميعاً سلموا بقضية عامة، وهي أنه إذا تعارض العقل والنقل، وجب تقديم العقل، فحكموا عقولهم في مسائل العقيدة وتلاعبوا بالنصوص، فإذا كانت ثابتة بحيث لا يمكن ردها جعلوها من المتشابه، وإلا بادروا إلى إنكارها[1].

ولكن الأشاعرة في نظره خير من المعتزلة ومن عداهم من سائر الفرق الأخرى، لأنهم يوافقون السلف في كثير من المسائل، كما أنهم ردوا على بدع المعتزلة والجهمية والرافضة، وبينوا كثيراً من تناقضاتهم وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة[2].

وقد تصدى لبيان اتجاهه المبني على الكتاب والسنة في العقيدة والأسماء والصفات والتمسك بالكتاب والسنة في مقدمة كتابه الحموية، وأوضح فكرته بكل تفصيل. ومما قال فيها:

من المحال أيضاً أن يكون النبي ﷺ قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة وقال: تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. وقال فيما صح عنه أيضاً: ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم.

وقال أبو ذر: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في

---

(١) انظر: منهاج السنة (١/٩٦)، وتفسير سورة الإخلاص (ص ٨٤).

(٢) المصدر السابق (١/١٢٣).

السماء إلا ذكر لنا منه. وقال ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فذكر بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه. رواه البخاري. محال مع هذا، ومع تعليمهم كل شيء لهم منه منفعة في الدين، وإن دق أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم، رب العالمين... إلى أن قال: إن هؤلاء المبتدعة الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة، ومن حذا حذوهم، على طريق السلف، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث، من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[1].

ومن أحسن ما قرأت في بيان قوة شيخ الإسلام في هذا الجانب، ما كتبه تلميذه أبو حفص البزار، فقد قال رحمة الله عليه: وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعهم، وأهل الأهواء في أهوائهم وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم وتزييف أمثالهم وأشكالهم. وإظهار عوارهم وانتحالهم وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم. وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المحمدية بما منحه الله تعالى من البصائر الرحمانية والدلائل النقلية والتوضيحات العقلية، حتى انكشف قناع الحق، وبان فيما جمعه في ذلك وألفه، الكذب من الصدق، حتى لو أن أصحابها أحياء ووقفوا لغير الشقاء، لأذعنوا له بالتصديق ودخلوا في الدين العتيق.

ثم قال: حدثني غير واحد من العلماء والفضلاء النبلاء الممعنين بالخوض في أقاويل المتكلمين لإصابة الثواب وتمييز القشر من اللباب، أن كلاً منهم لم يزل حائراً في تجاذب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم. وأنه لم يستقر في قلبه منها قول، ولم يبن له من مضمونها حق، بل رآها كلها موقعة في الحيرة والتضليل، وجلها مذعن بتكافىء الأدلة والتعليل، وأنه كان

---

(١) العقود الدرية (ص ٧٦) وما بعدها.

خائفاً على نفسه، حتى منَّ الله تعالى عليه بمطالعته مؤلفات هذا الإمام أحمد بن تيمية شيخ الإسلام مما أورده من النقليات والعقليات في هذا النظام، فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها، فرآها موافقة للعقل السليم وعلمها حتى انجلى ما كان قد غشيه من أحوال المتكلمين من الظلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام[1].

محاربته للتصوف الزائف:

لا شك عند المسلم الصحيح العقيدة أن أي أمر وأي سلوك، إن لم يكن موافقاً للشريعة. فهو ضلال وصاحبه ضال ومائل عن الطريق السوي. لذلك لم يكن يتوقع من شيخ الإسلام إلا كشف زيغ الصوفية الضلال الذين أغووا الأمة وأضلوها وجاءوا بعقائد وأعمال وأفكار وأخيلة لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولا يخفى على اللبيب أن كلامي لا يشمل السلوك الثابت في القرآن والسنة، إنما الكلام عن الضلال والغواية والكفر والفساد التي جاء بها الصوفية الضلال الذين عادوا القرآن والسنة حيناً جهاراً وآخر سراً. وعكسوا القضية حيث نبذوا ما هو الإسلام الصحيح، وأدخلوا فيه كل ما جاء النبي ﷺ لمحاربته. ومن تلك الأباطيل والضلالات تنسك الهنود، وعقيدة الحلول والاتحاد، ومذهب وحدة الوجود، وتقسيم الدين إلى الظاهر والباطن، وفتنة الرموز والأسرار، والعلم الدقيق، وسقوط التكاليف الشرعية عن الكاملين والواصلين واستثناؤهم عن الأحكام الشرعية، فقد كانت هذه الأفكار والمعتقدات دخلت فيما سمي بالتصوف.

وكانت الفتنة قد استفحلت في القرنين السابع والثامن، فجاء هذا المجدد العظيم الذي تناول هذه الفئة الباغية على دين الله بهدم كيانها وكشف قناعها حتى تعرت حقائقها لكل راء ومستمع.

إن هؤلاء الصوفية قالوا بجواز حلول الله في الآدميين، وأظهر من قال بهذا هو الحلاج، ثم جاء ابن عربي فحكم بوحدة الوجود، وأن الموجود

---

(١) الأعلام العلية (ص ٣٢، ٣٣).

واحد تعددت صوره وأشكاله، وأن المخلوق يتحد مع الخالق من حيث المحبة والشوق فيتصل بالله ويعلو إليه، فيكون في درجة فناء ذاته الفانية في ذات الله الباقية، وقد جاءت هذه الفكرة في شعر عمر بن الفارض الذي أمعن شيخ الإسلام في نقده.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن ابن عربي ادعى أن أصحاب النار يتنعمون في النار كما ينعم أهل الجنة في الجنة وأنه يسمى عذاباً، من عذوبة طعمه، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام[1].

وقد تكلم طائفة من المتصوفة في تحقيق التوحيد، فزعموا أن توحيد الربوبية هو الغاية والفناء فيه هو النهاية، وأنه إذا شهد ذلك، سقط عنه استحسان الحسن واستقباح القبيح، فآل بهم الأمر إلى تعطيل الأمر والنهي والوعد والوعيد.

وقد حكم عليهم شيخ الإسلام فقال: هذا هو الكفر الصريح، وقد رد على القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد فقال: يقول عارفهم: السالك في أول أمره يفرق بين الطاعة والمعصية، أي نظراً إلى الأمر، ثم يرى طاعة بلا معصية أي نظراً إلى القدر، ثم لا طاعة ولا معصية، نظراً إلى أن الوجود واحد.

ثم رد عليهم فقال: صفات الله توجب مباينته لمخلوقاته، وأنه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[2].

وقد زعم ابن عربي: أن الولاية أساس المرتبة الروحية كلها، وأن النبوة والرسالة تنقطعان لأنهما مقيدتان بالزمان والمكان، أما الولاية فلا تنقطع أبداً، لأن المعرفة الكاملة بالله لا تنقطع ولا تحد بزمان أو مكان، كما أن العلم الشرعي يوحى به إلى الرسول على لسان الملك، أما العلم

---

(١) الصفدية (ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٤٦١ ـ ٤٦٣).

الباطني عند الولي، فهو إرث يرثه من منبع الفيض الروحي جميعه.

وقد رد عليه شيخ الإسلام لكون هذه القضية خطراً يهدد كيان الإسلام ولكونها مخالفة للعقل والشرع وهي بينة الضلالة والكفر، لأنها تحرر عن الدين والشريعة والعقيدة التي جاء بها الرسل جميعاً وخروج على الله وبغي وفساد في الأرض[1].

ولا أريد استقصاء جميع أباطيل الصوفية ورد شيخ الإسلام عليها، إنما أردت عرض بعض النماذج من أفكارهم وخطورتها على الإسلام والمسلمين، حتى يتبين لنا الأسباب الحقيقية لاهتمام شيخ الإسلام بتتبع تلك الضلالات والرد عليها، فشن عليهم حرباً شعواء أقض مضاجعهم، وناقش أقوالهم مناقشة العارف لها الفاحص لدقائقها العارف لأسرارها.

ومن أعظم ما ألف شيخ الإسلام في هذا الخصوص هو كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) فقد فصل فيه القول في الولاية الرحمانية وبين صفاتها من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، وفرق بين ذلك وبين الولاية الشيطانية الصوفية التي تعتمد على الشعبذات والدجل والكذب وأكل أموال الناس بالباطل والسماع والغناء والرقص، والبدع المنكرة في الدين والتظاهر بالصلاح والتقوى.

ولقد أجاد شيخ الإسلام أيما إجادة في بيان الكرامة الرحمانية التي هي حق لولي الله، والكرامة الشيطانية التي تجري أحياناً على أيدي هؤلاء، كتظاهرهم بالدخول في النيران وزعمهم أنها لا تضرهم، وحملهم الحيات والثعابين، أو ضربهم أنفسهم بالسيوف والسهام وغير ذلك من أنواع المخالفة التي يزعمون أنها من كراماتهم، وقد قام شيخ الإسلام بتحدي هؤلاء الصوفية الذين يزعمون هذه الكرامات، وأنه يدخل معهم النار التي يزعمون دخولها، وأنها تحرقهم إن شاء الله ولا تحرقه، شريطة أن يغسلوا أنفسهم أولاً بالخل، وذلك لإزالة دهن الضفادع الذي يدهنون به أنفسهم حتى لا

---

(١) الصفدية (ص ٢٤٤ ـ ٢٤٨) والفتاوى (٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٨).

تؤثر فيهم النار، فلما كشف حيلهم وتحداهم، وكان ذلك بمحضر السلطان تراجعوا عن ذلك وظهر كذبهم ومخاريقهم[1].

استقلاله في أخذ الفقه من الكتاب والسنة:

لا يفوتني أن أوضح نقطة هامة في حياة شيخ الإسلام، وهي استقلاله الفكري وقدرته الاجتهادية المطلقة للاستفادة من كتاب الله وسنة رسوله، فقد وجد في عصره من اشتهروا بالذكاء والذاكرة والتبحر العلمي، ولكنهم كانوا أتباعاً للأئمة السابقين ومذاهبهم الفقهية ولم يقدر أحد منهم أن يستقل بآرائه ويتجرأ على الجهر باختياراته ما دام الكتاب والسنة يؤيدانها، أما شيخ الإسلام، فقد درس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآثار السلف الصالح بكل شمولية وعمق، ثم اختار ما ترجح بالكتاب والسنة وجهر به من دون أن يبالي بالذي قال خلافه من الأئمة السابقين فهو تابع للدليل، يدور معه حيثما دار.

وهذا الذي أشار إليه تلميذه أبو حفص البزار عندما قال: كان لا يذكر رسول الله ﷺ إلا ويصلي ويسلم، ولا والله ما رأيت أحداً تعظيماً لرسول الله ﷺ ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه، حتى إذا كان أورد شيئاً من حديثه في مسألة، ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديثه يعمل به ويقضي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان، وقال رضي الله عنه: كل قائل إنما يحتج لقوله، لا به، إلا الله ورسوله[2].

وقال ابن الوردي: له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، قل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها واحتج لها بالكتاب ثم قال: وبقي سنين، لا يفتي بمذهب معين، بل بما قام الدليل عليه عنده، ولقد نصر السنة

(١) العقود الدرية (ص ١٩٤، ١٩٥) والفتاوى الكبرى (ص ٤٤٥ ـ ٤٧٦).

(٢) الأعلام العلية (ص ٢٩).

المحضة واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أدى إليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال[١].

وكتب الحافظ ابن كثير عن شيخ الإسلام، فقال: ثم إن الشيخ بعد وصوله إلى دمشق واستقراره بها لم يزل ملازماً لاشتغال الناس في سائر العلوم ونشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم. وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف[٢].

وهناك أقوال كثيرة أخرى لأئمة عصره، اعترفوا له فيها بالإمامة والاستقلال الفكري والتبحر العلمي وتفوقه بدرجات كثيرة على معاصريه في علوم القرآن والسنة والشروط التي يجب توافرها للاجتهاد، ولذلك رغم اعترافه الصريح بعلو مكانة الأئمة الأربعة وحسن اجتهادهم وتفوقهم العلمي على كثير من الأئمة، جاهر بأن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ، وخالف تلك المذاهب الفقهية في كثير من المسائل، اتباعاً لنصوص الكتاب والسنة، ولم يبال من هو هذا الشخص الذي يخالفه، ما دامت الدلالة من الكتاب والسنة تؤيده.

فهو من أصحاب الاجتهاد المطلق الذي لم ينتسب لمذهب من المذاهب. ولا ينقض هذا القول بما ذكره بعض الناس من استمساكه

---

(١) تاريخ ابن الوردي (٢/٤٠٦، ٤١٣).

(٢) البداية والنهاية (١٤/٦٧).

بالمذهب الحنبلي في أكثر أدواره وفي أكثر آرائه، وإعلانه أن المذهب الحنبلي خير المذاهب، لأن هذا يدل على أن شمولية علم شيخ الإسلام للكتاب والسنة، أوصلته إلى معرفة أن المذهب الحنبلي هو خير المذاهب، لأن دليله على هذا هو إثباته أن المذهب الحنبلي أقرب المذاهب إلى السنة.

ولا يعني كونه مجتهداً مطلقاً أن يخالف الأئمة الأربعة في أكثر المسائل، لأن هذا يستدعي إلى القول بأحد الأمرين إما أن تلك المذاهب غير مؤسسة على القرآن والسنة، لأن شيخ الإسلام يمشي مع الدليل من الكتاب والسنة حيثما وجد، أو أن يكون شيخ الإسلام لم يكمل فيه شروط الاجتهاد، ومن أهمها استيعاب القرآن والسنة، حيث خالف الأئمة الأربعة على غير بصيرة، وهذا لم يقله أحد، فترجيحه لرأي من الآراء حسب الدليل لا يعني البتة أنه مقلد للإمام الذي قال بذلك القول قبل شيخ الإسلام، أو أنه مجتهد منتسب من مجتهدي الحنابلة فقد اختار ما اختار من المسائل في الفقه بالدليل، ووافق ما وافق فيه من المسائل لأحد الأئمة الأربعة بالحجة والبرهان.

ومن هذا القبيل رأيه رحمه الله في يمين الطلاق، وفيمن طلق زوجته ثلاثاً بلفظة واحدة، وكلامه في التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته. فاختياراته في هذه المسائل وفي غيرها لم تكن إلا مدعمة بالأدلة الواضحة الصريحة من الكتاب والسنة، ولا يسع هذا المقام لذكر التفاصيل لتلك الاختيارات وأدلتها، ولكن الذي لا مرية فيه أنه رحمه الله كان متبعاً للدليل من الكتاب والسنة، وقد علمنا فيما مضى من هو شيخ الإسلام، وما مكانته في معرفة الكتاب والسنة، فإنه لم يشق غباره في هذا الأمر، ولم يكن شاذاً في اختياراته، فقد قالها الصحابة والأئمة من قبله، فليرجع إلى كتبه ـ رحمه الله ـ والكتب الحديثية من أراد التفصيل والاطلاع على تلك الأدلة[1].

---

(١) انظر: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، (٢٢٢، ٢٢٤، ٣٣٢، ٥١١).

المحن التي ابتلي بها:

لقد خاض شيخ الإسلام معارك ضارية مع معاصريه في منازعات عقائدية وفكرية فكثر أعداؤه من شتى الطوائف، فكان له خصوم من الصوفية الذين حارب شيخ الإسلام تواكلهم وغلوهم في الزهد وخروجهم من منهج الكتاب والسنة، ومن المتكلمين الذين كره تأثرهم بمصادر أجنبية وإدخالهم في العقيدة الإسلامية من الضلالات التي لا تمت إليها بصلة، ومن الفقهاء الذين جمد تفكيرهم وركنوا إلى التقليد الجامد وقفلوا في وجوههم أبواب الكتاب والسنة.

تأثر الأعداء والخصوم على شيخ الإسلام، فلفقوا له التهم الكاذبة، ولكن إيمانه العميق أمده بصبر شديد على ما ابتلي به من المحن ومنعه من التدريس والإفتاء وسجنه، فلا يكاد يخرج من السجن إلا ويعود إليه، فقضى سنوات طويلة معاقباً بالحبس في سجون دمشق والقاهرة والإسكندرية، ولم يرحمه الله أعداؤه حتى في شيخوخته، فلفظ أنفاسه الأخيرة في سجنه بقلعة دمشق. رحمه الله رحمة واسعة وجازاه بما يجزي به عباده الصالحين البررة المجاهدين في سبيله.

وفاته رحمة الله عليه:

ذكر المؤرخون: أن الشيخ لما سجن في مصر بحبس القضاة بحارة الديلم، صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخوالف والمدارس، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه حتى صار السجن يمتلىء منهم[1].

وقد ذكر ابن الوردي وغيره: أنه ورد مرسوم السلطان بسجنه بقلعة دمشق، فأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين، وكتب في تفسير القرآن

(١) انظر حياة شيخ الإسلام للبيطار (ص ٢٦).

الكريم جملة كبيرة، وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة، وكتب عقيب ذلك بفحم يقول: إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النعم. وبقي أشهراً على ذلك وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد. ومما قال وهو في حبسه: ما يصنع أعدائي بي. أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وقال: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه[1]. وقال ابن القيم وهو يصف حالته في السجن: وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه[2].

مرض رحمه الله أياماً يسيرة، وتوفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ وغسل وكفن وأخرج وصُلِّي عليه أولاً بالقلعة، ثم صُلِّي عليه بجامع دمشق عقيب صلاة الظهر، ولم يتخلف أحد من الناس فيما قالوا غير ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم. ولم ير لجنازة أحد ما رئي لجنازته من الوقار والهيبة والعظمة والجلالة، وتعظيم الناس لها، وتوقيرهم إياها.

ودفن في ذلك اليوم، ورثاه كثير من الفضلاء بقصائد متعددة، وتناوب الناس قبره للصلاة عليه من القرى والأطراف والأماكن والبلاد، وصلي عليه في أرض مصر والشام والعراق وتبريز والبصرة وقراها وغيرها[3].

جزاه الله عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء، ورزقنا وكافة

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٠٢).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

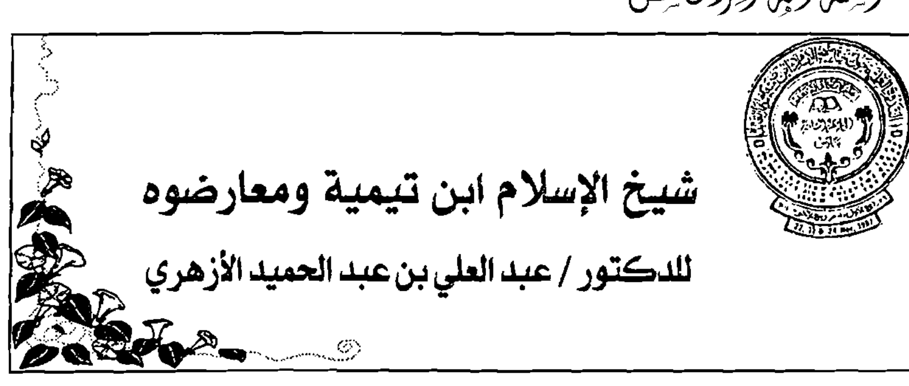
(٣) تذكرة الحفاظ (ص ١٤٩٦، ١٤٩٧) والعقود الدرية (ص ٣٦١، ٣٦٢، ٣٧٠، ٣٧١).

المسلمين الحياة والموت على الكتاب والسنة حتى نلقاه. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وكتبه: د. محمد لقمان السلفي

مكتب الرئيس العام لدار الإفتاء، بالرياض





شيخ الإسلام ابن تيمية ومعارضوه

للدكتور / عبد العلي بن عبد الحميد الأزهري

يقول الصاحب بن عباد عن المتنبي إنه جاء (فملأ الدنيا وشغل الناس) وهذا وصف دقيق لما أثار المتنبي حوله من مناقشات ومجادلات، ولما أحدث شعره من ردود فعل مختلفة في الأدباء في عصره وبعده فانقسم الناس إلى حزبين: فريق يتعصب له ويرى فيه كل فضيلة، وفريق يتعصب عليه ويجرده من كل مزية. والمتنبي شغل طبقة معينة من الناس، ولكن الذي ينطبق عليه هذا الوصف بصورة أكمل وأشمل هو شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ـ ابن تيمية قدس الله روحه ـ فإنه ملأ الدنيا وشغل الناس بمعنى الكلمة. شغل سلاطين عصره ونوابهم، وحير القضاة والعلماء، وأقض مضاجع المبتدعين وأهل الأهواء. وانقسم الناس في أمره إلى معسكرين: معسكر أصدقائه ومؤيديه ومعسكر أعدائه ومعارضيه. واستمر النزاع بين المعسكرين طول حياته وانقضت حياته في نضال مستمر وكفاح دائم. وكان نضاله وكفاحه في سبيل إعلاء كلمة الله، وحماية الحق، ونصر السنة النبوية، ومحاربة البدع والعوائد الذميمة وتصحيح عقائد المسلمين. وتعرض في ذلك للمحن، وابتلي وامتحن، وعانى من آلام الغربة وشدائد السجن وأوذي في الله. وأخيف في نصر السنة، ولاقى أذى كثيراً من أعدائه ـ وما أكثر عددهم! ـ الذين سعوا بكل الوسائل إلى إحباط مساعيه، وعرقلة جهوده، وألبوا عليه العامة، ووشوا به إلى الحكام ورموه عن قوس واحدة، ولكنه لم يهن، ولم يفتر نشاطه، بل قام في مواجهتهم وصمد لمؤامراتهم كالصخرة الصماء التي لا تؤثر فيها السهام ولا تنال منها

الرماح، ومضى في سبيله وحده متوكلاً على الله متورعاً بسلاح التقوى، واثقاً بالله، مؤمناً إيماناً قوياً بأن الله ـ عز وجل ـ لا يخذل عبداً نصب نفسه لحماية دينه وإقامة شريعته، ونصرة كتابه، ونشر سنة رسوله.

وحصل له في ذلك أعوان مؤيدون، كما كان له أعداء ومعارضون واتهمه هؤلاء بالضلالة والتضليل وخرق إجماع الأمة الإسلامية وأدى التعصب ببعضهم إلى أنه لم يكتف بتكفيره بل زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر، وقد تصدى بالرد عليه أحد تلاميذ شيخ الإسلام في كتاب سماه (الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر).

وقد تناول العلامة أبو الحسن علي الندوي في كتابه عن ابن تيمية الأسباب التي دفعت فريقاً من العلماء إلى نصب العداوة لشيخ الإسلام، ومن أهم هذه الأسباب علو شأن شيخ الإسلام، وجلالة قدره، وبلوغه في العلم والفقه والاستنباط مبلغاً عجز عنه علماء عصره، والواقع أن شيخ الإسلام كان قد سبق زمانه، وفاق بعبقريته وعقليته الجبارة أقرانه، فكانت لديه مقدرة عجيبة في البحث والتنقيب واستخراج النكات البديعة واستنباط القواعد والأحكام من النصوص، كان يتغلغل في أعماقها ويسبر أغوارها ويخرج منها ببديعة لم تمر على بال هؤلاء فحسدوه وأرادوا الحط من قدره. قال ابن كثير: وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الناس له ومحبتهم له، وكثرة أتباعه وقيامه في الحق وعلمه وعمله.

وقال الأستاذ أبو زهرة: إن المشاهد قديماً وحديثاً أن الرجل الذي يختلف الناس في شأنه بين إعلاء وإهواء لا بد أن يكون رجلاً كبيراً في ذات نفسه عظيماً في خاصة أمره، له عبقرية استرعت الأنظار واتجهت إليها الأبصار، فيكون له الوالي الموالي، والعدو المتربص المؤاخذ الذي يتبع الهفوة ويحصي السقطات.

وكذلك كان ابن تيمية رضي الله عنه قد كان عظيماً في ذات نفسه

اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره.

وهذه الميزة أدركها البعض فعظموا شأن الشيخ، وجحدها البعض واستيقنتها أنفسهم. فطعنوا فيه.

ومن أسباب العداوة له أنه ثار على العقائد المتوارثة والتقاليد المتبعة، وكان في ثورته عنيفاً للغاية لا يعرف الهوادة واللين، وقد أعلن عن صرامته في مناظرته للفقراء الأحمدية أنه لا مجال للمداهنة في الدين بل كل واحد يجب أن يتبع ما جاء في الكتاب والسنة. وكان في طبعه حدة كانت تظهر في مناقشاته مع المبتدعين والمنحرفين. ويزعم بعض المؤرخين له أنه لو كان سلك مسلك اللين والمسالمة لما كان تعرض لتلك البلايا والمحن التي عانى منها، ولكن ابن تيمية المجاهد ما كان يعرف ذلك وكان هجومه على أقطاب التصوف وآرائهم شديداً أيضاً مما هيأ الفرصة لبعض أعدائه للتربص به والكيد له.

والحاصل أن الذين عارضوا ابن تيمية لم يكونوا يدافعون عن قضية ثابتة في القرآن، بل كانت دوافعهم شخصية من الجهل واتباع الهوى والحسد.

قال الآلوسي فيهم: هم على أقسام: فمنهم من شنع لداء المعاصرة ومنهم لشهرة كاذبة من غير تحقيق، ومنهم لمخالفته في العقيدة، ومنهم حباً في ابن عربي واتباعه، ومنهم اقتداء بشيخه المنافس له. وقد قال بهاء الدين السبكي قولته المشهورة: ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى. فالجاهل ما يدري ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق.

ولننظر الآن في المشهورين من مناهضيه في عصره: وقد ذكر أهمهم أبو حفص عمر بن علي البزار ـ أحد أصحاب شيخ الإسلام ـ في آخر كتابه (الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) وهم:

١ ـ الملك المظفر بيبرس الجاشنكير الذي كان من مماليك الملك المنصور قلاوون، واستطاع بفضل دهائه ومؤامرات الأمراء والنواب أن يتسلطن لفترة قصيرة وانتهى أمره بالقتل في عام (٧٠٩هـ).

وكان موصوفاً بالخير والديانة، قال الحافظ ابن حجر: إنه هدم بدعاً كثيرة كان الناس اعتادوها. ورجل مثل ذلك كان من المتوقع أن ينحاز إلى ابن تيمية ويكون من أنصاره، ولكنه كان يفرط في محبة نصر بن سليمان المنبجي. وكان المنبجي هذا يتعصب لابن عربي الصوفي. فكتب إليه ابن تيمية في ذلك يعاتبه ويبين له ضلال ابن عربي فلما قرأ نصر بن سليمان الكتاب غضب لأن شيخ الإسلام قد بالغ في الحط على ابن عربي وتكفيره. فصار هو يحط على ابن تيمية ويغري به الجاشنكير. وقال له إن ابن تيمية يرمي إلى السيطرة على الملك مثل ما فعل ابن تومرت في المغرب فهو خطر على الدولة يجب صده فوراً.

وبناءً على إشارة الشيخ المنبجي أصدر الجاشنكير أوامره إلى نائبه في الشام بامتحان شيخ الإسلام في عقيدته، ثم استدعاه إلى مصر حيث سجن وبقي في السجن إلى أن دالت دولة الجاشنكير.

٢ ـ شهاب الدين ابن جهيل وهو أحمد بن يحيى بن إسماعيل (م٧٣٣هـ) صنف رسالة في خبر الجهة أراد بها الرد على ابن تيمية. وقد نقلها كاملة السبكي في طبقات الشافعية، كما ذكر له فتوى في نفي جهة العلو لله تعالى، رد بها أيضاً على ابن تيمية.

٣ ـ صفي الدين الهندي، محمد بن عبد الرحيم (م٧١٥هـ) ولد في الهند وسافر في البلاد وأقام بالشام، وكان قد تم اختياره للكلام مع شيخ الإسلام ابن تيمية في المجلس الذي عقد بدار السعادة بدمشق بين يدي الأمير تنكيز لامتحان عقيدة ابن تيمية. وشرع الهندي في كلامه ولم يكن شيخ الإسلام يمهله بل بدأ يورد على كل شيء بقوله. ويستدرجه من شيء إلى آخر فقال له الهندي: ما أراك يا ابن تيمية إلا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان يفر إلى مكان آخر.

نعم كان ابن تيمية عصفوراً يطير في جو فسيح غير مقيد بقيود مخترعة والعلوم كلها له كالفضاء الواسع. ولم يكن الهندي يتمتع بهذه السعة في العلم ولا كانت لديه تلك الحرية فكان يدور في محيط ضيق حدده شيوخ مذهبه.

٤ ـ القاضي كمال الدين ابن الزملكاني، محمد بن علي بن عبد الواحد (م٧٢٧هـ) كان أولاً من مؤيدي شيخ الإسلام، عارفاً بفضله، مقراً بنبوغه، قال فيه: ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه، ولا تكلم في علم من العلوم ـ سواء كان من علوم الشرع أو غيرها ـ إلا فاق فيه أهله واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها. وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتدوين وقال أيضاً في مدحه.

ماذا يقول الواصفون له — وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة — هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة — أنوارها أربت على الفجر

ولكنه انقلب عليه وآثر هواه ومذهبه المتبع على الحق الذي أظهره شيخ الإسلام في مسائل الصفات، والطلاق، والزيارة. فبدأ يزري عليه وينتقصه وكان من نيته الخبيثة أنه إذا تمت له ولاية القضاء آذى شيخ الإسلام. فدعا عليه الشيخ فلم يبلغ الله مراده.

وكان ابن الزملكاني أحد المتكلمين في المجالس التي عقدت بدمشق لامتحان عقيدة الشيخ.

٥ ـ تقي الدين السبكي، أبو الحسن علي بن عبد الكافي (م٧٥١هـ) وهو والد تاج الدين السبكي مؤلف (طبقات الشافعية) ألف في الرد على ابن تيمية في مسألتي الطلاق والزيارة، وكان مقراً بفضل الشيخ كما اعترف به في رسالته إلى الإمام الذهبي فقال: أما قول سيدي في الشيخ فالمملوك يتحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف والمملوك يقول ذلك دائماً. وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا يفرض سواه، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى وغرابة مثله في هذا الزمان بل في أزمان.

وهذه شهادة من السبكي الذي أقام الدنيا وأقعدها على ابن تيمية

وكتب عنه ما كتب، وألف ما ألف في الرد عليه. والفضل ما شهدت به الأعداء.

٦ ـ شمس الدين السروجي. أبو العباس أحمد بن إبراهيم. له رد على ابن تيمية، ولكنه التزم فيه الأدب والوقار، ورد شيخ الإسلام على رده.

٧ ـ تقي الدين ابن الأخنائي المالكي، محمد بن أبي بكر بن عيسى (م ٧٥٠هـ) رد عليه ابن تيمية في رسالة مستقلة.

٨ ـ صدر الدين ابن المرحل ـ ويقال له ابن الوكيل أيضاً. وهو محمد بن عمر (م ٧١٦هـ).

يقال إنه كان لا يقوم بمناظرة ابن تيمية أحد سواه. وله مع شيخ الإسلام المناظرات الحسنة، وكان مسرفاً على نفسه مخلاً بالمروءة، مرتكباً لبعض القاذورات والفواحش. وكان يعترف للشيخ ابن تيمية بالعلوم الباهرة ويثني عليه، ولكنه كان يجاحف عن مذهبه وناحيته وينافح عن طائفته، وكان شيخ الإسلام يثني عليه وعلى علومه وفضائله، ويشهد له بالإسلام وإذا قيل له عن أفعاله القبيحة وأعماله السيئة كان يقول مدافعاً عنه: كان مخلطاً على نفسه، متبعاً مراد الشيطان منه، يميل إلى الشهوة والمحاضرة، ولم يكن كما يقول بعض أصحابه ممن يحسده.

٩ ـ علي بن أسمح اليعقوبي (م٧١٠هـ).

قال عنه الحافظ ابن حجر: إنه كان شديد الحط على ابن تيمية.

١٠ ـ ابن عطاء الله الإسكندري، أحمد بن محمد، تاج الدين، أبو الفضل (م ٧٠٩هـ) رأس التصوف في مصر. لم يعجبه ما كان يقوم به شيخ الإسلام من هجوم سافر على المتصوفة، ويكشف عن ضلال معتقداتهم ويفضح تلبيساتهم وخدعهم، فقام ضده وحرض الحكام عليه وبالغ في ذلك ولكنه لم يبلغ مراده.

١١ ـ نصر بن سليمان المنبجي (م ٧١٠هـ) كان مقرباً من الملك

المظفر بيبرس الجاشنكير، وكان يميل إلى أقوال ابن عربي الحاتمي في التصوف وعقيدة وحدة الوجود. فكتب إليه ابن تيمية يوضح له فساد هذه العقيدة وضلال ابن عربي فغاظه ذلك وبدأ يحرض السلطان ضد الشيخ. وكان هو السبب في امتحان شيخ الإسلام بدمشق واستدعائه إلى مصر.

١٢ ـ زين الدين علم بن مخلوف المالكي (م ٧١٨هـ) قاضي القضاة المالكية في مصر، انضم إلى نصر المنبجي وسعى بكل الوسائل لإيذاء شيخ الإسلام ولكنه أخيراً عرف فضل الشيخ وقدره وأقر بعلو شأنه لما رآه يدافع عنه وعن زملائه أمام السلطان.

هؤلاء ذكرهم أبو حفص البزار في كتابه كما أشرنا إليه سابقاً وغير ذلك كثيرون ولكنه ترك البكري الذي رد عليه ابن تيمية في مسألة الاستعانة بالمخلوقين وهو نور الدين أبو الحسن علي بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي (م ٧٢٤هـ).

وكان عدواً لدوداً لشيخ الإسلام حتى أنه حاول الفتك به مرة وقد وجده مفرداً فوثب عليه وطوقه وقال: احضر معي إلى الشرع فلي عليك دعوى. فلما تكاثر الناس انملص. فطلب من جهة الدولة فهرب واختفى. وأراد جماعة الانتصار فيه فلم يمكنهم الشيخ من ذلك وكان البكري كثير الفضول جريء اللسان يقع في أعراض الناس مما دفع السلطان إلى الأمر بقتله ثم رسم بقطع لسانه ولكنه شفع فيه فنفاه إلى الصعيد ومنعه من الفتوى فاستراح منه الناس.

ألف رسالة في الرد على شيخ الإسلام قال فيها ابن كثير أنه أضحك فيها على نفسه العقلاء وشمت بها الأعداء لأن مثله مثل ساقية صغيرة كدرة الماء لاطمت بحراً عظيماً صافي الماء أو كرملة أرادت بها زوال جبل شامخ.

وقال عنه شيخ الإسلام: رأيت أن مثل هذا لا يخاطب خطاب العلماء وإنما يستحق التأديب البليغ والنكال الوجيع الذي يليق بمثله من السفهاء إذا سلم من التكفير.

هؤلاء أبرز خصوم شيخ الإسلام ومعارضيه الذين ناصبوا له العداء في حياته وحاولوا الكيد له والنيل منه ويمكن حصرهم في فئات أربع حسب تخصصاتهم ومجالاتهم التي وقعت المناقشة فيها بينه وبينهم فهم علماء الكلام، والصوفية، والفقهاء، والروافض.

علماء الكلام:

كان معظم خلاف شيخ الإسلام مع علماء الكلام في مسألة صفات الله تبارك وتعالى. وكان شيخ الإسلام يقرر أن اعتقاد أهل السنة والجماعة، الإيمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وأكد أن السلف كان دأبهم إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها. وكلام أبي الحسن الأشعري في مؤلفاته يدل على أنه كان يدين بهذا الاتجاه ولكن أتباعه حادوا عن منهجه وخاضوا في التأويل، وكانت أولى مواجهته مع علماء الكلام في عصره في عام ٦٩٠هـ حين تعرض الشيخ أثناء تفسيره للقرآن الكريم لمسألة الصفات، وقرر فيه مذهب السلف وانتقد رأي المتأخرين من الأشاعرة، فقام بعض الأشاعرة وسعوا في منعه من الجلوس للتفسير فلم يمكنهم ذلك، ثم شكوه إلى قاضي القضاة شهاب الدين الخولي فما كان منه إلا أن أبدى تأييده لابن تيمية وقال: أنا على اعتقاد الشيخ تقي الدين، فراجعوه وعاتبوه فقال مبرراً اختياره: لأن ذهنه صحيح ومواده كثيرة فهو لا يقول إلا الصحيح.

وبعد ذلك بأعوام سعى نصر المنبجي في الكيد لشيخ الإسلام لكونه حط على ابن عربي وبالغ في انتقاصه. فأشاع المنبجي عن الشيخ أن عقيدته غير سليمة وجبر السلطان أن يصدر أوامره لامتحان عقيدة الشيخ وعقدت ثلاثة مجالس في دمشق لهذا الغرض، وكانت معركة بين الحق والباطل أسفر عن انتصار رجل الحق على جماعة الباطل، ولم يكن يتوقع أعداء شيخ الإسلام أن يمتد الامتحان إلى ثلاثة مجالس طويلة بل ظنوا أن ابن تيمية سوف لا يقدر مقاومة جماعة العلماء والقضاة وأنه سوف يستسلم

ويعلن عن رجوعه عن عقيدته، وقبوله ما تعتقده العامة. ولكن الرجل القوي الإيمان لا يتزعزع أمام الكثرة المادية فصمد الشيخ أمام مخالفيه واستطاع بقوة إيمانه أن يحدث بلبلة واضطراباً في صفوفهم وانتهى الأمر باستسلام الجماعة له وقبولهم عقيدته ـ طوعاً أو كرهاً ـ وإقرارهم أن عقيدته عقيدة سنية سلفية.

ولما باءت محاولات المنبجي إدانة شيخ الإسلام بالفشل في دمشق، أغرى السلطان باستدعائه إلى مصر، وحصلت بينه وبين علماء مصر وقضاتها مناظرات لم تأت بالنتيجة المطلوبة، ولكنهم نجحوا في سجنه.

وهكذا استطاع شيخ الإسلام ابن تيمية أن يبين لأتباعه أن الحق كان أقوى بكثير من تلك الجماعة التي كانت تجادل عن قضية خاسرة.

٢ ـ الصوفية:

أما قيامه ضد المتصوفة فكان من اعتقاده الراسخ بأن المنتسبين إلى التصوف في عصره قد زاغوا عن منهج الإسلام الصحيح وأحدثوا في الدين باسم التصوف أشياء لا تمت إليه بصلة منها اعتقادهم بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود وادعاء سقوط التكاليف عن بعض الناس، وخلطهم الفلسفة اليونانية بعناصر العقيدة الإسلامية وابتداعهم الرقص، والغناء، واختراعهم ألفاظاً مستحدثة لا دليل عليها في الكتاب والسنة، وتلبيسهم على الناس بادعاء خوارق وكرامات.

وابن تيمية لم ينكر الكرامات ولكنه كان يرى أن ظهور الكرامات على يد رجل ليس بدليل على أنه من أولياء الله، بل أفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول ﷺ وأشدهم اتباعاً له، وكل من بلغته رسالة محمد ﷺ لا يكون ولياً إلا باتباع محمد. وتصدى للمتصوفة وكتب في الرد عليهم وكشف عن خداعهم وتلبيسهم وبين ضلال ابن عربي وأصحابه. ومناظرته مع الفقراء الأحمدية معروفة. وقد حاولوا معه المساومة والصلح على أن لا يتعرض لهم بل يتركهم على حالهم فقال الشيخ: هذا ما

يمكن، ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه.

وتحداهم ودعاهم إلى دخول النار ـ الحيلة التي كان يلبسون بها على الناس ـ واشترط أن يدخلوا الحمام أولاً ويغسلوا أجسادهم جيداً بالخل والأشنان ثم يدخلوا في النار إن كانوا صادقين. وهم إن فعلوا ذلك فهو أيضاً يقتحم معهم النار، وهناك انكشف أمرهم ورجعوا منهزمين.

٣ ـ الفقهاء:

لم يأخذ جدال ابن تيمية مع فقهاء عصره ذلك الوضع العنيف الذي رأيناه في نزاعه مع الكلاميين والمتصوفة، وذلك أن شيخ الإسلام لم يكن يخالف الفقهاء في أصولهم العامة التي اتخذوها مصادر للتشريع، وهو نفسه يوصف بالحنبلي ولكنه لم يكن مقلداً للإمام أحمد كمقلدي عصرنا بل كان يفضل مذهب الإمام أحمد على غيره من المذاهب لقربه من الكتاب والسنة، ولم يكن يرى لزاماً عليه التقيد بأقواله بل كان مستعداً لتركه إذا ظهر أنه يخالف نصوص الكتاب والسنة.

وكان يدعو إلى الاجتهاد واستخدام المصالح المرسلة في البحث عن الحل للمشكلات الدينية والاجتماعية التي كان يواجهها المسلمون، ولم يتورع عن إعلان مخالفته للفقهاء في المسائل التي ظهر له فيها أن الحق على خلاف ما كانوا يعتقدون ويفتون.

فأعلن أن الطلاق الثلاث في المجلس الواحد تقع واحدة لما ثبت في الحديث أنه كان المعمول به في أيام النبي ﷺ. وخالف العلماء أيضاً في مسألة الحلف بالطلاق، وهذا ما أثار العلماء ضده فكتبوا في الرد عليه.

٤ ـ الرافضة:

شن شيخ الإسلام هجوماً عنيفاً ضد المبتدعة من الرافضة، وبالرغم من أنه كان يتحاشى من إطلاق الكفر على أحد أعلن بصراحة كفر هؤلاء

وألف في الرد عليهم كتابه القيم: (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية) وقال فيه: الإسلام مبني على أصلين: أن لا تعبد إلا الله، وأن تعبده بما شرع لا تعبده بالبدع. فالنصارى خرجوا من الأصلين، وكذلك المبتدعة من هذه الأمة من الرافضة وغيرهم.

وقال في الرافضة: إنها لا تعرف أصل دين المسلمين، وإنهم باطنية ملحدون وفلاسفة صابئون خارجون عن متابعة المرسلين، ولا يوجبون اتباع دين الإسلام ولا يحرمون اتباع ما سواه من الأديان، وإن الملل عندهم بمنزلة المذاهب والسياسات التي يسوغ اتباعها، وأن النبوة في نظرهم نوع من السياسة العادلة التي وضعت لمصلحة العامة في الدنيا وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

وكان شديد النقد لآرائهم في الإمامة وقال إنها لا تستند إلى دليل من نقل أو عقل وإنها كانت سبباً في فرقة المسلمين وذهاب ريحهم ويرى أن الروافض هم أصل البدعة في زيارة القبور وشد الرحال إليها قال: أول من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور أهل البدع من الروافض وغيرهم الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد.

ولم يكتف ابن تيمية بالنضال الكلامي مع الرافضة بل استنهض المسلمين وجاهد ضد الروافض والنصيرية في الشام وهزمهم ووضح في رسالته إلى الملك الناصر ما كان عليه هؤلاء الضالون الذين كانوا يرون أن المسلمين كفار مرتدون ولذلك كانوا يقدمون الفرنجة والتتار على أهل القرآن والإيمان.

وقال في الفتاوى: هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية وسائر أصناف القرامطة الباطنية ضررهم على أمة محمد أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار الترك والإفرنج وغيرهم. فهؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر ولا بكتابه، ولا بأمر ولا بنهي، ولا بثواب ولا بعقاب ولا بجنة ولا بنار ولا بأحد من المرسلين مثل محمد ﷺ ولا بملة من الملل

السابقة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند المسلمين يتأولونه على أمور يعتبرونها يدعون أنها من علم الباطن ومقصودهم إنكار الإسلام وشرائع الإسلام بكل طريق، ومن المعلوم أن السواحل الشامية إنما استولت عليها النصارى من جهتهم. وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين.

وما قاله شيخ الإسلام في الرافضة نراه في الواقع اليوم في أعمال الحكومة الإيرانية الشيعية. فنشاطها في عمليات الإضرار بالمسلمين وانتهاك حرمات الله، وتفريق كلمة المسلمين لا يخفى على أحد. وهم - كما قال شيخ الإسلام - مع كل عدو للمسلمين.

وبالنظر في مناظرات شيخ الإسلام مع خصومه وجداله معهم نلاحظ الأمور التالية:

١ - إن هدف شيخ الإسلام في كل مناقشاته ومناظراته مع معارضيه هو إثبات الحق وهدم الباطل بدلائل واضحة وبراهين قوية وهو في ذلك لم يكن يدافع عن عقيدة ورثها عن آبائه، أو عن مذهب فقهي تربى عليه، بل كانت دعوته دائماً ولكل واحد التحاكم إلى القرآن والسنة، فما قرره الكتاب والسنة الصحيحة الأخذ به واجب على كل مسلم وأعلن الشيخ بصراحة أن الحق فوق الأشخاص فلا يُقبل قول من أحد إلا إذا كان مطابقاً للحق الثابت في نصوص الكتاب والسنة فمن نصب أمام عينيه الشريعة الإسلامية والتزم بقوانينها فهو حليفه وحليف كل المسلمين. أما من تكلم عن رأيه وخالف النصوص الصريحة فهو منه بريء حتى لو قال أحمد بن حنبل من تلقاء نفسه ما لم يجيء به الرسول ﷺ لم نقبله.

٢ - لم يحاول شيخ الإسلام استغلال معاركه الدينية مع علماء عصره لمنفعة ذاتية أو انتصار شخصي لنفسه، بل رفع نفسه فوق العداء الشخصي وطهر قلبه من أي حقد تجاه معارضيه، فلم يغض من قدرهم بالرغم من أنهم ناصبوا له العداء ولم يألوا جهداً في الكيد له وتدبير المؤامرة ضده وتعريضه للابتلاء والمحنة، وقد مر بنا أنه دافع عن ابن المرحل أحد خصومه، وشهد له بالإسلام وبالعلم بالرغم من استهتاره وانغماسه فيما يخل بالمروءة.

وموقفه مع السلطان الناصر حين أراد إغراءه بالموافقة على قتل معارضيه من العلماء والقضاة يدل على علو نفس هذا الإمام الرباني وشرف منزلته. والقصة كما يحكيها ابن كثير هي أنه بعد أن رجع السلطان الناصر إلى الملك استفتى ابن تيمية في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير وقال له: إنهم قاموا عليك وآذوك أنت أيضاً. وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم. وإنما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم. فقال: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً.

فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل. ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه أنا لا أنتصر لنفسي.

وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح.

قارن هذا بموقف نصر المنبجي الذي حاول بكل الوسائل إغراء السلطان ضد ابن تيمية لكي يتخلص منه، وهذا ما دفع القاضي مخلوف ـ أحد أنصار المنبجي ـ أن يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية. حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا.

٣ ـ كان شيخ الإسلام لا يعرف التسامح والمداراة في قضية دينية بل كان يصرف كل جهوده لتصحيح الوضع، وكان سيفاً مسلولاً ضد كل من حدثته نفسه بالتعدي على حدود الله، أو تحريف ما أنزل الله، أو تغيير معالم الشريعة وكان مستعداً لتقديم أية تضحية في سبيل إقامة الحق. وكان يبدي جرأة عجيبة في مناظرة خصومه. فقد تحدى الفقراء الأحمدية وأبدى استعداده لاقتحام النار معهم إذا فعلوا ما طلب منهم.

وفي مناظرته مع البطائحية قال: من لم يجب بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية وقام وأمسك سيف الأمير الذي كان حاضراً وقال: هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ، فمن خرج

عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بالسيف، هذه الصرامة من شيخ الإسلام مع ما كان يتمتع به من قوة الحجاج وسرعة استحضار الأدلة كانت تمنع أعداءه من الاجتماع به والمناظرة معه فكانوا يتحاشون مواجهته ويتعللون بأعذار مختلفة حينما كانوا يدعون للاجتماع به.

٤ ـ كان معظم خصومه الذين ناظروه وجادلوه وتصدوا للرد عليه عارفين فضله ومقرين بدرجته وعلو كعبه في العلم. وهو الآخر كان يعترف بفضلهم ولم يكن يحط على أحد إلا إذا ثبت منه ما يوجب ذلك. وكان موقفه مع معارضيه يتسم دائماً بالنزاهة والعدل. وكان اعتماده دائماً على الله وحده بينما كان معارضوه في أغلب الأحيان يستندون إلى الأسباب المادية، وهذا ما جعله ينتصر منهم في كل معركة.

٥ ـ معظم العلماء والقضاة الذين تعرضوا له وحاولوا النيل منه كانوا من الشافعية أو المالكية. أما اتباع المذهب الحنفي فكان موقفهم من شيخ الإسلام يتصف باللين والتسامح، وقد وقف بعضهم في جانبه وساعده في رد مكايد أعدائه.

ومات شيخ الإسلام وهدأت نفسه الثائرة إلى الأبد، وتنفس معارضوه الصعداء، ولكن الجذوة التي أوقدها بقيت بعده تضيء للسالكين طريقهم، وبقيت مؤلفاته ترشد الحائرين في مسائل العقيدة وجوانب الشريعة، وتؤكد للمسلمين أن مناط نجاحهم في هذه الدنيا وسعادتهم في الآخرة في اتباع ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله المصطفى ﷺ، وكتاباته لا تزال موضوع دراسة ومادة استلهام لكثير من الباحثين والمفكرين والعاملين في حقل الإصلاح الديني والاجتماعي، كما أنها تقض مضاجع المبتدعين وأهل الأهواء، فابن تيمية لا يزال ـ حتى بعد مماته ـ شجى في حلوق أولئك الذين اتخذوا أهواءهم دينهم.

وقد انتقده وطعن فيه العلماء المتأخرون منهم أحمد بن حجر المكي الشافعي الفقيه الذي قال فيه إنه ضال مضل وعبد خذله الله، وقد انتصف منه الشيخ نعمان بن الشهاب الألوسي في كتابه (جلاء العينين في محاكمة

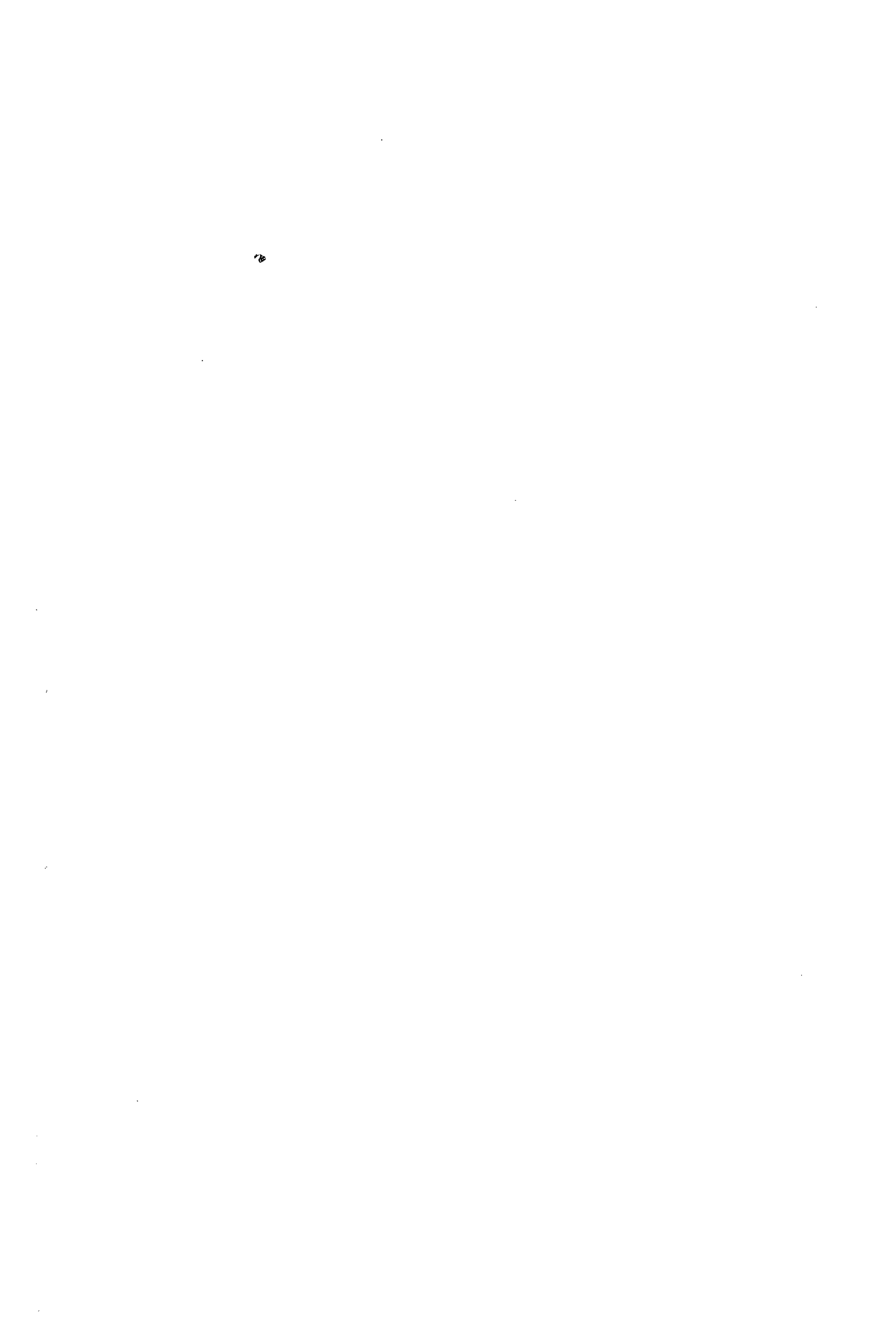
الأحمدين) وجاء بعده الشيخ محمد زاهد الكوثري فبالغ في الحط على ابن تيمية وأضاع عمره في انتقاصه وتتبع سقطاته ورماه بالتجسيم ونسبه إلى الكفر واليهودية ووصفه بصفات مشينة لم يجرؤ على التفوه بها أعداؤه من النصارى والنصيرية، ومن العلماء المعاصرين الشيخ عبد الفتاح أبو غدة - وهو من تلاميذ الكوثري - درج على منهج الطعن في شيخ الإسلام تارة علناً وتارة من طرف خفي حسب الظروف والملابسات، ولكن هذه المحاولات البائسة لم تغض من عظمة شيخ الإسلام في نفوس المخلصين من المسلمين الذين يعرفون جهاده وجهوده في سبيل توضيح معالم الشريعة وتعريف مواقع البدعة.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾.

وفات هؤلاء الغارقينَ في التعصب ما أشار إليه المراغي في كتابه عن ابن تيمية حيث قال:

(ولولا رجال من طراز ابن تيمية ما كنا لنستشرف مبادىء السلف الحقة وما كنا لنعرف الحق إلا مشوباً برأي ضال مبتدع، أو ملبساً بحيلة متحيل يرى أن دين الله تبع لهواه، وأن ذوقه أو وجده هو مقياس الحق، لا الحق والشريعة والمنهاج الذي جاء به مولانا وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه).







شيخ الإسلام في ضوء أعدائه ومخالفيه

عبد العليم ماهر، دار التوحيد
نقله إلى العربية / الدكتور عبد الرحمن الفريوائي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وبعد:

فإن هذا البحث يشمل خمس نقاط:

١ ـ أسباب مخالفته.

٢ ـ والمسائل التي خولف فيها.

٣ ـ وألوان الظلم والعناد من قبل الأعداء.

٤ ـ ووجوه الأعداء.

٥ ـ وموقف شيخ الإسلام من الأعداء والمخالفين.

١ ـ أسباب المخالفة:

(أ) كان وجود شيخ الإسلام في دمشق ومصر رحمة من الله للأمة الإسلامية لما رزقه الله من إخلاص وتفانٍ في سبيل الدين، وتمكن من العلوم والفنون، وحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما جعله معززاً مكرماً فحيثما حل كان الإجلال والاحترام، وقد أثارت منزلته المرموقة حقد من لم يبلغ شأوه من هذه الصفات.

(ب) لما تضلع بعلوم الإسلام والعربية والمعقول، واطلع على أحوال

الأمة الإسلامية فرأى الفرق المبتدعة والضالة وبدعهم العقائدية والكلامية والعلمية كالأشاعرة والماتريدية والمتصوفة والملاحدة الذين كانوا يقدسون آراء ابن عربي الطائي، والمبتدعة الذين كانوا يمارسون أعمالهم البدعية، وأصحاب المذاهب الفقهية الجامدين على قشور الفقه، والبعيدين عن فقه السنة والكتاب وفهم السلف الصالح. فعكف حياته لنشر السنة والسلفية والرد على هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام وعلى أفكارهم الباطلة، وهذا الذي أوجد طائفة من هذه الجماعات حاولوا النيل من شيخ الإسلام، وكادوا له مكيدة للقضاء على دعوته السلفية، وكانت هذه الزوابع ضد أثر بيانه الحق الصريح واعتراضاته على المنحرفين في عقائدهم وأعمالهم.

(جـ) وقد وصل بفضل الله ومنه وكرمه إلى مكانة عظيمة عند العامة والخاصة ما جعل معاصريه يحسدونه على ما آتاه الله من فضله، يقول ابن كثير:

كان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإطاعة الناس له، ومحبتهم له وكثرة أتباعه وقيامه في الحق وعلمه وعمله[1].

(د) من أسباب مخالفتهم شيخ الإسلام أن بعض الأعداء ألصقوا به بعض التهم والافتراءات التي كان شيخ الإسلام بريئاً منها وكانت لا تمت بصلة إلى الإسلام، فثار الناس ضده بدون تثبت وتحقيق.

(هـ) ومن جملة هذه الأسباب ما ذكره بعض مترجميه من شدة أسلوبه وهذا طبعه ولسانه، إلا أن هذا ليس سبباً حقيقياً، فالسبب الحقيقي هو الحقد والحسد، والمعاصرة، والتقليد، والتمذهب، والعداوة الظاهرة والباطنة لأجل كسره طواغيتهم علناً وجهاراً، وهذا هو الحماس الديني والحمية الدينية التي يحمد عليها ويعد من فضائله بإذن الله، يقول العلامة نعمان خير الدين الآلوسي (١٣١٧هـ): فمنهم من شنع لداء المعاصرة ومنهم لشهرة

(١) البداية والنهاية (١٤/١٣٧).

كاذبة من غير تحقيق، ومنهم لمخالفة في العقيدة، ومنهم حباً في ابن عربي واتباعه، ومنهم اقتداء بشيخه المنافس[1].

المسائل التي خولف فيها، أو المسائل التي خالف شيخ الإسلام فيها علماء وقته:

قضى شيخ الإسلام حياته في خدمة الدين وإعلاء كلمة الله وفي نشر السنة والسلفية وإماتة البدع والخرافات، ولم ينحرف عن خطته هذه طوال حياته وفي أصعب الظروف وأحرجها، ومن المسائل التي ابتلي بها:

١ ـ **مسألة الاستواء**: وهي أول مسألة خولف فيها حينما ألف رسالته المشهورة (الفتوى الحموية) وأثبت فيها بأدلة الكتاب والسنة وإجماع السلف أن مذهب السلف في الصفات: إثباتها كما جاءت عن الله وعن رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل، ورد على الحشوية والمجسمة والمشبهة والنفاة والمعطلة.

وقد أثارت هذه الفتوى ضجة كبيرة من قبل المعطلة والمشبهة والأشاعرة من القضاة والعلماء أمثال القاضي أحمد بن الحسن جلال الدين الحنفي (ت ٧٤٥هـ) وقاضي القضاة ابن العباس نجم الدين أحمد بن محمد بن صصري (ت ٧٢٣هـ) وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم صفي الدين الهندي (ت ٧١٥هـ) وبدر الدين محمد ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) وكمال الدين محمد بن علي ابن الزملكاني (ت ٧٢٧هـ) والقاضي زين الدين علي بن مخلوف (ت ٧١٨هـ) وغيرهم.

٢ ـ **مسألة الحلول**: ووحدة الوجود التي راجت في المتصوفة الذين تلقوها عن ابن عربي، وقد أثبت شيخ الإسلام بالأدلة الشرعية والعقلية أنها ضد الشريعة وخلاف الدين وتعاليمه النيرة، فقامت الدنيا ولم تقعد وتحرك المتصوفة ضده أمثال الملك المظفر ركن الدين بيبرس (ت ٧٠٩هـ)، وأبي

---

(١) جلاء العينين (ص ١٨).

الفتح نصر بن سليمان المنبجي (ت ٧١٩هـ) وابن عطاء الله الإسكندري (ت ٧٠٩هـ) وغيرهم، وقد قيل إنه ظاهر ضده خمس مائة نفر من المتصوفة بمصر، وقد دبروا لقتله وفتكه مكيدة، إلا أن الله حماه من شرورهم.

٣ ـ مسألة الحلف بالطلاق والتطليقات الثلاث: وحينما خمدت فتنة العقائد الباطلة، وتنورت الأذهان والقلوب ومالت إلى قبول العقيدة الصحيحة، توجه شيخ الإسلام إلى المسائل الفرعية التي جمد الناس عليها تقليداً للمذاهب الفقهية الجامدة، ورأى مسألة الطلاق بالحلف أو التطليقات الثلاث من المسائل التي لها مساس بالمجتمع الإسلامي، ووقع الناس في الحرج والمشقة لجمود الفقهاء على فروع المذاهب المتبوعة التي توارثوها، فأظهر رأيه الجريء الموافق لكتاب الله وسنة رسوله المصطفى وفقه السلف بأن التطليقات الثلاث تقع واحدة، والحلف بالطلاق يمين، فلا يقع الطلاق للحانث بل يؤدي كفارة اليمين.

وقد برز لمخالفته بعض الفقهاء أشهرهم عداوة تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦هـ) والعلامة كمال الدين محمد بن علي ابن الزملكاني (ت ٧٢٧هـ).

٤ ـ مسألة شد الرحال إلى زيارة قبر النبي ﷺ: وهذه المسألة اشتد الخلاف حولها بينه وبين مخالفيه، وقد أثبت شيخ الإسلام بالأحاديث النبوية الصحيحة وتعامل الخلفاء الراشدين وآثار الصحابة والتابعين وغيرهم من سلف هذه الأمة أنه لا يجوز شد الرحال إلى المدينة النبوية بنية زيارة قبر النبي ﷺ والذي يجوز شرعاً هو شد الرحال إلى المسجد النبوي، ويدخل في ضمنه زيارة قبره ﷺ عملاً بالحديث النبوي الشريف: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلخ فكانت المسألة في غاية من الوضوح إلا أن هذه الفتوى أثارت ضجة كبيرة في البلاد الإسلامية زمن هؤلاء الذين خالفوه بشدة: القاضي تقي الدين محمد بن أبي بكر الأخنائي (ت ٧٥٠هـ)، وجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني مؤلف تلخيص المفتاح (٧٣٩هـ) وغيرهم البالغ عددهم ثمانية عشر نفراً تقريباً.

وهناك مسائل أخرى خالف الناس فيها شيخ الإسلام إلا أن المسائل المذكورة كانت لها أهمية وشهرة، واعتنى بها العامة والخاصة.

المظالم التي واجهها شيخ الإسلام من قبل أعدائه ومخالفيه:

ما استغربنا من أعداء شيخ الإسلام ومخالفيه إذا كانوا من أصحاب العقائد الباطلة ومن الجهال، لأنه هكذا سنة هؤلاء مع الدعاة إلى الله، والمصلحين والمجددين إلا أن الأمر العجيب في أمر شيخ الإسلام أنه انضم مع المتصوفة الملاحدة والمبتدعة جماعة من أهل العلم والفن من المحدثين، والمفسرين والفقهاء والقضاة والأدباء والمؤلفين بل بالغوا في عدائه، وحاولوا النيل منه، فكفروه ودبروا لقتله المكيدة، وألصقوا به التهم والافتراءات، ونسبوا إليه الأقوال الفاسدة والعقائد الباطلة، وسجن وحبس مرات وكرات ونحن نستعرض صنوف العذاب وأنواعه في السطور التالية:

السجن: أصدر شيخ الإسلام فتواه الحموية المشهورة في إثبات الصفات واستواء الرب على العرش، وخالفه فيها فقهاء الأحناف والشوافع والموالك الذين كانوا في بلاد مصر والشام وكانوا يحتلون مناصب القضاة والحكم، إلا أنهم لم يتمكنوا منه لمواجهتهم فتنة التتار التي كان فيها لشيخ الإسلام جولة وصولة في الدفاع عن ديار الإسلام، فحمى الله بلاد الإسلام من شر التتر، وحمى شيخ الإسلام من شر هؤلاء الفقهاء والقضاة أربع سنوات تقريباً.

ثم لما تصدر شيخ الإسلام للدرس والإفتاء والدعوة بعدما اشتهر أمره وطار صيته في الآفاق، وشوا به إلى الحكام فسجن عام ٧٠٥هـ، وطلب بمرسوم ملكي إلى مصر، وأخرج في ٢٣/ ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ بجهود من أمير العرب مهنا بن عيسى، ثم سجن لمخالفته عقيدة وحدة الوجود والحلول في مصر في سجن القاهرة سنة وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً، ونقل في ٢/ صفر ٧٠٩هـ إلى سجن الإسكندرية، وأخرج في ٨/ شوال ٧٠٩هـ، ثم سجن عام ٧١٨هـ وإثر إفتائه في مسألة الحلف بالطلاق في ٢٢/ رجب عام ٧٢٠هـ، وأفرج عنه في ١٠ من المحرم ٧٢١هـ، وبقي في

السجن ٥ أشهر و١٨ يوماً هذه المرة، ثم سجن في مسألة شد الرحال إلى زيارة قبر النبي ﷺ في ١٦/ شعبان ٧٢٦هـ كما سجن معه بعض أصحابه ـ ومحبيه كابن القيم، وشقيقه زين الدين عبد الله ـ وصادروا ما عنده من القلم والدواة والكاغذ في ٩/ جمادى الآخرة عام ٧٢٨هـ، وأُخذت كتبه للمكتبة الحكومية، وتفرقها الفقهاء والقضاة، ثم توفي في ٢٠/ ذي القعدة ٧٢٨هـ، وكانت مدة سجنه ٦/ سنوات وشهرين واثنا عشر يوماً.

الافتراءات والتهم:

وجهت إليه الطعون والتهم والاتهامات بأشكالها وأنواعها وأهمها:

١ ـ أن له علاقة وطيدة بالتتر يناصحهم ويكاتبهم.

٢ ـ أنه يريد بأعماله وجهوده أن يصير خليفة وسلطاناً.

٣ ـأنه متصف بالعجب والكبر.

٤ ـ أنه يتعلق بالمجسمة والحشوية.

٥ ـ أنه في طبعه حدة وشدة.

٦ ـ أنه يطعن في الصحابة والخلفاء الراشدين ويوجه إليهم انتقادات.

أما التهمة الأولى فحكاها ابن كثير في حوادث ٧٠٢هـ: **وفي جمادى الأولى إلخ. قال: وقع بيد نائب السلطنة كتاب مزور فيه أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية والقاضي شمس الدين الحريزي وجماعة من الأمراء والخواص الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبجق على الشام. . . ، فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مفتعل ففحص عن واضعه فإذا هو فقير. . . ، وآخر معه وكانا معروفين بالشر والفضول، ووجد معهما مسودة الكتاب فتحقق نائب السلطنة ذلك فعزرا تعزيراً عنيفاً، وقطعت يدا الكاتب الذي كتب لهما هذا الكتاب، وهو التاج المندلي.**

ثم كانت الحروب بين المسلمين والتتر، وموقف شيخ الإسلام معروف ومشهور.

أما التهمة الثانية بأن الشيخ يريد التقرب من السلطان فيكفي لإبطالها والرد عليها أنه سأله السلطان ناصر مرة عن هذا فقال بدون توقف: أنا أفعل ذلك والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلساً[1]، ومن المعلوم أنه قدم إليه منصب قاضي القضاة فرفضه وآثر الدرس والفتيا على القضاء.

أما التهمة الثالثة: فلم يتجرأ بإلصاقها به أحد من معاصريه ولا من جاء بعده إلى ستة قرون من الزمان، ثم جاء عدو السلفيين اللدود محمد زاهد الكوثري الذي نشر رسالة الذهبي (زغل العلم والطلب) ونشر معه رسالة مزورة على الذهبي لأحد الحاقدين المجهولين على شيخ الإسلام، ونفث فيها سمومه، وأظهر فيها حقده، وقد رد عليه عدد من الأفاضل منهم العلامة عطاء الله الفوجياني رحمه الله.

أما التهمة الرابعة: ـ تهمة التجسيم والحشوية ـ فإنها من اتهامات نصر الدين والقاضي ابن مخلوف وغيرهما من الفقهاء والقضاة كما قال الحافظ ابن حجر: ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة: وقعت في مواعظه وفتاويه، فذكروا أنه ذكر حديث النزول فنزل عن المنبر درجتين، فقال: كنزولي هذا، فنسب إلى التجسم[2].

وقد تولى كبر هذه الفرية الرحالة الشهير بابن بطوطة أيضاً، ولم يضبط هذا الأفاك أنه توفي شيخ الإسلام قبل وصوله بدمشق باثنين وعشرين يوماً.

وقد رد عليه العلامة محمد بهجة البيطار، والعلامة عبد الصمد شرف الدين، والعلامة محمد عطاء الله حنيف الفوجياني في مؤلفاتهم.

أما التجسيم والحشوية فلم يقل بهما شيخ الإسلام البتة، بل كان ضد هذه العقائد طوال حياته.

أما التهمة الخامسة: بأنه كان فيه حدة وشدة فقد ذكرها بعض من ترجم له من المصريين كأبي زهرة ومن الهنود كالأستاذ محمد يوسف كوكن

---

(١) الكواكب الدرية (ص ١٦٦).

(٢) الدرر الكامنة (١/ ١٥٤).

العمري، وأبي الحسن علي الندوي إلا أنه قد رد عليهم جميعاً العلامة المحقق المؤرخ الأستاذ غلام رسول مهر في مقدمة ترجمة كتاب أبي زهرة الأردية، وأثبت أنها حمية دينية وغيرة إسلامية ولا ضير، وذكر حلمه وصفحه وعفوه طوال حياته.

أما التهمة السادسة: أنه يطعن في الخلفاء الراشدين والصحابة كما ذكر بعضها ابن حجر في الدرر الكامنة[١].

وهذه الاتهامات لا أصل لها من الصحة، ورد عليها بكل تفصيل وإسهاب العلامة الآلوسي في رده على ابن حجر الهيثمي الذي ساق بعض هذه الاتهامات.

وقال في آخره: كان ينبغي لابن حجر أن يعزو هذا الكلام إلى الكتاب الذي نقله ونسبه إلى ابن تيمية، ثم النظر بعين التدبير والإنصاف إليه على تقدير صحته بهذه العبارة، فهل يقتضي هذا التهور العظيم والطعن الوخيم[٢].

مصادرة مؤلفاته والقبض عليه: لم تنته سلسلة التضييق عليه بالسجن وإلصاق التهم به، فصادروا كتبه ومؤلفاته وأخرجوا ما عنده من الكتب والأوراق والدواة والقلم، ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت كتبه إلى خزانة الكتب بالعادلية، وتفرقها القضاة والفقهاء فيما بينهم وكانت نحو ستين مجلداً، وأربع عشرة ربطة كراريس[٣].

ثم ردت هذه الكتب في عام **٧٤٢**هـ بجهود نائب السلطنة بدمشق سيف الدين قطلوبغا الفخري واستلمها أخوه زين الدين.

ألوان الأعداء والمخالفين وأصنافهم:

هناك عدد كبير من هؤلاء الأعداء والمخالفين الذين نصبوا العداء له وهم على أربعة أصناف:

---

(١) (١/١٥٤ و١٥٥) و١٠٠.

(٢) جلاء العينين (ص ٥٧).

(٣) انظر البداية (١٣٤/١٤).

١ ـ جماعة الحساد الذين استمروا في عدائهم إلى أن انتقل إلى رحمة ربه أمثال: ركن الدين بيبرس الجاشنكيري الذي تبوأ عرش الدولة عام ٧٠٨هـ، وقتل في عام ٧٠٩هـ كان من أعداء شيخ الإسلام الذي اشتد عناده أيام حكمه.

٢ ـ أبو الفتح نصر بن سليمان المنبجي الصوفي الملحد شيخ ركن الدين الجاشنكيري الذي تولى كبر العداوة طوال حياته، وتوفي ٧١٩هـ.

٣ ـ أحمد بن محمد بن عطاء الإسكندري الصوفي (ت ٧٠٩هـ).

٤ ـ القاضي تقي الدين الأخنائي المالكي (ت ٧٥٠هـ) الذي كان وراء فتنة شد الرحال إلى القبور، وقد رد عليه شيخ الإسلام في كتابه (الرد على الأخنائي) وهو الذي كان وراء منع شيخ الإسلام من الكتابة والقراءة في السجن.

٥ ـ القاضي جلال الدين الحنفي (ت ٧٤٥هـ) الذي حمل لواء العداوة والمخالفة ضد شيخ الإسلام في مسألة الاستواء على العرش.

٦ ـ بدر الدين ابن جماعة الشافعي كان على عدة مناصب حكومية منها قاضي القضاة في مصر، وكان من مخالفي شيخ الإسلام، وقد دعاه المتصوفة ليبقى معهم شيخاً في خانقاه سعيد السعداء إلا أنه لم يجلس أسبوعاً حيث طرد بعد إهانة وذلة. يقول فيه ابن كثير: وعومل بنظير ما كان يعامل به الناس، ومن جملة ذلك قيامه على شيخ الإسلام ابن تيمية، وافتراؤه عليه الكذب مع جهله وقلة ورعه فجعل الله هذا الخزي على يدي أصحابه وأصدقائه جزاء وفاقاً[١]، وتوفي عام ٧٣٣هـ.

٧ ـ محمد بن عبد الرحيم صفي الدين الهندي ولد بأطراف دلهي عام ٦٤٤هـ، ووصل إلى دمشق عام ٦٨٥هـ وتوطن بها، وناظر شيخ الإسلام في الفتوى الحموية، وتوفي ٧١٥هـ.

---

(١) البداية (١٤/ ٥١).

٨ ـ قاضي القضاة أبو العباس نجم الدين ابن صصري الشافعي (٦٥٥ ـ ٧٢٣هـ) لم يدخر وسعاً في إيذاء شيخ الإسلام، وقصة سجن أبي الحجاج المزي مشهورة.

٩ ـ القاضي جمال الدين يوسف بن إبراهيم بن جملة الشافعي (٦٨٢ ـ ٧٣٨هـ).

١٠ ـ نجم الدين علي بن داود القفجاري كان إماماً في النحو والصرف.

١١ ـ الصدر: وهؤلاء الثلاثة قال فيهم ابن كثير: وما علمت أحداً من أهل العلم إلا النفر اليسير تخلف عن الحضور في جنازته وهم ثلاثة أنفس وهم: ابن جملة، والصدر، والقفجاري، وهؤلاء كانوا قد اشتهروا بمعاداته، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث أنهم علموا متى خرجوا قتلوا وأهلكهم الناس[١].

النوع الثاني من مخالفيه: الذين رجعوا عن موقفهم العدائي السابق: وهنا نذكر طائفة أخرى من أهل العلم والفقه والقضاء والفتيا الذين خالفوه وعادوه في بداية أمرهم لأجل التقليد والتعصب إلا أنهم ندموا فيما بعد، واعترفوا بفضله وكماله، ومنهم:

١ ـ القاضي المالكي زين الدين علي بن مخلوف الذي كان يعاديه معاداة شديدة وكان يريد قتله، بل كفره، يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: ثم بلغ المالكي أن الناس يترددون إليه فقال: يجب التفسيق عليه إن لم يقتل وإلا فقد ثبت كفره[٢].

ولما أراد السلطان قتل بعض القضاة واستفتى شيخ الإسلام في ذلك، قال له الشيخ: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال له: إنهم قد آذوك، وأرادوا قتلك مراراً، فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى

(١) البداية والنهاية (١٤/١٣٩).

(٢) الدرر الكامنة (١/١٤٧).

حلم عنهم السلطان، وصفح، وقال ابن مخلوف: ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا[1].

وطائفة ثالثة أخرى من مخالفيه الذين أظهروا خلافهم معه في بعض المسائل في دائرة الأدب العلمي والنقد، وكانوا يعترفون بفضائله ومناقبه وتمكنه من العلوم والفنون وهم:

١ ـ قاضي القضاة تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الدمشقي (ت ٧٥٦هـ) الذي خالف شيخ الإسلام في مسألة الزيارة، ومسألة الطلاق، وألف في الموضوعين، ومع هذا كان يعترف بفضله وعلو شأنه يقول في رسالة موجهة إلى الذهبي: فالمملوك يتحقق كبر قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه، واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف والمملوك يقول ذلك دائماً وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا يفرض سواه، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل في الأزمان[2].

وقديماً قالوا:

الفضل ما شهدت به الأعداء

٢ ـ صدر الدين محمد بن عمر ابن المرحل المكي الشافعي (ت ٧١٦هـ) كان من مخالفيه وقد ناظره مراراً، وكان يعترف بفضل شيخ الإسلام، قال الحافظ أبو حفص البزار: وكان يعترف للشيخ بالعلوم الباهرة ويثني عليه[3].

وشيخ الإسلام نفسه كان يمدحه قال ابن كثير: وقد كان شيخ الإسلام

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٥٤)، وراجع: طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ٤٠٠).
(٢) الدرر الكامنة (١/ ١٥٩)، وطبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ٣٩٣).
(٣) الأعلام العلية (ص ٨٦).

ابن تيمية يثني عليه وعلى علومه وفضائله[1].

٣ ـ قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم السروجي الحنفي (ت ٧١٠هـ) له اعتراضات على الشيخ تقي الدين ابن تيمية في علم الكلام، أضحك فيها على نفسه، وقد رد عليه الشيخ تقي الدين في مجلدات وأبطل حجته[2].

٤ ـ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن جهبل الدمشقي الشافعي (٦٧٠ ـ ٧٣٣) كان شيخ الحديث بالمدرسة الظاهرية، وكان ألف كتاباً في الرد على شيخ الإسلام في بعض العقائد.

والطبقة الرابعة من مخالفيه الذين كانوا من المعترفين لفضله وعلمه في أول أمرهم، ثم عادوه لحادثة وسبب واستمروا عليه إلى آخر حياتهم، وهم:

١ ـ كمال الدين محمد بن علي بن الزملكاني الشافعي (٦٦٦ ـ هـ) كان شيخ الشافعية في دمشق، وكانت له رئاسة في التدريس والإفتاء والمناظرة، وكان من مادحي شيخ الإسلام، وهو القائل في كتاب إبطال التحليل لشيخ الإسلام.

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة ... أنواره أربت على الفجر

وقال مرة: كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا منه في مذهبهم أشياء ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه ولا يتكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٨٠).

(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٦٠).

غيرها إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها[1].

ثم خالفه مخالفة شديدة في مسألة العقيدة في الفتوى الحموية وناظره ورد عليه، قال الحافظ ابن كثير: وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متولياً أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية فدعا عليه فلم يبلغ أمره ومراده[2]. إذ توفي عام ٧٢٧هـ في الطريق.

٢ ـ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي (ت ٧٤٥هـ) الذي قال في مدحه:

فلما رأينا تقي الدين لاح لنا داع إلى الله فردا ما له وزر
فأظهر الدين إذ آثاره اندرست وأخمد الشرك إذا طارت له شرر

ثم حصلت المنافرة بينه وبين شيخ الإسلام لأجل بعض المسائل النحوية، فاستحكمت العداوة والنفرة، والعياذ بالله.

٣ ـ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي، كان من مؤيدي شيخ الإسلام في مسألة الفتوى الحموية، قال هو وأخوه جلال الدين: من قال عن الشيخ تقي الدين شيئاً عزرناه[3].

ثم خالف شيخ الإسلام في مسألة الزيارة ومسألة الطلاق، وسجن شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم بأمره، وأمر بمصادرة مؤلفاته، حتى بالغ في أمره. فحكم بأنه زنديق ومنافق، وكافر، ودبر لقتله، وسجنه، ومنعه من الكتابة والقراءة.

موقفه من مخالفيه وأعدائه:

إن هذا لموقف رائع وعجيب من شيخ الإسلام الذي أوذي في

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ٣٩٠).

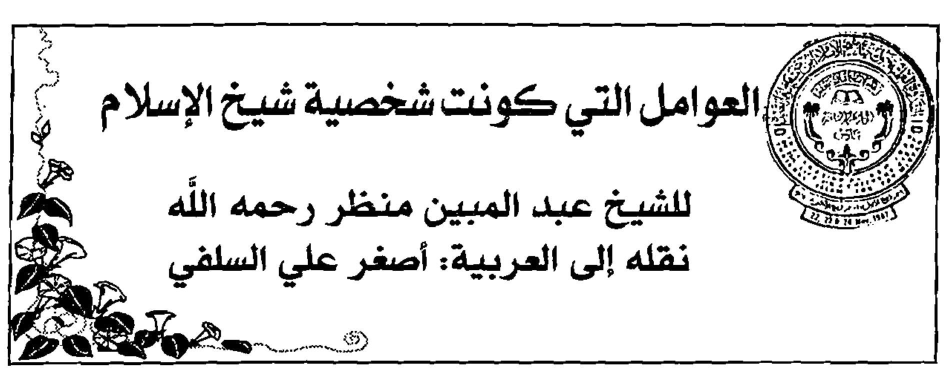
(٢) البداية والنهاية (١٤/ ١٢٣).

(٣) الدرر الكامنة (١/ ١٤٥).

سبيل الله من قبل أعدائه ومنافسيه ومخالفيه الذين أذاقوه ألواناً من العذاب أنه صفح عنهم وعفا عما سلف منهم.

وقد سجل التأريخ نماذجاً من هذا الموقف الرائع والعجيب، ويمكن للدعاة إلى الله الاستفادة منها في حياتهم العلمية والدعويّة. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





العوامل التي كونت شخصية شيخ الإسلام

للشيخ عبد المبين منظر رحمه الله
نقله إلى العربية: أصغر علي السلفي

شخصية شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي العلمية العظيمة منقطعة النظير يستحق عقد عشرات الندوة حول حياته العلمية، ويسرني كثيراً دعوة الجامعة السلفية للمشاركة في ندوة علمية عالمية حول حياة شيخ الإسلام العلمية وأعماله الخالدة وإنني أعتبر هذه الفرصة اغتناماً للاتعاظ والعبرة من دروس حياته الحافلة بالمآثر.

كانت شخصيته الكريمة موضع إعجاب وتقدير لدى العلماء والمثقفين قديماً وحديثاً فإنه كان جبلاً في الحفظ والإتقان، بحراً لجياً في العلم والمعرفة، فارساً مغواراً في الشجاعة والبسالة، منقطع النظير في التأليف دراً مكنوناً في الأخلاق الكريمة والشيم الحميدة زاهداً ورعاً تقياً، حاذقاً في الطب والجغرافية والفلكيات والرياضيات، مخزن علوم الكتاب والسنة، إماماً في الفهم السريع والذكاء الحاد، عالماً نحريراً في المنطق والفلسفة خطأ الغزالي والرازي وابن عربي وأرسطو وابن سينا وسيبويه الأئمة الحذاق وأصحاب الفن.

العناصر التي كونت هذه الشخصية الفذة: أريد أن أتحدث عنها في هذه المناسبة السعيدة مع الإيجاز حسب المستطاع. وما توفيقي إلا بالله.

بيئته العلمية:

إن أول عنصر في تكوين شخصية شيخ الإسلام العلمية هو بيئته وأسرته العامرة بالعلوم والفنون، فكان كل فرد من أسرته مركزاً من مراكز العلم، وكان والده وجده وجميع أهل بيته متضلعين بالعلوم الشرعية، وكان والده أحد أركان العلم، والبارع في الحفظ والإتقان في العلوم، ولد الإمام تقي الدين ابن تيمية يوم الاثنين من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ في هذه الأسرة العلمية والدينية الشهيرة، وكان عصر ابن تيمية مليئاً بالقلاقل والحوادث، وما كاد ابن تيمية يبلغ سبع سنين من عمره حتى أغارت التتر على حران فالتجأت أسرته إلى الفرار منها إلى دمشق بجميع ما كان لديها من تراث العلم والفضيلة، تاركة جميع الأثاث المنقولة وغير المنقولة وما كادت هذه الأسرة العلمية تصل إلى دمشق حتى شاع خبرها في أوساط الناس وما مضى إلا بضعة أيام في دمشق حتى بدأ ابن تيمية يدرس في الجامع الأموي، وسطع نجم العلم الغزير.

وبالجملة فإن والده وجده وجميع أهل بيته منذ قرون كانوا معروفين بالعلم والحفظ والإتقان فريدين بين الأقران، وقد حفظ القرآن الكريم في صغره وتلقى العلوم والفنون من والده ثم من جميع العلماء البارزين في هذا العصر، واستفاد من البيئة العلمية وبرع في جميع العلوم والفنون وقد زاده علماً ومعرفة الذاكرة القوية.

عبقريته في الحفظ والذاكرة القوية:

العامل الثاني لتكوين شخصية الإمام الهمام هو قوة الحفظ والذاكرة الحادة التي ورثها من أبيه وجده، فأحرز العلوم والفنون الكثيرة فاشتهر صيته في صغره فكانت ذاكرته حديث زملائه بل تجاوز صيته دائرة الصبيان إلى حلقات الرجال وتحير العلماء الكبار والحفاظ المعروفون بقوة حفظه وإتقانه وذاكرته. يقول تلميذه أبو حفص البزار: ومن أعجب الأشياء أنه في محنته الأولى بمصر لما أخذ وسجن وحيل بينه وبين كتبه، صنف عدة كتب صغاراً وكباراً وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار

وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم وعزى كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم وذكر أسماء الكتب التي ذلك فيها، وفي أي موضع هو منها، كل ذلك بديهة من حفظه لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه[1].

وقد اعترض الشيخ أبو زهرة على هذا ونقده وقالاً: إن فيه غلواً. ولكن عندي في نقده هذا نظر، لأن عدم المنع من الكتابة في حبسه بمصر لا يلزم أن يكون عند الشيخ كتب يطالعها ويرجع إليها ويحيل إليها، وقول الحافظ أبي حفص ليس فيه المنع عن الكتابة بل كل ما في قوله هو (وحيل بينه وبين كتبه) والقرينة تدل على أنه حينما حبس فكأنه أبعد من الكتب لأنه في السجن لا يمكن الرجوع إلى المراجع المطلوبة، وخاصة أن هذه القصة التي تدل على ذاكرته القوية ليست الوحيدة، بل هناك عشرات من القصص التي تنبىء عن ذكائه الحاد وحفظه الكامل وذاكرته العجيبة، فهذا هو أمير السبة يسأله أن يجيز لأولاده بمروياته كتابة وهو محبوس في سجن الإسكندرية فكتب له في عشر أوراق محتوية على ستمائة سطر وكان فيها سبعة أحاديث قد ذكرها بأسانيدها وشرح ألفاظها وحكم على صحتها في ضوء أقوال الأئمة وبين معانيها التي يعترف بها كل من له إلمام كامل بعلم الحديث، وما كان عنده من الكتب ما يعتمد عليه بل كتب كل ذلك معتمداً على ذاكرته القوية، وأيضاً كتابه (الحموية) قد كان أملاه في جلسة واحدة فقط من حفظه وذهنه الفياض. يقول الشيخ يوسف يامين: قد آتى الله ابن تيمية من قوة الحفظ والوعي أكثر مما آتاه الله لأي شخص عرفناه أو سمعنا عنه[2].

ويقول العلامة رشيد رضا رحمه الله: (ومن الغريب أن هذه المسائل كان يكتبها شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ أو يمليها من غير مراجعة كتاب من الكتب، وهي من الآيات البينات والبراهين الواضحات أن هذا الرجل من

---

(١) الأعلام العلية (ص ٢٤).

(٢) مقدمة مجموع الفتاوى لابن تيمية.

أكبر آيات الله في خلقه[1]، وكان يقول الحافظ أبو الحجاج المزي: لم ير مثله منذ أربع مائة سنة[2]، ويقول معاصره الحافظ الزملكاني وحريفه في الجدل والمناظرة لما سئل عنه: لم ير منذ خمس مائة سنة أحفظ منه[3].

وقال القاضي أبو الفتح ابن دقيق العيد: لما اجتمعت بابن تيمية رأيته رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد، ويدع ما يريد فقلت ما أظن الله بقى يخلق مثلك[4].

وبعد الأقوال في الثناء على ابن تيمية التي حكينا عن العلماء المحققين والدارسين لحياة ابن تيمية يجدر بنا أن نذكر بعض القصص المتعلقة بقوة حفظه وعبقريته في الذاكرة واستحضاره الكامل الدال أن كل ما بيناه ليس فيه مجال للغلو والمبالغة بل هو حقيقة وواقع، وهي كما يلي:

١ - اتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق: وقال سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلي أراه، فقال له الخياط: هذه طريق كتابه وهو إلى الآن ما جاء فاقعد عندنا الساعة حتى يجيء، فجلس الشيخ الجليل قليلاً، فمر صبيان فقال للشيخ الحلبي: هذا الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية فناداه الشيخ فجاء إليه فتناول الشيخ اللوح فنظر فيه، ثم قال: يا ولدي! امسح هذا حتى أملي عليك شيئاً تكتبه ففعل: فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً. فقال: اقرأ هذا، فلم يزد أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ثم رفعه إليه وقال: إسمعه، فقرأه عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع، فقال: يا ولدي! امسح هذا ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة، فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم، فإن

---

(١) مقدمة مجموع الفتاوى لابن تيمية.
(٢) طبقات الحنابلة (٢/٣٩٣).
(٣) طبقات الحنابلة (٢/٣٩٣).
(٤) مقدمة مجموع الفتاوى لابن تيمية.

هذا لم ير مثله[1].

وقصة أخرى تدل على ذكائه يحكيها الحافظ أبو حفص يقول:

أخبرني الشيخ الصالح تاج الدين محمد المعروف بابن الدوري أنه حضر مجلس الشيخ رضي الله عنه وقد سأله يهودي في مسألة القدر قد نظمها شعراً في ثمانية أبيات، فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة وأنشأ يكتب جوابها وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثراً، فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه، وإذا هو نظم في بحر أبيات السؤال وقافيتها تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتاً، وقد أبرز فيها من العلوم ما لو شرح بشرح لجاء شرحه مجلدين كبيرين هذا من جملة بواهره، وكم جواب فتوى لم يسبق إلى مثله[2].

٢ ـ الأحوال الاجتماعية والبيئة العلمية: العنصر الثالث في بناء شخصية الإمام ابن تيمية هو البيئة العلمية والاجتماعية والسياسية، فإن الإنسان يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، ويكون لها تأثير كبير في توجيه أعماله وتعينه في اختيار منهج العمل، فإن نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الذي نشأ فيه الإمام الهمام كانت محاطة بالحوادث والبلايا، وكان المسلمون في هذه الأيام قد تفرقوا شيعاً وأحزاباً، وتخيم النفاق والشقاق فيما بينهم بعد ما فقدوا الوحدة والاتفاق وكانوا يدينون بالبدع والخرافات، وكان الأعداء يضيقون عليهم من كل جانب ويتربصون بهم الدوائر، وكانت الخلافة قد قصرت في مصر والشام والحجاز، إلا أن الصليبيين قد سيطروا على بعض نواحي الشام، وأثار الصليبيون والملاحدة الفتن فيها من جانب والتتر يريدون التسلط على المسلمين من جانب آخر، وكانت الخلافة العباسية قد سقطت فصارت الفوضى وانتشرت السرقة والسلب والنهب، وبدعة التعصب المذهبي بلغت الغاية من أمرها، وكان الفقهاء والمتكلمون والمتصوفون قد حالوا بين الكتاب والسنة والعمل بهما، وصرفوا الناس

---

(١) ابن تيمية أبو زهرة (ص ٣١)، والعقود الدرية في مناقب ابن تيمية.

(٢) الأعلام العلية (ص ٢٨)، والدرر الكامنة (١/١٥٦).

عنهما إلى آراء الأئمة وأقيسة الفقهاء وخزعبلات المتصوفة، وسدوا أبواب الاجتهاد وأجبروا الناس على عقيدة الأشاعرة في الأصول، وتقليد الأئمة الأربعة في الفروع بحيث كانوا يرون الخروج جرماً عظيماً وخروجاً من الدين. يؤولون الكتاب والسنة وفق آرائهم الفاسدة ويخيلون معانيها حسب هواهم ولا يعرضون أقيستهم على الكتاب والسنة وكانت تقضي وتحكم في الأمور الدينية بعقيدة الملوك والرؤساء، فكان الناس على دين ملوكهم بعد ما جعلوا الكتاب والسنة وراء ظهورهم، وليس معناه أن العصر كان عارياً من العلماء المخلصين والمشايخ المتحمسين المتمسكين بالكتاب والسنة بل كان هناك جم غفير للعلماء والفضلاء في ذاك العصر. يقول العلامة أبو الكلام آزاد رحمه الله:

(العصر الذي عاش فيه الإمام ابن تيمية قد انتشرت فيه البدع والخرافات وتشتت شمل المسلمين وتفرقت كلمتهم وكان المسلمون في أعمالهم العلمية والعملية في انحطاط وتأخر، ولكن مع هذا كان هناك جماعة من العلماء الكاملين والحفاظ البارعين والأئمة الأعلام ونقاد الحديث في جميع أنحاء العالم الإسلامي خاصة في مصر والشام فإنهما كانتا مجمع العلماء ومأواهم. يقول القاضي أبو البركات المخزومي في قصيدته البائية في علماء الشام: (وكان في عصره بالشام يومئذٍ سبعون مجتهداً من كل منتخب).

ليس هذا الجم الغفير من العلماء العاديين بل هم نقاد الحديث وعظماء الوقت في الفقه والفنون الإسلامية بلغوا ذروة في الاجتهاد والنظر ما اجتمع مثل هؤلاء الأكابر بعدهم في عصر من العصور وكان من نبلاء هذا العصر أبو الفتح ابن سيد الناس الإشبيلي، شمس الدين المقدسي، أبو العلاء الأنصاري السبكي، القاضي ابن الزملكاني، السيد أبو المحاسن الدمشقي، أبو عبد الله الحريري، أبو العباس بن عمر الواسطي، الحافظ أبو الفداء عماد الدين، الحافظ أحمد بن قدامة المقدسي، أبو إسحاق السعدي، الإمام برهان الدين الفزاري، الحافظ صلاح الدين البعلبكي، الشيخ صفي الدين البغدادي، الحافظ ابن الشامي الدمشقي، القاضي تقي الدين الدقوقي،

الشيخ عمر ابن الوردي، الإمام أبو العباس بن الحجي، الحافظ جمال الدين العقيلي، الحافظ البرزالي الإشبيلي، الشيخ تقي الدين السبكي، الحافظ جمال الدين المزي، الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد، أبو حيان صاحب التفسير، الحافظ أبو عبد الله الذهبي، هذا غيض من فيض، ومن أراد الاطلاع على علماء هذا العصر فليطالع مصنفات الحافظ الذهبي والعسقلاني وابن قدامة وأمثالهم وهؤلاء العلماء لا ينكر أحد فضلهم وتفوقهم في العلم والنظر، خاصة الحافظ الذهبي والمزي وابن دقيق العيد والبرزالي فإنهم نقاد الحديث، ومخزن علوم الكتاب والسنة[1].

مع هذا كله كانت الحاجة ماسة إلى بطل جليل متحمس للدين الحنيف والدعوة إليه، لا يبالي لومة لائم في سبيل الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمع، والتفاني في الله، فكان ابن تيمية في عصره وحيداً فريداً متصفاً بهذه الصفات مجاهداً في سبيل الله فكانت هذه الشخصية الفذة التي نجحت في إصلاح المجتمع وإزالة جميع الرزايا الخلقية والدينية بجهوده القيمة، وما كان أحد في عصره ولم ير بعده من يدانيه ويضارعه فإنه فرج عن كروب كثيرة من المسلمين ومشاكلهم الدينية والاجتماعية بعون الله وتأييده ثم بجهوده المخلصة. وكان غيوراً على دين الله وحدوده وأحكامه، فما رأى أحداً من الأمراء والحكام يتكاسل أو يتداهن في إقامة حدود الله وتنفيذ شريعته إلا قام إليه ناصحاً وزاجراً يأخذ تلاميذه ومعتقديه ويقوم بتنفيذ أوامر الله وحدوده، كما فاز بتوجيه كثير من السراق وقطاع الطرق والملحدين والمتصوفين والشيعة والنصارى والفاطميين والباطنيين إلى التوبة والإنابة إلى الله بكل صدق وإخلاص، واستأصل من لم يتب إلى الله منهم، خرب مصانع الخمر والقمار وقضى على كثير من أماكن السفاح والزنا، وقد رسخت عقيدة التوحيد في قلوب المسلمين بعد أن غاب عنهم من زمن طويل، وبمصنفاته الكثيرة قضى على العقائد الشركية وعبادة القبور والقرابين لغير الله والاستغاثة لغير الله والتصوف والرهبانية التي ابتدعوها وغيرها من

---

(١) تذكرة الحفاظ (ص ١٥٧ ـ ١٠٨).

البدع والخرافات والشركيات التي كانت سائدة في هذا العصر كما ألف كثيراً من الكتب في رد الوسيلة المخترعة وكذلك رد على النصارى والملحدين والمتكلمين، فإن العلماء منذ قرون كانوا مندهشين بالفلسفة ومتأثرين بها، كما رد على المقلدين الجامدين ونشر الكتاب والسنة، وكان الشيخ مخلصاً في نشر الدين الإسلامي وإصلاح المجتمع ونشر تعاليم الكتاب والسنة حتى ما كان يبالي في مخالفة الأئمة إزاء نصوص الكتاب والسنة كائناً من كانوا، ولا يحيد عن الحق قيد شبر ولا يخاف في إظهار كلمة الحق لومة لائم. يقول تلميذه أبو حفص البزار: (كان إذا أوضح له الحق بعض عليه بالنواجذ والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله ﷺ ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه وكان إذا أورد شيئاً من حديثه في مسألة ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديث يعمل ويقضي ويفتي بمقتضاه ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسنة ولا يميله عنهما قول أحد كائناً من كان ولا يرقب في الأخذ بعلومهما أحداً ولا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ولا سيفاً ولا يرجع عنهما لقول أحد[1].

وكانت بديهته العلمية على درجة عالية بحيث يدهش العلماء الكبار بمواجهته والمناظرة معه والمباحثة منه وهذه الدرجة العلياء في العلم والفقه والتفوق في سائر العلوم المتداولة في ذلك الوقت ورثه عن آبائه وأثرت فيه بيئته العلمية وقد أوصله إلى الثريا الذكاء الحاد والذهن الثاقب.

تحصيله للعلم، وانكبابه على القراءة والمطالعة والحرص على طلب العلم:

العنصر الرابع في تكوين شخصية الإمام الهمام هو الإحاطة بالعلوم والفنون وكثرة المطالعة والقراءة وحرصه البالغ على طلب العلم، فالإمام ابن تيمية مع ذكائه الحاد لم يكن كمن يغترون بذكائهم وفطنتهم ولا يجتهدون

---

(١) الأعلام العلية.

في تحصيل العلم ويتكاسلون فيه، بل كان مع ذكائه المفرط وذهنه الثاقب الوقاد، وفهمه البارع وحفظه القوي يبذل في تحصيل العلم قصارى جهده ويفكر في شتى العلوم والفنون، يحافظ على أوقاته ويصرفها في قراءة الكتب والبحث عنها. لا يلتفت إلى اللهو واللعب وقد استفاد من جميع شيوخ هذا العصر ونهل من جميع مناهل العلم والعرفان، يقول الشيخ ابن عبد الهادي كان عدد شيوخه الذين أخذ منهم الحديث فقط أكثر من مائتي شيخ، وكان في هذا العصر المدارس العلمية والمعاهد الدينية منتشرة وكذلك المكتبات الزاخرة بأنواع من الكتب في سائر الفنون من النحو والصرف والأدب واللغة والتفسير والحديث وعلم الرجال والفرائض والفقه والتاريخ والسير والمنطق والفلسفة وعلم الأديان والمذاهب والفرق وعلم النجوم والرياضة والهندسة. يقول الشيخ أبو زهرة: (في الجملة ذلك الفتى ربى نفسه تربية عالية فتعلم العلوم التي كانت رائجة في عصره ولم يترك باباً من الأبواب إلا أتقنه)[١].

ولما انتقد على (الكتاب) لسيبويه وبين فيه خطأه في ثمانين مسألة رآه شيخ النحاة أبو حيان أول مرة: فارتجل قائلاً: ما رأت عيني مثله[٢]، وربما طالع أكثر من مائة تفسير على الآية الواحدة يقول هو بنفسه: ربما طالعت على الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي على التراب وأسأل الله تعالى وأقول يا معلم إبراهيم فهمني[٣].

ويقول الشيخ يوسف يامين: لم يكن شيخ الإسلام مقتصراً على فن من الفنون العلمية بل كان بحراً في سائر ما كان معروفاً في عصره فبعد علمه بما جاء في الكتاب والسنة فقد كان عالماً بالفلك والرياضيات والطب وغيره من العلوم المنتشرة في عصره وكان يناقش كل أهل فن من تلك الفنون بعلم غزير وكان أعلم بمذاهب الباطل من أهل الباطل من أنفسهم

---

(١) ابن تيمية (ص ٨٢).

(٢) مقدمة الفتاوى (ص ١٨).

(٣) أعلام الإسلام: عبد العزيز المراغي (ص ٥٠).

وبهذا تمكن من الدخول إلى صميم دعاويهم حتى أبطلها بالنقل والعقل[1].

ويقول الذهبي: وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لم يعرفه ابن تيمية فليس بحديث[2].

فلله در القائل:

بحر العلوم وكنز كل فضيلة	في الدهر فرد الزمان إمام
فلئن تأخر في الزمان الثامن	فلقد تقدم في العلوم إمام

التدريس والتأليف والبحث والنقد: العنصر الخامس في تكوين شخصية شيخ الإسلام هو التدريس والتأليف والبحث العلمي والنقد الصحيح الكامل فعصر الإمام كان يتطلب أن يتوجه إلى جميع ميدان العلم في الوعظ والخطب والتدريس والتأليف والنقد والتمحيص والإفتاء ويزيح الستار الذي ألقى على وجه الإسلام، فإن البدع والخرافات ما كانت منتشرة في العوام فقط، بل خاصة العلماء والمشائخ كانوا يروجونها ويشيدون أمرها، فقام الشيخ يرد على هؤلاء يدحض وينقد آراءهم الباطلة ويفتي في المسائل بما في الكتاب والسنة راداً على البدع والخرافات والتقليد الجامد ولم يكن مقلداً بل مجتهداً ما ترك ميداناً من ميادين العلم والجهاد بالعلم واللسان إلا قد أبلى فيه بلاءً حسناً. يقول الحافظ الذهبي: له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين قل أن يتكلم في مسألة إلا يذكر فيها المذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة وصنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قام الدليل عليه عنده، ولقد نصر السنة المحضة والطريق السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أعجم عنها الأولون والآخرون وهابوا وحر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه

---

(١) مقدمة الفتاوى (ج ١).

(٢) طبقات الحنابلة (٢/ ٣٩١).

ويدعوه وناظروه، وكاتبوه ولا يداهن ولا يحابي بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال مع ما اشتهر به من الورع وكمال الفكر وسرعة الإدراك[1].

وهذا الجدل والمباحثة العلمية والبحث والتأليف كان له أثر بارز في تكوين شخصية شيخ الإسلام وتفوقه بين الأقران.

الزهد والورع وإخلاص النية: ومن العناصر الأساسية التي لها دور كبير في بناء شخصية شيخ الإسلام هو زهده في الدنيا ولذاتها وورعه الكامل وبعده عن المعاصي وأسبابها، وإخلاصه في دين الله، فإن العالم الداعي إلى الله إذا كان زاهداً في الدنيا يكون محل أنظار الناس وموضع عنايتهم إذا أحسوا في الداعي أنه بعيد عن الحرص والهوى والمتحلي بالخشية والتقوى والزهد والورع، وكان يشغله العلم وحاجات الناس عن نفسه.

قال الحافظ أبو حفص البزار: وأخبرني غير واحد أنه ما رآه ولا سمع أنه طلب طعاماً قط ولا غذاء ولا عشاء ولو بقي مهما بقي لشدة اشتغاله بما هو فيه من العلم والعمل، كان يؤتى بالطعام وربما يترك عنده زماناً حتى يلتفت إليه وإذا أكل شيئاً يسيراً، وقال: وما رأيناه يذكر شيئاً من ملاذ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيء من حديثها ولا يسأل عن شيء من معايشها: بل جل همته وحديثه في طلب الآخرة وما يقرب إلى الله تعالى[2].

ويقول أيضاً: لم يسمع أنه رغب في زوجة حسناء ولا سرية حوراء ولا دار قوراء ولا جواد ولا بساطين ولا عتاد ولا شد على دينار ولا درهم ولا رغب في دواب ولا نعم ولا ثياب ناعمة فاخرة ولا حشم ولا زاحم في طلب الرياسات ولا رئي ساعياً في طلب المباحات مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبار كانوا أطوع لأمره خاضعين لقوله وفعله[3].

---

(١) ابن تيمية أبو زهرة (ص ٩٤).

(٢) الأعلام العلية (ص ٥٢).

(٣) الأعلام العلية (ص ١٥٨).

ويقول معاصره الفضل العمري: كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث فيهب ذلك أجمعه ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه لا يأخذ منه شيئاً إلا يهبه[1].

كما كان بعيداً عن المناصب العليا والرياسة في الحكومة. يقول أبو حفص البزار حين وشي به إلى السلطان الملك المعظم الناصر أحضره بين يديه فكان من جملة كلامه أنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك، فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير ممن حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي فلسين، فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة. إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إلي كاذب[2].

والصفحات تضيق عن القصص التي تدل على ورعه وزهده وخشيته وتقواه وانكبابه على نشر العلوم والدين يقول الذهبي: لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه[3].

مع هذا كله كان أواهاً حليماً مبتهلاً إلى الله، يقول العلامة الذهبي: لم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه ويقول: وكان في ليله منفرداً عن الناس كلهم، خالياً بربه عز وجل، ضارعاً إليه، مواظباً على تلاوة القرآن، مكرراً لأنواع التعبد الليلية والنهارية، وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة[4].

وإن من الإخلاص في العمل أن يحسن إلى الأعداء وإلى من أساء وهذه الخصلة الطيبة الدالة على الإخلاص، كانت في شيخ الإسلام متوفرة

---

(١) الكواكب الدرية تأريخ دعوة (ص ١٥٨).

(٢) الأعلام العلية (ص ٦٥).

(٣) طبقات الحنابلة (٢/ ٣٩٠).

(٤) الكواكب الدرية (ص ١٥٦).

وكان يقول: ما يصنع أعدائي بي، إن جنتي وبستاني في صدري إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة وإخراجي من بلادي سياحة[1].

فكان من دأبه وأخلاقه أنه قد عفى عن الذين زجوه في السجن بمحاولتهم ووشيهم وما شكى إلى أحد في هؤلاء بل صبر واحتسب وقد استفاد منه خلق في السجن بحسن صحبته وإخلاصه يقول أعدى أعدائه وخصمه العنيد القاضي المخلوف المالكي: ما رأينا أتقى من ابن تيمية، سعينا في دمه فلما قدر علينا عفى عنا[2].

وهكذا يفعل ذوو النفوس العالية من الرجال مع أعدائهم وكان على رأسهم الإمام ابن تيمية.

والعنصر السابع لتكوين هذه الشخصية الفذة هي الشجاعة والبسالة والجرأة، فإن الإنسان مهما بلغ علماً وفضلاً إذا تجرد عن جوهر الشجاعة والجرأة لم يستطع أن يقوم بأعمال كبيرة ولا تظهر شخصيته العلمية، ولكن الله قد أودع فيه الشجاعة الكاملة مع العلوم والفنون فظهرت شخصيته بارزة، ولما صارت الشخصية كاملة قام بالبحث والنقد والمناظرة والمباحثة كما قام بتنبيه الأمراء والحكام والصدع بالحق أمام الجبابرة وأصحاب السلطة وجاهد في الله حق جهاده حينما قعد عن الجهاد نفر كثير من الأبطال وأولو الأمر وهذا يدل على أنه كان على قدر كبير من الشجاعة والجرأة على الحق، فإن البيئة التي كان فيها الإمام ما كان أحد يستطيع أن يجهر بالحق لأن الإمام الهمام حينما قام بهذه الأعمال الكبيرة بكل شجاعة وبسالة أحدقت الأعداء به من كل جانب وأجمعوا على الإضرار به والإساءة إليه ولكنه مضى في عمله مع هذه العراقيل والمشاكل ولم يبال بشيء مهما بلغ الأذى والإضرار، فإنه سجن مرات وكرات وفي أثناء اعتقاله ما أمسك نفسه عن الرد على المبتدعة والخرافيين، هذا هو القاضي عبد الله الأخنائي

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ٤٠٢).

(٢) طبقات الحنابلة (٢/ ٤٠٠).

المالكي قد رد عليه رداً علمياً في سجنه ولم يبال بشيء ولم يشغله أمر عن أمر فإنه لما جاء التتار إلى الشام سنة **٦٩٩**هـ وهزموا عساكر الناصر بن قلاوون، وشتتوهم شذر مذر بعد أن أبلى الجميع بلاءاً حسناً. ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً، فولى جند مصر والشام الأدبار، واجتازوا دمشق فارين إلى مصر.

وصار جند التتار على أبواب دمشق وأهلها في ذعر وفر كثير من أعيان العلماء إلى مصر كقاضي الشافعية إمام الدين، وقاضي المالكية الزواوي وغيرهم من كبار العلماء وكبار الرجال ولكن عالماً واحداً بقي مع العامة فلم يفر ولم يخرج، وجمع أعيان البلد وذهب معهم إلى ملك التتار ومما خاطبه عن طريق الترجمان: قل للقازان إن كنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت[1].

وقد تجلت جرأته وشجاعته أمام ملك التتار مرات وكرات.

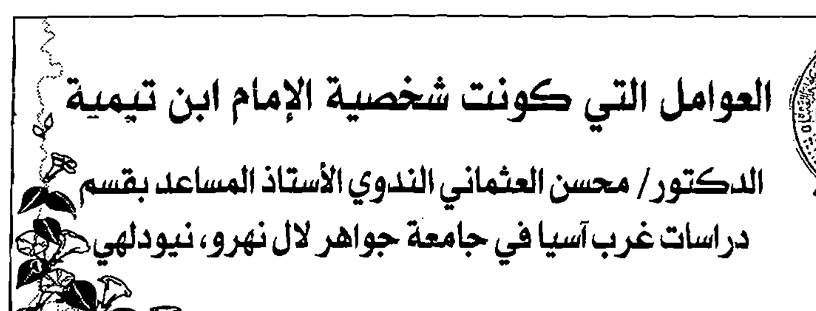
فهذا دأب الرجل الشجاع المخلص للدين لا يخاف أحداً ولا يبالي بشيء في سبيل الحق وإحيائه، وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

وقد كان للإمام الهمام مواقف طيبة جريئة كثيرة جداً وحياته الطيبة حافلة بالمآثر وأعمال البطولة والشجاعة.

هذه هي بعض العناصر التي كونت شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية الفذة.



(١) ملخصاً من ابن تيمية أبو زهرة (ص ٧٢).



العوامل التي كونت شخصية الإمام ابن تيمية

الدكتور/ محسن العثماني الندوي الأستاذ المساعد بقسم
دراسات غرب آسيا في جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي

كان الإمام ابن تيمية رحمه الله نجماً ساطعاً بزغ على سماء التاريخ الإسلامي في القرن السابع الهجري ولا يزال نوره يهدي في دياجير الظلام ويستضيء به العلماء والراسخون في العلم على مر القرون، إنه خلف للأجيال اللاحقة من المسلمين ثروة كبيرة من المؤلفات وهي منارة نور لكل من يريد إزالة غشاوة الجهل عن عينيه وإنه في العلم كما قيل: بحر لا ساحل له وكنز ليس له نظير.

في هذا المقال أريد أن أتحدث عن بعض العوامل التي كونت شخصية الإمام وأنجبت هذا العملاق والعالم الألمعي والكاتب القدير والمؤلف الكبير والفارس المغوار ومجدد الدين الذي جمع بين السيف والقلم وما أقل اجتماعهما في شخص واحد.

١ ـ إن أول عامل أثر في شخصيته وزاده تأثيراً وقبولاً وإعجاباً لدى الدوائر العلمية والأوساط الدينية هو الإخلاص والاتصال بالله، يقول ابن كثير فيه: (لم أر مثله في ابتهالاته واستعانته بالله وكثرة توجهه إليه) ويقول الإمام ابن تيمية بنفسه (ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله تعالى الفهم وأقول: يا معلم إبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني) إن هذا هو العامل الأصيل الذي يسكن جأش الإنسان ويقويه على

عمله ويهدئه رغم المتاعب والمصائب ويسهل عليه تصدي المخاطر والأهوال واحتمال المكاره. إن العلاقة الوثيقة بالرب والخالق إنما هي مثبتة الجنان ومعدن القوة ومنبع الثبات ونرى هذا العامل قوياً وكبيراً في حياته فهو دائماً خاشع ومزك نفسه بتلاوة القرآن الكريم وهو الذكر الأكبر وكلما اعترته مشكلة، أو عقبة ينصرف إلى العبادة ويقضي فترة طويلة في السجود والدعاء، وبلغت هذه الميزة إلى حد أنه أحس بالخير والغبطة والسرور والمصلحة الكبيرة عندما زج في غياهب السجن وقال: إني كنت منتظراً ذلك ووجد فرصة في السجن للعبادة ومناجاة ربه، والدليل على كيفيته الإيمانية والربانية أنه لقن جنود المسلمين التوبة والإنابة إلى الله قبل الاشتباك مع جنود التتر وإن هذا العامل قد أفاض فيه الإخلاص في طلب الحق والطهارة من أدران الطمع والهوى والتجنب من زخرف الحياة ومناصب الحكومة وجعله يعتمد على الله في كل بلية ومصيبة وإن هذا النور ملموس في كتاباته فكل من يقرأ كتبه يجد فيها حرارة الإيمان ونور اليقين وأكبر دليل على إخلاصه عفوه عن من أساؤا إليه وخاصة العفو عن العلماء الذين سجنوه في القلعة وظل زاهداً في المال والجاه ولم يأخذه بريق المناصب والثورة.

٢ ـ العامل الثاني هو الإرادة القوية والعزم الصميم، وهذه هي الميزة التي تغير الإنسان وتجعله يغير المجتمع ويحدث ثورة ويقلب التيار فكان رحمه الله يتمتع بإرادة قوية منقطعة النظير وبعزم لا يعرف الذبول والذوبان قضى حياته في جهاد مستمر بالقلم والسيف، جاهد حوالي أربعين سنة من يوم أن علا نجمه إلى أن فاضت روحه إلى العليم الحكيم فكانت حياته مليئة بالزلازل والمغامرات ومطاردة العقائد الباطلة وتصدي الحملات وقمع الفتن وإزالة الأغبرة التي علقت بتعاليم الإسلام. فحياته كلها جهاد واجتهاد ولا يمكن تحقق ذلك إلا بالإرادة القوية والعزم الصميم وبسبب هذه الإرادة بلغ إلى قمة من العلم والفضل وأقر بذلك أنصاره وأعداؤه على السواء، ولا يزال اسمه يرن على الآذان وسجل اسمه في سجل الخلود، أما الذين ناصبوه الأعداء وناوؤه فكانوا كالفقاقيع التي تظهر على سطح الماء ثم تبتلعها الأمواج، وتتجلى هذه الإرادة الحديدية أيام اعتقاله في

القلعة، إنه لم يقض هذه الأيام في الاستراحة والاستجمام ولو فعل ذلك لكان محقاً لأنه قضى ردحاً من الزمن في المناقضات العلمية ومطاردة الأباطيل ولم يسترح ليلة واحدة، ولكنه ظل مشتغلاً بتمحيص آرائه وتدوينها ومراجعة الكتب والتنقيب في السجن وكتب كثيراً في تفسير آيات الله البينات ثم أتت المحنة التي هي أدهى وأمر وأخرج ما كان لدى الشيخ الإمام ابن تيمية من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام ومنع منعاً باتاً من المطالعة والدراسة وحال الأعداء دون التنقيب الفكري والاشتغال العلمي فلجأ إلى الفحم وبدأ يحبر آراءه وخلاصة فكره بهذا الحبر وجعل من الجدران ورقاً ومن الفحم قلماً وبدأ يؤلف ولو كان محروماً من القلم والقرطاس فهذا دليل على إرادته القوية المستحكمة التي لا تضعف ولا تفل ولا تكل ولا تنهار ولا تعرف الهزيمة.

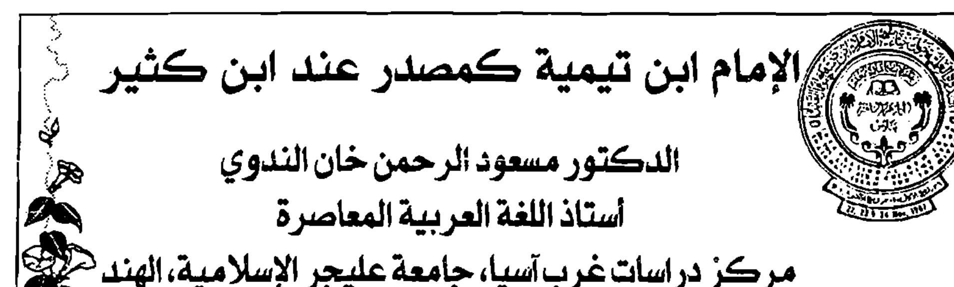
٣ ـ العامل الثالث هو الذاكرة القوية الواعية فالإمام ابن تيمية رحمه الله كان نادرة من نوادر الزمان في هذه الميزة، فقد أعطاه الله ذاكرة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، إنه يحفظ ويستظهر كل ما قرأ ورأى، ويلتقط كل شيء مهما يكون دقيقاً ما بين الدفتين من الكراريس فكانت هذه الحافظة مضروبة المثل وموضوع الأحاديث في الناس، والمعلوم أن الحافظة القوية والذكاء الحاد أساس للعلم وطالب العلم، فالعالم الذي يدخر في ذاكرته المواد الأولية فإنه ينميها ويستخدمها في ظروف وأوضاع مختلفة وترتفع منزلته في الأوساط العلمية والتاريخ لا يذكر كثيرين أوتوا مثل ذاكرة ابن تيمية وتجلت مخايل هذه القوة فيه منذ طفولته حتى أنه كان قادراً على حفظ بضعة عشر حديثاً بالنظرة أو الكتابة وقد ورث رحمه الله هذه الذاكرة القوية الواعية عن أبيه الذي كان يلقي الدروس في الجامع الكبير بدمشق غير معتمد على كتاب وكان فريداً وفذاً في هذا الباب بين أقرانه ومعاصريه فلا غرو أن ابن تيمية ورث هذه الصفة وارتفعت هذه القوة وزادت بسبب الاحتكاكات العلمية مع الملل والنحل المختلفة وسعيه المشكور في رد الأفكار والعقائد غير الإسلامية، وبسبب الجدل والمناظرة التي استعر سعيرها مع علماء الفقه والكلام والشيعة.

٤ ـ العامل الرابع: العكوف على المطالعة وإتقان العلوم، إن الذاكرة القوية تضيع وتهب على أدراج الرياح ولا تسمن ولا تغني من جوع ما لم ترفق بكثرة المطالعة ودراسة المؤلفات العلمية بشكل مستمر وغير متقطع، فاتجه الإمام ابن تيمية منذ حداثة سنه ونعومة أظفاره* وعندما كان العود أخضر إلى العلم وشرب من أفاويقه وأخذ من ينابيعه وامتاز بين أقرانه وعلى كثير من العلماء الأقدمين في العكوف على المطالعة، إنه لم ينصرف قط إلى شيء لا يمت بصلة إلى العلم ولم يعدل عنه إلا متحيزاً للقتال وقاصداً سلاحاً في الميدان وإذا خرج من محراب العلم توجه إلى ميدان الجهاد ولم ينقطع عن الأعمال العلمية إلا لحمل السلاح ولم ينصرف إلى بيع وشراء وشئون تجارية وأمور غير علمية، تعلم كل العلوم التي راجت سوقها في عصره ولم يترك باباً من العلم إلا طرقه وأتقنه واستبحره ولقد قال فيه أحد معاصريه (قد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد) وكان إذا سئل عن فن ظن السامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرف مثله وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك وكان رحمه الله أوتي ذكاء حاداً كان لا يقرأ فحسب بل كان يتعمق في المسائل ويسبر أغوارها بل ربما قضى الليالي متفكراً في مسألة واحدة لحل مغالقها وكان دائم التأمل في الآيات والأحاديث والقضايا العلمية يوازن ويقايس حتى ينبلج له الحق وينكشف له الصراط، وأول ما اتجه إليه في مقتبل عمره وصدر حياته هو القرآن الكريم فحفظ القرآن وهو حديث السن واستمر حافظاً مدى حياته يستسيغه وينهل من معانيه بصفة مستمرة وبلغ من شدة علاقته بالقرآن الكريم أنه ختم القرآن ثمانين ختمة في السجن وكذلك اشتغل بالحديث بحفظ مئات من الحديث على ظهر قلبه في حداثة سنه وتلقى هذا العلم عن المحدثين الكبار في عصره ومصره وتربى على موائدهم العلمية وأول كتاب حفظه في الحديث هو الجمع بين الصحيحين وسمع مسند الإمام أحمد مرات عديدة حتى حفظه وسمع الصحاح الستة وكتب الأحاديث الأخرى أكثر من مرة. وإنه لا يكاد يقرأ كتاباً إلا ارتسم على ظهر قلبه وكان يعيش في جو الحديث وآثار

الصحابة ويحلق في سمائهم ولذلك نراه كثير الاستشهاد من كتاب الله والسنة وآثار الصحابة وقد تخرج الإمام ابن تيمية على الثروة العلمية ونفائس الكتب والموسوعات المتوفرة آنذاك في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام والفلسفة، وقد آتاه الله المواهب التي تستوعب وتتقبل ما يتلقاه ويدرسه.

٥ ـ العامل الخامس إنما هو الفساد الذي استشرى واستطار شره في عصره في مجالات العقائد والأخلاق والاجتماع والسياسة وإذا كان الإنسان يحمل العقل المستيقظ والحس المرهف والقلب المفعم بالإيمان والغيرة فإن الفساد يبعثه على التفكير الجدي في الإصلاح واستئصال جذور الفساد وإن تاريخ المجددين والمصلحين خير شاهد على ذلك وليس الإمام ابن تيمية من أولئك الأشخاص الذين ينصرفون إلى الأعمال العلمية والقلمية ويطبقون أجفانهم على المساوىء المتفشية في المجتمع والدولة بل كان صاحب قلاقل وزلازل ومن الذين يقومون بالهجوم على الباطل واقتلاع الفساد من جذوره وبالعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان الصراع قائماً في نفسه بين ما قرأه في بطون الكتب عن حقيقة الإسلام وبين ما كان شائعاً من الفساد العقدي والانهيار الخلقي وتمزيق الوحدة وتحول الخلافة إلى دويلات صغيرة تافهة، وكان المسلمون هوجموا من ثلاث جهات من الشرق بالتتار ومن الغرب بالصليبيين وفي داخل بلده بالعداوة والشحناء بين المسلمين فكان الشيعة يمهدون السبيل لهجمات التتار ويدلون على عورات الحكومة الإسلامية وكانوا يتربصون بها الدوائر ومنهم كانت العيون والجواسيس وقد مالئوا الصليبيين من قبل. وكانوا ضالعين مع أعداء الإسلام والمسلمين فضاق بهم الإمام ابن تيمية ذرعاً وكيف يسكت؟ لم يكن يشغله درسه عن شئون المسلمين قط، فشن الحرب على التتر وعلى الروافض وجرد السيف وخاض المعركة وقاد الجحافل والسلاح يقعقع والرماح متشابكة وقد أعطاه الله الشجاعة فقد كان جندياً بالسلاح والقلم وألف منهاج السنة لدحض الروافض والقول الصحيح لمن بدل دين المسيح في رد النصرانية.

فهذه هي العوامل التي كونت شخصية الإمام فأصبح ميزة ومداداً للإسلام فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء.



الإمام ابن تيمية كمصدر عند ابن كثير

الدكتور مسعود الرحمن خان الندوي
أستاذ اللغة العربية المعاصرة
مركز دراسات غرب آسيا، جامعة عليجر الإسلامية، الهند

يعتبر ابن كثير من أعز تلاميذ ابن تيمية وأنبلهم، فقد عده من تلاميذه أكثر المترجمين له، وقالوا: إنه صحب ابن تيمية فأحبه وافتتن به، وقرأ عليه ولازمه، فأكثر عنه وانتفع بعلومه. كما أشار غير واحد من المترجمين أنه (كانت له خصوصية بابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، فامتحن بسبب ذلك وأوذي)[1].

وقد أشار ابن كثير نفسه إلى حبه لابن تيمية منذ الصغر في حوادث سنة ٧٠٩هـ حين سأله قاضي قضاة الحنفية صدر الدين: (أتحب ابن تيمية؟ قلت: نعم، فقال لي وهو يضحك: لقد أحببت شيئاً مليحاً)[2]، وكذلك ذكر ابن كثير في ترجمته لشيخه ابن تيمية في تراجم سنة ٧٢٨هـ من

---

(١) طبقات ابن قاضي شهبة، تحقيق الدكتور عبد العليم خان، طبعة دائرة المعارف العثمانية، ترجمة رقم ٦٣٨، ٣/ ١٥٥، الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، الدارس للنعيمي ١/ ٣٦، مفتاح السعادة لطاشكبري زادة ١/ ٢٠٤، شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٢٣١، البدر الطالع للشوكاني ١/ ١٥٣، جلاء العينين لابن الآلوسي ص ٣٤، ابن كثير حياته ومؤلفاته لكاتب المقال، من مطبوعات مركز دراسات غرب آسيا، الجامعة الإسلامية في عليجره بالهند، سنة ١٩٧٩م.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، طبعة دار السعادة ١٤/ ٥٥.

تاريخه: (وكان بيني وبينه مودة وصحبة من الصغر، وسماع الحديث والطلب من نحو سنة)[1].

وهذا يدل على أن ابن كثير وإن كان قد صحب الإمام ابن تيمية منذ صغره إلا أنه تتلمذ عليه في أواخر حياة شيخه حين كان يذهب إليه في السجن، فقد كان الشيخ مسجوناً في هذه الفترة في قلعة دمشق، لذلك نرى ابن كثير لا يذكر شيخه في تفسيره إلا بلقب (الشيخ الإمام العلامة)[2]، وذلك لأن تفسيره أسبق تأليفاً من تاريخه البداية والنهاية، فقد بدأ في تأليف تفسيره في حياة الإمام ابن تيمية الذي أعجب بتفسيره على حد قول البستاني[3]، أما تاريخه البداية والنهاية فإننا وإن لم نعرف متى بدأ ابن كثير في تأليفه، إلا أننا نرى تحولاً واضحاً فيه عند ذكر الإمام ابن تيمية، فإنه لا يذكره فيه إلا بلقب (شيخنا العلامة)[4] مما يؤيد ما ذهبنا إليه بأنه تتلمذ عليه في آخر سنة من حياة شيخه ابن تيمية كما مر في تصريحه المذكور آنفاً.

ولا شك أن صحبة ابن كثير لابن تيمية وملازمته له فترة طويلة أثرت في حياته أثراً عميقاً أدت إلى حب وود متبادلين بينهما، وأفادته فائدة عظيمة في علمه ودينه وخلقه وتربية شخصيته المستقلة الممتازة، فإن النبوغ الذي تميز به ابن كثير في التصنيف والتأليف مع غزارة في العلم وأصالة في الفكر كان فضله يعود إلى علاقته بابن تيمية وأمثاله من النابغين في العلوم الإسلامية مثل المزي والذهبي والبرزالي وغيرهم من أفذاذ علماء العصر، كما كان ينفر من البدع والخرافات، ويميل إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة، ويعتمد على التحقيق والتدقيق.

وإننا في هذه العجالة القصيرة نريد أن نرى بإجمال كيف أن ابن كثير استفاد من علم شيخه ابن تيمية ومؤلفاته، فاقتبس أقواله وآراءه في كتابيه

---

(١) المصدر نفسه ١٤/١٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير، طبعة الحلبي ١/٣٨، ٢٩٧، ٣٢٨، ٤٧١، ٤/٥٦١.

(٣) دائرة المعارف للبستاني ٣/٤٧٧.

(٤) البداية والنهاية ٥/٧٠، ٨٦، ٢٥٠، ٧/٢٥٢، ٩/٢٧، ١١/٢٥٨.

الضخمين الذين يعتبران بحق موسوعتين عظيمتين في التفسير القرآني والتاريخ الإسلامي.

فقد سرد ابن كثير أقوال شيخه وآراءه أحياناً عن طريق بعض شيوخه مثل المزي والذهبي أو عن طريق صاحبه ومعاصره الإمام ابن القيم: (ففي بيان الحكمة من إيراد الحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية حكى في التفسير عن بعض المفسرين بأنها ذكرت (بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها). ثم قال: (وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية)[1] وفي تفسير آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع، والمحارم بالصهر يذكر رواية تفيد بأن علياً رضي الله عنه أجاز نكاح الربيبة التي ليست في حجر الرجل، مستنداً إلى الآية القرآنية ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (سورة النساء، الآية: **٣٢**).

ثم يقول: (وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله، فاستشكله وتوقف في ذلك)[2]. ونقل ابن كثير في تاريخه في ترجمة المتنبي الشاعر أبياتاً له في مدح بعض الملوك، منها:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ثم علق عليهما قائلاً: (وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق، ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالى، وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم: أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧١.

البيتين في السجود، أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع)[1].

كما ذكر بعض آراء شيخه ابن تيمية مباشرة بدون واسطة: ففي رد نسخ الآية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، (سورة البقرة، الآية: ٢٤٠)، بالآية السابقة ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٣٤)، ذكر رواية البخاري عن ابن عباس بأن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور حتى تكون تلك منسوخة (بالأربعة أشهر وعشرا) وإنما دلت على أن تلك كانت من باب الوصاة بالزوجات ليمكن لهم السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم، إن اخترن ذلك، فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر وعشرا، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك، وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، ثم قال: وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية[2]، وذكر قولاً آخر لابن تيمية بدون واسطة في تفسير سورة الكافرون: (أن المراد بقوله ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ (سورة الكافرون، الآية: ٢)، نفي الفعل لأنها جملة فعلية، و﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً)[3].

ومن أقوال الإمام ابن تيمية في تضعيف الأحاديث قوله في تاريخ ابن كثير بأن السجل في الآية القرآنية ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ هو اسم الرجل أو هو كاتب النبي ﷺ. فقد عرض ابن كثير هذا الحديث على شيخه المزي، فأنكره، فأخبره ابن كثير بأن شيخه ابن تيمية كان يقول: (هو حديث موضوع، وإن كان في سنن أبي داود، فقال المزي:

---

(١) البداية والنهاية ١١/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٢٩٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥٦١.

وأنا أقوله)[١]، وكذلك ذكر ابن كثير في الدلائل الحسية من السيرة النبوية في تاريخه قول الإمام ابن تيمية في تضعيف حديث رد الشمس لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد مغيبها بأن حسناً وحسيناً كانا (أجل قدراً من أن يحدثا بهذا الحديث)[٢] وأضاف: (وممن صرح بأنه موضوع شيخنا أبو الحجاج المزي، والعلامة أبو العباس)[٣].

وذكر ابن كثير في قتل المتنبي الكذاب الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي بأنه كان يريهم الأعاجيب، فإنه كان يأتي إلى رخامة في المسجد، فينقرها بيده، فتسبح تسبيحاً بليغاً حتى يضج من ذلك الحاضرون، ثم قال: (وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس ابن تيمية يقول: كان ينقر هذه الرخامة الحمراء التي في المقصورة فتسبح، وكان زنديقاً)[٤].

وبالإضافة إلى ما ذكرنا من أقوال الإمام ابن تيمية وآرائه نجد في مواضع أخرى عند ابن كثير ذكراً لبعض مؤلفات الإمام ابن تيمية، فقد عرض في تفسير آية الربا إلى موضوع التحليل، فصرح: (وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية كتاباً في إبطال التحليل تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى في ذلك وشفى، فرحمه الله ورضي عنه)[٥]، كما أشار إلى كتاب آخر له في الدلائل المعنوية لنبوة الرسول ﷺ في تاريخه قائلاً: (رد فيه على النصارى واليهود وما أشبههم من أهل الكتاب وغيرهم) ولا شك أنه كان يعني به الكتاب الذي عرف باسم (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ذكر الإمام ابن تيمية في آخره دلائل النبوة، تكلم فيها على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأخلاقه وأفعاله باعتبارها دلائل نبوته، وقد استحسن ابن كثير هذا الفصل وأثنى عليه قائلاً: (سلك فيه مسالك حسنة صحيحة منتجة بكلام بليغ يخضع له كل من

---

(١) البداية والنهاية ٥/ ٣٤٧.
(٢) البداية والنهاية ٦/ ٨٣.
(٣) البداية والنهاية ٦/ ٨٥.
(٤) البداية والنهاية ٩/ ٢٧.
(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٨، قلت: وهو مطبوع في الفتاوى الكبرى.

تأمله وفهمه) ولهذا نقله ابن كثير بأكمله[1]، وقد أشار إلى كتاب آخر له مرتين: أولهما في الرد على كتاب الإمامة لشيخ الرافضة جمال الدين يوسف بن الحسن الملقب بابن المطهر الحلي)[2] وثانيهما أشار إليه مجملاً بقوله: (الكتاب الذي رد فيه ابن تيمية على الفرقة الرافضة)[3] والظاهر أنه يعني به كتابه المعروف، (منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية) وقد استفاد منه ابن كثير ونقل منه رأيه في فضل علي رضي الله عنه، وقوله في الأئمة الاثني عشر بأنه مفرقون في الأمة[4].

وكنا وما زلنا نعد حسنات ابن كثير أنه التزم في جميع مؤلفاته بتصريح مصادره، فيسند إلى كل صاحب قول قوله، وصاحب رأي رأيه، ويشير دائماً إلى أسماء المؤلفين الذين اعتمد عليهم في مؤلفاته، كما يصرح في أحايين غير قليلة إلى مؤلفاتهم التي نقل منها أقوالهم وآراءهم وعباراتهم[5]، ولكنه في الآونة الأخيرة حيرنا، وذلك عندما اكتشفنا أن ما يمكن أن يسمى بمنهج ابن كثير في مقدمة تفسيره[6] ليس إلا نقلاً حرفياً للفصل الملحق في آخر ما يعرف الآن بـ (مقدمة في أصول التفسير) للإمام ابن تيمية[7]، وهو الفصل الذي ألحق في آخر المقدمة المذكورة إجابة على سؤال سائل: فما أحسن طرق التفسير؟ وكان مغزى هذه الإجابة بأن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين. أما التفسير بمجرد الرأي فحرام، وكل هذا مدعماً بالآيات

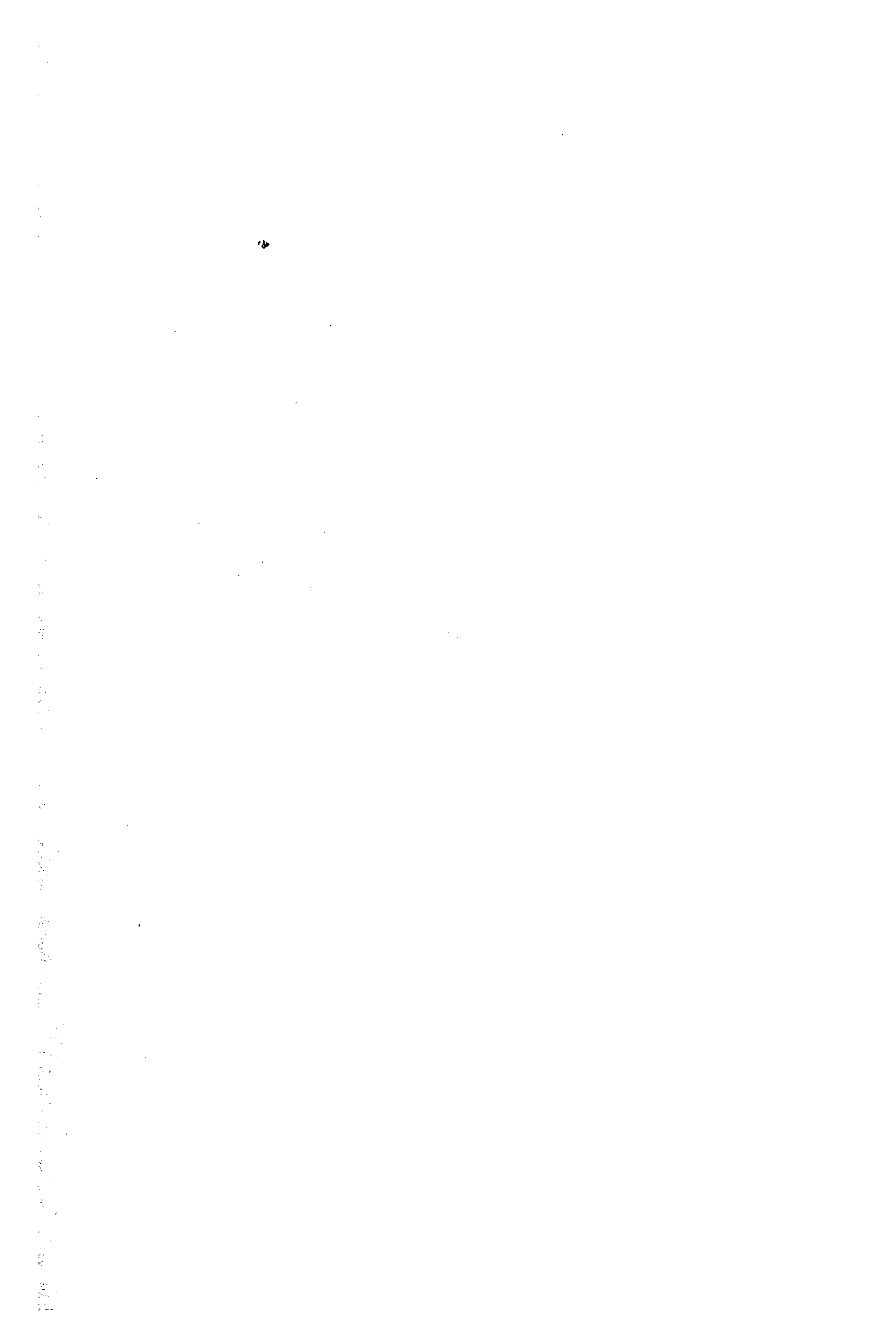
---

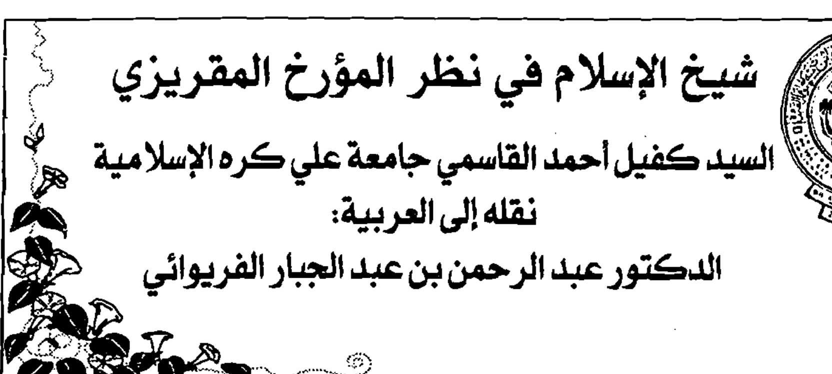
(١) البداية والنهاية ٦/ ٧٠ ـ ٧٤.
(٢) البداية والنهاية ٦/ ٨٦.
(٣) البداية والنهاية ٧/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٤) البداية والنهاية ٦/ ٨٦ ـ ٧/ ٢٥٠.
(٥) ابن كثير كمؤرخ لكاتب هذا المقال، من مطبوعات مركز دراسات غرب آسيا، الجامعة الإسلامية في عليجره بالهند، سنة ١٩٨٠م، ص ١١ ـ ١٢.
(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٣ ـ ٦.
(٧) مقدمة في أصول التفسير للإمام ابن تيمية، المطبعة السلفية بالقاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٩٧هـ ص (٣٢ ـ ٤١).

القرآنية والأحاديث النبوية، ولا يوجد هناك أي فرق جوهري بين النصين إلا ما يكون بين مخطوطتين لأصل واحد، فتلاحظ عند ابن كثير إضافة بعض كلمات الترحيم، أو تغيير كلمة بأخرى، أو إضافة أو إسقاط بعض العبارات في مواضع قليلة، وكل هذا لا يغير من طبيعة المواد أو عبارة الأصل في قليل أو كثير، وإننا لا نزال نحتار في أمر هذه المقدمة، فهل يمكن أن ابن كثير نسي أو تناسى أن ينسبه إلى صاحبه الذي هو ليس إلا شيخه الذي يحبه ويجله كل الإجلال؟ أم إن إلحاقه في آخر (مقدمة في أصول التفسير) لابن تيمية في غير موضعه؟ أم ماذا؟ أسئلة، ليس لها جواب!!

(ملحوظة: ذكر الباحث نصين من البداية والنهاية (١٤/ ٥٥ و١٣٧) ظناً منه أنهما من أقوال ابن كثير، ثم تقدم في بحثه على هذا الأساس، ولكن الواقع أن النصين، هما من كلام البرزالي، وقد أوردهما ابن كثير في موضع الاستشهاد بكلام البرزالي) (الفريوائي).







شيخ الإسلام في نظر المؤرخ المقريزي

السيد كفيل أحمد القاسمي جامعة علي كره الإسلامية
نقله إلى العربية:
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

يشهد التاريخ أنه كلما ظهر الفساد في القول والعمل، وخيمت على العالم ظلمات الشرك والكفر أرسل الله تبارك وتعالى الأنبياء والرسل لهداية البشرية، وإنقاذها من ظلمات الكفر والشرك والفسق والطغيان ولما انقطعت سلسلة النبوات والرسالات على نبينا محمد بن عبد الله ﷺ بدأ الله يبعث المجددين على رأس كل قرن لتجديد معالم الدين الإسلامي، وقد صدق العلامة الشبلي النعماني في قوله: إن خصائص المجددية ومميزاتها التي اجتمعت في شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية قلما توجد في شخصية أخرى وإن أمكن إطلاق المصداق الأصلي لوصف المجدد والمصلح على أحد، فينطبق هذا الوصف على شيخ الإسلام.

كان ظهور شيخ الإسلام في وقت عصيب اختل فيه نظام المسلمين حيث كانت التتر تهدد الكيان الإسلامي من جانب، وكانت حركات أخرى جديدة تحاول وتبذل جهودها للقضاء على الإسلام وتحريف عقائده ومبادئه من جانب آخر.

وقد أحس شيخ الإسلام المجدد المصلح هذه المخاطر والمشاكل في وقت ظهورها وتولى مواجهتها، ومقاومتها، ولاقى في سبيلها المصائب والمتاعب طول حياته، ولازمته متاعب السجون، واتهامات المغرضين

ومطاعن الأعداء إلا أن هذه الأمور لم تزعزعه من دعوته، ولا من موقفه من الفرق المنحرفة وأصحابها.

وفي سبيل جهاده المتواصل ضد الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة والتعصب الأعمى، رمي بالفسق والفجور وسوء المعتقد، إلا أنه كلما مر الزمن انكشف الأمر، وهدأ الجو، وبدأ ينكمش غبار هذا التعصب الأعمى ضده، حتى صارت آراؤه ونظرياته، التي لاقى في سبيل نشرها وإذاعتها ما لاقى من مشكلات ومصائب بعد سبعة قرون آراء أكثر الناس.

وقد أشاد بذكره، ونوه بخدماته الجليلة وجهوده العظيمة في سبيل خدمة الدين والمجتمع الإسلامي معاصروه، وأصحابه وتلاميذه، ثم من جاء بعدهم من أهل السير والتاريخ في مؤلفاتهم المتنوعة، كما اعترف بفضله وعلمه وتبحره أعداؤه ومنافسوه فضلاً عن أصحابه ومحبيه.

وبهذه المناسبة الكريمة حول عقد الندوة العالمية عن حياة شيخ الإسلام ومواقفه الخالدة في رحاب الجامعة السلفية أقدم أمامكم تعريفاً عن مخطوط يتعلق بحياة شيخ الإسلام من جانب وله أهمية كبيرة أيضاً في تاريخ الإسلام في العصور الوسطى، وهو للمؤرخ الشهير المقريزي (ت٨٤٥هـ)، سماه مؤلفه: كتاب المقفى الكبير.

ومن المعلوم أن المقريزي يعتبر حجة من بين مؤرخي العصور الوسطى، وتعتبر معظم مؤلفاته من المراجع المهمة في هذا الباب.

ولو طبع هذا الكتاب أعني المقفى الكبير لكان مرجعاً مهماً لتراجم الأعيان.

كان المؤرخ المقريزي ينوي تأليف موسوعة تحتوي على تراجم أعيان مصر من الخلفاء والحكام والقضاة والأدباء والنحويين، والفقهاء والمحدثين من أبناء مصر أو الواردين عليها.

ويتميز هذا الكتاب بأنه يخلو من مظاهر التملق، وشائبة التعصب فإنه

ترجم الشخصيات في ضوء منهج التاريخ النقدي، وأبدى رأيه حول العلماء بكل حرية وإنصاف وتجرد.

كان المؤلف يريد أن يكمل هذا الكتاب في ثمانين مجلداً إلا أنه وافته المنية قبل إكمال مشروعه، فلم يكمل منه إلا ستة عشر مجلداً.

وقد عثر على أربع مجلدات منها، توجد ثلاثة مجلدات منها في مكتبة ليدن تحت رقم (١٣٦٦)، ويوجد المجلد الرابع في مكتبة باريس تحت رقم (٢١٤٤)، ومنها نسخة مصورة في مكتبة مولانا أبي الكلام آزاد بجامعة علي كره الإسلامية.

بدأ المؤلف تراجم الأعيان بذكر من اسمه (محمد) حيث يبتدىء المجلد الأول بترجمة محمد بن آدم، ويبتدىء المجلد الثاني بترجمة محمد بن عبده بن حرب، وأما المجلد الثالث فيبتدىء بذكر (ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية) وكتب في أول الترجمة: (ترجمة ابن تيمية واسمه أحمد).

وهذه الترجمة ينقصها ذكر اسم شيخ الإسلام، ونسبه، وأحواله الابتدائية، حيث يبتدىء الترجمة ببداية حوادث شهر رجب سنة **٦٩٩**هـ حينما خرج شيخ الإسلام ابن تيمية مع أصحابه وتلاميذه إلى الخمارات وأراق الخمور في أزقة دمشق، وأمر بكسر أوانيها، وبعقوبة بائعي الخمور.

ويمكن أن يكون سبب ذكر المقريزي ترجمة ابن تيمية في هذا المجلد أنه يتعرض أحياناً لأحوال الشخصيات البارزة فقد ذكر في هذا المجلد ترجمة حجاج بن يوسف، وسيبويه، وهو لا يتفق مع منهجه الذي اختاره لنفسه في هذا الكتاب.

تحتوي ترجمة شيخ الإسلام في هذا المخطوط على (١٩) صفحة، وهي مع نقصها تلقي ضوءاً كاملاً على عصره السياسي والاجتماعي والديني.

ومن المعلوم أن بعض الناس توغلوا في إرواء نهمهم النفساني،

وتعودوا على الحياة المترفة في ظل التصوف، فقام شيخ الإسلام، ووجه قلمه ولسانه ضد هؤلاء، وكشف اللثام عن مكائدهم وأضاليلهم.

وقد تعرض المؤلف في هذه الترجمة أيضاً لما واجه المسلمين من المناقشات الجدلية والحزبية الطائفية.

كما فصل القول في جهود شيخ الإسلام لإزالة الأوهام والخرافات والعقائد الباطلة التي تسربت إلى صفوف المسلمين لاختلاطهم بأهل الكتاب والأعاجم، وذكر ما لاقى الشيخ من مصائب وابتلاءات في سبيل هذا.

لم يكن شيخ الإسلام محدثاً أو مفسراً أو فقيهاً فحسب، بل كان مصلحاً ومجدداً وكان يهدف إلى إيجاد كيان إسلامي صالح بعد إزالة الفساد الاجتماعي والخلقي من المجتمع الإسلامي.

عرف المؤلف بجهود شيخ الإسلام من هذه الناحية وذكر عدة نماذج من استتابة إبراهيم القطان، وإغلاق أبواب الحوانيت والخمارات وكسر الحجر الذي كان يقع قرب مصلى دمشق، وكان مرجعاً للعوام الذين كانوا يقدمون إليه القرابين، ويهدون إليه الهدايا، وعن إصلاح الفقراء الأحمدية الرفاعية الذين جرى بينه وبينهم محادثات ومناظرات.

كانت هذه الجهود في سبيل إصلاح المجتمع الإسلامي، فماذا كان جزاء ذلك؟

قامت جماعة كبيرة ضده، وضد إصلاحاته، فكان هناك رجل صوفي يدعى بنصر المنبجي الذي كان له وجاهة وقبول عند الحكام، الذي رفع لواء العداوة ضده، ولم يأل جهداً في سبيل إيذائه، ومحاولة النيل منه.

وأما المكانة المرموقة التي تبوأها شيخ الإسلام فلم تشاهد في العالم الإسلامي، فإنه قام ضد أعداء الإسلام، وقاومهم بسيفه، وسنانه، ثم تراه يشرح الكتاب والسنة، ويكشف عن أسرار الشريعة ومقاصد الدين الحنيف حيث اعترف العلماء بأنهم لم يروا مثله، وقد ألين له العلم كما ألان الله لداود الحديد.

وقد تعرض المقريزي لذكر مناظراته وإصلاحاته، وما لاقى في سبيلها من المصائب والمتاعب، ثم ذكر في آخر الترجمة اعتقاله في السجن بسبب إفتائه في مسألة الطلاق، وزيارة القبور.

وذكر المقريزي أن قضية الاعتقال لم تكن سبباً لقلق شيخ الإسلام واضطرابه (بل أظهر السرور، وقال: أنا كنت منتظراً لذلك، وهذا فيه خير كثير).

إلا أن الذي كان يحزنه ويقلقه هو حرمانه من الأقلام والمحابر والكتب ولعل هذه هو ما أثر فيه على الأغلب، فاضطر إلى اتخاذ الفحم وسيلة لنقل أحاسيسه ومشاعره وعلومه وأفكاره على جدران المعتقل لتصل إلى قلوب الناس.

إن عامة المؤرخين ذكروا في تاريخ وفاته أنه توفي في ٢٠/ ذي القعدة عام ٧٢٨هـ، وهو القول المختار، إلا أن المقريزي ثم الحافظ ابن حجر العسقلاني بعده ذكرا أنه توفي يوم الاثنين ٢٢/ ذي القعدة.

ولا نحتاج إلى الإطالة بذكر أحداث حياته، ولكن مما تجدر الإشارة إليه أن الأمة الإسلامية استيقظت من سباتها العميق، وغفلتها، فأحست بفقدان هذه الشخصية العظيمة، وأظهرت حزنها العميق على وفاة هذا المجدد، بحيث ازدحم الناس على جنازته ازدحاماً شديداً فحمل على الأيدي والرؤوس والأصابع كما يقوله المقريزي.

وقد اختلف الناس في عدد الذين حضروا في جنازته، وذكر المقريزي أن الإحصائية الدقيقة عن هؤلاء أنهم لا يقلون عن ستين ألف رجل، وخمسة آلاف امرأة.

وأما مؤلفات شيخ الإسلام فذكر المقريزي أنه (كتب بخطه من التصانيف والتعاليق المفيدة والفتاوى المشبعة في الفروع والأصول والحديث ورد البدع بالكتاب والسنة شيئاً كثيراً يبلغ عدة أحمال).

كما ذكر المقريزي أقوال أهل العلم في الثناء على شيخ الإسلام مثل

الشيخ إبراهيم الرقي، وكمال الدين ابن الزملكاني، وأثير الدين أبي حيان، وابن الحريري، والقاضي نجم الدين أبي العباس وتقي الدين عبد الله، وابن فضل الله العمري، وابن الوردي وغيرهم.

وقد حدث الخلاف بين ابن الزملكاني وبين شيخ الإسلام، يقول المقريزي بصدده: ثم نزع الشيطان بينهما، وغلبت على ابن الزملكاني أهويته، فمال عليه مع من مال.

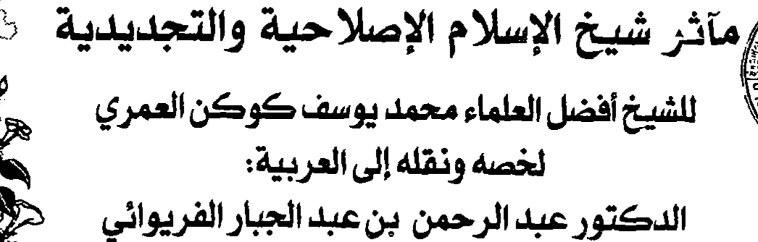
انتهت جهود شيخ الإسلام الإصلاحية التي قام بها على وفاته إلا أنه قام بإعداد جماعة من أصحابه الذين رفعوا لواء دعوته، ونشروا أفكاره.

ومن المعلوم أن طبقة من العلماء في كل هذه العصور كانوا يعادون شيخ الإسلام وأصحابه إلا أن معظم هؤلاء استفادوا من آراء شيخ الإسلام وأصحابه في الرد على الشيعة والروافض، واليهودية والنصرانية.

وقد ظهرت حركات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب والشيخ السنوسي على أفكار ابن تيمية وأصحابه، ثم استفاد الأستاذ محمد عبده، والعلامة رشيد رضا من هذه المؤلفات.

وأما الهند فإن أهل العلم فيها كانوا قد استفادوا من علوم شيخ الإسلام على الانفراد، ويستحق أعضاء الجماعة السلفية الثناء والتقدير على تحملهم مسؤولية نشر أفكار ابن تيمية وتعميمها بين الناس كدعوة عامة شاملة، بعقد هذه الندوة العلمية المباركة، فندعو الله تبارك وتعالى أن يتقبل جهودهم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





مآثر شيخ الإسلام الإصلاحية والتجديدية

للشيخ أفضل العلماء محمد يوسف كوكن العمري

لخصه ونقله إلى العربية:

الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

(يؤسفنا أن ننقل إلى قراء هذا المقال نبأ وفاة صاحبه، وهو الأستاذ الحافظ محمد يوسف كوكن العمري، فقد توفي يوم ١٦/ أكتوبر ١٩٩٠م، رحمه الله تعالى وأسكنه في جنة الفردوس. تخرج، رحمه الله، في دار السلام بعمرآباد، ثم تلقى دراسة عصرية في جامعة مدراس، وتعين فيها مدرساً ثم رئيساً لقسم اللغة العربية والفارسية. له عدة مؤلفات في موضع الأدب والترجمة. ومن أهمها دراسته المفصلة عن حياة ابن تيمية وأعماله، أعدها في دار المصنفين بأعظم كره تحت إشراف الأستاذ العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله. ويعد هذا الكتاب أحسن دراسة وأولها عن شيخ الإسلام في اللغة الأردية. كان رحمه الله على صلة وثيقة بالجامعة السلفية، وقد زارها مرة فألقى فيها محاضرة قيمة عن الحركة العلمية في مدينة مدراس وما يجاورها. وحينما وجهت إليه الجامعة السلفية الدعوة لحضور ندوة شيخ الإسلام ابن تيمية، سر كثيراً بانعقاد هذه الندوة، وأرسل لها هذا المقال، معتذراً عن عدم تمكنه من الحضور لظروفه الصحية. ولم يكن أحد يعلم أنه ينتقل إلى جوار رحمة الله تعالى قبل نشر بحوث هذه الندوة. ونحن أسرة الجامعة السلفية إذ نقدر للأستاذ العمري جهوده العلمية وكتابه القيم عن ابن تيمية، نسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته وغفرانه ويسكنه في جنة الفردوس، وينفع بأعماله العلمية جميع المشتغلين بالعلم) (الأزهري).

عاش شيخ الإسلام سبعاً وستين سنة، وكانت حياته حافلة بالحماس العلمي والديني، والنشاط العملي والدعوي، وكانت لجهوده وجهاده آثار مهمة وبعيدة على نواحي الحياة الإنسانية المتنوعة، إن دراسة الكتاب والسنة والعمل بهما مهمة جداً لأهل الإسلام، وقد كانت مستمرة إلا أنها فقدت روحها، فكان عامة طلبة العلم يكتفون بعدة كتب في التفسير والحديث، وكان جل اهتمامهم بدراسة الفقه وخاصة بالفقه الذي ينتسب إليه، فكان نصب أعينهم أن يحصلوا على مناصب القضاء أو الفقه والإفتاء أو التدريس في بعض المدارس، ومع اهتمامهم بالفقه فقد كانوا يعتنون بالعلوم العقلية، وكانت نهاية إقدامهم أن يصير أحدهم فلسفياً مشهوراً، أو منطقياً بارعاً أو متكلماً ماهراً، وما كانوا يقدرون على تمحيص هذه العلوم وتمييز الصواب من الخطأ، فإذا توجه أحدهم إلى التصوف والسلوك، كان جل اهتمامه أن يتبوأ على عرش المشيخة وتخضع له أعناق العامة والخاصة.

وكانت أوقاف المسلمين تصرف معظم غلاتها على الخانقاهات والتكايا التي كانت تصرف التغذية بالمجان.

وكانت الأمراء مقبلين على زخرف الدنيا وبهجتها، وكانت الأحوال السياسية والاجتماعية في بلاد الشام ومصر متدهورة للغاية، وكانت حياة الناس في خوف وذعر من نهب التتر وقتلهم الناس وسلبهم أموالهم.

عكف شيخ الإسلام على طلب العلم الصحيح المتلقى عن الكتاب والسنة وقرأ مهمات العلوم والفنون، ثم درس المذاهب الفقهية الإسلامية دراسة عميقة، وعرض المسائل الفقهية على الكتاب والسنة، فبدأ الناس يخالفونه من جانب، ووجد له أنصار وأتباع ومؤيدون من جانب آخر، فبدأ الناس يرجعون إلى فهم الكتاب والسنة في جو العلم والعرفان، والتمسك بهما بروح إسلامية وانطلاقة ملموسة، وبدأت أغلال التقليد والجمود تتحطم وتنكسر، إلا أن قضاة عصره وفقهاءه لم يتأثروا بآرائه وفتاويه، لكن ازدادت قوته وبدأت دعوته تشق الطريق إلى قلوب الناس وأفئدتهم، فاستضاؤا

بدعوته، وصلحت أحوالهم ومالوا إلى اتباع الكتاب والسنة بكل قوة وحماس وفضل هذه الانطلاقة والحماس يرجع إلى دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية بإذن الله.

إن معظم المسلمين قد تسربت إلى صفوفهم أنواع من الشرك والضلال، فكانوا يرجون سدنتهم وشيوخ الطرق ويخافون منهم فكانوا يقصدون إلى قبورهم، ويقدمون إليهم الزهور راجين منهم أن تقبل نذورهم، اعتقاداً منهم أنهم شركاء الله في قضاء حوائجهم ونيل مرامهم.

وخلاصة القول أن التوحيد الخالص الذي دعا إليه النبي ﷺ أمته لم تبق له أي أهمية، فسعى شيخ الإسلام لتعليم الناس التوحيد الخالص، وكان من الممكن إصلاح وضع المسلمين آنذاك وإحداث الانقلاب في تصحيح عقائدهم وتنوير أذهانهم وتثقيف عقولهم في صورة تأييد علماء وقته وفقهائه وفتاويهم وبحوثهم حول المسائل، إلا أن هذه الدعوة المباركة كانت مستمرة ولو بصورة ضئيلة، ثم ظهرت في صورة حركة محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر الميلادي، واحتوت على جزيرة العرب، ووصلت إلى قلوب كثير من أهل العلم والفضل من بلاد مصر والشام والعراق وغيرها من البلاد فتركت آثاراً طيبة، وهكذا استمر عمل الدعوة المباركة التي توجد آثارها الطيبة في أكثر البلاد، فالذين تراهم من المصلحين أمثال الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، والعلامة رشيد رضا ما هم إلا من آثار هذه الدعوة.

ومن بين هؤلاء العلامة أبو الكلام آزاد الذي كتب كتابات قوية في دعوة شيخ الإسلام، وعرف أهل الهند بها، فبدأ الناس يتأثرون بدعوة ابن تيمية وكثرت الدراسات حوله وحول دعوته.

وكان الناس في عصره يغالون في تقديس الفقراء والدراويش ويعتقدون بكراماتهم، وكان أشهرهم الفقراء الأحمدية الرفاعية الذين كانوا يفعلون الأفاعيل لإثبات صدقهم واستمالة قلوب الناس، فبالغ شيخ الإسلام في الرد عليهم وكشف حالهم فحصلت مناظرته المشهورة معهم في عام ٧٠٥هـ، كما

هو مبسوط في كتابي عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية باللغة الأردية.

ومن المعلوم أن التقليد الشخصي والتقيد بمذهب معين كان سبيل معظم الناس فصار المسلمون أتباع المذاهب الأربعة، وغالوا فيه مغالاة شديدة، حتى كانوا لا يراعون الأحوال والظروف ومتطلباتها، ومن آثاره السيئة كانت شدتهم في مسألة التطليقات الثلاثة التي ظهرت منها مفاسد التحليل المحرم في المجتمع الإسلامي، فكانت الحاجة ماسة إلى إلقاء النظرة الدقيقة على هذه المسائل الخطيرة التي أقلقت كثيراً من الأسر في المجتمع الإسلامي، فألف كتابه الشهير (إقامة الدليل على إبطال التحليل) فكانت جرأته هذه منة عظيمة على المجتمع الإسلامي.

وهكذا مسألة الحلف بالطلاق التي كانت لها أهمية كبيرة في مجال السياسة من عصر الحجاج بن يوسف، واتخذها الملوك والسلاطين مطية لامتداد سلطانهم فتولى شيخ الإسلام رد هذه الحيلة وأفتى بكل صراحة أنه ليس في الحلف بالطلاق إلا التكفير، ولا يقع الطلاق به، كما أفتى بعدم وقوع طلاق المجنون والسكران، واستدل بحديث ماعز.

إن الاجتهاد في المسائل الفقهية يتطلب من المجتهد أن يكون متبحراً في العلوم، ومتمكناً من أدلة الكتاب والسنة، ومطلعاً على الأحوال والظروف ومتطلباتها ومقتضياتها، وإن شيخ الإسلام كان يتمتع بجميع هذه الخصال والمحامد حيث لم يكن يجاريه فيها أحد ولا يدانيه.

إن العقيدة الإسلامية الصافية أضرتها مباحث الكلام والفلسفة والمنطق إلى حد بالغ بحيث ضعف صوت إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه ومن انتهج منهجه أمام مقالات المعتزلة والأشاعرة، الذين مسخوا عقائد أهل الإسلام كما ترى في مقالات أبي المعالي الجويني، وأبي بكر الباقلاني، ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، وأبي حامد الغزالي، وفخر الدين الرازي، فأغفلوا دراسة كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل، وكانوا يعتقدون أن الحنابلة حشوية وأنهم يقولون بالتجسيم، علماً بأنه لم يكن هذا من مذهبهم مثل الكرامية القائلين بالتجسيم، فظهر ابن تيمية،

واستدل لإثبات عقائد أهل السنة والجماعة في ذات الله وفي صفاته وأسمائه وألوهيته بأدلة من الكتاب والسنة، وأيد ما نص عليه الإمام أحمد وأصحابه في باب العقيدة الصحيحة، وأحيا تراثه، وأثبت أن المباحث الكلامية والمناقشات الجدلية لم تقنع أصحابها كالغزالي، والرازي حيث اعترفوا بعجزهم وأقروا بأنهم يموتون على عقيدة أمهاتهم، وذكر أنهم كانوا رجعوا إلى دراسة الصحيحين في أواخر أيامهم.

إن المسلمين يفتخرون بأنهم نقلوا علوم الأقوام والملل إلى اللغة العربية وأحيوها، إلا أنهم أخطأوا في التسليم لمنطق اليونانيين في الاستدلال، وجرهم تقليدهم وخضوعهم لهم إلى متاهات وضلالات أفسدت عقول المسلمين وأبعدتهم عن طريق الأنبياء والمرسلين، وقد أحس شيخ الإسلام ضرر هذا التقليد الأعمى فرد على قضايا المنطق اليوناني ونقضها، وفند مزاعم الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين وأثبت بأدلة عقلية ونقلية أن طريق الاستدلال والجدل المتلقى من الكتاب والسنة الصحيحة أحكم وأسلم.

فهذا الغزالي الذي بالغ في تقديس المنطق حيث جعله أساس العلم وميزانه واغتر الناس بقوله، فألف شيخ الإسلام كتابه المشهور (الرد على المنطقيين) ونقض كثيراً من حدود المنطق وقضاياه، ورجح الاستقراء بدل القياس الذي هو أساس منطق أرسطو.

يقول العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله في تقديمه لكتاب الرد على المنطقيين، ما معربه: إنك إذا تقرأ هذا الكتاب بإمعان وروية تجد منه عدة من قضايا المنطق ومسائل الفلسفة التي اخترعها شيخ الإسلام لأول مرة، وهي تطابق آراء فلاسفة الغرب ونظرياتهم مطابقة تامة، وعلى سبيل المثال نرى أن علماء المنطق من المسلمين كانوا يقلدون أرسطو في قوله: إن كليات المنطق أساس العلم، وبالتالي رجحوا البرهانيات والمقاييس على الاستقراء وهونوا أمره، ولأجل هذا ادعى بعض علماء الغرب أن (مل) (Mill) هو أول من رتب أصول الاستقراء، وأسس قواعد المنطق الجديد، والحال أن شيخ الإسلام سبقه بقرون إلى بيان أهمية الاستقراء والاستفادة منه.

وهكذا قدم حلولاً ناجعة للمسائل العويصة والمعقدة في هذا الفن بالأدلة القطعية مما يشهد باجتهاده وذكائه، إن ما قاله شيخ الإسلام في مسألة العلة واللزوم هو نفس ما أثبته الفلسفي الشهير هيوم (Hame) في مؤلفاته، وزلت فيها أقدام فحول العلماء، وضل بسببها الملاحدة والطبيعيون، ويوجد في كتابه الرد على المنطقيين تحقيقات جديدة، ونظريات حديثة، وهي تدل على جلالة علمه وذكائه الغريب[١].

كان من المشهور أن العلوم اليونانية ثروة علمية قديمة، خدمها وهذبها ونماها أصحاب العقول الكبيرة، وأوصلوها إلى درجة الكمال، فوقوع الخطأ والزلل فيها نادر، ففي مثل هذا الجو المليء بالرعب العلمي كان توجيه الانتقاد إليها جرأة كبيرة من شيخ الإسلام رحمه الله، فإنه لا يسلم لهذا الاعتقاد. ويصرح أن (هذه العلوم عقلية محضة ليس فيها تقليد لقائل) وإنما تعلم بمجرد العقل فلا يجوز أن تصحح بالنقل - بل ولا يتكلم فيها إلا بالمعقول المجرد - فإذا دل المعقول الصريح على بطلان الباطل منها لم يجز رده. فإن أهلها لم يدعوا أنها مأخوذة عمن يجب تصديقه، بل عن عقل محض، فيجب التحاكم فيها إلى موجب العقل الصريح[٢].

إن الانتقادات الجريئة والسديدة التي وجهها شيخ الإسلام إلى علم المنطق وقضاياه وحدوده، ونقضها في مؤلفاته تدعو المشتغلين بمثل هذه الثقافات أن يعيدوا النظر في قواعد المنطق، لكي يميزوا الصواب من الخطأ.

اتسعت دائرة دعوته في المجتمع الإسلامي حتى وصلت إلى قلوب الفساق والفجار والمجرمين المقيدين في الزنزانات والسجون فأحدثت انقلاباً عظيماً، فاشتاقت النفوس إلى استماع نصائحه وخطبه ومالت إلى إصلاح قلوبهم وأنفسهم فتاب الناس عن فسقهم ومعاصيهم ورجعوا إلى الله عباداً ورهباناً.

---

(١) مقدمة الرد على المنطقيين (ص ق).

(٢) الرد على المنطقيين (ص ٢٠٨).

وفي هذا درس لنا عظيم بأن السجون والزنزانات ليست لقضاء المجرمين أيام عقوبتهم فحسب بل يحتاج من المصلحين أن يتحركوا لإصلاح أحوالهم الدينية والاجتماعية لكي لا يرجع هؤلاء مرة أخرى وبالاً على المجتمع.

إن أمر جهاد شيخ الإسلام ضد التتر الذين كانوا متوجهين إلى عاصمة الإسلام لتدميرها وإهلاك حرثها ونسلها مشهور للغاية، فإنه لم يبق من هجمات التتر إلا دمشق ومصر، فخيم على المسلمين اليأس والخوف، وقد كتب الله النصر للمسلمين تحت قيادة صاحب السيف والقلم شيخ الإسلام وأصحابه.

ثم خاض شيخ الإسلام معارك أخرى ضد الروافض والإسماعيلية، وكسر شأنهم، فكان النصر حليفه كما هو مشهور من حياته الحافلة بالبطولات والفتوحات لصالح الإسلام والمسلمين.

إن فتنة الرفض والتشيع قد رفعت رأسها في عصره وتأثر بها التتر، وقد سبق أن ألف ابن المطهر الحلي (ت٧٢٦هـ) كتابه المشهور في تأييد مذهب الشيعة واستمالة قلوب التتر إلى هذا المذهب: منهج الكرامة، فبعد أن كسر شيخ الإسلام شوكتهم بتأييد من الله وفضل في ميدان الجهاد، تولى الرد على أباطيلهم في موسوعته العظيمة: منهاج السنة، الذي يستحق أن يكون أعظم مفخرة لجميع حركات التجديد الإسلامي.

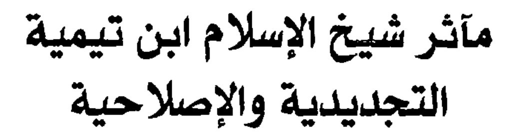
ومن مآثره الإصلاحية والعلمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح الذي كسر شأن المسيحية الذين اكتسبوا انتصارات في المعارك الصليبية فتجرأوا، إلا أنهم لم ينجحوا في نشر المسيحية بين المسلمين، فكانوا يحاولون أن يثبتوا أن محمد بن عبد الله ﷺ لم يبعث إلا للعرب، لكي لا يميل المسيحيون إلى دين الإسلام، فرد شيخ الإسلام على هؤلاء في هذا الكتاب العظيم، وأثبت عالمية الرسالة المحمدية وساق أدلة من كتب أهل الكتاب في بشارة النبي ﷺ، ورد على أفكارهم ونظرياتهم وأثبت تحريفهم لدينهم بأدلة قاطعة.

ثم ظهر المستشرقون الذين ألفوا في الإسلام وأهله باللغات العديدة وبدأوا يذكرون محاسن الإسلام ودسوا فيها وأظهروا مساويه - بزعمهم -.

وكانت لجهودهم هذه آثار سيئة، فلو وجد من أهل الإسلام من يقارعهم بالحجة وينصر الإسلام ونبيه بأدلة عقلية ونقلية، لم يكن في الإمكان للمبشرين أن ينفثوا سمومهم ضد الإسلام ونبيه وتعاليمه، إلا أنه قد وجد من أهل العلم من تولى تفنيد مزاعم المستشرقين والمنصرين. ويجب على المؤسسات التعليمية أن تهتم بدراسة الأديان والمذاهب المعاصرة لسد هذه الثغرة ولنصرة الإسلام ودفاعه.

إن أهم ما قام به شيخ الإسلام من أمور التجديد أنه دعا الأمة الإسلامية إلى العودة إلى الكتاب والسنة، وصرح بأنه يجب عليهم أن يرجعوا إليهما في جميع العلوم والفنون، فإن فيهما هداية كافية، وأن جميع العلوم العقلية تابعة للعلوم الشرعية، وخاضعة لها، والقرآن يؤكد للإنسان أن يعمل فكره ويسخر عقله لفهم المسائل والوصول إلى الحقيقة، والله ولي التوفيق.





مآثر شيخ الإسلام ابن تيمية التجديدية والإصلاحية

للشيخ الحافظ عين الباري العالياوي
الأستاذ بالمدرسة العالية بكلكتا
نقله إلى العربية:
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

الحمد لله العلي العظيم، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، أما بعد:

فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها[1]». وحينما ندرس تاريخ القرن الثامن الهجري في ضوء هذا الحديث الشريف نجد طائفة من الصوفية من الفقراء الأحمدية الرفاعية وسدنة القبور والمشاهد والمزارات يبذلون قصارى جهدهم، وبكل ما عندهم من أساليب الدجل والتلبيس والسحر والشعوذة، لتضليل الخلق، وجرهم إلى الشرك والبدع.

كما نجد طائفة أخرى من العلماء والفضلاء ابتعدوا عن دراسة الكتاب والسنة النبوية، وأغرقوا أنفسهم في ضلالات المنطق والفلسفة وعلم الكلام.

كما نلاحظ رواج التطليقات الثلاث في المجتمع، وقد حارت عقول آلاف الأزواج الذين طلقوا زوجاتهم ثلاث تطليقات حينما وجدوا بيوتهم

---

(١) سنن أبي داود (١/ ٢٣٣) والمستدرك للحاكم، والمعرفة للبيهقي، والكامل لابن عدي ومرقاة المفاتيح للمباركفوري (١/ ٣٤١١) والمشكاة (٣٦).

مهددة وحياتهم العائلية مضطربة، ووجد تكثرة كاثرة من المطلقات المظلومات مهددة بالظلم والضياع والذل والهوان ولم يبق لهن سبيل إلا التحليل المحرم وما يترتب عليه من الغضب واللعنة من الله ورسوله على فاعله.

وقد لخص علامة الهند محي الدين أبو الكلام*آزاد رحمه الله هذا المجتمع المنهار والمهدد بقوله: إنه قد ظهرت المفاسد والمصائب المتنوعة في المجتمع وفي شكل قوي نتيجة تفرق المذاهب وتشتت الجماعة، وشيوع البدع، وإحاطة التقليد، وسد باب النظر والاجتهاد[1].

ففي مثل هذا الجو الحالك ظهرت شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية الذي وصفه الإمام الذهبي بقوله: إنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له[2]، وليس المقصود استيعاب مناقبه إذ ليس هذا موضع ذكرها، فلذا أركز بحثي على عدة جوانب جوهرية مهمة من إصلاحه وتجديده.

يقول العلامة أبو الكلام آزاد رحمه الله: إن أكثر مجددي هذه الأمة تتعلق دعوتهم وتجديدهم بالأعمال والفروع، ولكن تجديد شيخ الإسلام وإصلاحه يتعلق بعلوم الشريعة، وعقائد الدين وأصوله، وأسس الشريعة، فيلاحظ الفرق بين أعماله التجديدية وبين أعمال غيره من المجددين ما يكون الفرق بين الأصل وفرعه[3].

ويقول العلامة الشبلي النعماني: الذي يصدق عليه كلمة المجدد وينطبق عليه مصطلح المِجددية بكل معنى الكلمة هو شيخ الإسلام ابن تيمية، وخصائص المجددية الأصلية ومميزاتها التي توجد في شخصيته لا توجد في غيره من المجددين[4].

ففي ضوء كلام أبي الكلام تتعلق جهود شيخ الإسلام الإصلاحية

---

(١) التذكرة لأبي الكلام آزاد (بالأردية ١٥٧).
(٢) الدرر الكامنة (١/ ٩١٧٦).
(٣) التذكرة (١٧٨).
(٤) مقالات شبلي (٥/ ٦٦).

والتجديدية بأصول الشريعة وأسسها ومبادئها، وفيما يلي أذكر بعض إصلاحاته وتجديداته:

١ ـ **عقيدة التوحيد**: إن عقيدة التوحيد واجتناب الشرك ومظاهره أهم ركن من أركان الدين الإسلامي بمعنى أن يؤمن بالله الواحد الذي خلق هذا الكون ولا يشرك معه أحداً، وقد وجد فساد كبير في عقيدة التوحيد، وفشا الشرك بالله في القرن السابع الهجري.

يقول الأستاذ محمد يوسف كوكن عمري حفظه الله:

قد ألف العالم المالكي الشهير الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحاج (ت ٧٣٧هـ) كتاباً كبيراً باسم (المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات) وبسط القول فيه في ذكر أنواع الشرك والبدع والطقوس والعادات المنافية لتعاليم الدين الحنيف، وذكر أن الناس في ذاك العصر ابتلوا بعبادة القبور، وتقديس الشخصيات، فلم تسلم شعبة من شعب حياتهم من الشرك والبدع والرسوم المخالفة للشريعة المحمدية، وكانت هناك مقابر ومشاهد في بلاد الشام، ومصر، التي كانت تزار، ويتبرك بها، ومعظمها كانت مزورة ومختلقة[١].

يصف شيخ الإسلام عصره المليء بالشركيات والبدع والخرافات فيقول:

(ومنهم من يستقبل القبر، ويصلي إليه مستدبراً الكعبة، ويقول: القبر قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة)[٢].

(ومنهم من يستخف بحج البيت، وممن يحج البيت، ويرون أن زيارة أئمتهم، وشيوخهم أفضل من حج البيت، وهذا موجود في الشيعة، وفي المنتسبين إلى السنة، وآخرون يستخفون بالمساجد، وبالصلوات الخمس

---

(١) الإمام ابن تيمية للأستاذ محمد يوسف كوكن العمري (١٣٧).

(٢) الرد على البكري (٢٩٤).

فيها، ويرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا)[1].

ومنهم من يقول: كل رزق لا يرزقه إياه شيخه لا يريده، ومنهم من يذبح الشاة، ويقول: باسم سيدي.

ومنهم من يقول: إن شيخه أفضل من الأنبياء والمرسلين.

ومنهم من يعتقد فيه الإلٰهية، كما يعتقدها النصارى في المسيح، فإذا ذكروا شيخهم عظموه، وادعوا فيه الإلٰهية.

ومن هؤلاء من يظن أن القبر إذا كان في مدينة أو قرية، فإنهم ببركته يرزقون وينصرون، وأنه يندفع عنهم الأعداء، والبلاء بسببه، ويقولون عمن يعظمونه: إنه خفير البلد الفلاني، كما يقولون: السيدة نفيسة خفيرة مصر القاهرة، وفلان وفلان خفراء دمشق أو غيرها، وفلان خفير حران أو غيرها، وفلان وفلان خفراء بغداد أو غيرها[2].

ومن هؤلاء من يرجح الحج إلى المقابر على الحج إلى البيت، لكن قد يقول أحدهم: إنك إذا زرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثاً كان كحجة، . . . ومنهم من يجعل السفر إلى المشهد والقبر الذي يعظمه أفضل من الحج، ويقول أحد المريدين للآخر، وقد حج سبع حجج إلى بيت الله العتيق: أتبيعني زيارة قبر الشيخ بالحجج السبع؟ فقال: لو بعت، لكنت مغلوباً، ومنهم من يقول: من طاف بقبر الشيخ سبعاً كان كحجة[3].

وفي هذه النصوص كفاية للقارىء اللبيب للاطلاع على أحوال الناس في القرنين السابع والثامن الهجري وما كانوا قد وقعوا فيه في العقائد والأعمال، فقام شيخ الإسلام بالرد على هذه الفتنة العظيمة التي عمت البلاد وأفسدت عقول الناس، وكشف عن زيف هذه العقائد، وأصلح بإذن الله عقائد الناس في هذا الباب، وألف كتابين مهمين قيمين في الرد على هذه

---

(١) الرد على البكري (٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٢) الرد على الأخنائي (٥٣).

(٣) الرد على البكري (٢٩٦ ـ ٢٩٧).

الأعمال البدعية وهما: تلخيص الاستغاثة المعروف بالرد على البكري، وكتاب الرد على الأخنائي.

وقال في الرد على البكري: لا يمكن لأحد أن يقول إن النبي ﷺ شرع لأمته أن يستغيثوا بميت، لا نبي، ولا غيره، لا في جلب منفعة، ولا دفع مضرة[1].

وقال في أبعد الأمور المبتدعة عن الشرع، أن يسأل الميت حاجة، أو يستغيث به فيها، كما يفعله كثير من الناس بكثير من الأموات، وهو من جنس عبادة الأصنام، ولهذا تتمثل لهم الشياطين على صورة الميت أو الغائب كما كانت تتمثل لعباد الأصنام، بل أصل عبادة الأصنام إنما كانت من القبور كما قال ابن عباس وغيره[2].

وقال: ولهذا لم يكن في زمن الصحابة والتابعين لهم بإحسان على وجه الأرض في ديار الإسلام مسجد مبني على قبر، ولا مشهد يزار لا بالحجاز ولا باليمن، ولا الشام، ولا مصر، ولا العراق، ولا خراسان[3].

ويقول شيخ الإسلام في شأن بداية عبادة القبور:

وأما الحجاج إلى القبور والمتخذون لها أوثاناً، ومساجد، وأعياداً، فهؤلاء لم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم منهم طائفة تعرف، ولا كان في الإسلام قبر، ولا مشهد يحج إليه، بل هذا إنما ظهر بعد القرون الثلاثة[4].

ويقول فيمن اخترع هذه المقابر والمشاهد والمزارات:

(وأول من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور أهل البدع من الروافض ونحوهم الذين يعطلون المساجد، ويعظمون

---

(١) الرد على البكري (٣٧٧).

(٢) الرد على البكري (٥٦).

(٣) الرد على البكري (٢٨٢).

(٤) الرد على الأخنائي (٦٦).

المشاهد التي يشرك فيها، ويكذب فيها، ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً، فإن الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد دون المشاهد[1].

ولما هاجم شيخ الإسلام عبادة القبور والمشاهد والزيارات ونهى الناس عن شد الرحال إليها ودعم رأيه بأدلة الكتاب والسنة وإجماع سلف هذه الأمة، قامت الدنيا ولم تقعد، إلا أن تعاليم الدين الحق ظهرت ورجع الناس إلى التمسك بالكتاب والسنة وهجر كثير منهم البدع والخرافات ورجعوا إلى توحيد الله وعبادته وابتعدوا عن الشرك ومظاهره.

ولأجل هذا قال بعض من ترجم له إنه يكفي لتبوئه مكانة التجديد والإصلاح إصلاحه في مجال العقيدة، إن لم يكن هناك جهود أخرى في مجالات أخرى.

آثار إصلاحه وتجديده في الخاصة والعلماء:

اتجه شيخ الإسلام بعد إصلاح عقائد العامة إلى إرشاد العلماء والخاصة لأنهم كانوا يعتقدون أن المباحث العقلية للمتكلمين في العقائد هي أصول الدين المهمة، ولأجل هذا أسمى الرازي كتابه في المباحث الفلسفية والكلامية والمنطقية باسم الأربعين في أصول الدين، بيد أنه لم يتعرض فيه لأركان الإسلام الخمسة[2].

وكان من أهم قضايا عصره المعقدة التي حارت فيها عقول الناس مسألة الترجيح بين العقل والنقل عند التعارض، وكان الناس يقدسون كتاب الإرشاد لإمام الحرمين، وأساس التقديس، وكتاب الأربعين كلاهما للرازي، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، وعضوا على ما جاء فيها من آراء وأفكار بالنواجذ، فتوجه شيخ الإسلام إلى هذه الكتب وأصحابها، ورد على أباطيل المتكلمين ومناقشات الفلاسفة في مؤلفات عظيمة بالغة الأهمية مثل كتاب

---

(١) المرجع السابق (٣٢).

(٢) انظر: الإمام ابن تيمية لمحمد يوسف العمري (٢٦١).

تخليص التلبيس من كتاب التقديس في الرد على أساس التقديس للرازي، وكتاب درء تعارض العقل والنقل، وتلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، وكتاب النبوات، وكتاب الرد على المنطقيين، وكتاب نقض المنطق وغيرها وكشف اللثام عن خرافات علماء المنطق والفلسفة والكلام، ورد عليهم في ضوء الكتاب العزيز والسنة المشرفة.

وكان الرازي قد وضع قانوناً كلياً أنه إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية أو السمع والعقل أو النقل والعقل أو الظواهر العقلية، وجب تقديم العقل، ثم النقل إما أن يتأول وإما أن يفوض[١].

فألف شيخ الإسلام كتابه المشهور درء تعارض العقل والنقل في الرد على الرازي وقانونه الكلي، ووضح أنه لا يمكن ترجيح العقل على النقل من ثمانية عشر وجهاً، لأن العقول البشرية لا تتفق على قاعدة معينة لكون العقول مغايرة من بعضها، وقد قدم لها أمثلة[٢]، وأثبت أن هذه العقول البشرية تابعة للشريعة، وليس هناك أي سؤال يثار حول تعارض العقل والنقل.

وكان الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم من المنتسبين إلى الإسلام ممن حملوا لواء الفلسفة والمنطق، يقول شيخ الإسلام عن فلسفتهم التي سلكوها: هي منقولة عن أرسطو الذي يسمونه المعلم الأول[٣]، وأرسطو وقومه كانوا مشركين يعبدون الأصنام[٤].

ولأجل هذا جعل الفارابي النبوة (من جنس المنامات) فقط ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي[٥].

---

(١) بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول (٢) على هامش منهاج السنة.
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨٢).
(٣) الرد على البكري (٣٠٩).
(٤) الرد على المنطقيين (١٨٦).
(٥) النبوات (١٦٨).

وقال ابن سينا: أمر النبوة أنها من قوى النفس[1].

وقال ابن رشد: المنطق منبع سعادة الإنسان[2].

وحذا حذوهم الغزالي القذة بالقذة فقال في المستصفى: مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً[3].

وقال شيخ الإسلام رداً على المنطق والفلسفة:

وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان، وإتعاب الأذهان، وكثرة الهذيان، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان، وشغل النفوس بما لا ينفعها بل قد يضلها، عما لا بد لها منه[4].

وقال في موضع آخر: (إني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد)[5].

(ولهذا قال أبو عبد الله الرازي في آخر عمره في كتابه أقسام اللذات: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن)[6].

وكذلك الغزالي وابن عقيل وغيرهما يقولون ما يشبه هذا[7].

وقد بين شيخ الإسلام سبب انحرافهم بقوله: وسبب ذلك إعراضهم عن الفطرة العقلية والشرعة النبوية بما ابتدعوه مما أفسدوا به الفطرة والشريعة، فصاروا يسفسطون في العقليات، ويقرمطون في السمعيات[8].

---

(١) النبوات (٢٢).

(٢) تاريخ فلسفة الإسلام لمحمد لطفي جمعة (١٢٠).

(٣) المستصفي (١/ ١٠).

(٤) الرد على المنطقيين (٣١).

(٥) المرجع السابق (٣).

(٦) الرد على المنطقيين (٣٢١) والنبوات (١٤٧ ـ ١٤٨).

(٧) النبوات (١٤٨).

(٨) النبوات (١٤٨).

وذكر في موضع آخر: (أن ما عند أئمة النظار ـ أهل الكلام والفلسفة ـ من الدلائل العقلية على المطالب الإلٰهية فقد جاء القرآن بما فيها من الحق، وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه، مع تنزهه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء، فإن خطأهم فيها كثير جداً، ولعل ضلالهم أكثر من هداهم، وجهلهم أكثر من علمهم)[1].

يظهر من هذه النقول أن مرض التعمق في الفلسفة والمنطق والكلام وإعمال الفكر والرأي فيها تسرب إلى العلماء والخاصة بحيث نسوا تماماً كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فجاء شيخ الإسلام وبين لهم مفاسد هذه العلوم، وشرح لهم فضائل الكتاب والسنة والتمسك بهما، وكان من فضل الله على الأمة أن كسدت سوق العلوم اليونانية، وتوجه العلماء والخاصة إلى دراسة الكتاب والسنة.

مسألة التطليقات الثلاث والتحليل المحرم الممقوت وجهود شيخ الإسلام لحل هذه المسألة الاجتماعية الخطيرة:

كانت مسألة التطليقات الثلاث والتحليل المحرم من أهم قضايا عصره التي كانت الأمة تواجهها، فكان لشيخ الإسلام دور قيادي مهم في حل هذه المشكلة الاجتماعية في ضوء الكتاب والسنة.

وقد ورد في صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم[2].

فلما تجاوز الناس عن حد السنة في مسألة الطلاق، نفذ فيهم عمر الثلاث تأديباً وتنبيهاً، لكن لم ينتبه الناس ولم يتعظوا بقوله هذا، فندم عليه

---

(١) الرد على المنطقيين (٣٢١).

(٢) صحيح مسلم مع النووي (١٠/ ٧٠).

عمر رضي الله عنه كما في مسند عمر: ما ندمت على شيء ندامتي على ثلاث أن لا أكون حرمت الطلاق إلخ)[1].

واستمر الخلاف في المسألة بعد هذا إلى ثلاث مائة سنة تقريباً ثم شاعت المذاهب الأربعة المتبوعة وقلدها الناس[2]، وكان مذهب هؤلاء أن التطليقات الثلاث في مجلس واحد تعتبر ثلاثاً، واستمر إجماع المذاهب الأربعة إلى أربعمائة سنة، وبالتالي راج التحليل المحرم الملعون صاحبه على لسان النبوة في الأوساط الإسلامية.

والتحليل معناه أن المطلق زوجته ثلاثاً في مجلس واحد أو في مجالس متعددة، الذي حرمت عليه زوجته، إذا أراد أن يرجع إلى زوجته المطلقة فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فيجوز للزوج الأول أن يراجعها بنكاح جديد بعد فراقها على الطبيعة، هذا هو المشروع في المسألة التي يقل وجودها.

وأما إذا تزوج أحد هذه المطلقة ليحللها للزوج الأول حيث تبقى هذه المطلقة في حرمته عدة أيام يذوق عسيلتها، فيطلقها لينكحها زوجها الأول، فهذا هو التحليل المحرم الذي لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له[3].

فلما لم يكن التحليل المشروع ممكناً حسب فتوى المذاهب الأربعة، وقع الناس في شر التحليل المحرم، وعمت هذه البلية حيث لم يكن المحلل يفرق أحياناً بين الأم وبنتها، أو الخالة والعمة وبنت الأخ والأخت، فكان يتزوجهن في آن واحد، ويدخل عليهن، ثم يطلقهن، وقد وجد جماعة من الناس الذين اتخذوا التحليل مهنة لهم، فكان يأخذ أحدهم مبلغاً من المال من الزوج ليتزوج بالمطلقة، شريطة أن يطلقها بعد أن ذاق عسيلتها ليلة أو ليلتين، وإذا حملت امرأة مطلقة من هذا المحلل التيس المستعار،

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم.

(٢) راجع: حجة الله البالغة (١/ ١٢٢).

(٣) مسند الدارمي والنسائي (٢/ ٨٤) وأبو داود (١/ ٢٨٤) والترمذي (١/ ١٣٣) والمستدرك (٢/ ١٩٩) والبيهقي، والبزار، والمشكاة (٢٨٤) والتلخيص الحبير (٣٠١).

كانت تقتل ابنها من هذا[1].

وهذه النصوص توضح مدى قلق الناس رجالاً ونساء واضطرابهم من الإصرار على هذه الفتوى والتحليل المخترع المروج، وكيف يتصور من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية بطل الإصلاح الديني الذي نذر نفسه لخدمة دينه أن يسكت عن هذه الظاهرة الاجتماعية السيئة، فألف كتابه المشهور (إقامة الدليل على بطلان التحليل) وخالف فيه رأي المذاهب الأربعة في مسألة التطليقات الثلاث وجعلها واحدة، وبين حرمة التحليل الملعون.

وقد ألف كتباً ورسائل كثيرة في مسائل الطلاق تبلغ أوراقها ألفي ورقة كما قال الذهبي رحمه الله.

وقد ساق أربعين دليلاً لمذهبه من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والقياس، وأصول الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة، وكان له إصرار على صحة مذهبه، وثقة نفسه بفتواه كانت تشجعه على أن يباهل فيه من يخالفه، وقد أثارت فتواه ضجة كبيرة في الأوساط الإسلامية فكسدت سوق التحليل المحرم، ونجت البشرية من هذه اللعنة، ومال الناس إلى الكتاب والسنة وآثار السلف وتمسكوا بها.

وكان لفتواه الشرعية تأثير في المجتمع حيث أنقذ الله كثيراً من الناس من التحليل الملعون، وقد تأثرت النسوة بمآثر شيخ الإسلام الإصلاحية (إذ حضر جنازته نساء كثيرات بحيث حزرن بخمسة عشر ألف امرأة غير اللاتي كن على الأسطحة وغيرهن، الجميع يترحمن ويبكين عليه فيما قيل)[2].

وفي البداية أيضاً: والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين ويدعين، ويقلن: هذا العالم[3].

---

(١) راجع: الإمام ابن تيمية لمحمد يوسف العمري وإقامة الدليل على بطلان التحليل (٢١٦).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ١٣٦) وحياة شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد بهجة البيطار (٢٧).

(٣) البداية والنهاية (١٤/ ١٣٩).

مآثره التجديدية في العلوم الإنسانية:

يقول الشيخ محمد يوسف كوكن العمري إنه ألف أحد الناس في أواخر عهد التابعين (كتاب الحيل) ذكر فيه ٣٢٠ حيلة أو ٣٣٠ حيلة، وحينما اطلع عليه الإمام عبد الله بن المبارك قال في مؤلفه: إنه إبليس الأبالسة، ثم ألف أحمد بن عمر الخصاف (ت ٢٦١هـ) (كتاب الحيل)، ثم استمر البحث والنقاش في كتب الحديث والفقه حول جواز الحيل وحرمتها[١].

وفي رأيي بَعُدَ الناس من ذلك الوقت عن دراسة الكتاب والسنة وزاد اشتغالهم بالعلوم والفنون التي لا تمت إلى الشريعة بصلة، وهكذا دخل الضعف والوهن من القرن الثالث حتى نسي أكثر الناس الاستدلال بالكتاب والسنة، وغفلوا عن طرق الاستنباط والاستفادة من النصوص الشرعية، فكان ظهور شيخ الإسلام في القرن السابع الهجري فكان حقاً (ترجمان القرآن وإمام أهل السنة) فنشر معارف الكتاب والسنة في الناس، وذكر الغافلين عنهما، حتى وفقهم الله إلى الرجوع إلى المنبعين الصافيين للإسلام، والتدبر فيهما، يقول الإمام الذهبي: ولعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد بل أكثر[٢].

وقال ابن كثير: وفي يوم الاثنين تاسع جمادى الآخرة أخرج ما كان عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الكتب والأوراق والدواة والقلم، ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت كتبه مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة.

قال البرزالي: وكانت نحو ستين مجلداً وأربع عشرة ربطة كراريس[٣].

وقال ابن القيم: إن كان يحرر أربعين فتوى في ساعة[٤].

---

(١) الإمام ابن تيمية (٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٢) الدرر الكامنة (١/١٥١).
(٣) البداية والنهاية (١٤/١٣٧).
(٤) إعلام الموقعين.

وقال الذهبي: أفتى ودرس وهو دون العشرين، وصنف التصانيف.

وقد عاش ابن تيمية **٦٧** سنة، واشتغل بالتأليف والتصنيف نحو نصف قرن من الزمان.

وفيما مضى من أقوال أهل العلم في كثرة تصانيفه وسرعة تأليفه يتبين منه أنه رحمه الله من المكثرين في مصنفي الإسلام وقد تركت آثاره أثراً عميقاً في حياة المسلمين عبر القرون، وقد اعترف بنفوذه وتأثيره باحث دائرة المعارف الإسلامية بقوله: إن ابن تيمية من المؤلفين الذين لهم تأثير كبير على أهل الإسلام من الزمن الغابر إلى الآن وخاصة على أهل السنة[١].

وفي رأيي سبب تأثير مؤلفاته العظيمة والمستمر على مر الدهور أنها مدعمة بالكتاب والسنة، إذ وقف رحمه الله حياته لنشرهما وإشاعتهما وإحيائهما، ولأجل هذا صرخ صارخ وصاح صائح حينما خرجت جنازته من قلعة دمشق إلى المقبرة: هكذا تكون جنائز أئمة السنة[٢].

كما أعلن في جامع من جوامع الصين يوم الجمعة أنه تصلى صلاة الغائب على ترجمان السنة[٣].

أيها الإخوة الأفاضل: نحن نسمع دائماً في شبه القارة الهندية (الهند وباكستان وبنجلاديش) أن من زار مقبرة الشيخ معين الدين الجشتي في مدينة أجمير سبع مرات يثاب ثواب حجة البيت.

ويقول البعض: لا يصح حج بيت الله الحرام إلا بعد زيارة قبر الخواجة الجشتي!!

ثم نلاحظ من قديم الزمان أن سوق التحليل المحرم نافقة في بلادنا، ويوجد بعض التيوس المستعارة عند بعض المأذونين الشرعيين الذين يحللون الأزواج بالطرق المحرمة!!

---

(١) Encylopedia of Islam Vol. III page 955.

(٢) البداية والنهاية (٤١/١٣٧).

(٣) طبقات الحنابلة.

ثم نلاحظ أن الناشئة الجديدة تبتعد رويداً رويداً عن الكتاب والسنة وعن دين الإسلام، ومعنى ذلك أننا نواجه نفس المشكلات التي واجهها شيخ الإسلام في حياته وعصره، فنرى أن من أهم ما يجب علينا نحو الملة الإسلامية أن نقوم بنشر معارف شيخ الإسلام، وتجلية مآثره التجديدية والإصلاحية كما تبنته المملكة السعودية حكومة وشعباً.

ونظراً إلى أهمية علوم شيخ الإسلام ابن تيمية ومعارفه للجيل الإسلامي الجديد، كان عقد هذا المؤتمر العالمي حول شيخ الإسلام ابن تيمية ومعارفه في رحاب الجامعة السلفية ومن قبلها، نرحب مسؤولي الجامعة وأساتذتها على أداء هذا الواجب الديني، وأشكركم على إتاحتكم لي الفرصة لإلقاء هذه الكلمة المتواضعة عن شيخ الإسلام ومآثره الإصلاحية، فجزاكم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



دروس من حياة
شيخ الإسلام ابن تيمية وأعماله

للشيخ محمد عبد الله الطاري/
جمعية أهل الحديث في كشمير (الهند)
نقله إلى العربية/ عبد الوهاب الحجازي

لقد جبل الإنسان من خالقه جل وعلا على جبلتين مضادتين: جبلة التقوى، وجبلة الفجور، ولكن من آيات رحمته تبارك وتعالى أنه قد أرسل رسله في جميع العصور بجانب دواعي الخير والشر الفطرية ليريهم سبيل الرشاد، فمن آدم إلى النبي الخاتم محمد ﷺ قد بعث آلاف من الأنبياء كلهم كانوا يأمرون الناس بالمعروف وينهونهم عن المنكر، والرسول العربي محمد ﷺ هو النبي الخاتم الذي لا نبي بعده، فواجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ألقيت على عواتق أمته.

نحن نرى في جميع أعصار الأمة جماً غفيراً من العلماء والفضلاء والمجتهدين وأئمة الفنون ولكن العلماء البارزين الذين قاموا بأداء واجب الدعوة إلى الله متأسين بأسوة الرسول الكريم ﷺ قليلون بالنسبة إليهم، وعمل الدعوة إلى الله اقتداء بسنة الرسول الكريم وتأسياً بأسوته وإن كان يرى بادىء الرأي أمراً سهلاً ولكنه في الحقيقة أمر صعب جداً، اختيار الآخرة على الدنيا من الأمور التي لا يلقاها إلا الصابرون ذوو الحظ العظيم (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم).

ولقد من الله العليم الحكيم على هذه الأمة في فترات من الزمن ببعث

رجال الدين الذين سقوا حديقة الإسلام وجعلوها مخضرة منورة، ومن هؤلاء الرجال الأبطال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد كان مثل بحر زاخر هب منه سحاب ممطر سقى الله به زرع الإسلام، لا يزال يؤتي أكله، وهبت منه أمواج مهيبة سال بها الزبد الذي كان متراكماً على الماء العذب النقاح.

كان منبع قوة شيخ الإسلام إيمانه الراسخ بالكتاب والسنة، ومن نتاج الإيمان أنه هجم هجمة عنيفة ضد الفرق الضالة وتركهم حيارى في الأرض، حتى وقفت كافتها ضد شيخ الإسلام من اليهود والنصارى والروافض والفقهاء والمتصوفين والمتكلمين والفلاسفة، ولقد منح الله شيخ الإسلام عبقرية لا نظير لها وكان حاذقاً في جميع الفنون عالماً بأسرارها، فحينما دارت المناقشات العلمية بينهم وبين شيخ الإسلام خابوا وخسروا ونال الشيخ قصب السباق، فحاكت الأعداء جميعاً مؤامرات شتى ضد شيخ الإسلام التي قد ابتلي بها في الشدائد والمحن، ولكن مع ازدياد الشدائد ازدادت بطولته حتى جاهد في سبيل الله بالسيف المسلول ضد التتر المغول الكافرين وجعل كلمة الله عالية وخاض معاركه ببطولة لا ينساها أعداؤه حتى الآن وقد مضى عليها سبع مائة سنة، ولا بد من مبدء تاريخي يذكره القارىء الفهيم أن الشخصيات الممتازة لما تزداد عظمتها تكثر أعداد محبيها وأعدائها بقدر عظمتها وجلالتها.

فالسؤال الذي أريد أن أجيبكم عنه: ما هي الدروس التي يتعظ بها مسلمو العصر الراهن من حياة شيخ الإسلام وأعماله وبطولاته؟.

والجواب واضح نقي لا غبار عليه: أن شيخ الإسلام كان عالماً بالكتاب والسنة عاملاً بهما، فالإيمان الذي ينشأ في وجود (قلب) المؤمن بعد عرفان الحقائق على أساس العلم الحقيقي خير من الدنيا وما فيها، وخلاصة حياة شيخ الإسلام وأعماله هو هذا الإيمان الحقيقي.

ومن الضرورات التي لا بد لمسلمي هذا العصر منها هو هذا الإيمان. والإيمان الذي يقف وراءه العلم والعمل تناصراً فيما بينهما لا يزال يخرج

فائزاً من جميع المآزق، لا تضعفه غربة الديار، ولا تخمده نيران الحكام الظالمين ولا يزعزعه احتكاك المتفقهة ولا يزرع فيه ارتياب الفلاسفة بذور الشك وعدم اليقين ولا تجعله شعوذة المتصوفين فاقد الروح.

الإيمان الذي يقف وراءه العلم والعمل مناصراً له لا يزال يستعد دفاعاً عن نفسه لا تقضي عليه مكائد أهل السياسة ولا تسده عن العمل أسياف الأبطال ولا تنهب نزهته مكائد المشائين.

هذا الإيمان الذي يقف وراءه العلم والعمل مناصراً له لما ينفجر انفجار البركان لا يترك ما حوله من المناطق إلا وهي تتأثر بحرارته.

الإيمان الذي يقف وراءه العلم والعمل يشبه إيمان الأنبياء والرسل.

قال العلامة أبو الكلام آزاد (العزيمة للدعوة إلى الله وجلالة التشبه بالأنبياء كان حظاً مختصاً بشيخ الإسلام ابن تيمية، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

هذه تذكرة ورثة النبي الخاتم ﷺ، فيا أعداء النبي والنبوة تعالوا وانظروا كيف يؤدي ورثة النبوة واجباتهم مع جلالة شأنهم للمحافظة على إرث نبيهم الكريم ﷺ، هل عميت أبصار أحفاد الملحدين والمشركين أن يبصروا شخصية شيخ الإسلام المؤمنة الفعالة، هلا استيقنوا إلى الآن لقول الرسول الكريم عليه ألف تحية: (العلماء ورثة الأنبياء).

ولا ريب أن شيخ الإسلام وارث النبي ﷺ.

ولا بد من أن نوضح هنا أن الكتاب والسنة هما مصدران أصليان، لا ملجأ منهما للمسلمين في أحوال حياتهم إلا إليهما، والمناهج التي تستقي منهما لا ريب أنها من شعوبهما.

ولا بد للمسلمين من اتباع أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأن حياتهم الطيبة كانت صورة حية للكتاب والسنة.

الدين الخالص الكامل الذي تركه النبي الخاتم ﷺ فينا نحن نراه على صورته الأصلية لدى شيخ الإسلام ابن تيمية كما كان في القرون الفاضلة.

وقد اعترف بهذه الحقيقة عامة الناس من أبناء عصره مع أن كثيراً من طبقة الخواص قد فقدوا نورهم أمام جلال شيخ الإسلام وجماله وخفيت نظرياتهم المنحرفة أمام جرأته وقوله الحق فقد قال الأستاذ محمد أبو زهرة مؤلف حياة شيخ الإسلام:

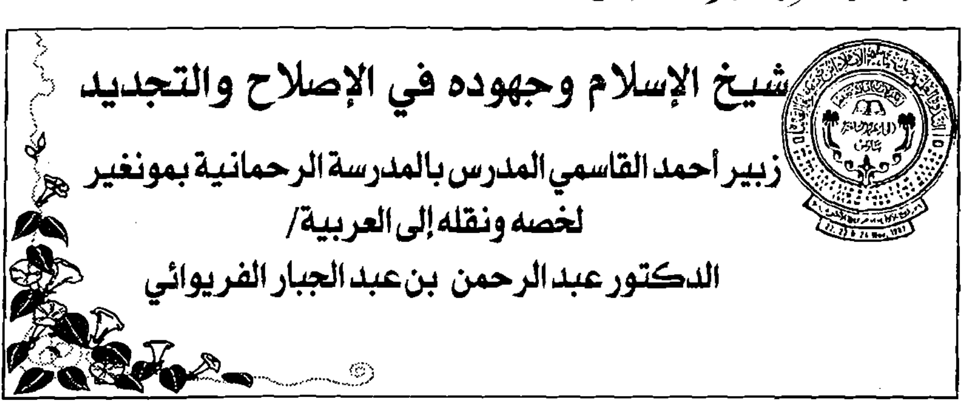
(وعندما اتجه ذلك الاتجاه، برز إلى الخاطر أمام شغل عصره بفكره ورأيه ومسلكه، فدوى صوته بآرائه في مجتمعه، فتقبلتها عقول واستساغتها، وضاقت عنها أخرى وردتها، وانبرى لمنازلته المخالفون، وشد أزره الموافقون، وهو في الجمعين يصول ويجول، ويجادل ويناضل، والعامة من وراء الفريقين قد سيطر عليهم الإعجاب بشخصه وبيانه، وقوة جنانه وحدة لسانه، واعترتهم الدهشة لما يجيء به من آراء يجدد بها أمر هذه الأمة، ويعيد إليها دينها غضاً قشيباً كما ابتدأ). (ص ٣، ٤).

وما اكتفى شيخ الإسلام بتقديم دين خالص عن الشوائب الاعتقادية، بل قضى على جميع الانحرافات. والعصر الراهن عصر الفتن العقدية فإذاً ازدادت أهمية علوم شيخ الإسلام وإفادتها. قال العلامة أبو الكلام آزاد موضحاً هذه الحقيقة:

كافة الفتن الاعتقادية التي ظهرت على مر العصور واحدة بعد أخرى قد عادت من جديد في المجتمع الإسلامي في العصر الحاضر مجتمعة وفق قول الله سبحانه: (بل قالوا مثل ما قال الأولون).

ونظراً إلى هذه الظروف الحرجة لا شيء أعظم مطلوباً من الوقوف على معارف شيخ الإسلام ابن تيمية. وبالله التوفيق.





شيخ الإسلام وجهوده في الإصلاح والتجديد

زبير أحمد القاسمي المدرس بالمدرسة الرحمانية بمونغير
لخصه ونقله إلى العربية/
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وبعد:

فإن شخصية شيخ الإسلام لا تحتاج إلى تعريف وتعارف إذ شخصيته العظيمة نار على علم، وعقد فريد في سلسلة مجددي هذه الأمة، وقد ظهرت كتابات كثيرة ودراسات متنوعة عديدة عن حياته وأعماله، ومناقبه كثيرة، وفضائله جمة، وعلومه ومآثره مما ينبغي لنا أن نعتني بها نظراً إلى أهميتها وتشابه عصرنا بعصره المليء بالفتن والمخاطر، وإني أشكر المسؤولين في الجامعة السلفية على اهتمامهم بتراث شيخ الإسلام ابن تيمية.

إن شيخ الإسلام ابن تيمية كان مجمع الفضائل والمناقب إلا أنه لم يسلم من انتقاد بعض منافسيه من معاصريه الذين حاولوا النيل من شخصيته، وقد اتفقت كلمة أهل الإنصاف على أنه من أكبر مجددي هذه الأمة وشيخ الإسلام، والغريب أن الشاه ولي الله الدهلوي الذي بالغ في الثناء عليه في رسالة له إلى تلميذه الملا معين الدين صاحب دراسات اللبيب حتى قال في وصفه: (إن الفقهاء المخالفين له لم يكن علمهم عشر العشير بالنسبة إليه) لم يعده من المجددين في كتابه إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، والحق الذي يقال: إنه كان مجدد هذه الأمة بكل معنى الكلمة، وهذا من الشاه ولي الله موقف غريب.

هذا، وأحاول في هذه الكلمة المختصرة أن ألخص مآثره الإصلاحية والتجديدية وبالله التوفيق.

١ - إن جميع من اعتنى بتاريخ عصر شيخ الإسلام وعرف أحوال المسلمين صرح بأن الناس وقعوا في فساد عظيم في باب العقيدة، مع وجود المحدثين والفقهاء وأئمة الفنون والعلوم. فشرح الله صدر شيخ الإسلام لتجلية موقف الإسلام من العقيدة الصحيحة، وإزالة جميع ما ألصق بها من خرافات وشركيات ما أنزل الله بها من سلطان.

وإضافة إلى ذلك قام بالرد على جميع الطوائف المنحرفة والفرق الباطلة الذين كانوا يحاولون من قديم الزمان النيل من العقيدة الإسلامية الصافية وألف مؤلفات عظيمة.

٢ - ومن أهم مآثره التجديدية نقد العلوم والفنون، وكشف أباطيل الفلاسفة والمتكلمين الزائفين، الضالين، ومن المعلوم أن العقول الإسلامية قد تأثرت بمنطق اليونان، وبالتالي تسرب هذا الفساد إلى مؤلفات كثيرة، فقام شيخ الإسلام بالرد على المنطقيين ونقض حدود هذا الفن وقضاياه، وسفه مؤسسيهم، وحمق متبعيهم من المنتسبين إلى الإسلام، وقارعهم بالحجة والبرهان ودعاهم إلى أساليب الكتاب والسنة ومناهج أهلهما من السلف الصالح من أهل الورع والاتقان، وناقش جميع القضايا والمسائل في ضوء هذا المنهج الرباني، وأثبت فضل علم السلف على الخلف في الأصول والفروع، وصرح بأن أهل الإسلام ليسوا بحاجة إلى علوم الآخرين فكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيهما غنى عن آراء الناس وأفكارهم.

وكان هجوم شيخ الإسلام على المنطق والفلسفة بهذه القوة والجرأة ملفتاً لأنظار علماء هذه الأمة إلى أن يعيدوا النظر في موقفهم من هذه العلوم التي وقعوا فريسة لها، وهكذا كانت جهوده في هذا الميدان خدمة كبيرة للإسلام وأهله ومعلماً لكل من يريد أن ينقذ نفسه من ضلالات الفلاسفة وأباطيل المناطقة ويسعى أن يتخذ لنفسه طريقاً سليماً إلى التفكير الحر، والاجتهاد الصحيح.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي حفظه الله بهذا الصدد: إن هذه الثورة الفكرية لم تخلف تأثيرها في أوروبا فحسب بل تعدتها إلى العالم كله، بالعكس من ذلك فقد تمسكت أوساطنا العلمية والمدرسية بالعلوم اليونانية، وعضت على كتب علماء الشرق وشروحهم وتعليقاتهم في هذا الفن بالنواجذ كأنها هي العروة الوثقى وسدرة المنتهى للفكر والنظر ولا شك فإن العمل الاجتهادي الذي قام به الإمام ابن تيمية من انتقاد الفلسفة والمنطق ومحاسبتهما العلمية في صحراء التقليد والجمود العقلي، كمنارة ضوء على الساحل، ومعالم واضحة في الطريق، وهو يفتح باب الاجتهاد والتفكير من جديد[١].

٣ ـ ومن إصلاحاته العظيمة أنه حاول بقدر المستطاع إصلاح شؤون الدولة وأمور السياسة، وقد قال الأستاذ خليق أحمد بهذا الصدد: إن حركة ابن تيمية الإصلاحية استوعبت شؤون المسلمين الدينية والاجتماعية والسياسية، فألقى شيخ الإسلام على مسائلها ومشاكلها الضوء القرآني السني وحاول إصلاح ما أفسدوه، ويظهر من دراسة (منهاج السنة) و(السياسة الشرعية) ما كان يتمتع به شيخ الإسلام من نظر ثاقب وتوسع نادر في الأمور السياسية فإنه كان يحاول محاولة جادة لإيجاد الفكر الإسلامي الصحيح في مجال الإمامة والخلافة.

ومن المعلوم أن عصره كان عصر ملوك المسلمين وسلاطينهم إلا أنهم كانوا يغفلون عن حماية الدين وتطبيق الشريعة الإسلامية، بل كان بعضهم قد أفسد حالة الأمن بمواقفه الظالمة وأساليبه القاهرة وهوايته لتوسيع سلطانه وامتداد رقعة بلاده، وإضافة إلى ذلك كانت جماعة من الشيعة والروافض كالباطنية والحاكمية قد عودت نفسها على إضرار المسلمين وإفساد أمنهم ونشر الفساد في مجتمعهم.

وقد كتب الله هذه الفضيلة لصاحب السيف والقلم شيخ الإسلام

---

(١) حياة الحافظ ابن تيمية (ص ١٩١).

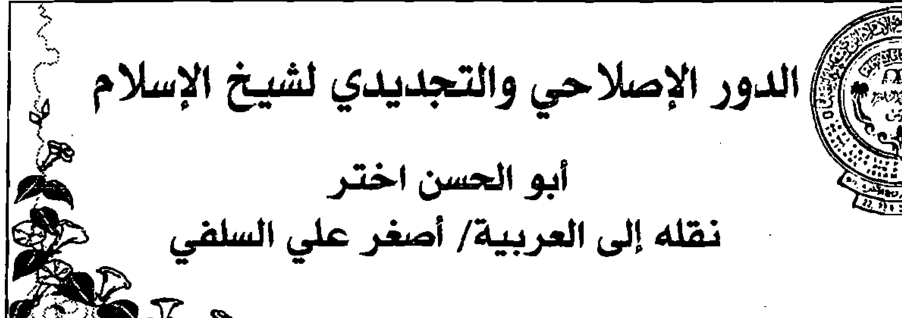
والمسلمين ابن تيمية أن يجاهد بسيفه كما جاهد بقلمه ولسانه ضد هؤلاء الطواغيت والضالين والمنحرفين من التتر والروافض والصوفية، بجرأة إيمانية، وشجاعة منقطعة النظير، ونعم ما قال الأستاذ أبو زهرة: ولقد أقام الفضيلة والأخلاق عندما صار رجل دمشق، وحاكمها غير المتوج عندما فر حكامها في سنة ٦٩٩هـ، وأصبح إنكار المنكر حقاً عليه بالفعل لا بالقول والقلب إذ صار مبسوط اليد والسلطان فيها. رأى الحانات والخمور فأخذ هو وصحبه وقد صاروا حكام الساعة، فحطموا أواني الخمر، وشقوا قربها، وأراقوا الخمور، وعزروا أصحاب الحانات المتخذة للفواحش فلقي ذلك من العامة ترحيباً، إذ رأوا حكم القرآن ينفذ، وعهد الرسول يعود[1].

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



---

(١) ابن تيمية (ص ٤٠١).



الدور الإصلاحي والتجديدي لشيخ الإسلام

أبو الحسن اختر

نقله إلى العربية/ أصغر علي السلفي

قد لعب كثير من العلماء والمشايخ في تجديد الدين الحنيف والدعوة الإسلامية وإصلاح المجتمع البشري عبر القرون دوراً هاماً، ومن المعلوم أن قضية الإصلاح والتجديد مهمة جداً ومحاطة بكثير من العوائق والعراقيل وهي تتطلب من الداعي المصلح الصبر على الأذى والاستقامة في الدين وحمل الأمانة العلمية والدينية وأدائها، فكان العلماء المجددون يقاومون الحملات الشرسة من الخارج ويتصدون للتحديات المعاصرة كما كانوا يحافظون على تعاليم الإسلام ويمنعون من الفرقة والفوضى من الداخل، ويقومون بإصلاح المفاسد المنتشرة بين المسلمين وكان من أهم مساعيهم الجميلة نشر تعاليم الإسلام الحقة على الوجه الصحيح كما كان نصب أعينهم ومحور فكرهم إبطال المبطلين وتحريف الغالين.

وفي هذه الرحلة الطويلة منذ بداية القرون الإسلامية إلى يومنا هذا قام كثير من العلماء والمجددين الذين تتلألأ نجوم أسمائهم على سماء التجديد والإصلاح وصارت أعمالهم الخالدة ومآثرهم الطيبة نبراساً للهداية ومنارة للنور، وكان تقي الدين أبو العباس ابن تيمية يمتاز من بين هؤلاء المجددين عبر القرون بميزات وخصائص بشخصيته ومآثره العظيمة، وكانت شخصيته الفريدة المنقطعة النظير ومقدرته العلمية وأهليته الجيدة ومآثره الخالدة وأعماله العظيمة موضع غبطة وحسد لدى العلماء المعاصرين له، وللعلماء المتأخرين

عنه موضع استعجاب وتحير وعناية، ومع هذه الميزات والمحاسن الجمة وخدماته الفخمة للدين الحنيف كان بعض الناس يؤذونه ويسيئون إليه وينالون منه حسداً وعناداً منهم في حياته، وقد استمر ذلك الأذى واللوم من أعدائه وأذنابهم الحساد ومخالفيه إلى يومنا هذا، وبصرف النظر عن هؤلاء فقد قام الإمام الهمام مجدد المائة السابعة الهجرية بأعمال وخدمات جليلة جديرة بالتنويه والتقدير والشكر.

والمؤلفات الكثيرة التي خلفها شيخ الإسلام بعده وصلت إلينا، كلها منقطعة النظير في كميتها وكيفيتها لا مثيل لها في الجودة والندرة وهي في غاية من الفصاحة والبلاغة ومتانة الأسلوب ونصاعة البيان، والإحاطة بجميع الجوانب، وهي إضافة قيمة إلى المكتبات الإسلامية، وقد ذكر الأستاذ محمد أبو زهرة في كتابه حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، فهرساً[1]، لمؤلفات شيخ الإسلام المتنوعة في شتى العلوم فبلغ عدد مؤلفاته في التفسير **١٠٢** كتاباً، وفي الأخلاق والزهد والتصوف **٧٨** كتاباً، وفي نقد المنطق والفلسفة **١٧** كتاباً، وقد بلغ عدد رسائله العلمية سبع رسائل مهمة كما عد في المتفرقات **٥٤** كتاباً، كلها منقطعة النظير في بابها.

وقد يلمس القارىء المنصف من الانتقادات على المذاهب الأخرى والدفاع عن الإسلام الذي يقوم به علماء المسلمين حيث يعتدون في نقدهم وجرحهم على المذاهب الأخرى ويعتدون في دراستهم ومقارنتهم للأديان ويقع من البعض التعدي والتجاوز عن حد الاعتدال وعن المنهج العلمي عناداً وبغضاً منهم لهذه المذاهب ونصرة لمذهبهم، مع هذا كله يشجعون من قبل العلماء على صنيعهم وينوه بأعمالهم فضلاً عن أن ينكر أحد على اعتداءاتهم وتركهم المنهج العلمي، ولا يكاد يوجد أحد يقدح فيهم بما كسبت أيديهم، ولكن إذا قام أحد المصلحين والمجددين من العلماء

---

(١) الفهرس لمؤلفات شيخ الإسلام هو لناشر الطبعة الأردية ومرتبها المحدث عطاء الله الفوجياني، وليس هذا الفهرس للشيخ أبي زهرة كما يرى الفاضل صاحب المقال (المترجم).

المنصفين بنقد آراء المسلمين الفاسدة وتفنيد أقوالهم المدسوسة في الإسلام والذب عن العقيدة الصحيحة ودحض الشبهات ورد البدع والخرافات والإنكار على التقاليد والرسوم المدخولة في الإسلام من المبتدعة والمنحرفين من المسلمين، وترويج الكتاب والسنة، على الوجه الذي جاء به النبي الأمي ﷺ وهو في نقد آرائهم هذا يراعي المنهج العلمي ولا يفوت منه القواعد والأصول والعدل والإنصاف التي لا بد منها في النقد والمقارنة، ويستند في ذلك إلى الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، فيكب كثير من العلماء والعامة على هذا المجدد المصلح باللوم والشتم وإساءة الظن إليه، وكل من تصدى لمثل هذا الإصلاح لا يمكن أن يسلم من تهم هؤلاء وطعنهم.

إذا كان النقاد فيهم يشتعلون غضباً، فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية بعيداً عن هذا الانحياز، وشخصيته العلمية تستثنى من ذلك، لأن الجهود التي بذلها الشيخ في إصلاح المجتمع البشري على الصعيدين الداخلي والخارجي كانت موفقة وذات تأثير بعيدة عن الاعتداء والانحياز، كما يقول شاعر المشرق الإسلامي العلامة إقبال ما معربه:

كل من الأقارب والأغيار غير راضين مني بسبب أنني لم ألبس الحق بالباطل والزيف بالصحيح.

كانت مهمة شيخ الإسلام بهذه الجهود العلمية والعملية العودة من جديد إلى الإسلام وتعاليمه الذي كان في الصدر الأول وإزالة الستار والغبار الذي غطى وجه الإسلام بسبب مرور الأيام والدهور والقضاء على الجهل والبدع والخرافات، وهذا الأمر ليس بسهل وخاصة في زمن دخل الفساد في الحكم والسياسة، وقد تشتت سبل المسلمين عقيدة وعملاً وبلغ النفاق والخلاف فيما بينهم ذروته وجاوزوا الحد، حتى صار الخلاف سبباً في تكفير المسلمين بعضهم بعضاً فصارت المسائل الخلافية مسألة كفر وإيمان بسبب الخلاف الشخصي وكانت المذاهب الفقهية قد تصلبت إلى حد لم توجد فيها أية مرونة ولا مروءة، وكان الخروج منها مرادفاً للخروج من الإسلام، وزاد اهتمام العلماء بعلوم المنطق والفلسفة وانتهى الأمر إلى قداسة

علماء المنطق والفلسفة كما كان مذهب الحلول والاتحاد ومذهب الإشراقيين موضع تقدير واحترام لدى عامة العلماء، ولقيت هذه المذاهب قبولاً عاماً من الناس وكانت العقيدة الشركية والتوهمات والظنون الفاسدة والتصوف الزائف، والضعف في العقيدة والعمل سائداً فيهم، والإستعانة بغير الله قد احتلت مكان عقيدة التوحيد. في مثل هذه الأوضاع السيئة والخلافات الشنيعة الواقعة بين المسلمين وعلمائهم كان علماء النصارى ينالون من الإسلام ويتربصون بهم الدوائر ويشنون الغارة على الإسلام وتعاليمه.

ولم يكن بوسع أحد أن يجاهد في هذه الميادين الكثيرة كما كان شيخ الإسلام يجاهد فيها بل كان مصداقاً لقول الشاعر الفارسي ما معربه: (كل من صدق في القول وأظهر الحق من الباطل قد عرض نفسه لكثير من الأذى وزج في السجن).

وكان شيخ الإسلام يجاهد في هذه الميادين كلها ويبذل فيها قصارى جهده، وكان جبل الصبر والاستقامة في ذلك كله ولم يأل جهداً في الدفاع عن أهل الإسلام وفاق بين الأقران، وكان من الضروري أن يكون له الحساد والأعداء من الحكام والعلماء كما ينبغي أن يوجد هناك عدد كبير من الأمراء والحكام من ينوه بأعماله ويحترم شخصيته ويقدره حق قدره، وقد اشتهر صيته في الآفاق وعرف في العام والخاص، وقد أثنى عليه معاصروه من أهل العلم وبعده من العلماء إلى يومنا هذا ونوهوا بأعماله القيمة ومساعيه الجميلة في إصلاح العقيدة ورد البدع والخرافات ونذكر هنا بعض انطباعات العلماء كالنماذج:

يقول الشاه ولي الله الدهلوي مجيباً على أسئلة تلميذه المحقق معين الدين السندهي عن شخصية شيخ الإسلام العلمية والدينية: قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية وحافظ لسنة رسول الله ﷺ وآثار السلف، عارف بمعانيها اللغوية الشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله، فائق في الذكاء ذو لسن وبلاغة في الذب عن عقيدة أهل السنة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة، اللهم إلا هذه

الأمور التي ضيق عليه لأجلها وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره[1].

ويقول المحدث النواب صديق حسن خان القنوجي ثم البوفالي مثبتاً ومقراً بأن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية مجددا القرن السابع الهجري: وقد جدد الله بهما الدين الحنيف، والأعمال القيمة العظيمة التي قام بها الشيخان لم يعهد مثلها لا من السلف ولا من الخلف، وقد شحنت الكتب والدواوين والسجلات والوثائق التاريخية وكتب السير من ذكر مآثر هؤلاء[2].

ويقول العلامة الشبلي وهو يثني على ممدوحه: يوجد هناك مئات من العلماء والمجتهدين في القرون الماضية إلا أنه لا بد من توفر ثلاثة شروط للمجدد:

الأول: أن يكون على يده الثورة المفيدة في تجديد المذهب أو العلم أو السياسة.

الثاني: أن يكون هذا الفكر الذي يريد أن يبثه في الناس اجتهاداً منه ولم يأت هذا الفكر تقليداً لغيره.

الثالث: أن ينال الأذى ويتحمل المشاق في جسمه وجوارحه وأن يبلي في سبيل الحق بلاء ويكون مغامراً ولا يبالي بالمصائب والأذى التي تواجهه في نشر الحق وبث الفكر، فإن كان الشرط الثالث غير لازم للمجدد يمكن أن نعد الإمام أبا حنيفة والإمام الغزالي والإمام الرازي والشاه ولي الله الدهلوي من المجددين ولكن الذي يصدق عليه كلمة المجدد تماماً هو العلامة ابن تيمية، لأن ميزات المجدد وخصائصه وشروطه اللازمة التي

---

(١) رسائل الشيخ لولي الله.

(٢) حجج الكرامة في آثار القيامة (ص ١٣٦ ـ ١٣٧).

توجد في شخصية العلامة ابن تيمية لا توجد في غيره إلا قليلاً نادراً[1].

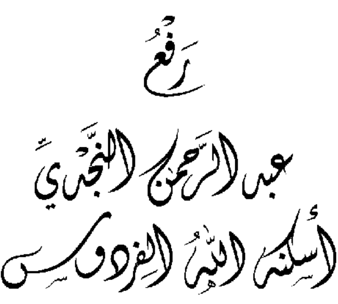
وقد أقر كبار العلماء من المفسرين والمحدثين والمحققين البارزين والأتقياء الصالحين سلفاً وخلفاً بفضل شيخ الإسلام ونبوغه وتفوقه وعبقريته في الذكاء وسعة الاطلاع والذاكرة الحادة ودقة النظر وقوة الاستنباط وملكة الاجتهاد وبما فيه من دواعي الإصلاح والتجديد والاجتهاد وأدواته وحرية الفكر والعمل وإصابة الرأي واتباع الكتاب والسنة والتمسك بهما والاعتماد عليهما وغيرها من الخصائص والميزات، كما اعترفوا بزهده وورعه وتقواه وتفانيه في الله وإخلاصه وغيرته على دين الله والحمية الدينية، وأشادوا بخدماته ووجهوا تحية تقدير واحترام إليه.

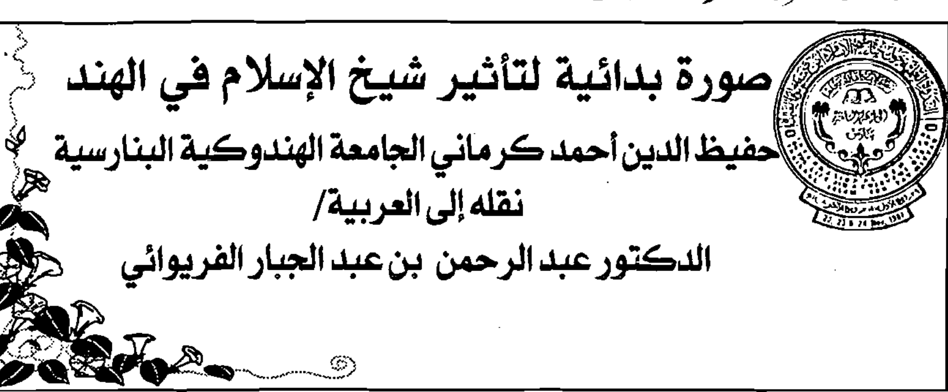
والدور الإصلاحي والتجديدي الذي لعبه شيخ الإسلام في مجالات شتى عظيم جداً ومحيط بجوانب كثيرة لا يمكن إحاطتها بهذا المقال الوجيز.

ومن الصعب جداً البحث عن الكتب المتنوعة في شتى العلوم التي ألفها الإمام الهمام والنظر في محتوياتها الثمينة والموضوعات الغالية التي تعرض لها شيخ الإسلام بما فيها من سعة العلم ودقة البحث وشمول الجوانب الكثيرة، كما يصعب على الباحثين والدارسين لكتبه تعيين درجته العلمية والأدبية.



(١) مقالات شبلي.





صورة بدائية لتأثير شيخ الإسلام في الهند

حفيظ الدين أحمد كرماني الجامعة الهندوكية البنارسية

نقله إلى العربية/

الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

إن جهود أهل التصوف وطرقهم في نشر الإسلام وترويجه في الهند لها أهمية كبيرة، إذ ما كان أهل الهند يعرفون التوحيد سابقاً، ونظراً إلى ظروف الهند الدينية ألحق هؤلاء المتصوفة بعض الأمور بالدين الإسلامي كما أبقوا بعض الأمور المحلية في خطة نشرهم للدين الإسلامي، وقد غلبت هذه العناصر الدخيلة على الإسلام بحيث مسخت تعاليم الإسلام، وشوهت الدين الحنيف ويرجع مسؤولية هذا الانحراف والتشويه إلى هؤلاء المتصوفة وأصحاب الطرق والسلاسل الذين عزلوا أنفسهم عن الناس وانفردوا عن الخلق وأحدثوا في الدين بدعاً كثيرة.

وفي جانب آخر جعل المتصوفة كل شيء في الكون مظهراً لذات الرب في ضوء تصور تجسيم الرب، ووحدة الوجود، فصار من الصعب التفريق بين الخالق والمخلوق وفهم العلاقة بينهما.

وقد شعر الناس بمفاسد هذه الأفكار، وكان الشيخ علي الهجويري (ت ١٠٨٦م) أحد كبار الصوفية قد أحس بنفوذ الطرق المبتدعة غير الشرعية والمساوىء المتسربة إلى الإسلام عن طريق التصوف، وحاول القضاء عليها إلا أنه ما نجح لوجود المنافاة بين طريقته وأصوله.

وتشهد كتب تاريخ الهند أن المسلمين كانوا يتحاربون فيما بينهم باسم

المذاهب والفرق من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي قبل الثورة الإصلاحية التي قادها شيخ الإسلام ابن تيمية.

وكانت الشوافع والأحناف تحاول كل طائفة أن تتفوق على الأخرى عند هجوم محمد الغوري على الهند (١١٥٧ ـ ١٢٠٦) وبلغ الأمر إلى أن حصلت عوائق وعراقيل في تبوأ السلطان معز الدين عرش الدولة، لأن السلطان معز الدين كان شافعي المذهب (كما في الطبقات الناصرية) وكانت للحنفية في بلاط الدولة شوكة وقوة، فاضطر السلطان إلى ترك المذهب الشافعي، ودخل في المذهب الحنفي، فأعلن لأجل تبوئه على عرش الدولة أنه حنفي المذهب، ثم رجع إلى المذهب الشافعي بعد تمكنه من الدولة، وهذا يدل على أهمية المذاهب والمسالك في الهند مقابل الدين والشريعة.

ثم بعد فترة ستين سنة قويت شوكة القرامطة والملاحدة على مسلمي الهند، إذ نشأت القرامطة في بلاد العراق سنة ٨٦٩م ولم يكن لهم في الهند أثر يذكر، فكان أتباعهم منتشرين في البلاد، إلا أنهم اجتمعوا في عصر الملكة رضية سلطانة من مناطق مختلفة وخاصة من بلاد غجرات وفي يوم الجمعة بدأوا بقتل الناس وفتكهم في جامع دلهي، فقتلوا مئات المسلمين، ونظراً إلى كثرة عددهم اضطرت الحكومة أن تستعين بالجيش للقضاء عليهم، فقتلوا وشردوا.

وكلما كثرت الفرق والمسالك كثر المشايخ الصوفية والأتباع والمريدون، وكان في أول الأمر السجود أمام شيخ الطريقة لتوطيد الطرق الصوفية، وكسب العطف للشيخ، ثم استحكمت هذه العادة، وجعلها المشايخ أمراً ضرورياً لقداسة أنفسهم حتى اعتقدوا في أنفسهم أنهم يسجد لهم، فجاء ناصر الدين سراج الدهلوي وقضى على هذه الظاهرة الشنيعة.

ولما كان شيخ الإسلام ابن تيمية مشغولاً في أعمال الإصلاح والتجديد في بغداد والبلاد الإسلامية كانت الهند تحت إمرة علاء الدين الخلجي (١٢٦٩ ـ ١٣١٦م) الذي انخلع عن جميع الأمور الدينية، وكان عدواً لدوداً للعلماء والمشايخ، وكان لا يحب تدخل الدين في شؤون

الحكومة وكان السلطان غياث الدين تغلق من سلاطين التغالقة متأثراً بالغزالي غاية التأثر، إلا أن شخصاً (يدعى عبيد المنطقي) من جلسائه نفره من الشريعة، وكذلك لم يهتم خليفته محمد تغلق الدين، وسلب حق الاجتهاد من العلماء وكان يقضي في جميع القضايا مراعياً فيها المصالح الحكومية.

وقد توفي شيخ الإسلام ابن تيمية في السنة الثالثة من عصر محمد تغلق وفي نفس السنة توجه الشيخ عبد العزيز الردبيلي الإيراني تلميذ شيخ الإسلام إلى محمد تغلق نيابة عن الخليفة العباسي، وقد أكرم السلطان مثواه حتى قبل قدميه نظراً إلى المصالح السياسية إلا أنه لم يتنازل عن موقفه.

وكان الشيخ ناصر الدين سراج الدهلوي (أحد كبار الصوفية) من مؤيدي شيخ الإسلام وناشري أفكاره، فآذاه السلطان محمد تغلق كثيراً. وأكرهه على خدمته، ورفع ملابسه وأحذيته، وأهانه وامتحنه فقدم إليه الطعام في آنية الذهب، فأخذ الشيخ منه بعض الطعام ثم وضعه في يده وأكله فندم السلطان.

فنظراً إلى وضع ذلك العصر ومزاج السلطان لم يتمكن الشيخ عبد العزيز الأردبيلي من أن يجهر بالدعوة والإصلاح والتبليغ، وقد توسع المؤرخ البرني في تاريخ فيروز شاهي بذكر ما أصاب الإسلام في هذا العهد من نكبات، وما تسربت إلى صفوف المسلمين من أمور شنيعة.

ثم تبوأ فيروز شاه تغلق على عرش الحكومة بعد وفاة محمد بن تغلق، والذي نلاحظ من فكر السلطان في الأمور الدينية ومن رجوعه من الطريقة إلى الشريعة أن الشيخ عبد العزيز الأردبيلي كان مشغولاً في نشر أفكار ابن تيمية الإصلاحية والتجديدية.

ونظراً إلى المصالح الحكومية فقد اختار السلطان في أول أمره طريقة الحكم السائد في البلاد، فشد الرحال فور تبوئه على عرش الحكومة إلى قبور الشيخ جمال الدين الهانسوي، والشيخ فريد الدين العطار، والشيخ نظام الدين الأولياء، وقرر الوظائف والرواتب للتكايا والخانقاهات، وباشر جميع الأعمال التي كان يمنع منها شيخ الإسلام.

لكننا نرى أنه بعد فترة من الزمن رجع إلى مبادىء الإسلام، وتقيد بها وقد صرح في الفتوحات الفيروز الشاهية ببدعية بعض الأعمال التي مارس معظمها فمثلاً يقول: وأمر لا يجوز فعله ويفعله كثير من الناس أن النسوة يركبن على الجواميس، والأسرة ويذهبن لزيارة القبور، وقد يحضر كثير منهن ماشيات.

كما يذم كثيراً من هؤلاء الذين يصلون إلى مراتب في الطريقة ويتخلون عن الشريعة فيقول: إن فرقة تدعي التجرد والتجريد الإلهي، وتضلل الناس، ويقول في شخص يدعى بأحمد البهاري أحد المنتسبين إلى هذه الفرق المصطنعة: إنه يدعي الألوهية، ويعتقدها فيه بعض الناس.

وفي عصره أعلن ركن الدين بالمهدوية، كما ادعى شخص آخر بالألوهية وقال لأتباعه ومريديه: إني إذا أقول هذا، فصدقوني وقولوا بأني إلهكم.

هذه هي أحوال الهند الدينية في ذلك العصر التي ذكرتها باختصار.

فلما اشتدت البدع وفشت الأمور الشنيعة في المجتمع فضاق بها ذرع علماء الحق، فحصل ما حصل، وقد صرح بعض المحققين والعلماء أن حركة الإصلاح والتجديد في الهند لم تتأثر بحركة ابن تيمية الإصلاحية والتجديدية، والذي حصل كان مقتضى ظروف العصر، إلا أني أقول: إن الحركات الإصلاحية تكون وليدة العصر الذي يقتضي تغيير الأحوال إلا أن الأفكار والنظريات والأسس والمبادىء للحركة تستمد من الحركات الماضية والتجارب السابقة.

انتشرت دعوة شيخ الإسلام في الهند بجهود الشيخ ناصر الدين سراج الدهلوي وشرف الدين يحيى المنيري.

ولم يكن للتصوف وطرقه في دعوة شيخ الإسلام أي مكان، وكان ناصر الدين على هذا، فإنه كان خليفة نظام الدين الأولياء، لكنه بدوره لم يقرر خليفته أحداً عند وفاته، وأرشد أصحابه وتلاميذه أن يدفنوا معه الخرقة

والعصا وغيرهما من آثار الطرقية وهكذا سد باب الطرقية وبالتالي قضى على كثير من البدع والخرافات.

وهكذا كان ناصر الدين على رأي شيخ الإسلام في مسألة وحدة الوجود، فما كان يقول بوحدة الخالق والمخلوق.

وكان يعتقد المتصوفة أن الذي يصل إلى الله وآلائه عن طريق البيعة والطرقية فإنه لا يحتاج أن يتقيد بظاهر الشرع كإقامة الصلاة، وأداء الصيام، فكان الشيخ ناصر الدين شديداً في الرد على هؤلاء الضالين كما كان شيخ الإسلام ابن تيمية.

ونلاحظ تأثير الغزالي في ملفوظات الشيخ شرف الدين يحيى المنيري إلا أنه كان يرجح الشريعة على الطريقة دائماً وأبداً.

هذه هي صورة بدائية لتأثير حركة شيخ الإسلام ابن تيمية الإصلاحية والتجديدية على الهند، قدمتها إليكم باختصار، والله ولي التوفيق.



عبد العزيز الأردبيلي تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ووروده في الهند

للدكتور شريف حسين القاسمي
قسم اللغة الفارسية بجامعة دلهي
نقله إلى العربية/
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

ولد شيخ الإسلام في أواخر عصر السلطان ناصر الدين محمود الشاه الأول الذي تبوأ على عرش الدولة في ٢٣ محرم الحرام سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ثم جاء عهد السلطان غياث الدين بلبن (٦٤٤ ـ ٦٨٦هـ/ ١٢٦٦ ـ ١٢٨٧) الذي وصفه ضياء الدين البرني صاحب تاريخ فيروز شاهي بخير الأعصار، إذ كان العالم الإسلامي مهدداً بغزو التتر وخائفاً منه، وكانت الحياة فيه من المحالات ولم تكن أي حكومة سوى حكومة غياث الدين بلبن مأمونة ومصونة من غزو التتار، التي آوت اللاجئين إليها من خوف التتر، وأنشأ محلات كثيرة، وقد أنشأت خمس عشرة حارة في دهلي مثل الحارة الدمشقية، والحارة الديلمية، والحارة السمرقندية، والحارة الجنكيزية، والحارة الرومية، والحارة اليمنية وغيرها من الحارات.

وكانت كثرة كاثرة من العلماء والمشايخ في هؤلاء المهاجرين اللاجئين إلى بلاد الهند، وقد ذكر المؤرخ ضياء الدين البرني فهرساً طويلاً من هؤلاء الأعلام كالشيخ برهان الدين البلخي، والشيخ نجم الدين الدمشقي، والشيخ شرف الدين الواجي، والقاضي رفيع الدين الكازروني، والشيخ سراج الدين

السجزي، والشيخ منهاج الدين الجرجاني، والقاضي جلال الدين الكاشاني وغيرهم.

وقد صرح المؤرخون أن السلطان غياث الدين كان يراعي الأوامر والنواهي إلا أن الذي كان يظهر من سلوكه أنه كان يتقيدٌ بهذا ما لم تتصادم هذه الشرائع بالأمور السياسية والمسائل الحكومية، وأما إذا تعارضت هذه بالمصالح السياسية والمسائل الحكومية، اختلفت طريقته، ولعل هذا ما أشار إليه الشيخ نظام الدين في الطبقات الأكبرية: إنه كان يقدم المصالح الحكومية على غيرها.

توفي شيخ الإسلام في ٢٢ ذي الحجة عام ٧٢٨هـ وعمره سبع وستون سنة، وقد تبوأ عرش الهند في حياته عدة سلاطين، وكان معظم هؤلاء يراعي الشريعة المحمدية ويقدرها إلا أنهم كانوا يرجحون المصالح الحكومية على الأمور الشرعية، وما كان معز الدين كيقباد حفيد السلطان غياث الدين بلبن يراعي الشريعة المحمدية.

وإذا صرفنا النظر إلى تاريخ الهند الإسلامي اتضح لنا جلياً أن العلماء والمشايخ كانوا يتمنون أن يصلوا إلى مناصب الحكومة كقاضي القضاء. وقاضي المعسكر، وصدر الصدور، ومحتسب الدولة، وهذا الذي تسبب في ازدهار الفقه، وكثرة الفقهاء، ولم تتجه النفوس إلى علوم الكتاب والسنة والتفسير التي كان ينبغي لهم أن يتجهوا إليها، فألفت كتب عديدة في الفقه بينما لم نجد شيئاً يذكر في علوم الكتاب والسنة والتفسير.

وإليك قصة تشير إلى هذا الوضع المؤسف وتدل عليه، ورد إلى الهند العالم المصري الشهير المحدث شمس الدين ترك في عهد علاء الدين الخلجي ٦٩٥/ ١٢٩٦م - ٧١٥ هـ/ ١٣١٦م)، ومعه أربعمائة كتاب في الحديث وعلومه، ولما وصل إلى مدينة ملتان سمع أن سلطان الهند لا يهتم بالصلاة والصيام، وبلغ الأمر أنه لا يصلي الجمعة، فتأسف كثيراً، وتوقف عن السفر إلى دهلي، وبعث إلى السلطان رسالة شرح فيها علم الحديث، وكتب في رسالة أخرى باللغة الفارسية ما معربه: قصدت من مصر إلى

السلطان ومدينة دهلي، وكان قصدي من هذا تدريس علم الحديث في دهلي، وأنهى المسلمين عن تقليد آراء الفقهاء الذين لا أمانة لهم ولا ديانة، إلا أني لما سمعت أن السلطان لا يصلي ولا يحضر الجمعة، فإذا أنا راجع من ملتان، وقد شكا الشيخ أيضاً أن الناس لا يعتنون بحديث النبي ﷺ في مدينة دهلي، ويعتمدون على أقوال العلماء، والعجب عدم إنهيار المدينة التي تعمل بالفقه وتترك السنة، فلماذا لا تنزل عليها المصائب من السماء وهكذا شكا الشيخ أن علماء السوء يجلسون في المساجد ويصدرون الفتاوى مقابل الرشوة، ولا يوصل القاضي أخبار خيانتهم إلى السلطان (تاريخ فيروز شاهي ٢٩٧ ـ ٢٩٩).

وهكذا كانت الحال في عهد غياث الدين تغلق (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م - ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) فأبدى الشيخ نظام الملقب بالأولياء أسفه على ظهور الفقهاء الذي لا يستعدون لسماع الأحاديث، وقد أعدوا محضراً حول السماع في هذا العهد، وحضر نظام الدين لوحده في مجلس السلطان، وجرى الحديث حول مسألة السماع، وقد ألقى الشيخ حسان الدين خطبة قوية في مخالفة السماع، وانتهى النزاع بتدخل الشيخ علم الدين (حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني) في الموضوع، فتعجب الشيخ نظام الدين من هذا الوضع أنهم رفضوا سماع الأحاديث الصحيحة في محل النزاع فإنهم يصرحون بجرأة تامة أن الفقه مقدم على الحديث في بلدنا، وأن هذا الحديث مما يستدل به الشافعي وهو عدو علمائنا، فلن نسمع مثل هذه الأحاديث، فإني ما رأيت عالماً، ولا سمعت أحداً منهم ذكر له أحاديث صحيحة، وهو يصرح علناً بأنه لن يسمع، أو لا يعلم هذا، ما هذا العصر؟ فالعجب كيف تبقى هذه المدينة سالمة من الدمار والهلاك بعد هذه المكابرة وإظهار العداوة والحسد، فهي جديرة بأن تدك، وتهلك، فإذا سمع السلطان والأمراء وعامة الناس من قضاة البلدة وعلمائها أنه لا يعمل بالحديث في هذه المدينة، فكيف تقوى عقيدتهم على الحديث النبوي الشريف؟ (سير الأولياء ٥٢٤ ـ ٥٢٨).

ففي هذا الجو توجه الشيخ الفقير عبد العزيز الأردبيلي تلميذ شيخ

الإسلام ابن تيمية إلى دهلي في عهد السلطان محمد بن تغلق (٧٣٥هـ/ ١٣٢٥م ـ ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) إلا أننا لم نعلم سنة وروده إلى دهلي بالتحديد.

وذكر ابن بطوطة في رحلته إلى دهلي ورود الأردبيلي، ومن المعلوم أن ابن بطوطة كان قاضي القضاة في دهلي عشر سنوات، وبعث إلى الصين سفيراً لسلطان الهند عام ٧٤٣هـ/ ١٢٤٢م فعلمنا أن ورود الأردبيلي كان في فترة ١٣٢٥م ـ ١٣٤٢هـ، وإذا قيل: إن ورود الأردبيلي بدهلي كان في أيام إقامة ابن بطوطة فيها فيمكن أن يقال إن وروده كان في أثناء إقامة ابن بطوطة ٧٣٤هـ ـ ٧٤٣هـ.

وكان ابن بطوطة مطلعاً على مآثر شيخ الإسلام، وكان يمدحه، فإنه كان عالماً وفقيهاً، وكان رأيه فيه ناتجاً عن خبرة وعلم وكان من المعترفين بفضل ابن تيمية إلى حد أنه حينما رجع إلى وطنه بعد ٢٤ سنة قال فيه: وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون إلا أن في عقله شيئاً، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم (٩٥).

وقد ذكر ابن بطوطة الفقير عبد العزيز الأردبيلي في رحلته مرتين فقال: وكان عبد العزيز هذا فقيهاً محدثاً، قرأ بدمشق على تقي الدين ابن تيمية، وبرهان الدين ابن البركح، وجمال الدين المزي، وشمس الدين الذهبي وغيرهم، ثم قدم على السلطان (محمد شاه تغلق سلطان الهند) فأحسن إليه وأكرمه. (٤٥٦).

وقال: وفد عليه الفقير عبد العزيز الأردبيلي، وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق، فتفقه فيه، فجعل مرتبه مائة دينار من الفضة في اليوم، (يساوي خمسة وعشرين ديناراً من الذهب) وحضر مجلسه يوماً، فسأله السلطان عن أحاديث، فسرد له أحاديث كثيرة في ذلك المعنى أي في فضل العباس وابنه رضي الله عنهما وشيئاً من مآثر الخلفاء، فأعجب ذلك السلطان لحبه في بني العباس، وفي موضع آخر: فأعجبه حفظه، وحلف له برأسه

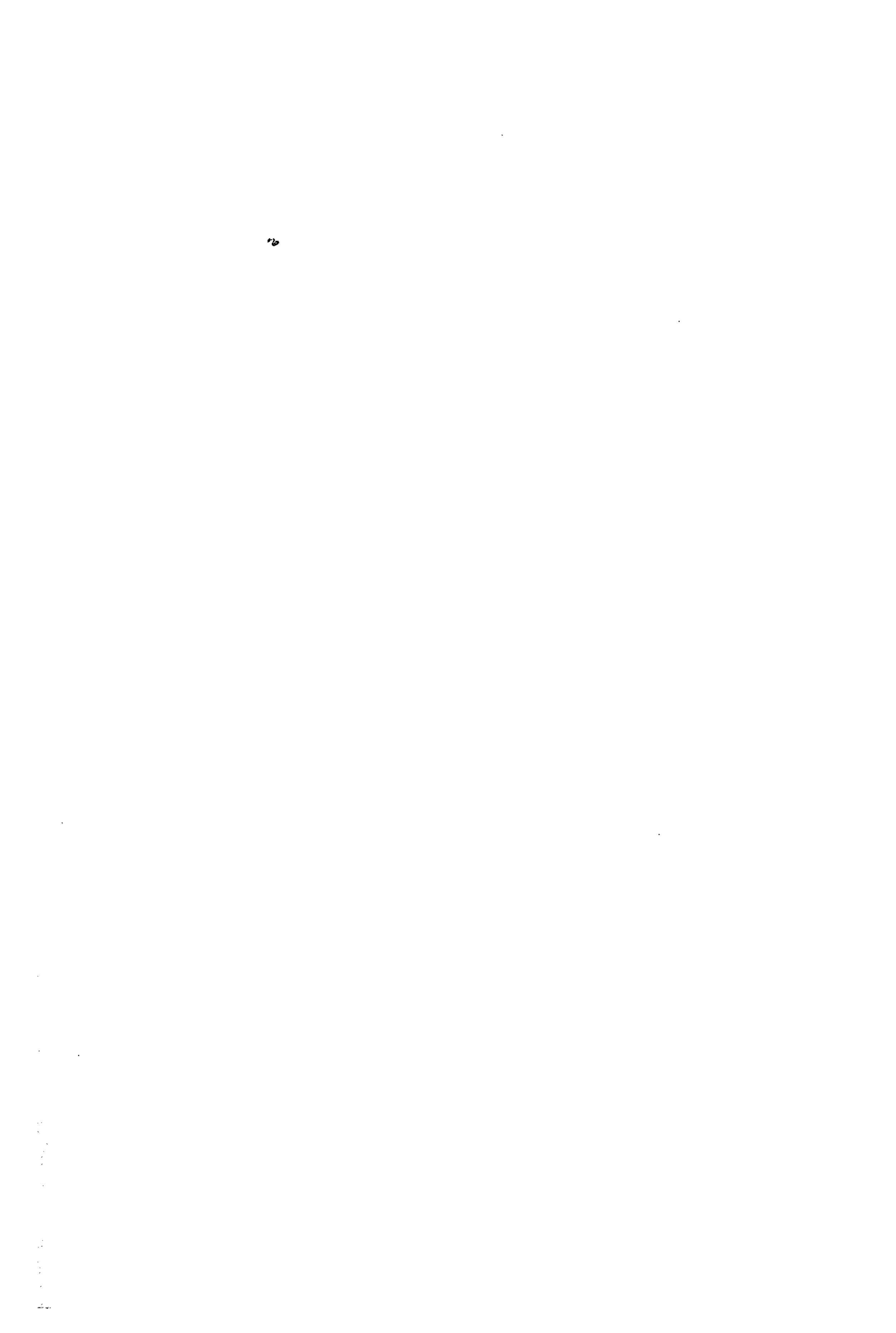
أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه، ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه، وأمر بإحضار صينية من ذهب، وهي مثل الطيفور الصغير، وأمر أن يأتي فيها ألف دينار من الذهب، وأخذها السلطان بيده فصبها عليه، وقال: هي لك مع الصينية (٢١٧).

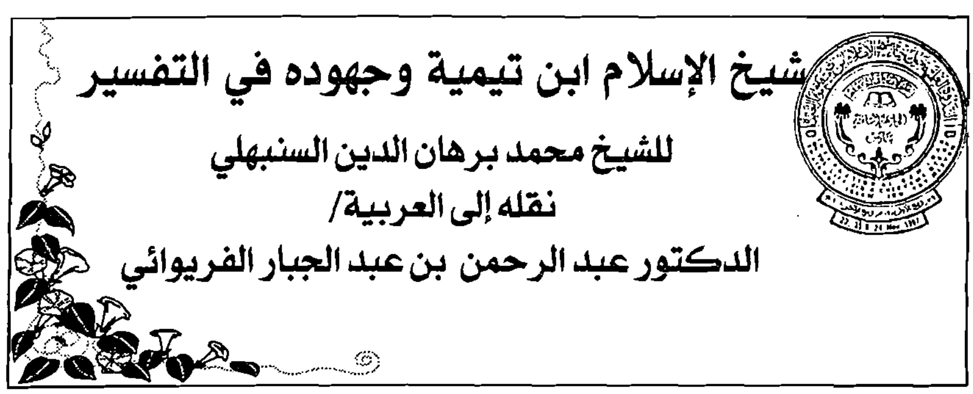
والملك الذي أكرم الفقير عبد العزيز الأردبيلي هذا الإكرام كان لا بد له أن يهتم بأفكاره فإنه كان رجلاً عقلانياً، وقد قال فيه عبد الحق الدهلوي: إنه جعل النقل تابعاً للعقل والسمع فرع المعقول.

ومع هذا كان شديداً في إقامة الشرع، وكان يتقيد بمبادىء الإسلام، وكان يحب النبي ﷺ، وقد قصد حج بيت الله الحرام، وكان مبتعداً عن كثير من المعاصي والذنوب التي كان معظم السلاطين والحكام غارقين فيها، وكان شديداً في إقامة الصلاة آمراً بملازمتها في الجماعات يعاقب على من تركها أشد العقاب ومنع الناس من شرب الخمور.

وقد حاول السلطان القضاء على تصور الولاية عند أهل التصوف ونظام الخانقاهات والتكايا، وهذا يشبه إلى حد ما فِكْر شيخ الإسلام ابن تيمية الديني، وجهوده، وكان يعد المبالغة في تعظيم العلماء نوعاً من الكفر، وكان يخالف ملابس الصوفية، لم كان متأثراً بآراء شيخ الإسلام في هذه الأمور، لا يمكن الاطلاع عليها لعدم وجود المراجع بهذا الصدد، والأغلب أنه تأثر بحركة ابن تيمية الإصلاحية عن طريق تلميذه الأردبيلي.







شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في التفسير

للشيخ محمد برهان الدين السنبهلي
نقله إلى العربية/
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال الصادق المصدوق ﷺ: (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) وتاريخ الدعوة والإصلاح أكبر شاهد على هذا الحديث الشريف من وجود رجال الدعوة والإصلاح في مختلف الأزمان الذين نفع الله بهم العباد والبلاد، ومن هؤلاء الأعلام شيخ الإسلام ابن تيمية الذي له جهود متضافرة ومتنوعة في مختلف المجالات، والذي كان له فضل السبق والتقدم على كثير من المصلحين القدامى والجدد لما لجهوده المتنوعة من تأثير عظيم، وإني اخترت هذا الموضوع لألقي الضوء عليه من موضوعات المؤتمر، إن جهود شيخ الإسلام في التفسير لها أهميتها العلمية العظيمة وقد نشرت عدة مجموعات من تفسيره، كما جمعت مادة التفسير في فتاويه من ١٣ إلى ١٧.

وقد نوه بهذا الجانب أهل العلم الذين تناولوا سيرته وترجموا له في ثنايا أبحاثهم ومؤلفاتهم.

يقول الذهبي (ت ٧٤٨هـ): كان آية في الذكاء... وتقدم في التفسير... (وقد لقبه مع بعض العلماء الآخرين بحبر القرآن) وقال: وأما

التفسير فمسلم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن وقت إقامة الدليل بها على المسألة، قوة عجيبة.. ولفرط إمامته في التفسير، وعظمة اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالاً عديدة.

ويقول الأستاذ أبو زهرة: لقد قال المؤرخون ناقلين عن تلاميذه أنه جمع قدراً كبيراً في تفسير القرآن الكريم، وقالوا: إنه يقع في أكثر من ثلاثين مجلداً.

وقد يظهر شغفه بالتفسير واهتمامه بهذا الفن بقوله: ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير.

ومع هذا الصبر والجلد والنبوغ كان يستعين بالله في فهم كتاب الله والتدبر في آياته فكان يدعو بقوله: يا معلم آدم وإبراهيم علمني.

وكان يبالغ في التضرع إلى الله، ويخرج إلى المساجد المهجورة كما يقول رحمه الله عن نفسه: وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني.

وذكر البزار نقلاً عن شيخ لشيخ الإسلام. قال لي أبوه وهو صبي (أي شيخ الإسلام) أحب إليك أن توصيه وتعده بأنك إن لم تنقطع عن القراءة والتلقين أدفع إليك كل شهر أربعين درهماً، قال: ودفع إلي أربعين درهماً، وقال: أعطه إياها، فإنه صغير، وربما يفرح فيزداد حرصه في الاشتغال بحفظه القرآن، ودرسه، وقل له: لك في كل شهر مثلها، فامتنع من قبولها، وقال: يا سيدي، إني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ على القرآن أجراً، فلم يأخذها (الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ٤٥).

لم ير شيخ الإسلام من المصلحة أن يفسر جميع سور القرآن، إلا أن المادة العلمية التي وصلت إلينا في هذا الباب، تكفي لإثبات مكانته العظيمة وتبحره العجيب في هذا الفن.

أما منهجه وطريقته في دراسة القرآن وتفسيره فقد بين صاحبه الحافظ عمر بن علي البزار فقال: ولقد كان إذا قرىء في مجلسه آيات من القرآن

العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجملته، والدرس برمته، وهو في تفسير بعض آية منها... يفعل ذلك بديهة... وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضى الزمن المعتاد لأورد أشياء أخرى في معنى ما هو من التفسير... ولقد أملى في تفسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مجلداً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ نحو خمس وثلاثين كراسة.

وقال: ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلداً (الأعلام العلية ٢٠ ـ ٢١).

وقد أوضح الأستاذ أبو زهرة رأيه الدقيق في إفادات شيخ الإسلام التفسيرية فيقول: فإن الذي أثر عنه نماذج جيدة للتفسير السلفي، قد اختلط بعمق النظر وسلامة الذوق، من غير أن يطغى النظر على الأثر (٥١٠).

وقد بسط القول في منهج تفسير شيخ الإسلام، سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي فقال:

وكذلك أسلوب تفسيره يتسم بارتباطه مع الحياة، إنه يطبق الآيات القرآنية على ما حوله من الحياة والإنسان، ويستعرض الحياة من وجهة نظره، ويتناول معاصريه وطبقات الأمة المختلفة بالاحتساب، إنه يضع الأصبع في مواطن الانحراف عن هذه الآيات والحقائق ويخبر بنتائج ذلك، إن ميزة الحيوية هذه منحت مؤلفاته حياة طويلة وتأثيراً عميقاً وروعة عجيبة قد تندر في مؤلفات غيره، وقد تكون مفقودة في رجال الفكر (٢/ ١١٣).

وقد ذكر سماحته ميزات أخرى لمنهج شيخ الإسلام التصنيفي، ومما قال فيه: إنه يجمع معلومات ومواداً في كل موضوع يطرقه، في عشرات من الكتب ومئات من الصفحات.

وذكر ما يترتب على هذا الأسلوب فقال: وطالما يفلت منه طرف البحث في تأييد كلامه بالمواد والمعلومات، حتى إن الدارس يضل في خضم الأقوال والشواهد، ويتعسر عليه التغلب على البحث، ولكن على الرغم من ذلك لا يستهان بجانب الإفادة في كتبه وهو أنها مخزن أقوال

المعاصرين وآرائهم، وموسوعة صغيرة في مواضيعها، إنه حفظ كثيراً من المواد والمعلومات القديمة وكثيراً من الآراء والأفكار في كتبه، وصانها من الضياع، وهي منة علمية كبرى لا تنسى من ابن تيمية (٢/ ١١٢).

ويمكن أن يعبر عن هذا الأسلوب أنه انتقال من موضوع إلى موضوع آخر ومن معان إلى أخرى لمناسبة ما، وبدء بحث جديد بأدنى مناسبة، إن السبب الكبير لذلك إنما هو حدة ذهنه وفرط ذكائه ووفرة علمه وحماسة طبيعته، ونمثل لذلك الأسلوب من تفسير سورة الإخلاص حيث فسر قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ فأبدع فيه أيما إبداع، حيث أودع فيه معلومات كثيرة ومتنوعة مع تجلية المباحث الدقيقة والخفية وتعيين مظاهر نفي المثلية. فقال:

لما حج النبي ﷺ استلم الركنين اليمانيين، ولم يستلم الشاميين لأنهما لم يبنيا على قواعد إبراهيم... فدل ذلك على أن التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين، وتقبيل شيء منها ـ غير الحجر الأسود ـ ليس بسنة.. فمعلوم أن جميع المساجد حرمتها دون حرمة الكعبة، وأن مقام إبراهيم بالشام وغيرها وسائر مقامات الأنبياء دون المقام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فعلم أن سائر المقامات لا تقصد للصلاة فيها كالحج إلى سائر المشاهد، ولا يتمسح بها، ولا يقبل شيء من مقامات الأنبياء... ولا يقبل وجه الأرض إلا الحجر الأسود (تفسير سورة الإخلاص ط. ١/ الحسينية بمصر (ص ١٢٧) ومجموع الفتاوى له (١٧/ ٤٧٦).

ثم بسط القول في شعائر الكفار، وذكر في أثناء بحثه حكم أرض الخراج، وأقوال فقهاء الأمة، وحكم أراضي أخرى وخاصة المناطق التي فتحها المسلمون عنوة وبعد حرب الكفار، كما بين أحكام الشرع في أرض مكة وعمائرها بكل شرح وتفصيل واستشهد بآية سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ فقال: وهذه ـ أي العلة ـ التي اختصت بها مكة دون سائر الأمصار، فإن الله أوجب حجها على جميع الناس وشرع اعتمارها

دائماً، فجعلها مشتركة بين جميع عباده كما قال تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ ولهذا كانت (منى) وغيرها من المشاعر من سبق إلى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه كالمساجد، ومكة نفسها من سبق إلى مكان فهو أحق به، والإنسان أحق بمساكنه ما دام محتاجاً إليها وما استغنى عنه من المنافع فعليه بذله، بلا عوض لغيره من الحجيج وغيرهم ولهذا كان في إجارة دورها وبيع رباعها ثلاثة أقوال: قيل: لا يجوز، لا هذا ولا هذا، وقيل: يجوز الأمران والصحيح أنه يجوز بيع رباعها ولا يجوز إجارتها، وعلى هذا تدل الآثار المنقولة في ذلك عن النبي ﷺ، وعن الصحابة رضي الله عنهم (١٣٤).

ثم رجع إلى موضوع السورة وهو توحيد الله عز وجل ونفي المثلية عنه فذكر بعض المباحث الأصولية مثل المشاهد وتعظيمها، ورأي الشرع فيها، ثم ذكر الفرق بين بناء المساجد، وعمارتها، وبين أحكامها وقال: عمارتها بالعبادة فيها كالصلاة... وأما نفس البناء فيجوز أن يبنيها البر والفاجر والمسلم والكافر وفي أثناء ذكره للمشاهد والمقابر وتعظيمها كشف اللثام عن بعض حقائق التاريخ الخفية وراءه التي كانت خافية على عامة الناس وعلى أكثر الخواص خاصة وكانوا لأجل جهلهم بها وقعوا في بعض الأوهام، قال رحمه الله: أهل المشاهد كثير من مشاهدهم ـ أو أكثرها ـ كذب فإن الشرك مقرون بالكذب في كتاب الله كثيراً قال الله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.

ثم ذكر أمثلة لذلك فقال: وذلك كالمشهد الذي بني بالقاهرة على رأس الحسين وهو كذب باتفاق أهل العلم... وقد قيل: إنه كان رأس راهب... وكذلك مشهد علي رضي الله عنه... إنما هو قبر المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وعلي رضي الله عنه إنما دفن في قصر الإمارة بالكوفة، ودفن معاوية بقصر الإمارة بدمشق ودفن عمرو بن العاص بقصر الإمارة بمصر خوفاً عليهم إذا دفنوا في المقابر البارزة أن ينبشهم الخوارج والمارقون، فإن الخوارج تعاهدوا على قتل الثلاثة) (١٣٨ ـ ١٣٩).

ومن ينكر أهمية هذه الاكتشافات العلمية؟، لكن ألفت نظر القراء إلى هذه الفوائد البديعة والإفادات النادرة التي ساقها شيخ الإسلام في هذه المناسبة، هل يدور بخلد أحد أهل العلم أن يسوق جميع هذه الإفادات تحت هذه الآية.

وقد تعرض شيخ الإسلام للمباحث الكلامية بتوسع كبير حسب عادته ودعم موقفه بأدلة من الكتاب والسنة، ومن أهم هذه المباحث مسألة الصفات التي لم يقع الخلاف فيها بين أهل الحق وأهل الباطل فحسب بل تطرق ذلك إلى طوائف من المنتسبين إلى السنة وخاصة لدى المتأخرين منهم كما هو مشهور عنهم، فلست بحاجة إلى سوق العبارات في المسألة، ومن هذه المسائل مسألة تأويل الآيات المتشابهات، وخلاف العلماء في تأويل قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ عند من وقف عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وشيخ الإسلام من العلماء المفسرين الذين ذهبوا إلى أنه يمكن لأهل العلم تأويل المتشابهات ودعم قوله بالأدلة، ومن أراد فليرجع إلى مجموع فتاواه (١٣/ ٢٧٣)، وليس مقصودي المحاكمة بين الطائفتين، وليس هذا منصبي، بل المقصود إلقاء الضوء على جودة طبع شيخ الإسلام وسرعة انتقاله، واستيعابه للمسائل.

ولعل ما مضى من الكلام يستدل به على مهارة شيخ الإسلام في فن التفسير وسعة نظره وقوة استنباطه وجودة طبعه، ولكن الذي أرى أبدع ما ترك شيخ الإسلام في فن التفسير وأجوده هو رسالته المختصرة القيمة في مقدمة أصول التفسير التي لم يوجد لها نظير في بابه في المكتبة الإسلامية، ثم تتابعت الرسائل والمؤلفات حول الموضوع فاستفاد أصحابها من أفكار شيخ الإسلام في التفسير وأصوله من خلال هذه المقدمة مثل كتاب البرهان لبدر الدين محمد الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، والاتقان للسيوطي (ت ٩١١هـ) والفوز الكبير لولي الله الدهلوي (١١٧٦هـ)، ويبدو أن الدهلوي اعتمد على ابن تيمية في مبحث شأن نزول الآيات.

كما تتميز هذه الرسالة عن ما ألف في موضوع أصول التفسير أيضاً في نفس مؤلفات شيخ الإسلام لما تتسم من تركيز واختصار وبراعة في أسلوب التأليف المنهجي، وكان من حقها أن نتكلم عليها بإسهاب، ونفصل القول في مزاياها، ولكن لا يمكن هذا في هذه المناسبة فنكتفي ببعض الإشارات.

ألف شيخ الإسلام هذه الرسالة على طلب أحد أصحابه كما صرح به في أول الرسالة وقد بيّن هدفه بنفسه فقال: فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه، والتمييز ـ في منقول ذلك ومعقوله ـ بين الحق وأنواع الأباطيل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل.

ثم يذكر حاجة حقيقية لمثل هذا التأليف فيقول: فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح، والحق المبين (٣٣ وط/ دار القرآن الكريم ـ الكويت) ثم اكتفى بذكر القواعد الأساسية لفهم القرآن الكريم التي تعين القارىء على فهم كتاب الله والتفريق بين الحق والباطل، والغث والسمين.

ولا يمكن سرد هذه القواعد الكلية لفهم القرآن لكن نذكر هنا بعض القواعد المهمة فمثلاً يقول في مسألة تكرار نزول الآيات: وقد يجيء... كثيراً قولهم: (هذه الآية نزلت في كذا) لا سيما إن كان المذكور شخصاً (ثم ذكر أمثلته من كتب السنة) وقال: إن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم... هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق.. فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وإنما... تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه... فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته... ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية (٤٦ ـ ٤٧).

وقد ذكر شيخ الإسلام أن من أهم هذه القواعد التفسيرية وأحسنها تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسير القرآن بالسنة وقد دعمهما بأدلة من الكتاب والسنة، ثم ذكر بعدهما تفسير القرآن بأقوال الصحابة وقال: فإنهم أدرى

بذلك لما شاهدوا من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة ـ الخلفاء الراشدين ـ والأئمة المهديين وعبد الله بن مسعود. . .

ونقل عن تفسير الطبري قول عبد الله بن مسعود: والذي لا إلٰه غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت. ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته.

ويقول بعد ذلك: ومنهم حبر الأمة البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل.

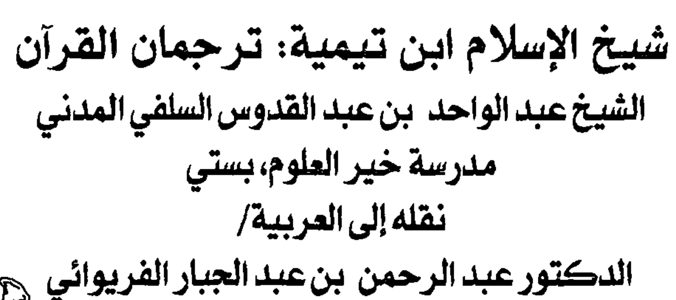
ثم ذكر بعض أقوال التابعين في الثناء عليه وقال: وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف علي عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة ـ وفي رواية سورة النور ـ ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا (٩٢).

وهذا المبحث وحده يحتاج أن يشرح في تأليف مستقل.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وصلَّى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.







شيخ الإسلام ابن تيمية: ترجمان القرآن

الشيخ عبد الواحد بن عبد القدوس السلفي المدني
مدرسة خير العلوم، بستي
نقله إلى العربية/
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

إن الغزو الفكري الذي ابتلي به المسلمون في صورة الأفكار اليونانية والحضارات الرومانية والفارسية قد تأثر به المجتمع الإسلامي كما كان له آثار سيئة على العلوم الدينية والثقافية الإسلامية، وحينما نسرح النظر في كتب التفسير وحياة مؤلفيها يتبين لنا أن معظم أهل التفسير بعد القرون المشهود لها بالخير قد تأثروا بالمناهج الكلامية والفلسفية وهم كانوا يمثلون الفكر الهابط، وكان هذا نتيجة لانحطاط فكرهم وثقافتهم. فلما لم يتمكنوا من أن يسايروا القرآن وأسلوبه الرفيع، حاولوا أن يجروه إلى مستواهم الهابط الرذيل كما فصل القول فيه علاّمة الهند أبو الكلام آزاد رحمه الله، وذكر أن الفخر الرازي كان منتهى فكره وحصيلة سعيه أن يصبغ القرآن بصبغة التصنع والاختلاف إذ لم يستطع أن يرفع مستواه إلى مستوى القرآن الكريم وأسلوبه العلمي الرفيع، وهذا كانت نتيجة حتمية لوقوع الناس فريسة الأفكار الدخيلة من علوم الفلسفة والمنطق والأحكام.

ونلاحظ أن المفسرين الأوائل في القرون المشهود لها بالخير هم الذين فسروا القرآن حسبما يطلبه المنهج الإسلامي الرفيع، وصانوا أنفسهم عن أي تأثير أجنبي دخيل، ومن هؤلاء كان شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كانت له مواقف عجيبة في الدفاع عن السلف ومنهجهم وعقيدتهم، والرد على كل

منهج أجنبي، وفكر دخيل على الفكر السلفي الإسلامي الأصيل، وجهاده وجهوده في هذا الباب معروفة ومشهورة، ونتيجة لجهاده وجهوده اتضح منهج السلف الصالح العلمي، وتبلور، وانكسر طاغوت الفلسفة والمنطق والكلام، ولم تبق هيمنة الأفكار الدخيلة على العقول والقلوب.

وقد منح الله شيخ الإسلام عقلاً نادراً وذكاء عجيباً وفهماً دقيقاً، وحباً منقطع النظير لفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فحفظ القرآن في صباه، وتمكن من العلوم وهو دون العشرين، وهو يحكي بنفسه عن شغفه بالقرآن فيقول: ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم أسأل الله الفهم وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب، وأقول: يا معلم إبراهيم! فهمني (العقود الدرية ٦٢).

وازداد شغفه واهتمامه بالقرآن، ولما سجن في قلعة دمشق كان شغله الشاغل تلاوة كتاب الله والتدبر فيه، فقد ذكر أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه ختمه ثمانين ختمة في السجن (البداية والنهاية ١٤/٣٨).

وقد اختلط كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بلحمه ودمه حيث لا تجد بحثاً ولا موضوعاً إلا هو مشحون بالآيات والأحاديث وشرحهما وتفسيرهما، وقد اشتهر أمره، وطار صيته في الآفاق، ولقب بـ (ترجمان القرآن) فنودي إثر وفاته من منابر جامع دمشق: الصلاة على ترجمان القرآن.

وذكر الحافظ ابن رجب: وصلى عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة حتى في اليمن والصين، وأخبر المسافرون أنه نودي بأقصى الصين للصلاة عليه يوم جمعة (الصلاة على ترجمان القرآن) (٢/٤٠٧).

أهمية فهم القرآن والتدبر فيه في نظر شيخ الإسلام

وقد أدرك شيخ الإسلام أن سوء فهم الناس للقرآن الكريم جرهم إلى البدع والشرور، ولهذا كان يهمه هذا الجانب كثيراً، فقد قال مرة: وكانت

البدع الأولى مثل بدعة الخوارج إنما هي من سوء فهمهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب إذ كان المؤمن هو البر التقي، قالوا: فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر، وهو مخلد في النار، ثم قالوا: وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله (مقدمة أصول التفسير ٣٠).

قواعد التفسير

ونظراً إلى أهمية فهم كتاب الله فقد بين رحمه الله هذه القواعد التفسيرية التي تكف الناس عن الوقوع في التأويل والتحريف في كتاب الله، ولما كان منهجه منهجاً سلفياً بحتاً لم ير التعديل عن مذهب السلف البتة، بل كان يتبع دائماً آراء السلف ويصرح من منهجه هذا بقوله: وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك بل مبتدعاً (١٣/ ٣٦١).

والذي يتجلى في منهجه التفسيري أنه كان على يقين تام أن النبي ﷺ قد فسر القرآن الكريم تفسيراً كاملاً وبين معانيه لأصحابه بحيث لم يترك شيئاً يحتاج إلى شرح وإيضاح.

يقول: يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يتناول هذا وهذا.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: كعثمان بن عثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً (١٣/ ٣٣١).

وأكد شيخ الإسلام على أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يكونوا يكتفون بحفظ ألفاظ القرآن بل كانوا يستوعبون معانيه إذ المقصود من كل كلام فهم معانيه فيقول: ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك. وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ

قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم، ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً (١٣/ ٢٣١).

وقد أثبت شيخ الإسلام أن التابعين أخذوا علم التّفسير من الصحابة كما هو مروي عن مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنه، ولهذا كان البخاري يعتمد على تفاسير الثوري ومجاهد وغيرهما.

وخلاصة القول أن الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا علم التفسير عن النبي ﷺ، ثم تلقاه التابعون عن الأصحاب، وهكذا نقل الخلف عن السلف.

مراتب التفسير

ونظراً إلى اتجاه شيخ الإسلام السلفي واعتماده على فهم السلف في فهم كتاب الله وسنة رسوله جعل تفسير القرآن مراتب بعضها فوق بعض، أولاها وأعلاها تفسير القرآن بالقرآن، فإن لم نجد في القرآن ما يفسر القرآن فنرجع إلى السنة النبوية نتعرف التفسير منها فإنها شارحة للقرآن، وقد قال رحمه الله في موضع: ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٣/ ٢٧).

والمرتبة الثالثة: تفسير القرآن بأقوال الصحابة، يقول شيخ الإسلام: وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة،الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين مثل عبد الله بن مسعود إلخ) (١٣/ ٣٦٤).

والمرتبة الرابعة: تفسير القرآن بأقوال بعض التابعين، يقول شيخ

الإسلام: إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير.

قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها (١٣/٣٦٨ ـ ٣٦٩).

ويرى شيخ الإسلام فيما أجمع عليه التابعون حجة، فيقول: أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك (١٣/ ٣٧٠).

وخلاصة منهجه التفسيري أنه يحصر تفسير القرآن في أربع مراتب كما مر ذكره على الترتيب، ويقول في التفسير بالرأي عند وجود تفسير مأثور: إن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول: وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في هذا المجال.

وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه.

ونظراً إلى أهمية فهم السلف الصالح والاعتماد عليه يرى شيخ الإسلام عدم الخروج من آرائهم ولو اختلفوا فيها، وقد وجه النقد الحار إلى كل من انحرف عن جادة السلف، فقال في موضع: ولهذا قال كثير منهم ـ كأبي الحسين البصري، ومن تبعه كالرازي والآمدي، وابن الحاجب ـ إن الأمة إذا اختلفت في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث، بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين، فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الضلال في تفسير القرآن والحديث وأن يكون الله أنزل الآية

وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون، ولكن قالوا: إن الله أراد معنى آخر، وهم لو تصوروا هذه المقالة، لم يقولوا هذا إلخ (مجموع الفتاوى ١٣/ ٥٩).

الإسرائيليات

يؤكد شيخ الإسلام على تتبع التفسير المأثور عن الرسول وأصحابه وأتباعه من جانب، وينبه من جانب آخر على وجود الإسرائيليات والضعاف والموضوعات والمقاطيع في كتب التفسير، ولأجل هذا يحتاط كثيراً في الأخذ عن كتب التفسير، والانتقاء منها الروايات الصحيحة ويصرح أن الموضوعات في كتب التفسير كثيرة إلخ (١٣/ ٣٥٤).

ويرى شيخ الإسلام أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم ويقول في المراسيل: والمراسيل إذا تعددت طرقها، وخلت عن المواطأة قصداً أو الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً.

وقال: ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم، والمغازي، ويروى ليس لها أصل أي إسناد، لأن الغالب عليها المراسيل.

أما رواية الإسرائيليات التي كان يرويها بعض السلف بين حكمها في ضوء حديث النبي ﷺ: (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) فقال: هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة

فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهم الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم (١٣/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).

التفسير بالرأي

اتضح جلياً فيما مضى منهج شيخ الإسلام في التفسير، ولم تبق حاجة لذكر آرائه في التفسير بالرأي إلا أن شيخ الإسلام بسط القول في المسألة وصرح بحرمته، فقال: فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام. قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» رواه الترمذي.

ولما كان التفسير بالرأي أمراً محرماً قال شيخ الإسلام: فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، ولو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم (مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٧١).

وسبق ابن تيمية بعض أهل العلم كالقرطبي الذين تنبهوا لمفاسد هذا النوع من التفسير فوجهوا إليه النقد، وقد شدد النكير عليه شيخ الإسلام لأنه كان سلاح الباطنية الموجودين في عصر شيخ الإسلام والذين كان بينهم وبين شيخ الإسلام معارك ومناظرات معروفة.

يقول أبو زهرة:

ما هو التفسير بالرأي؟

ويطلق التفسير بالرأي في رأيه على التفسير الذي لم يراع فيه الكتاب

والسنة وآثار السلف، ويعتمد على الذوق والوجدان، أما التفسير بالقرآن والسنة وآثار الصحابة والتابعين واللغة العربية فهذا جائز ومطلوب، وقد وضح هذا في موضع آخر:

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوا، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» (مجموع الفتاوى **١٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥**).

وبسط الكلام العلاَّمة محي الدين أبو الكلام أحمد آزاد في تفسيره حول التفسير بالرأي وأيد كلام شيخ الإسلام وأتى بالأمثلة الكثيرة ونماذج من هذا التفسير.

وقد تنبه شيخ الإسلام إلى ما يقع من الخلاف في التفسير من المفسرين مع ما ورد من النهي عن التفسير بالرأي، فبين سببه وأزال اللبس فقال:

ينبغي أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين: أحدهما ليس فيه تضاد وتناقض، بل يمكن أن يكون كل منهما حقاً، وإنما هو اختلاف تنوع أو اختلاف في الصفات أو العبارات، وعامة الاختلاف الثابت عن مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب، فإن الله سبحانه إذا ذكر في القرآن اسماً مثل قوله: **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**، فكل من المفسرين يعبر عن الصراط المستقيم بعبارة يدل بها على بعض صفاته، وكل ذلك حق بمنزلة ما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء كل اسم منها يدل على صفة من صفاته، فيقول بعضهم: (الصراط المستقيم) كتاب الله، أو اتباع كتاب الله، ويقول الآخر: (الصراط المستقيم) هو الإسلام أو دين الإسلام، ويقول الآخر: (الصراط المستقيم) هو السنة

والجماعة، ويقول الآخر: (الصراط المستقيم) طريق العبودية، أو طريق الخوف والرجاء والحب، وامتثال المأمور واجتناب المحظور، أو متابعة الكتاب والسنة، أو العمل بطاعة الله، أو نحو هذه الأسماء والعبارات.

ومعلوم أن المسمى واحد، وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته.

وهكذا ذكر شيخ الإسلام أسماء النبي ﷺ، وأسماء القرآن وأسماء الله الحسنى مثالاً لتنوع الصفات وتعدد الأسماء مع كون المسمى واحداً.

ثم ذكر قسماً آخر منه فقال: وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التعيين والتمثيل، لا على سبيل الحد والحصر.

وقال: وهذا كما إذا سئلوا عن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أو عن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ أو عن ﴿الصالحين﴾ أو ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ونحو ذلك من الأسماء العامة الجامعة التي قد يتعسر أو يتعذر على المستمع أو المتكلم ضبط مجموع معناه، إذ لا يكون محتاجاً إلى ذلك، فيذكر له من أنواعه وأشخاصه ما يحصل به غرضه، وقد يستدل به على نظائره إلخ (مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٨١ ـ ٣٨٤).

دقائق التفسير

علمنا مخالفة شيخ الإسلام للتفسير بالرأي إلا أنه يحاول الغوص في معانيه وأسراره والتدبر فيه. يقول الأستاذ أبو زهرة: إننا نرى ابن تيمية في استنباط علل الأحكام، وتعرف غاياتها ومراميها، والمناط الذي يسير وراءه يغوص وراء المعاني المصلحية يتعرفها، ويسير في ظلال الكتاب والسنة مهتدياً بهديهما، ويغوص غوصاً عميقاً يدل على بعد غوره الفقهي، ولا يقف عند حدود ظواهر الألفاظ، بل يتجه إلى تعرف المرامي، والغايات المصلحية، وإن الآيات الكونية والنفسية متسعة الأفق، وقد كشف من ظواهر الكون ما يتبين معه أحكام القرآن ودقة معانيه، فهل كان ابن تيمية يتجافى

عن كل هذا ويرى فيه بدعاً لا يصح السير وراءه، ولا يرى في الوقوف إحجاماً عن تفهم جزء من إعجاز القرآن بمعانيه، ثم تعرف أسرار البلاغة في أسلوب القرآن وطرائق إعجازه، أكان يحجم عنه ابن تيمية ويعد بدعاً من النظر، ويغفل في ذلك باباً من أبواب الإعجاز، بل أوضح باباً منه، إننا نعيذ ابن تيمية من أن يتجه ذلك الاتجاه السلبي، إنه يتعرف من القرآن الإشارات المرامي القريبة والبعيدة، ثم ذكر مثالاً من تفسيره لسورة النور (٢٣٣ - ٢٣٤).

وتوجد أمثلة كثيرة لدقائق التفسير وبدائعه في تفسيرات ابن تيمية.

مآثره التفسيرية

مرت حياة ابن تيمية بأزمات شديدة ومراحل صعبة يصعب إحصاء آثاره العلمية في مثل هذه الظروف الصعبة، ومن ثم يصعب حصر مؤلفاته في التفسير وعلومه، وقد توجه في آخر حياته إلى التفسير إلا أن هذه المؤلفات كانت في يد أعدائه ومنافسيه من الحكام والعلماء والقضاة وتحت تصرفهم، ويحكي ابن كثير عن هذا فيقول: وفي يوم الاثنين تاسع جمادى الآخرة أخرج ما كان عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الكتب والأوراق والدواة والقلم ومنع من الكتب والمطالعة وحملت كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة.

قال البرزالي: وكانت نحو ستين مجلداً وأربع عشرة ربطة كراريس فنظر القضاة والفقهاء فيها، وتفرقوها بينهم، وكان سبب ذلك أنه أجاب لما كان رد عليه التقي ابن الأخنائي المالكي في مسألة الزيارة فرد عليه الشيخ تقي الدين واستجهله وأعلمه أنه قليل البضاعة في العلم، فطلع الأخنائي إلى السلطان وشكاه، فرسم السلطان عند ذلك بإخراج ما عنده من ذلك وكان ما كان، كما ذكرنا (البداية ١٤/ ٣٤).

وتوفي بعد ذلك شيخ الإسلام في ذي القعدة ٧٢٨هـ، ولم تتمكن أسرته من إرجاع هذه الكتب والمؤلفات التي كانت في الخزانة الحكومية

وفي أيدي الفقهاء والقضاة، بل صار من الصعب لأصحابه الذين كانوا يحتفظون بمؤلفاته ورسائله أن تبقى هذه الكتب في أيديهم ولا تصل إليها أيدي المجرمين. واستمر هذا الوضع إلى سنة ٧٤٢هـ حينما صار سيف الدين قطلوبغا الفخري نائب السلطنة بدمشق وكان من محبي شيخ الإسلام فألح على القاضي الشافعي في إحضار الكتب في سلة الحكم التي أخذت من عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله من القلعة المنصورة في أيام جلال الدين القزويني فأحضرها القاضي بعد جهد ومدافعة، واستدعى الفخري بأخي شيخ الإسلام الشيخ زين الدين عبد الرحمن، وبالشيخ شمس الدين عبد الرحمن ابن قيم الجوزية، وكان له سعي مشكور فيها، فهنأهما بإحضاره الكتب، وبيت الكتب تلك الليلة في خزانته للتبرك، وصلى به الشيخ زين الدين أخو الشيخ صلاة المغرب بالقصر. وأكرمه الفخري إكراماً زائداً لمحبته الشيخ رحمه الله (١٤/١٩٧ ـ ١٩٨).

ولا يخفى على العاقل ما يطرأ في مثل هذه الحالة من الضياع والنقص في مؤلفات أهل العلم بعد وفاتهم، فلا يمكن القول بأن جميع ما تركه شيخ الإسلام من الكتب بقيت محفوظة ومصونة من الضياع والنقصان، إن المادة الموجودة من التفسير قليلة جداً إذا قارناها بالتفاصيل التي قدمها أصحابه من وجود كمية مؤلفات في التفسير فقد قال بعض أصحابه: إنه يقع في أكثر من ثلاثين مجلداً، وقد بيض أصحابه بعضه، وكثير منه لم يكتبوه.

ولعل الله ييسر للباحثين العثور على هذا الكنز الثمين من تفسيره في بعض المكتبات، وما ذلك على الله بعزيز.

قال ابن عبد الهادي: وقال الشيخ أبو عبد الله بن رشيق ـ كتب الشيخ رحمه الله نقول السلف مجردة عن الاستدلال على جميع القرآن، كتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت له سوراً، وآيات يفسرها، ويقول في بعضها: كتبته للتذكرة ونحو ذلك، ثم لما حبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن تفسيراً مرتباً على السور، فكتب يقول: إن القرآن فيه ما هو بيِّن بنفسه، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض

الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب، ولا يتبين له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً، ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسر تلك الآيات بالدليل لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها.

وقال: قد فتح الله علي في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن أو نحو هذا (٢٨).

أما المواد التفسيرية التي وصلت إلينا في صورة تفاسير سور مختلفة أو في صورة تفسير الآيات الكريمة في ثنايا بحوثه وكتاباته فهي كثيرة مثل تفسير سورة الإخلاص، وسورة النور، والمعوذتين، ومقدمة في أصول التفسير والإكليل في المتشابه والتأويل، وقد قام بعض أهل العلم بجمع إفاداته التفسيرية في عدة أجزاء على ترتيب سور القرآن الكريم مثل كتاب دقائق التفسير للسيد محمد الجلنيد.

خصائص تفسيرات ابن تيمية

يتميز منهج ابن تيمية التفسيري من بين المفسرين أن له علاقة وطيدة بالمجتمع وارتباطاً قوياً بالحياة ومشاكلها، فكان شيخ الإسلام يدرس قضايا المجتمع في ضوء الآيات الكريمة، ويبين انحرافات الناس والشعوب عن الهداية الربانية، وهذا الذي جعل تفسير ابن تيمية مرجعاً للأجيال والشعوب على مر الدهور لحل معضلاتهم، كما يظهر من منهجه أنه داعية إلى الله يخاطب الإنسانية ويوجههم بالعواطف الدينية، حريصاً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول السيد سليمان الندوي: لم أجد في التفاسير التي طالعتها أحسن من تفاسير ابن تيمية وابن القيم.

وقد يلاحظ هذه الميزات في تفسيره على العموم، وخاصة في تفسير سورة الإخلاص، وسورة النور، وعلى سبيل المثال يراجع تفسير ﴿وَلَا

﴿تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ (١٥/ ٢٤ـ ٢٥ من مجموع الفتاوى).

والميزة الثانية أنه لاتباعه المنهج السلفي القويم يفسر القرآن بالقرآن وبالسنة النبوية، وآثار السلف واللغة العربية.

والميزة الثالثة لمنهجه التفسيري أنه يعمل الفكر ويستخدم العقل السليم في التفسير ويراجع لذلك مثلاً تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَنَاْ خَيۡرٌ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (١٥/ ٥ ـ ٦).

والميزة الرابعة أنه يسوق في تفسير غريب القرآن ومفرداته أقوال أهل اللغة والأدب مع أقوال السلف، ويرجح منها ما يوافق رأي السلف، ويراجع لذلك في تفسير سورة الإخلاص تفسير كلمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾.

والميزة الخامسة أنه يستوعب المباحث النحوية ويوفي الكلام عليها ببراعة كاملة ويرجح ما يوافق أسلوب القرآن ومنهجه، ويراجع لذلك على سبيل المثال في سورة طه تفسير قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ إلخ.

آيات الصفات

يرى ابن تيمية أنه لم يقع أي خلاف في تأويل آيات الصفات في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وإذا أثر عنهم شيء فإنه لا يغاير مقتضى المعنى المفهوم.

وقال في المناظرة التي وقعت حول العقيدة الواسطية: وقلت مرات: قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ﷺ حيث قال: «خير القرون قرني الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» يخالف ما ذكرته فأنا راجع عن ذلك (العقود الدرية ٢١٩).

تأويل المتشابهات

ويقول في المتشابهات: في المتشابهات قولان، أحدهما: أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس، والثاني: ـ وهو الصحيح ـ أن التشابه أمر

نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة، بل القرآن كله محكم كما قال تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، وهكذا كقوله: (الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس)، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ (١٣/ ١٤٤).

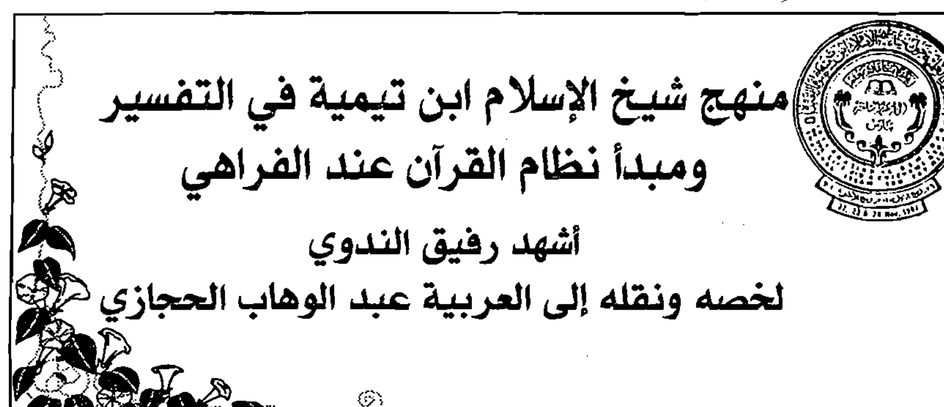
وقال: ومن قال من السلف إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه، مثل وقت الساعة، ومجيء أشراطها ومثل كيفية نفسه، وما أعده في الجنة لأوليائه (١٣/ ١٤٤).

فالتأويل في الكتاب والسنة له معنيان عند ابن تيمية، التأويل بمعنى حقيقة نفس الأمر والنتيجة، وبمعنى التفسير، فإذا أريد المفهوم الأول يصح الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وإذا أريد بالتأويل المعنى الثاني أعني التفسير فيمكن أن يعلمه الراسخون في العلم.

أما التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى لا يتبادر إلى الأذهان لضرورة ومناسبة، فلا يوجد هذا النوع في القرآن.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير ومبدأ نظام القرآن عند الفراهي

أشهد رفيق الندوي
لخصه ونقله إلى العربية عبد الوهاب الحجازي

شيخ الإسلام ابن تيمية كان جامع العلوم والفنون في المنطق والفلسفة وعلم الحديث والفقه، والتفسير وغيرها، ولكن التفسير كان موضوعه الخاص مثل السنة وعلومها حتى لا يخلو كتاب من كتبه من المواد التفسيرية الجمة، والاستدلال بالآيات لجميع المسائل العقلية والنقلية ولكافة شؤون الحياة، ومن ميزاته الخاصة، ومن عظيم أعماله مقدمته في أصول التفسير التي قد وضع بها شيخ الإسلام حجر الأساس لفن أصول التفسير.

مراجع التفسير عند شيخ الإسلام:

المنهج الذي اختاره شيخ الإسلام في التفسير هو عين منهج الرسول وأصحابه والسلف الصالح، وله أربع درجات:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن.

٢ ـ تفسير القرآن بالسنة الصحيحة.

٣ ـ تفسير القرآن بأقوال صحابة الرسول وآرائهم.

٤ ـ تفسير القرآن بأقوال التابعين وتبع التابعين.

أما تفسير القرآن بأقوال الصحابة، فلأن الصحابة قد اكتسبوا علوم

القرآن من الرسول الكريم ﷺ من غير واسطة.

أما تفسير القرآن بالقرآن، فلأن الله تعالى قال في كتابه العظيم: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي: القرآن يفسر بعضه بعضاً.

أما تفسير القرآن بالسنة الصحيحة، فلأن الرسول الكريم ﷺ قد فسر القرآن بأقواله وأفعاله وتقاريره حتى قالت عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن).

وأما تفسير القرآن بأقوال التابعين وتبع التابعين، فلأنهم تعلموا تفسير القرآن من أصحاب الرسول الكريم وتعلم من التابعين تبع التابعين، فهذه الدرجات الأربع من التفسير تتعلق بالقرون المشهود لها بالخير والفضل.

موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من التفسير بالرأي:

تفسير القرآن بالرأي المحض والاستشهاد عليه بالألفاظ القرآنية تأييداً لنظرياته المظنونة مع صرف النظر عن سياقها وعدم الاعتناء بالأحاديث النبوية الصحيحة وعدم المبالاة بفهم السلف الصالح حرام عند شيخ الإسلام ابن تيمية ولكن التفكر والتدبر في آيات القرآن وتفسيره، بناء على الدرجات الأربع من التفسير منهاج السلف الصالح في كل زمان ومكان وهو الذي اختاره شيخ الإسلام.

موقف ابن تيمية من الإسرائيليات:

الإسرائيليات المروية عن اليهود والنصارى وما يوجد منها في كتبهم السماوية المحرفة لا بد من إمعان النظر في مجموعها عند شيخ الإسلام ابن تيمية، فإن وافق شيء منها كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم، فلا حرج في ذكره في تفسير القرآن لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن لم يمكن التمييز بين صحيحها وسقيمها فالتوقف أولى لقول الرسول الكريم ﷺ: (لا تصدقوهم ولا تكذبوهم) أما التوغل في الإسرائيليات لطلب الجزئيات من القصص القرآنية وغيرها مثل ما كان لون كلب أصحاب الكهف ومن أي

خشب كان عصا موسى والطير التي أحياها إبراهيم بإذن الله ما كان اسمها وغيرها من الجزئيات فلا فائدة فيه.

معنى المحكم والمتشابه من الآيات عند شيخ الإسلام:

القرآن كله عند شيخ الإسلام محكم من ناحية كما قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فمعنى المتشابه عنده (ما لا يعلم تأويله وكيفياته إلا الله، وأما المعنى المفهوم من ظاهره، ومنطوقه فهو معلوم من لدن الرسول ﷺ وأصحابه والسلف الصالح إلى هذا العصر، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وكيفياته وما يعلم تأويله وكيفياته إلا الله.

أقسام القرآن:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الباب: إن الله سبحانه يقسم بأمور على أمور، وإنما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته.

الأستاذ الفراهي كان بارعاً في فنون مختلفة ولكنه معروف لدى علماء شبه القارة الهندية كمفسر للقرآن، فإنه قد صنف كتباً هامة في علوم القرآن وأصول التفسير، ومراجع التفسير عنده على قسمين: ١ ـ أصل، ٢ ـ فرع.

والأصل قطعي الدلالة وهو القرآن مع ألفاظه وأساليبه ونظم كلامه.

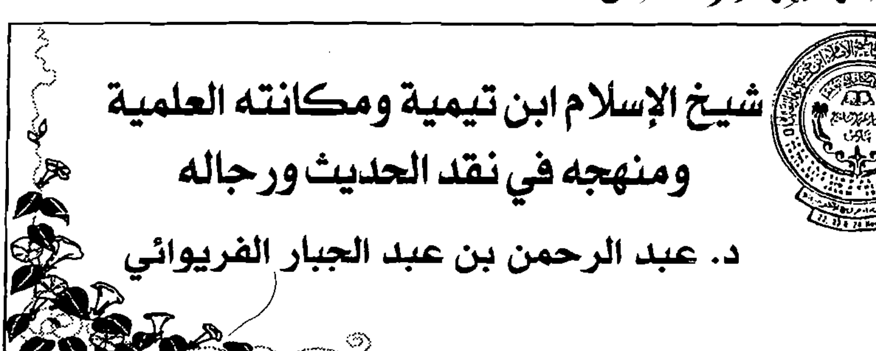
وأما الفرع: فهو يشتمل على الروايات وأحوال الأمم الماضية وصحف الأنبياء السابقين، ولكن قسم الفرع ظني الدلالة عنده، لأن الأحاديث والتاريخ والصحف القديمة كلها ظنية لا تفيد العلم القطعي.

والأمر الذي اهتم به الأستاذ الفراهي في تفسيره أن يعرف بنظم الآيات والسور، فإن جميع الآيات والسور في القرآن الكريم لها علاقة وثيقة عند الفراهي مع سوابقها ولواحقها، لو لم تراع هذه العلاقة بين الآيات والسور في تفسير القرآن لفسدت المطالب ووقع الخلاف في بيان معانيها وهو أمر

مشهور في كتب التفسير من بعد انقراض عهد الرسول إلى عصرنا هذا ولكن لو تعمقنا في معاني الآيات والسور مع رعاية علاقتها لوجدنا أن جميع المعاني مرتبطة بمركز خاص لا تنفك أجزاؤها منه بتاتاً.

أما مبحث الآيات المحكمات والمتشابهات فهي من أدق المباحث في فن التفسير، والفراهي قد وافق فيه شيخ الإسلام ابن تيمية حتى يمكن أن نقول إنه قد أخذ منه، وأما أقسام القرآن، فقد بين فيه أن جميع أقسام القرآن بخلق الله تعالى قد جاءت استدلالاً واستشهاداً.





الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

أما بعد، فإن من نعم الله علي أن وفقني لدراسة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وصاحبه الإمام ابن قيم الجوزية في أثناء إقامتي بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، ويرجع فضل هذا الاهتمام، والإلمام بعلوم شيخ الإسلام ابن تيمية إلى الجامعة الإسلامية في دار الهجرة التي يستضيء بها طلبة العلم الذين يفدون إليها، وينهلون من منهلها الصافي من أقطار الدنيا، وقد قضيت أكثر من أربعة أعوام مع شيخ الإسلام ومؤلفاته، وذلك لإكمال موضوع رسالتي في الدكتوراه (شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه) ومن الاتفاقات العجيبة والطيبة أن وصلنا خبر عقد مؤتمر عالمي عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية وعلومه في رحاب الجامعة السلفية ببنارس، وذلك في ربيع الأول وربيع الآخر ١٤٠٨هـ، وقد تشرفت بالحضور فيه وبمساهمة متواضعة في برامجه، وكان من الممكن اختيار أكثر من بحث للعرض في المؤتمر، إلا أني رأيت من المناسب أن يكون موضوع بحثي فيه الكلام عن منهج شيخ الإسلام في نقد الحديث وإزالة اللبس عنه في هذه العجالة.

ومن المعلوم أن شيخ الإسلام عداده في مشاهير هذا الأمر بل هو إمام الأئمة وشيخ هذه الأمة الملقب بشيخ الإسلام حقاً، وقد اجتمعت كلمة أهل

العدل والإنصاف من أهل الإسلام وغيرهم في الثناء عليه والإشادة بدوره في خدمة الإسلام وعلومه.

وأما استفادة الناس بعلومه وأفكاره واعتمادهم على كلامه في فهم العقيدة وأسرار الدين والشريعة، وفي مباحث العقيدة والتفسير والحديث واللغة، ومعرفة الحديث وعلله ورجاله، وفي ضوابط المحدثين فهي أيضاً كثيرة ومعلومة، كما لا يخفى على طلبة العلم الشرعي.

وقد اتفق أهل العلم من معاصريه إلى يومنا هذا على إمامة شيخ الإسلام وتفوقه في العلم والفضل والزهد والورع والخلق، وعلى ما أسبغ الله عليه من نعمة ظاهرة وباطنة، وقد ألف في سيرته عدد كبير من أهل العلم في كتابات مستقلة، وفي كتب التراجم والسير بما سيأتي عرضه في فصل مستقل.

وقد اشتهر بلقب شيخ الإسلام[١] في حياته وبعد مماته، حيث عرف عند أهل العلم عند إطلاقه أن المراد به هو ابن تيمية، وخاصة عند المنتسبين إلى هذه المدرسة السلفية.

وقد قال العلاّمة أبو عبد الله محمد بن الصفي عثمان بن الحريري الأنصاري الحنفي قاضي قضاة مصر والشام: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن[٢]؟

وقد منحه الله الحافظة الواعية التي هي أساس العلم، والعمق والتأمل، وحضور البديهة، والاستقلال الفكري، والإخلاص في طلب الحق، والطهارة من أدران الهوى، مع فصاحته، وقدرته البيانية، والشجاعة، والصبر، وقوة الاحتمال، وقوة الفراسة، والهيبة.

وأما كلام العلماء الأفاضل في الثناء عليه فكثير جداً، وأذكر هنا كلام

---

(١) انظر: الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية (شيخ الإسلام) كافر. وقد ذكر فيه مؤلفه عن (٨٧) من أئمة الإسلام أنهم لقبوا ابن تيمية بشيخ الإسلام.

(٢) الرد الوافر (ص ٩٨).

أئمة هذا الشأن كالذهبي وابن حجر بشيء من التفصيل، كما أورد كلام العلماء الآخرين الذي يتعلق بتنويههم بمعرفة شيخ الإسلام الحديث وعلومه وتضلعه منها.

١ ـ قال ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ) بعدما اجتمع بشيخ الإسلام بمصر سنة ٧٠٠هـ: ما كنت أظن أن الله تعالى بقي يخلق مثلك، وسئل عنه فقال: هو رجل حفظة.

وقال أيضاً: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد(١).

٢ ـ وقال ابن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤هـ) بعد أن ذكر ترجمة المزي: وهو الذي حداني على رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين... فألفيته ممن أدرك من العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته(٢).

وبعد أن ذكر بعض شيوخه قال: وخلق كثير سمع منه الحديث، وقرأ بنفسه الكثير وطلب الحديث، وكتب الطباق والإثبات، ولازم السماع بنفسه بمدة سنين، وقل أن سمع شيئاً إلا حفظه إلى أن قال: أما الحديث فكان حامل رايته، حافظاً له، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلعاً في ذلك.

وقال أيضاً: وكان بيني وبينه مودة وصحبة من الصغر.

وقال: الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه، قرأ القرآن، وبرع فيه، والعربية، والأصول، ومهر في علمي التفسير والحديث، وكان إماماً لا

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٩٢)، والشهادة الزكية (ص ٢٩).

(٢) العقود الدرية (ص ١٠) والشهادة الزكية (ص ٢٦)، وانظر أيضاً المعجم المختص (ق ٧)، والدرر الكامنة (١/ ١٥٦)، وذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٩٠)، والرد الوافر (٥٧).

يلحق غباره في كل شيء[1].

٣ ـ وقال المزي (ت ٧٤٢هـ): ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه[2].

٤ ـ وقال ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤هـ): سمع شيخنا الكثير من ابن أبي اليسر وذكر أحد عشر شيخاً وقال: وخلق كثير، وشيوخه الذين سمعوا منه أكثر من مائتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد مرات، وسمع كتب الستة الكبار، والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث وقرأ ونسخ[3].

وقال: قرأ بنفسه الكثير، وطلب الحديث، وكتب الطباق والأثبات، ولازم السماع بنفسه مدة سنين، واشتغل بالعلوم إلى أن قال: وأما الحديث فكان حافظاً له، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلعاً في ذلك[4].

٥ ـ أقوال الإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ):

وذكر الذهبي في كتابه: الأمصار ذوات الآثار: مدينة دمشق وأشار إلى وجود الكثرة الكاثرة من علماء الحديث بها إلى القرن الثالث الهجري، وقال: وهي دار قرآن وحديث وفقه، قال: وتناقص العلم بها في المائة الرابعة، والخامسة، وكثر بعد ذلك، ولا سيما في دولة نور الدين، وأيام محدثها ابن عساكر، والمقادسة النازلين بسفحها، ثم تكاثر بعد ذلك بابن تيمية، والمزي وأصحابهما[5].

---

(١) العقود الدرية (ص ١٢)، وشيخ الإسلام ابن تيمية، سيرته وأخباره (ص ١١٨ ـ ١٩٩).

(٢) العقود الدرية (ص ٧).

(٣) العقود الدرية (ص ٣).

(٤) العقود الدرية (ص ٣٧٢).

(٥) الأمصار ذوات الآثار (ص ٢٣ ـ ٢٧).

وعنه نقل هذا الكلام السخاوي في الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ[1].

وقال: ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضاراً لمتون الأحاديث، وعزوها إلى الصحيح،أو المسند أو السنن كأن ذلك نصب عينه، وعلى طرف لسانه بعبارة رشقة حلوة، وإفحاماً للمخالف[2].

وقال الذهبي في موضع آخر: وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته، وسقمه فما يلحق فيه[3].

وقال في المعجم المختص: ونسخ، وقرأ، وانتقى، وبرع في علوم الإسناد والمتن، ودرس، وأفتى، وفسر، وصنف التصانيف البديعة[4].

وقال: وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة. وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها، واحتج لها بالكتاب والسنة.

ولما كان معتقلاً بالإسكندرية، التمس منه صاحب (سبتة) أن يجيز له مروياته، وينص على أسماء جملة منها، فكتب في عشر ورقات جملة من ذلك بأسانيدها من حفظه، بحيث يعجز أن يعمل بعضه أكبر محدث يكون.

وله خبرة تامة بالرجال، وجرحهم، وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم مع حفظه لمتونه، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجب في استحضار واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة، والمسند، بحيث

---

(١) الإعلان بالتوبيخ (ص ٦٦٢).

(٢) انظر سيرة شيخ الإسلام عند المؤرخين (ص ٢٧).

(٣) العقود الدرية (ص ٢٣)، والشهادة الزكية (ص ٤٠).

(٤) المعجم المختص (ق ٧).

يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي.

وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين، بلْ بما قام الدليل عليه عنده.

ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها.

إلى أن قال: (وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت: أني ما رأيت بعيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، في العلم)[1].

وكتب الذهبي أيضاً تحت خط شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا خط شيخنا الإمام، شيخ الإسلام، فرد الزمان، بحر العلوم تقي الدين، قرأ القرآن والفقه، وناظر واستدل، وهو دون البلوغ.

برع في العلوم والتفسير، وأفتى ودرس، وله نحو العشرين، وصنف التصانيف، وصار من أكابر العلماء في حياة شيوخه، وله المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون: أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله ـ تعالى ـ مدة سنين من صدره في أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته، وسقمه، فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه، ومذاهب الصحابة

---

(١) الشهادة الزكية (ص ٤٠ ـ ٤٢)، وساق معظمه ابن ناصر الدين الدمشقي في الرد الوافر (ص ٧٠ ـ ٧٢)، وابن عبد الهادي (ص ٢٤ ـ ٢٥)، وذكره ابن حجر في الدرر الكامنة أيضاً مختصراً (١/١٥٨ ـ ١٥٩)، وذكر ما يتعلق بالتفسير والحديث ابن الوردي وقال في آخر الترجمة: أكثرها من الدرة اليتيمية في السيرة التيمية. انظر: شيخ الإسلام سيرته وأخباره عند المؤرخين (ص ١٩ و٢٤).

والتابعين، فضلاً عن المذاهب الأربعة، فليس له فيه نظير. وأما معرفته بالملل والنحل، والأصول والكلام، فلا أعلم له فيه نظيراً ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جداً، ومعرفته بالتاريخ والسير، فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه، فأمر يتجاوز الوصف، ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد الأسخياء، الذين يضرب بهم المثل، وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والمشرب[1].

وقال في تذكرة الحفاظ: الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة العصر، أحد الأعلام، ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وست مائة وقدم مع أهله سنة سبع، فسمع من ابن عبد الدائم، وابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، وابن الصيرفي، وابن أبي الخير، وخلق كثير، وعني بالحديث، ونسخ الأجزاء، ودار على الشيوخ، وخرج، وانتقى وبرع في الرجال، وعلل الحديث، وفقهه، وفي علوم الإسلام، وعلم الكلام وغير ذلك.

كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان، لعلها ثلاث مائة مجلد.

حدث بدمشق، ومصر، والثغر، وقد امتحن، وأوذي مرات، وحبس بقلعة مصر، والقاهرة، والإسكندرية، وبقلعة دمشق مرتين، وبها توفي في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبع مائة، في قاعة، معتقلاً. ثم جهز، وأخرج إلى جامع البلد، فشهده أمم لا يحصون، فحزروا بستين ألفاً، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين عبد الله بمقابر الصوفية، رحمهما الله تعالى[2].

---

(١) العقود الدرية (ص٢٢ ـ ٢٣)، والرد الوافر (ص ٦٨ ـ ٦٩)، والشهادة الزكية (ص ٤٠)، وشيخ الإسلام وسيرته وأخباره عند المؤرخين (ص ٦١ ـ ٦٢).

(٢) تذكرة الحفاظ (٤/١٤٩٦).

وقال في معجم شيوخه: شيخنا شيخ الإسلام وفريد العصر علماً، ومعرفة، وشجاعة، وذكاء، وتنويراً إلٰهياً، وكرماً، ونصحاً للأمة، وأمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، سمع الحديث، وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب، وخرج، ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصله غيره، وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، وخاطر وقاد، إلى مواضع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه، فقل من يحفظ من الحديث معزواً إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل، وفاق الناس في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل بما يقوم دليله عنده، وأتقن العربية أصولاً وفروعاً وتعليلاً واختلافاً، ونظر في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين، ورد عليهم، ونبه على خطئهم، وحذر، ونصر السنة بأوضح حجج، وأبهر براهين، وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً وعلى طاعته، وأحيا به الشام بل الإسلام بعد أن كاد ينثلم، خصوصاً في كائنة التتار، وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه[1].

٦ ـ وقال ابن فضل الله العمري في تاريخه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في آخر ما أثنى عليه من ثناء عاطر: وكان حافظة للحديث، مميزاً بين صحيحه وسقيمه، وعارفاً برجاله، متضلعاً من ذلك، وله تصانيف كثيرة، وتعاليق مفيدة، وفتاوى مشبعة في الفروع والأصول، والحديث، ورد البدع بالكتاب والسنة[2].

(١) هكذا نقل ابن العماد في شذرات الذهب (٦/ ٨١ ـ ٨٢) كلام الذهبي من معجم شيوخه، والموجود في النسخة الخطية من معجم شيوخه فيه ورد نحوه باختصار.

(٢) الشهادة الزكية (٥٦).

٧ ـ وقال الصفدي (ت ٧٦٤هـ) في أثناء مدحه لشيخ الإسلام: وضيع الزمان في رده على النصارى، والرافضة، ومن عاند الدين، أو ناقضه، ولو تصدى لشرح البخاري، أو لتفسير القرآن العظيم لقلد أعناق أهل العلوم بدر كلامه النظيم[(١)].

وقال أيضاً بعد أن ذكر بعض من سمع منه شيخ الإسلام: وبالغ وأكثر وقرأ بنفسه على جماعة وانتخب، ونسخ عدة أجزاء وسنن أبي داود، ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد وعلماء الأثر[(٢)].

وزاد في أعيان الأثر: كأن السنة على رأس لسانه، وعلوم الأثر مساقة في حواصل جنانه، وأقوال العلماء مجلوة نصب عيانه، لم أر أنا ولا غيري مثل استحضاره، ولا مثل سبقه إلى الشواهد، وسرعة إحضاره، ولا مثل عزوه الحديث إلى أصله الذي فيه نقطة مداده[(٣)].

٨ ـ وذكر ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) في فوات الوفيات بعض من سمع منه شيخ الإسلام وقال: وشيوخه الذين سمع منهم أزيد من مائة شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد مرات، ومعجم الطبراني الكبير، والكتب الكبار، والأجزاء، وعني بالحديث، وقرأ بنفسه الكثير، ولازم السماع مدة سنين، وقرأ «الغيلانيات» في مجلس، ونسخ وانتقى، وكتب الطباق والأثبات[(٤)].

٩ ـ وقال ابن رجب (ت ٧٩٥هـ): عني بالحديث، وسمع المسند مرات، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير، وما لا يحصى من الكتب والأجزاء، وقرأ بنفسه، وكتب بخطه جملة من الأجزاء[(٥)].

---

(١) الوافي بالوفيات (٧/ ١٥).

(٢) الوافي بالوفيات (٧/ ١٥) وأعيان الأثر في سيرة شيخ الإسلام لصلاح الدين المنجد (٥١).

(٣) المرجع السابق.

(٤) شيخ الإسلام ابن تيمية: سيرته وأخباره (٥٦) نقلاً عن طبعة محي الدين عبد الحميد.

(٥) ذيل طبقات الحنابلة.

١٠ ـ وقال العلاَّمة العيني: كان من العلم والدين والورع على جانب عظيم، وكان ذا فنون كثيرة، ولا سيما علم الحديث، والفقه، والتفسير، وغير ذلك[١].

١١ ـ قال الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ): سمعَّ من ابن عبد الدائم، والقاسم الأربلي والمسلم بن علان، وابن أبي عمر، والفخر، في آخرين، وقرأ بنفسه، ونسخ سنن أبي داود، وحصل الأجزاء، ونظر في الرجال، والعلل، وتفقه، وتمهر، وتقدم وصنف ودرس وأفتى، وفاق الأقران، وصار عجباً في سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع في المنقول والمعقول، والاطلاع على مذاهب السلف والخلف[٢].

وقال الحافظ ابن حجر أيضاً في تقريظه على الرد الوافر[٣] لابن ناصر الدين الدمشقي الذي كتبه يوم الجمعة، التاسع من شهر ربيع الأول عام خمسة وثلاثين وثمانمئة:

وشهرة إمامة الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام في عصره باق إلى الآن على الألسنة الزكية، ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره، أو تجنب الإنصاف، فما أغلط من تعاطى ذلك وأكثر عثاره، فالله تعالى هو المسؤول أن يقينا شرور أنفسنا، وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله.

ولو لم يكنِ من الدليل على إمامة هذا الرجل إلا ما نبه عليه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي في تاريخه: إنه لم يوجد في الإسلام من اجتمع في جنازته لما مات ما اجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين، وأشار إلى أن جنازة الإمام أحمد كانت حافلة جداً شهدها مئات الألوف، ولكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير من كان ببغداد أو أضعاف ذلك، لما تأخر أحد

---

(١) الرد الوافر (٢٦٤).

(٢) الدرر الكامنة (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

(٣) وقد انتهى من تأليف الدرر الكامنة في سنة ٨٢٧هـ. وألحق إلى سنة ٨٣٧هـ. انظر الدرر الكامنة (٤/ ٣٩٠).

منهم عن شهود جنازته، وأيضاً فجميع من كان ببغداد إلا الأقل كانوا يعتقدون إمامة الإمام أحمد، وكان أمير بغداد، وخليفة الوقت إذ ذاك في غاية المحبة له والتعظيم، بخلاف ابن تيمية فكان أمير البلد حين مات غائباً، وكان أكثر من بالبلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه، حتى مات محبوساً بالقلعة، ومع هذا فلم يتخلف منهم عن حضور جنازته والترحم عليه والتأسف عليه إلا ثلاثة أنفس، تأخروا خشية على أنفسهم من العامة.

ومع حضور هذا الجم العظيم، فلم يكن لذلك باعث إلا اعتقاد إمامته وبركته، لا بجمع سلطان، ولا غيره، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أنتم شهداء الله في الأرض».

ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مراراً بسبب أشياء أنكروها عليه من الأصول والفروع، وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة، وبدمشق، ولا يحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ولا حكم بسفك دمه، مع شدة المتعصبين عليه حينئذٍ من أهل الدولة، حتى حبس بالقاهرة، ثم بالإسكندرية، ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه وكثرة عمله وكثرة ورعه وزهده ووصفه بالسخاء والشجاعة، وغير ذلك من قيامه في نصر الإسلام والدعاء إلى الله تعالى في السر والعلانية.

فكيف لا ينكر على من أطلق أنه كافر، بل من أطلق على من سماه شيخ الإسلام الكفر، وليس في تسميته بذلك ما يقتضي ذلك فإنه شيخ في الإسلام بلا ريب، والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي، ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عناداً، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبريء منه، ومع ذلك فهو بشر يخطىء ويصيب، فالذي أصاب فيه هو الأكثر، يستفاد منه، ويترحم عليه بسببه والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه، بل هو معذور، لأن أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه، حتى كان أشد المتعصبين عليه، والقائمين في إيصال الشر إليه، وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني شهد له بذلك، وكذلك الشيخ صدر الدين ابن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره.

ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان أعظم الناس قياماً على أهل البدع من الروافض، والحلولية، والاتحادية، وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة، وفتاويه فيهم لا تدخل تحت الحصر، فيا قرة أعينهم إذا سمعوا بكفره، ويا سرورهم إذا رأوا من يكفر من لا يكفره.

فالواجب على من تلبس بالعلم، وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشتهرة، أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل، فيفرد من ذلك ما ينكر، فيحذر منه على قصد النصح، ويثني عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك، كدأب غيره من العلماء.

ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف النافعة السائرة، التي انتفع بها الموافق والمخالف، لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته.

منهج شيخ الإسلام في النقد:

مضمون ما تقدم من أقوال أهل العلم في ثنائهم على شيخ الإسلام أنه إمام الأئمة، وشيخ الأمة وأحد العلماء المبرزين في الحديث وعلومه، وله خبرة تامة بعلل الحديث، وفقهه، وبالرجال، وطبقاتهم، وهو أحد النقاد الجهابذة الذين يعتمد على قوله في الجرح والتعديل، وقد ذكره الذهبي في المعين في طبقات المحدثين[١]، وفي ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل[٢]، في الطبقة الثانية والعشرين حيث بدأ بذكر الإمام المزي وثنى بشيخ الإسلام، وذكر في هذه الطبقة أحد عشر ناقداً من الأئمة الأعلام، وعنه أورده السخاوي في الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ في فصل: المتكلمون في الرجال[٣].

---

(١) المعين في طبقات المحدثين.

(٢) ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل (٢١٢).

(٣) الإعلان بالتوبيخ.

وذكره الذهبي في الأمصار ذوات الآثار[1] وقال: تكاثر العلم بدمشق بابن تيمية، وبالمزي وأصحابهما (أي بعد أن كان العلم فيها قليلاً).

وذكره ابن ناصر الدين الدمشقي[2] في طبقات النقاد من أئمة القرن الثامن فبدأ بذكر المزي ثم ذكر شيخ الإسلام ووصفه بقوله: «علم الأعيان».

وكان شيخ الإسلام كغيره من أئمة النقد يعدل ويجرح ويصحح ويضعف في ضوء ما وصل إليه من مناهج المحدثين، وما اكتسب من الخبرة في هذا الباب، ويبدو من تتبع كلامه في كتبه أنه يميل إلى طريقة الإمام أحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم، وأبي داود وغيرهم الذين عدادهم من الطبقة المتوسطة، ويظهر ميله هذا إليهم في إشادته بذكرهم، ودعوة أهل العلم إلى طريقتهم، ورجوعه إلى أقوالهم في الجرح والتعديل لأجل اختصاصهم بهذا العلم وتميزهم به.

ومن المعلوم أن النقد أو الحكم على الراوي تعديلاً وتجريحاً، أو على الحديث تصحيحاً وتضعيفاً ينبني على دراسة أحوال الرواة ودراسة مروياتهم. وهو ما يسمى بالدراية عند المحدثين الذين كانوا يستخدمونها في الحكم على الراوي والمروي، إذ لا يمكن الوصول إلى الرأي الصحيح إلا بعد دراسة أحوال الراوي واعتبار مروياته، ومن هنا كثرت كلماتهم: فلان عنده منكر، أو عنده مناكير، أو فلان إذا روى عن أهل بلده فحديثه صحيح وإذا روى عن غير بلديه ففيه ضعف، أو فلان أثبت الناس في فلان، أو فلان سماعه قديم، أو قبل الاختلاط وهكذا دواليك.

ولأجل تباين الأفهام والمدارك برع في هذا الباب بعض المحدثين واشتهر أمره، وقل درجة الآخر، وكلام أهل العلم في كتب الجرح والتعديل يشير إلى هذا، ومن نظر في كلام الأئمة القدامى، ومن نحا نحوهم من المتأخرين، لم يخف عليه هذا الأمر.

---

(١) الأمصار ذوات الآثار (٢٧).

(٢) الرد الوافر.

ولما كان شيخ الإسلام أحد فرسان هذا الميدان وقد اجتمعت فيه أدوات الاجتهاد، والتبحر في المعقول والمنقول، وسعة الاطلاع وطول الباع وسعة المدارك العقلية، والفقهية، والفهم الواسع لأحكام الإسلام وعقائده، والمعرفة التامة بأدلة الخصوم على أنواعهم، وقد تمكن من إعمال الفكر والنظر في مبحث النقد، والجرح والتعديل على غرار الأئمة الجهابذة، وفي مستواهم.

وكان من سماته حب العدل والتوسط في جميع الأمور، وتشهد له بذلك كتاباته، وسلوكه مع العلماء، واحترامه لهم، وتقدير جهودهم وإعطاء كل ذي حق حقه.

وقد تميز شيخ الإسلام بميله إلى نقد المتون الذي لم يتمكن منه كثير من أهل العلم إلا أنه لأوصافه التي سبق ذكرها وجد في نفسه قوة أن يطرق هذا الباب، ويسلك هذا المسلك، مع اشتغاله بأحوال الرواة ومروياتهم واعتبارها في الشواهد والمتابعات، وقد تجلى منهجه النقدي في منهاج السنة في الرد على الروافض، ولما تقرر أن الروافض أكذب الطوائف وأجهلهم بالمعقول والمنقول، ومعظم ما يستندون إليه من قبيل الموضوعات والضعاف لم يهتم شيخ الإسلام كثيراً بمباحث الإسناد، إذ كان بإمكانه الرد عليهم بالنظر إلى المتون[1] التي ذكرها ابن مطهر الحلي، ولم يكن يخفى عليه وجود إسناد أو أسانيد لهذه الأحاديث بدليل أنه ذكر كثيراً منها من مصادر الشيعة، إلا أنه لم ير الحاجة دائماً في رد أكاذيب الشيعة إلى الأسانيد فوجه النقد إلى هذه المتون بمجرد وجود نكارة في المتن، ومن المعلوم أنه قد يصيب الناقد ويخطىء ويسهو كما لا يخفى على من مارس هذا الفن.

---

(١) انظر لضوابط معرفة الأحاديث الموضوعة كلام أهل العلم في المنار المنيف لابن القيم، والباعث الحثيث (٨١ ـ ٨٣) وفتح المغيث (٣١٣/١) وتنزيه الشريعة (١٠/١) وجنة المرتاب (١٤٧ و١٥٦، ١٥٧).
وبهذا تعرف مدى تطبيق شيخ الإسلام هذه القواعد في الكلام على الأحاديث في كتاب المنهاج وغيره.

ومن هنا حكم على بعض الأحاديث بالوضع والضعف والنكارة وقد رأى بعض أهل العلم صحتها أو حسنها.

ومن هنا نقد الحافظ ابن حجر طريقة شيخ الإسلام في رده بعض الأحاديث في الرد على الرافضة.

فذكر في لسان الميزان[١] أنه كثير التحامل إلى الغاية في رد الأحاديث التي يوردها ابن مطهر الحلي، وإن كان معظم ذلك من الموضوعات، والواهيات، ولكنه رد في رده كثيراً من الأحاديث الجياد التي لم يستحضر حال تضعيفه مظانها، وكان لاتساعه في الحفظ، يتكل على ما في صدره والإنسان عائد للنسيان.

وقال في الدرر الكامنة عن كتاب المنهاج: إنه تحامل في مواضع كثيرة ورد أحاديث موجودة وإن كانت ضعيفة بأنها مختلقة[٢].

ثم جاء الشيخ عبد الحي اللكنوي فعده من الطبقة المتشددة من النقاد بناء على ما وجد من كلام ابن حجر فيه، وحمل كلام الحافظ ابن حجر أكثر مما يحتمل، وقد أظهر رأيه في ذلك في بعض مؤلفاته مثل تحفة الكملة في حواشي تحفة الطلبة في مسح الرقبة[٣] وفي الرفع والتكميل[٤] وفي الأجوبة الفاضلة[٥] ثم نقله عنه الشيخ ظفر أحمد التهانوي في مقدمة إعلاء السنن[٦].

وسبب صنيع الشيخ عبد الحي اللكنوي فيما يبدو من كتاباته[٧] أنه

---

(١) لسان الميزان (٦/ ٣١٩).

(٢) الدرر الكامنة.

(٣) انظر الرفع والتكميل (التعليق ٩٠ ـ ٩١).

(٤) انظر الرفع والتكميل (١٣٥).

(٥) الأجوبة الفاضلة (١٧٤ ـ ١٧٦).

(٦) قواعد في علوم الحديث (٤٤١).

(٧) صرح بهذا في تحفة الكمال.

جرى بينه وبين الشيخ العلامة محمد بشير السهسواني مؤلف صيانة الإنسان عن وسوسة القاضي دحلان مناظرات ومناقشات، وصدرت من الطرفين عدة كتب في مسألة شد الرحال إلى القبور إذ حج الشيخ السهسواني، ولم يزر المدينة النبوية لزيارة قبر النبي ﷺ.

ولما لم يجد الشيخ عبد الحي بداً من التخلص من ردود الشيخ السهسواني الذي كان يؤيد في هذه المسألة رأي شيخ الإسلام معتمداً على ما حرره وتوسع فيه شيخ الإسلام وتلميذه ابن عبد الهادي أظهر هذا الرأي بأن ابن تيمية من الطبقة المتشددة فينبغي على أهل العلم ألا يقبلوا أقوالهم إلا بعد ما يوافقهم الآخرون من نقاد هذا الفن.

ومفاد كلام الحافظ ابن حجر أن هذا التحامل حصل في أحاديث المنهاج التي معظمها بتصريح منه من قبيل الموضوعات والواهيات، وقد ثبت بعد التحقق أن رأي شيخ الإسلام هو السديد في الغالب، وأقره الحافظ الذهبي في المنتقى، أما ما يتعقبه المتساهلون أو من عنده نوع من الميل إلى نصرة مذاهب الناس فلا يلتفت إليهم.

ثم إذا كان العمدة على ما قاله الحافظ ابن حجر فابن حجر كلامه خاص في المنهاج فلا يصلح أن يعمم.

ثم إذا كان هذا ناتجاً عن اعتماد شيخ الإسلام على الحفظ، والذاكرة كما قال الحافظ ابن حجر فكيف يحمل قوله هذا على التشدد، بل لقائل أن يقول: إنه من باب التساهل، وإصدار الحكم قبل التحقق من الحديث.

ثم هناك نقطة مهمة وهي أن منهج شيخ الإسلام في نقد متون الأحاديث قد اتبع فيه منهج أهل النقد الجهابذة الذين لهم خبرة واسعة بالنصوص حيث يمكنهم القول فيها بمجرد النظر في متونها.

وكيف يعمم القول في منهجه النقدي أنه موصوف بالتشدد وهو قد نبه مراراً إلى مناهج المحدثين في باب النقد والتصحيح، وذكر بعض أهل العلم الذين تزكيتهم صعبة كأبي حاتم الرازي، وابن معين، كما أشار إلى تشدد ابن حبان في باب الجرح، وفصل القول في مناهج كبار نقاد الحديث

أصحاب الصحاح والسنن وشرح طريقتهم ومراتبهم فيما بينهم.

وكيف يرمى بالتشدد من كان شأنه العدل والتوسط في جميع شؤونه الدينية والدنيوية، والبحث عن أعذار العلماء فيما وقعوا في شيء من مخالفة النصوص، وكان يعطي كل واحد حقه من مدح، أو ذم، ولا يحب الظلم أبداً.

ثم هناك نقطة أخرى وهي أن الناقد مهما وصف بالتوسط، أو التشدد، أو التساهل فلا يكون على حالة واحدة دائمة في إصدار أحكامه في الرواة ومروياتهم وذلك لأسباب.

فهل يقال: إنه من المتساهلين نظراً إلى هذه الأمثلة.

كما يذهب إلى تحسين بعض الأحاديث نظراً إلى ثبوت أصل الحديث من طرق أخرى، أو قد تتابع أهل الحديث على روايته، ونقله في كتبهم، أو حتى موافق لأصول الإسلام.

وقد كان شيخ الإسلام يورد أحياناً في كتاباته بعض الأحاديث الضعيفة لموافقة معناها للمعاني الثابتة بالكتاب والسنة كحديث أبي بكر الصديق: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله.

ذكره شيخ الإسلام رداً على البكري وقال: هذا الخبر لم يذكر للاعتماد عليه بل ذكر في ضمن غيره ليتبين أن معناه موافق للمعاني المعروفة بالكتاب والسنة[1].

وقد تختلف أنظار أهل العلم في إصدار الحكم على الحديث وقد شرح شيخ الإسلام هذه المسألة فيما سئل عن تنازع أبي العلاء الهمداني وابن الجوزي في وجود الموضوعات في مسند الإمام أحمد.

فوجه شيخ الإسلام قولهما بأن مقصود ابن الجوزي الذي يقول بوجود

---

(١) الرد على البكري.

الموضوعات في المسند هو عدم ثبوته في الواقع، لا لأجل إسناد فيه كذاب أو متهم بالكذب.

وقد صرح شيخ الإسلام بوجود هذا النوع من الموضوع أو ما لا يصح في المسند.

أما قول أبي العلاء فهو حق أيضاً لأنه لم يكن من منهج الإمام أحمد الرواية عن الكذابين والمتهمين، ولا وجود لهذا النوع في المسند.

وقد ذهب إلى هذا الرأي الحافظ ابن حجر في النكت ونقل كلام شيخ الإسلام بعدما شرح المسألة بالأمثلة.

وإذا كان الأمر كما سبق فأقول: أساس من ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في زمرة المتشددين من نقاد الحديث هو قول الحافظ ابن حجر في أحاديث المنهاج.

وقد نوزع الحافظ ابن حجر في تعقبه على بعض هذه الأحاديث التي انتقدها ابن تيمية.

فحديث رد الشمس لعلي مثلاً قد حسنه أو صححه بعض أهل العلم وقد ذهب ابن الجوزي وشيخ الإسلام، وابن كثير، والذهبي وغيرهم من أهل العلم إلى أن الحديث موضوع، وكان معظم نقد شيخ الإسلام منصباً على المتن مع بيان ضعف الأسانيد المروية فيه ووهائها.

وهكذا حديث «سدوا الأبواب كلها إلا باب علي».

وجه شيخ الإسلام النقد إلى المتن، وقبله ابن الجوزي، وقد روي بأسانيد كثيرة، ولأجل هذا حسنها الحافظ ابن حجر، بينما نرى بعض المحققين يؤيد شيخ الإسلام لأن الأسانيد الموجودة لهذا الحديث رجالها ضعفاء ومتهمون وكذابون ومن الروافض، كما شرح ذلك العلامة عبد الرحمن المعلمي اليماني رحمه الله في تعليقه على الفوائد المجموعة للشوكاني.

وخلاصة القول في الموضوع أن شيخ الإسلام في غالب أحواله على

طريقة الإمام أحمد، والبخاري، وأبي داود وغيرهم من الطبقة المتوسطة، مع بروزه في المتأخرين في مراعاة منهج نقد المتون الذي كان يراعيه بدقة ومهارة جهابذة هذا الفن.

وأما الأوهام والأخطاء التي تحصل من الناقدين فهذا لا يخلو منه بشر مهما بلغ من العلم، وهذا أمر معروف بين أهل العلم.

وقد تجمعت لدي بعض الأمثلة كما هو مبسوط في كتابي: «شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه» وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.







الإمام ابن تيمية وانتقاد الحديث

محمد أنيس الرحمن القاسمي
إمارة شرعية، بهار
لخصه وهذبه/
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

كان شيخ الإسلام ابن تيمية علماً شامخاً في الحديث وعلومه، وناقداً بارعاً فيه، وشهرته العلمية تغنينا عن ذكر أقوال أهل العلم المستفيضة في الثناء عليه وعلى مقدرته العلمية، وأكتفي هنا بذكر ما قاله الذهبي رحمه الله في وصفه:

وكانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم، وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة، والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي[1].

وابن تيمية قد أكثر الكلام على الأحاديث، فميز صحيحها من سقيمها على طريقة أهل العلم بالحديث والأثر الذين يرجع إليهم في هذا الفن، فبحث عن الأحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة وانتقد الرجال، وحقق مراتب المحدثين الكبار الذين ألفوا الصحاح والمسانيد وهو القائل بهذا الصدد:

---

(١) (حاشية جلاء العينين ٣٨).

والطريق التي يعلم بها صدق الصادق وكذب المتنبىء الكذاب كثيرة متنوعة. وكذلك ما به يعلم صدق المنقول عن الرسول وكذبه يتعدد ويتنوع[1].

وقد أكثر شيخ الإسلام الكلام على الأحاديث الواردة في كتاب منهاج الكرامة للرافضي ابن مطهر الحلي، فبين ضعف كثير منها ووضعها واختلافها، وسلك في هذا مسلك الجمع والتجربة والتفكير وبحث عن قواعد الإسلام، وما علم من الدين والاضطرار، فأثبت ما ثبت منها، ورد ما علم كذبه، فانتقد تارة بما علم بالقرآن، وتارة بما علم بالتواتر وتارة بما أجمع الناس كلهم عليه، وتارة بالهمم والدواعي، وتارة بالعقل وتارة بما يناقض مذهب أهل السنة من الأخبار[2].

وانتقاد الأحاديث من هذه الوجوه من أعمال تجديد الإسلام لابن تيمية وذلك عمل كبير في نقد الأحاديث فإنه لا يتمكن منه إلا من يكون عالماً بأحوال الرواة، عارفاً بمقاصد الشريعة وأحكامها، حافظاً لجميع الروايات والمتواترات والإجماعات، وعارفاً بالأدلة العقلية، فإن انتقاد الروايات على هذه الطريقة ليس هو انتقاد ألفاظها، بل هو انتقاد لمعانيها، وأحكامها أيضاً، وينبني على أسس العقل والتجربة كما ينبني على التوسع في العلوم الإسلامية من الفقه والكلام والتصوف والتفسير.

ومن أهم ما أكد عليه شيخ الإسلام بهذا الصدد أن الأحاديث الصحيحة الثابتة لا تعارض القرآن.

ومن أعماله التجديدية أنه تتبع الروايات التي كانت الصوفية الغالية والروافض والشيعة يروونها في كتبهم، وأثبت أنها تعارض القرآن والمتواترات وقواعد الإسلام والعقل السليم.

---

(١) منهاج السنة (٤/ ١١٢٠).

(٢) راجع للتفصيل: منهاج السنة (٤/ ١٥، ١١٨، ٢٣٨) ومجموعة الرسائل والمسائل (١/ ٣٦) ومجموع الفتاوى (١٧/ ١٨٩).

كما ذكر شيخ الإسلام الأمثلة الكثيرة التي تخالف ما هو متواتر أو مستفيض عند أهل الإسلام، وردها على هذا الأساس.

كما رد بعض الأحاديث والآثار المخالفة للإجماع بدليل امتناع تعارض النص المعلوم والإجماع ومثاله: ما يرويه الشيعة من النص الوارد في خلافة علي رضي الله عنه، قال شيخ الإسلام:

قد دل الإجماع المعلوم والنص المعلوم على خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبطلان غيرها، ونص الرافضة بما نحن نعلم كذبه واضطراره، وعلى كذبه أدلة كثيرة.

وقد صرح شيخ الإسلام بإجماع أهل العلم على صحة بعض الأحاديث وقال: إنه صدق، كإجماع الفقهاء على أن هذا الفعل حرام أو واجب، فإذا أجمعت على حديث فمخالفه يكون منسوخاً أو باطلاً.

وهكذا نرى أن شيخ الإسلام يرد على كثير من مرويات الروافض بدليل توفر الدواعي والهمم على نقلها، ومع ذلك لم يروها أهل العلم في مؤلفاتهم، فتكون منكرة موضوعة باطلة.

ومن المعلوم أن المتكلمين كانوا مع جهلهم بالآثار يردونها في أبواب الصفات والأسماء بدليل أنها لا توافق عقولهم، إذ كانوا يردونها، فأثبت شيخ الإسلام أنها توافق المعقول الصريح بالمنقول الصحيح، ورد على هؤلاء المؤولين، ويراجع لذلك ما كتبه شيخ الإسلام في منهاج السنة، وموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، ونقض التأسيس، وبغية المرتاد.

ولشيخ الإسلام آراء صريحة في كثير من كتب الحديث وهي مبثوثة في ثنايا مؤلفاته فليرجع إليها فإنها مهمة جداً، وأكتفي هنا بنقل كلامه في الصحيحين فقال:

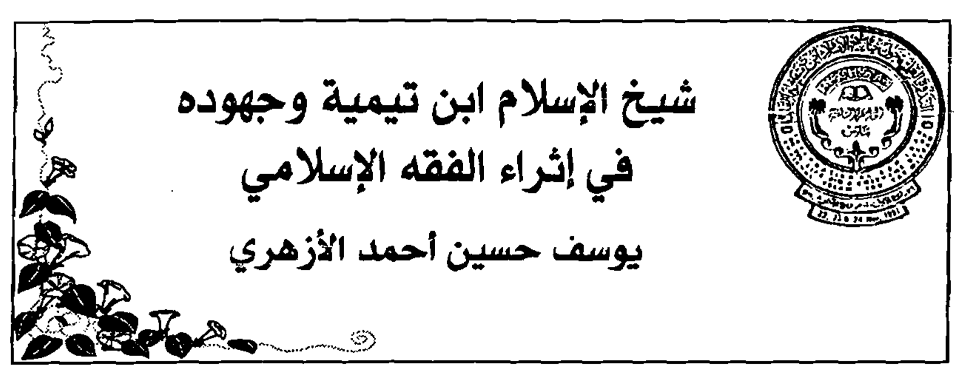
وقد نظر أئمة هذا الفن في كتابيهما، ووافقوهما على صحة ما صححاه، إلا مواضع يسيرة نحو عشرين حديثاً، غالبها في مسلم، انتقدها طائفة من الحفاظ وهذه المواضع المنتقدة غالبها في مسلم، وقد انتصر طائفة

لهما فيها وطائفة قررت أقوال المنتقد، والصحيح التفصيل: فإن فيها مواضع منتقدة، مثل حديث أم حبيبة وحديث خلق الله التربة يوم السبت، وحديث الكسوف بثلاث ركوعات وأكثر، وفيها مواضع لا انتقاد فيها في البخاري فإنه أبعد الكتابين عن الانتقاد، ولا يروي لفظاً فيه إنتقاد إلا يروي اللفظ الآخر الذي يبين أنه منتقد فما في كتابه لفظ منتقد، وفي الجملة من نقد سبعة آلاف درهم. فلم يرج فيها إلا دراهم يسيرة، ومع هذا فهي مغبرة ليست مغشوشة محضة، فهذا إمام في صنعته والكتابان سبعة آلاف وكسر، والمقصود أن أحاديثهما نقدها الأئمة الجهابذة قبلهم، وبعدهم[1].

إن هذا هو الرأي السديد الصادر عن خبير وهو شيخ الإسلام، ومنه يتجلى موقفه من الصحيحين، وهو موقف يحمل كل تقدير وتبجيل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) منهاج السنة (٤/٧٨، ١٩٥ - ١٩٦) وتفسير سورة الإخلاص (١٢).



شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في إثراء الفقه الإسلامي

يوسف حسين أحمد الأزهري

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم، أما بعد:

فهذا بحث متواضع عن «ابن تيمية وجهوده في إثراء الفقه الإسلامي». أستحسن أن أقسمه إلى مقدمة وثلاثة مباحث:

أما المقدمة: ففي منهاج شيخ الإسلام في دراساته للفقه وكتاباته فيه، والمبحث الأول: في جهوده في إثراء الفقه الإسلامي في إطار الفقه الحنبلي.

والمبحث الثاني: في جهوده في إثراء الفقه الإسلامي من غير تقيد بمذهب معين.

والمبحث الثالث: في جهوده في إثراء الفقه الإسلامي باجتهاداته الخاصة.

منهاج شيخ الإسلام في دراساته للفقه وكتاباته فيه:

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قد ابتدأ تفكيره في الفقه بطريقة الإمام أحمد بن حنبل، وكان يعتبر مذهب الإمام أحمد أمثل المذاهب الإسلامية وأقربها إلى السنة وأبعدها عن الغريب في

الفتاوى[1].

وكان ابن تيمية أعلم الناس باتفاق العلماء واختلافهم، كما قال الحافظ الذهبي رحمه الله[2].

ومن هنا أصبح منهجه في دراساته الفقهية مثل منهجه في دراسة الفنون الأخرى كالتفسير والحديث والعقيدة والتصوف:

أنه لا يرجع إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا يتبع بعد الله ورسوله إلا الصحابة، ويستأنس بأقوال التابعين، ويحتج بها أحياناً عند المناظرة فكان لا يتبع الرجال على أسمائهم، وليس لأحد عنده مقام إلا الدليل من الكتاب والسنة أو آثار الصحابة، وتطبيقاً لهذا المنهج في دراساته خرج على الناس بآراء لم يعرفوها، ولكنه كان يردها إلى أصلها، ويبين لهم أنه لم يأت ببدع من القول، ولا يتعصب كذلك في التكفير، وقد خلع نفسه من كل ما يقيده إلا الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح.

وإنه مع عدم تعصبه للآراء لكونها صدرت من فلان، ومع عدم اتباعه للرجال، كان يقدر العلماء تقديراً كبيراً بدرجة أنه صنف كتاباً باسم «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

ومن منهاجه كذلك أن لا يثق بالعقل ثقة مطلقاً، ولا يهمله إهمالاً كاملاً، بل يريد أن يجعله في إطار الشرع، فكان لا يعتمد على العقل في مقدمات الحكم على العقائد والأحكام، وكان يرى أن القرآن والسنة قد أشارا إلى المقدمات العقلية التي تهدي إلى الصراط المستقيم، فقال: «إن دلائل الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر، كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم، بل

---

(١) انظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/٢٣٦)، دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت، لبنان.

(٢) انظر قول الذهبي في مقدمة الفتاوى الكبرى (١/ز) بقلم حسنين مخلوف المفتي الأسبق لجمهورية مصر.

الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم إلى البراهين والأدلة المبينة لأصول الدين»[1].

أما دراساته للفقه وإثراؤه فيه فيمكن لنا تقسيم جهوده فيها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جهوده في إثراء الفقه الإسلامي في إطار المذهب الحنبلي.

القسم الثاني: جهوده في إثراء الفقه الإسلامي من غير تقيد بمذهب معين.

القسم الثالث: جهوده في إثراء الفقه الإسلامي منطلقاً من قيود مذاهب الجماعة وباجتهاد خاص منه، وبعدد هذه الأقسام قسمنا البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول

في جهوده في إثراء الفقه الإسلامي في إطار المذهب الحنبلي

من المعلوم أن الإمام ابن تيمية ولد في أسرة العلم والعلماء التي كانت تنتمي إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، فكان من الطبيعي أن تكون جهوده الأولى في الفقه الإسلامي في المذهب الحنبلي، وأن تكون فتاواه ومقارناته كلها داخل المذهب الحنبلي، وأكثر فتاواه التي أفتى بها وهو بمصر من هذا القبيل.

وكان رحمه الله في هذا القسم من فتاواه متحرياً الدقة في النقل المذهبي والتوضيح والاستدلال والتوجيه على ضوء أقوال السلف، ويرجح فيه ما يراه راجحاً من الأقوال المنقولة في المذهب، فهو وإن كان يتقيد فيها بالمذهب الحنبلي ولا يعدوه إلا أنه كان مجتهداً فيه[2].

---

(١) انظر معارج الوصول ص ٦، المطبعة السلفية ١٣٨٧هـ.

(٢) انظر للتفصيل مع الأمثلة، ابن تيمية لأبي زهرة (٣٦٦ ـ ٣٧٧)، ومختصر الفتاوى للبعلي.

المبحث الثاني
في جهوده الفكرية في إثراء الفقه الإسلامي
من غير تقيد بمذهب معين

ولشيخ الإسلام ابن تيمية مسائل أفتى بها بأحكام اختارها من بين المذاهب الفقهية من غير أن يتقيد بمذهب معين، وجمع هذه الاختيارات العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن العباس البعلي (المتوفى سنة ٨٠٣هـ) في كتاب، سماه: «الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية».

وهذا الاختيار ـ كما يقول الشيخ أبو زهرة[1] ـ يكون غالباً على أساس القرب من الآثار، والقرب من حاجات الناس وتحقيق مصالحهم والعدالة فيهم، وعلى أساس تحقيق المعاني الشرعية التي شرعت لها الأحكام، وللأمثلة يراجع كتاب «الاختيارات».

المبحث الثالث
في جهوده في إثراء الفقه الإسلامي باجتهاداته الخاصة

قال الشيخ أبو زهرة[2]:

يقول العلماء: إن له ـ أي للإمام ابن تيمية في الطلاق ـ منهاجاً خاصاً اجتهد فيه ووصل إلى نتيجة تخالف ما عليه الفقهاء الأربعة، وهذه المسائل الخاصة بالطلاق ترجع إلى ثلاث:

أولاها: الطلاق البدعي الذي ورد النهي عنه أيقع مع الإثم أم لا يقع، لأنه لا يجتمع الوقوع والإمضاء مع الإثم؟

وثانيها: الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث، أو في مجلس واحد، أو في قرء واحد أيقع به ثلاث طلقات كما قصد المطلق، وكما دلت العبارات أم

---

(١) راجع كتابه «ابن تيمية» ص ٤٠٦.

(٢) في كتابه «ابن تيمية» ص ٤١٤.

لا يقع بها إلا طلقة واحدة ليتحقق الغرض المقصود من جعل الطلاق ثلاث مرات، أم لا يقع به شيء لأنه بدعي منهي عنه، ولا يجتمع النهي مع الوقوع؟

وثالثتها: الحلف بالطلاق، والطلاق المعلق الذي قصد به المنع من فعل أو توثيق قوله ولم يقصد به طلاقاً أيقع به طلاق أم لا؟

أثار الإمام ابن تيمية هذه المسائل ووصل باجتهاده فيها إلى رأي يخالف ما عليه الجمهور أو ما عليه المذاهب الأربعة، فثار عليه الفقهاء من أجلها، وتحمل ما تحمل بسببها.

المسألة الأولى ورأي ابن تيمية فيها:

لكي تتضح المسألة نذكر هنا ما هو الطلاق السني وما هو الطلاق البدعي؟ قال شيخ الإسلام: الطلاق المباح باتفاق العلماء أن يطلق الرجل امرأته طلقة واحدة إذا طهرت من حيضها بعد أن تغتسل وقبل أن يطأها، ثم يدعها فلا يراجعها حتى تنقضي عدتها، وهذا الطلاق يسمى طلاق السنة، فإن أراد أن يرتجعها في العدة فله ذلك دون رضاها ولا رضا وليها ولا مهر جديد، وإن تركها حتى تنقضي العدة فعليه أن يسرحها بإحسان فقد بانت منه، فإن أراد أن يتزوجها بعد انقضاء العدة جاز له ذلك لكن بعقد جديد، كما له تزوجها ابتداء أو تزوجها بغيره.

ثم إذا ارتجعها في العدة أو تزوجها بعد العدة وأراد أن يطلقها فإنه يطلقها كما تقدم، فإذا طلقها الثالثة حرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره[1].

والطلاق البدعي هو الذي تخلف فيه قيد من القيود السابقة.

فعلى هذا يدخل في الطلاق البدعي الأحوال التالية:

الأول: الطلاق في الحيض.

---

(١) الفتاوى الكبرى ٣/ ٤٥.

الثانية: الطلاق في طهر جامعها فيه.

الثالثة: الطلاق أكثر من واحدة في طهر واحد بكلمة واحدة أو مجلس واحد، وهذه المسألة الثانية.

وهناك اختلاف في دخول بعض هذه الأحوال في الطلاق البدعي، فالحالتان الأولى والثانية قال عنهما شيخ الإسلام ابن تيمية:

«الطلاق المحرم في الحيض وبعد الوطء وقبل تبين الحمل أيقع أم لا يقع سواء كان واحدة أو ثلاثاً؟ فيه قولان معروفان للسلف والخلف[1]».

وسبب الاختلاف في هذه المسألة اختلاف فهم العلماء في حديث عمر المشهور، وهو قوله ﷺ له: «مره (والضمير يعود إلى عبد الله بن عمر) فليراجعها» ففهم منه طائفة من العلماء أن الطلاق قد لزمه فأمره أن يرتجعها ثم يطلقها في الطهر الأول أو الثاني، وفهم طائفة أخرى أن الطلاق لم يقع، ولكنه لما فارقها ببدنه كما جرت العادة إذا طلق امرأته اعتزلها ببدنه واعتزلته ببدنها فقال لعمر: مره فليراجعها ولم يقل: فليرتجعها[2]».

ثم أيد الإمام ابن تيمية فهم هذه الطائفة الثانية بدلائل واضحة، وقال: وقول الطائفة الثانية أشبه بالأصول والنصوص، وختم كلامه في هذا الموضوع بقوله: ومن تدبر الكتاب والسنة تبين له أن الله لم يشرع الطلاق المحرم جملة[3]».

المسألة الثانية ورأي ابن تيمية فيها:

وهي الطلاق أكثر من واحدة في طهر واحد بكلمة واحدة أو في مجلس واحد مثل أن يقول: أنت طالق ثلاثاً، أو طالق طالق طالق، أو أنت طالق ثم طالق ثم طالق، أو يقول: عشر طلقات، أو ما إلى ذلك، فقال

---

(١) الفتاوى الكبرى ٣/ ٥٤.
(٢) الفتاوى الكبرى ٣/ ٥٦، ٥٩.
(٣) الفتاوى الكبرى ٣/ ٤٥.

عنه الإمام ابن تيمية: «فهذا للعلماء من السلف والخلف فيه ثلاثة أقوال، سواء كانت مدخولاً بها أو غير مدخول بها، ومن السلف من فرق بين المدخول بها وغير المدخول بها، وفيه قول رابع محدث مبتدع.

أحدها: أنه طلاق مباح لازم وهو قول الشافعي وأحمد في الرواية القديمة، وهذا منقول عن بعض الصحابة والتابعين.

والثاني: أنه طلاق محرم، ويلزم منه ما قصد ونطق به، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد في الرواية المتأخرة، اختارها أكثر أصحابه وهذا القول منقول عن كثير من السلف من الصحابة والتابعين.

والثالث: أنه محرم ولا يلزم منه إلا طلقة واحدة، وهذا منقول عن طائفة من السلف والخلف».

وهذا القول هو الذي أيده ورجحه ابن تيمية قائلاً: والقول الثالث: هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة، فإن كل طلاق شرعه الله في القرآن في المدخول بها، لم يشرع له أن يطلق المدخول بها طلاقاً بائناً، لكن إذا طلقها قبل الدخول بها بانت منه، والقول الرابع: أنه لا يلزمه شيء، ويقول عنه ابن تيمية: قاله بعض المعتزلة والشيعة ولا يعرف عن أحد من السلف[1]».

المسألة الثالثة: الحلف بالطلاق:

ومثال الحلف بالطلاق: أن يقول مثلاً: الطلاق يلزمني لأفعلن كذا، أو لا أفعل كذا، قال شيخ الإسلام عنه: للعلماء في هذه الأيمان ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه إذا حنث لزمه ما حلف به.

والثاني: لا يلزمه شيء.

---

(١) الفتاوى الكبرى ٣/٣، ٤.

والثالث: يلزمه كفارة اليمين.

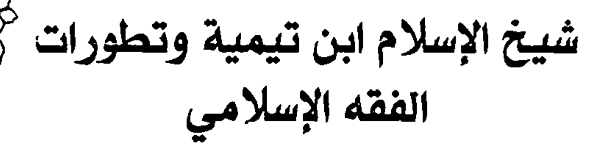
ورجح القول الثالث قائلاً: والقول الثالث أظهر الأقوال، لأن الله تعالى قال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ (سورة التحريم، الآية: ٢)، وقال: ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط**﴾ (سورة المائدة، الآية: ٨٩). وثبت عن النبي ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه» وهذا يعم جميع أيمان المسلمين[1].

هذا وإنني أرجو أن أكون قد لمست ـ ولو بالإشارة ـ جهود شيخ الإسلام في الفقه في مراحله المختلفة، وكان قصدي في هذا البحث اقتطاف نبذ يسيرة فقط من فقهه في كل مرحلة من مراحله الثلاث، والحمد لله أولاً وآخراً.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) الفتاوى الكبرى ٣/٣، ٤.



شيخ الإسلام ابن تيمية وتطورات الفقه الإسلامي

د. ظفر الإسلام، قسم العلوم الإسلامية
بجامعة علي كره الإسلامية
نقله إلى العربية/ علي حسين السلفي

إن شيخ الإسلام العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله (١٢٦٦ ـ ١٣٢٧م) قد حظى بمكانة مرموقة من بين كبار أصحاب الفكر والإصلاح، ولا شك أنه من البارزين الكاملين في العلم والرأي، الذين قد استمالت نظرياتهم وآراؤهم العالم الإسلامي كله لا سيما العلماء والخبراء والبصراء إلى حد كبير، والأهم من ذلك أن شخصيته كانت جامعة ذات جهات من الخدمات العلمية والأفكار الدينية والمساعي الإصلاحية، وقد جرت وسرت في شعب حياته المتنوعة، وقد صارت الفنون من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والاجتماعيات والسياسيات مواضيعاً لبحوثه، وغير اتجاه الفكر والنظر في كل مجال من المجالات. فهو أبين دليل وأوضح شاهد على سعته العلمية وبصيرته النفاذة، وإنما توجد نكتة رئيسية أو فكرة أساسية في جميع بحوثه العلمية أو المتعلقة بشعبة من شعب الحياة الإنسانية، وهي الاستضاءة والاستهداء بالكتاب والسنة والاتباع لمنهج السلف الصالح. ولو طولعت وفحصت خدماته الجليلة حول نمو الفقه الإسلامي ورؤيت بنظر عميق لاتضح هناك أيضاً تلك الفكرة الرئيسية.

ومن أهم مآثره في ازدهار الفقه الإسلامي وارتقائه أنه كما جرده من

التعصب المذهبي ومن مضايق التقليد الشخصي كذلك مهد وهيأ طريقاً عاماً للاجتهاد فيه، وقد أكد قوله في الاهتمام والاعتناء باستنباط المسائل الفقهية من الكتاب والسنة، والاستفادة من آثار الصحابة والتابعين مباشرة، ولم يكتف بذلك بل عمل به أيضاً. وقد اختار هذا الموقف في العصر الذي كان فيه التقليد بالمعين أمراً سائداً بحيث كان يظن كل فقيه ومفت أن العمل على مذهب إمامه واجب، وأنه لا تجوز مخالفته في حالة ما، ولذلك كانت الطريقة المتبعة عند الفقهاء أنهم كانوا لا يستدلون على المسائل الطارئة من النصوص الشرعية، بل كانوا يكتفون بذكر المقتبسات من الكتب الفقهية أو بنقل آراء الفقهاء[1]، ولكن العلامة ابن تيمية قد خالف هذا المنهج، والتزم عند استنباط المسائل واستخراجها طريقة منفردة منه وروجها وعممها وهي أنه كان يرجع أولاً للعلم بوجهة الشريعة في المسائل الطارئة إلى الكتاب والسنة ويستأنس فيها بآثار الصحابة والتابعين، وكان يذكر في هذا الصدد آراء أئمة الفقه أيضاً، وإن كان يضطر إلى اختيار أثر من آثار الصحابة والتابعين وقول من أقوالهم، أو إلى رأي من آراء الفقهاء في مسألة عند عدم وجود نص صريح واضح من الكتاب والسنة فيها، فكان يقبل ويرجح قطعياً في هذه الحالة رأياً أقرب إلى الكتاب والسنة وإن لم يوافق ذلك مذهبه الفقهي، وكان يتبع هذا المنهج أيضاً عند الاجتهاد في المسائل المتجددة فكان يقوي ويبرهن فتواه وقوله بنصوص من الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لا بأقوال الفقهاء، ولا يعني هذا أنه لا يوجد ذكر الكتاب والسنة قطعاً لدى تشريح المسائل الفقهية وتوضيحها أو تفريعها عند غيره من الفقهاء المعاصرين له، بل الاستشهاد والاستئناس بالنصوص الشرعية عندهم أيضاً يوجد بدون شك، ولكنه تبعاً لأنهم كانوا يذكرون مواقف أئمتهم من الفقهاء المجتهدين وحججهم بدلاً من أن ينتفعوا بهذه النصوص مباشرة، فيكتفون بنقل النصوص الواردة في دلائل أئمتهم، أما ابن تيمية فعندما كان يتعرض للمسائل الفقهية كان يستأنف التفكير في الكتاب والسنة وبعد التفكير

---

(١) اعلام الموقعين ٤/ ٢٢٥ لابن القيم.

وإمعان النظر في الأدلة كان يستنتج النتائج، ثم إن لم يكن بد من مزيد التصريح والتوضيح فيستأنس بآراء الفقهاء القدامى.

ولا ريب في أنه تربى وترعرع وتعلم في الأسرة الحنبلية وكان حنبلياً، ويؤيد هذا المسلك في أكثر المسائل ويرجح الفقه الحنبلي على غيره من المذاهب الأخرى الفقهية، وذلك بأنه كان يعتبره أقرب إلى النص كما أوضح ذلك في مجموع الفتاوى له[1].

وأهمية النصوص الشرعية ومنزلتها عنده في استنباط المسائل الفقهية تقدر من موقفه الذي أوضحه بقوله: إن فقيهاً أو عالماً لو اعتبر في بعض المسائل بصيرته الفقهية أن رأي إمام من الأئمة أقوى بالأدلة فاتبعه، وذلك مخالف لرأي إمامه، لكأنه أوفى ما شاء إمامه، لأن أئمة الفقه قاطبة اتفقوا على قول واحد، أي إذا كانت النصوص الصريحة متصادمة لقولي فاتركوا قولي[2]، ومحصل الكلام أنه لم يوجب على نفسه تقليد الأشخاص والرجال واتباعهم في الفقه وغيره من الأمور، بل كان يعتبر الكتاب والسنة وآثار الصحابة أسوة وقدوة لنفسه، وإن هذه الوجهة تضاعف بها التوطيد والتدعيم في ارتباط الفقه مع القرآن والسنة وبها قوي واستحكم أمر إجالة الفكر والنظر والاجتهاد في المسائل الفقهية.

والعنصر الثاني في منهجه الفقهي الذي منحه رفعة وعظمة، كان التزامه بالحجة والدليل والتمسك به، وإن مباحثه الفقهية يمكن أن تقسم على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذي يبدو فيه أنه كان مقلداً متبعاً للمذهب الحنبلي.

والقسم الثاني: الذي يرى فيه أنه كان يختار قول غير إمامه من الأئمة أو الفقهاء.

والقسم الثالث: الذي ينفرد ويستبد به رأيه، والشيء المشترك بين هذه

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/ ١٩٩.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٨٤، وإعلام الموقعين ٤/ ٢٠٧.

الأقسام هو التقيد بالدليل والبرهان، فإنه لا يوافق أحداً ولا يخالفه بدون دليل وبرهان، وقد كان طالع تفاصيل جميع المذاهب الفقهية مطالعة عميقة، وقد أمعن النظر في طرق استنباطها ومناهج استدلالها وأساليب إفتائها، ولذلك كان جيد الاطلاع على دقائق جميعها وقوة دلائلها في المسائل المختلف فيها، ولم يكن يشق عليه التفريق بين الراجح والمرجوح، ومع أنه كان يتبع المسلك الحنبلي في العقيدة ما كان يقبل وجهات نظر الفقهاء الحنابلة أيضاً بدون مستند، بل ينتقد أقوالهم أيضاً على المقاييس الصحيحة، ولذلك لم يتحد اتجاهه مع اتجاهاتهم في بعض المسائل، ومن الأمور البديعة اللطيفة أنه مع كونه مخالفاً للتقليد بالمعين كان يرضى باتباع امرىء قوله إذا كان مبرهناً بالبرهان ومدللاً بالدليل، وإنما ذلك الدليل والبرهان الذي يتمشى ويعتمد عليه هو الكتاب والسنة وآثار السلف[1]، وكان يرجح عند الإفتاء قولاً أو رأياً يدل عليه دليل قوي، وإن يخالف مسلكه الفقهي ويوافق غيره من مذاهب الفقه، والحقيقة أن الذي كان أوجبه الإمام ابن تيمية على نفسه هو التمسك بالدليل والحجة، ومن الذي ينكر أن الكلام وإظهار الرأي في التقيد والالتزام بالبرهان والدليل يمهد ويهيء طرقاً جديدة للتحقيق والتدقيق وينور البصيرة الاجتهادية والفكر الاجتهادي.

وأيضاً من الناحية المهمة في خدماته الفقهية أنه قد خالف التعصب الفقهي والتقيد المسلكي مخالفة عنيفة، واستنفد القوى في بيان أن جميع الأئمة الفقهاء يستحقون التقدير والتوقير، ولا يصح شرعاً أن ينتقد أحد منهم وأن يحط من شأنه، وكذلك انتقد وجهة النظر العامة الشائعة بين الفقهاء وهي أن الحق والصواب مخصوص بمسلكهم ومذهبهم، ومع كونه شديد الارتباط وقوي الالتصاق بالفقه الحنبلي لم يغلق على نفسه أبواب الفقه من المذاهب الأخرى قط، بل قد طالع تصانيف جميعهم باشتياق كبير واستفاد منها جميعاً، وقد خالف الفقهاء غير الحنابلة في المسائل العديدة ولكنه لم يستهدف أحداً منهم باللوم والانتقاص، وكان وسيع المشرب والمسلك

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/ ٣٨٤.

بحيث أنه كان يعد كل واحد من أئمة الفقه باحثاً عن الحق ومجاهداً في ميادين الفقه، وبدلاً من حمل زلاتهم وعثراتهم على علمهم وقصدهم كان يعتبرها من الأعمال الاجتهادية التي يتردد ويمكن فيها الصواب والخطأ كلاهما، وهل من الممكن أن يورد أكبر مثال لسعة قلبه وفسحة صدره من أنه قد أجاب عن الانتقادات التي كانوا يستهدفون بها، وأنه قد بذل جهده الكثير في أن يوصل ويركز في قلوب الناس بأقوال الأئمة الفقهاء الآخرين أن كل واحد منهم لقن أن يرد قوله عند تصادمه إلى الكتاب والسنة[1]، وقال اعتذاراً أو دفاعاً عن أئمة الفقه: إذا وجد لواحد منهم قول جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر لتركه، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاد أن ذلك الحكم منسوخ عنده، ولا سيما أنه قد صنف لتوضيح هذه النكات والأسباب رسالة مستقلة وهي معروفة لدى الناس برفع الملام عن الأئمة الأعلام.

والكلمة المهمة في هذا المقام أن ابن تيمية رحمه الله قد أظهر هذه الآراء في العصر الذي كان فيه كل واحد من أصحاب المذاهب الفقهية المختلفة ملتزماً متمسكاً بمسلكه نفسه، ومحبوساً في حيطة نفس مذهبه، ولم يكن يرضى بالانتفاع بمذهب غيره من مذاهب الفقه، والإشارة إلى محاسنها ومحامدها، ولا ريب في أن اتجاه ابن تيمية في أبواب الفقه قد عاون وساعد في تكوين توسع النظر وتفسح القلب في مجال الفقه، ومع ذلك ارتقت وازدهرت الدراسة المقارنة بين المذاهب الفقهية المختلفة، ويتضح ويتجلى مدى نظريات ابن تيمية وآرائه وتبحره وتوسعه في الأصول الفقهية من منهجه العملي الذي لم يتقيد ولم يلتزم فيه بالفقه الحنبلي دائماً مع كونه كان يتبع ويقلد المسلك الحنبلي ويختاره في غالب الأحوال، بل

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/ ٣٨٤.

كان يسعد بقبول آراء الفقهاء الآخرين بشرط أن تلائم أصول استدلاله كما ينبغي ولا سيما أنه يرى للمجتهدين في استنباط المسائل إذا عارضهم في مسألة رأياً أقرب إلى النصوص يجب عليهم أن يغيروا رأيهم السابق ولو كان ذلك مخالفاً لموقف أئمتهم ولمسالكهم الفقهية، وعنده أنّ التغير الحادث في الرأي على ضوء دليل قوي، لم يكن علامة التردد والتذبذب وعدم الاستقلال والاستبداد به، بل هو مظهر من مظاهر الاجتهاد الداعم والسعي المستمر في سبل العلم واليقين[1].

إن العلامة ابن تيمية رحمه الله مؤيداً هذا الرأي وموضحاً أهمية قول الرسول ﷺ وصحة مكانته قد لفت أنظار العلماء والفقهاء وأفكارهم إلى أنه يجب أن يترك ويرد قول إمام أو فقيه مهما تكن إمامته وفقاهته عند معارضته قول الرسول ﷺ[2].

وكانت له علاقة متينة بالمسلك الحنبلي، ولكن قد خالف ونازع في بعض مسائله أيضاً، وإن الشيء الذي كان يراه واجباً لازماً في ميدان الفقه بالنسبة إلى تقليد الإمام أحمد وأتباعه هو منهاج استنباطه المسائل، يعني تشريح المسائل وتوضيحها على ضوء الكتاب والسنة مباشرة، سواء كانت تتعلق بشؤون العصر القديم أو بمتطلبات العصر الجديد.

وليس غرضي من هذه التفصيلات أنه يسوغ لكل أحد ـ أياً من كان ـ أن يترك تقليد مسلكه واتباعه ويختار أياً من آراء المذاهب الأخرى المختلفة فيها بل إنما كان يجوز تبديل الموقف والمسلك في الأمور الفقهية للذين لهم معرفة جيدة بأحوال الاستنباط، واستعداد كامل في مقارنة الأقوال المختلفة والتفريق والتمييز بين الراجح والمرجوح، وكان ينعي مع ذلك أشد النعي على من يترك مذهباً من المذاهب ويختار غيره منها بناء على التساهل المحض، مثلاً لأخذ حق الشفعة يعمل أحد على مسلك الإمام أبي حنيفة،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/ ٣٧٨.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

ولكن إذا طلب جواره منه حق الشفعة فيقول: هذا لم يثبت بالنص[1]، قصارى القول أن ابن تيمية رحمه الله كان يستقبح قبحاً شديداً تلك المسالك الفقهية واختيارها المنهج الذي إنما يكون لجعل الشريعة لهواً بحيث لا تراعى فيه الحدود الشرعية.

وإن هذا المنهج العملي في المسائل الفقهية قبيح مذموم في نظر ابن تيمية لا لعامة الناس فحسب بل للفقهاء والعلماء الذي يتتبعون الحيل للتحرر من قيود بعض الأحكام الشرعية، وللتخلص من بعض الحدود الشرعية، وإنما ذلك للتيسير والتسهيل فيها، بل إن ابن تيمية رحمه الله قد اعتبر هذه الحيل متصادمة مع أغراض الشريعة المطهرة، وقال إنما المقصود من أحكام صاحب الشريعة وأوامره ونواهيه هو تكوين الحياة الإنسانية التي تصبغت بصبغة تعاليم الكتاب والسنة، وكذلك إنشاء مجتمع صالح وتعميره حتى يكثر العدل والإنصاف، وعندما تتولد بالدقائق والحيل الفقهية صور وأشكال يتخلص بها من العمل على وفق الأحكام الشرعية أو توصل إلى التعدي في حدود الله فتكون قداسة الأحكام الشريعة مجروحة، ولا يفي ويتم ما كان قصد منها، كالزكاة فإنه لم يكن يقصد منها أداء عبادة ظاهرية فقط، بل المقصود منها إعانة الفقراء والمساكين وأصحاب الحوائج وقضاء حاجاتهم بها أيضاً كما يدل عليه النص الصريح فإن اتخذ أحد حيلة بأنه يهب أمواله لأحد قبيل حولان السنة، ورام بها أن يسقط ذلك الحكم من ذمته وعهدته فهل يتم ما قصد من ذلك الحكم الشرعي؟ هذا المنهج والاتجاه قد أوقع عليه ابن تيمية رحمه الله ضربة عنيفة ببحوثه الفقهية على ضوء الكتاب والسنة، وتلك البحوث المهمة توجد في رسالته المشهورة المعروفة بإقامة الدليل على إبطال التحليل، وهذه جزء من المجلد الرابع من مجموع الفتاوى له، وإن يكن موضوعه الخاص إبطال الحيلة التي كانت تختار بنكاح المطلقة ثانية بعد تطليقها ثلاثاً، ولكن أبدى رأيه في غيرها من الحيل التي صارت في الوقت نفسه جزءاً من الكتب الفقهية الكثيرة وكانت رائجة بين

---

(١) نفس المصدر ٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

العوام، فقد رد ابن تيمية رحمه الله على هذه الحيل الفقهية بأن الأشياء التي حرمها الإسلام فقد حرم ذرائعها ووسائلها أيضاً ويشد ويقفل به أبواب المحرمات، وينبغي أن يفكر في أن الإسلام يقصد فيه رفعة المقاصد والأغراض وجودتها وطهارة حصول ذرائعها ونظافتها معاً، فإن يكن الغرض من فعل حصول الشيء الحرام فمهما تكن تستخدم من أشكال ظاهرة لحصوله فالحكم على ذلك موقوف على النية[١].

فإذاً نستطيع أن نقول على ضوء هذه التفاصيل إنه أدى خدمة تطهير الفقه الإسلامي وغيره من العلوم، وبذل وسعه في إنهاض هذا العلم وترقيه على المنهج الذي يكون عوناً على تكميل غاية الشريعة الإسلامية الحقيقية وترجمة متطلبات القرآن والسنة.

خلاصة الكلام أن الأعمال القيمة التي قدمها ابن تيمية رحمه الله في ارتقاء الفقه الإسلامي وازدهاره تقدر حقيقة قيمتها ومكانتها بأنه لم يوضح أصوله ومناهجه فيها فحسب بل طبقها في فتاواه ومباحثه الفقهية، وأظهر وكشف آراءه في شعب الحياة الإنسانية المتنوعة بأساليبه البديعة استدلالاً عليها على ضوء الكتاب والسنة، وإن المسائل التي أبدى فيها رأيه في مجلدات فتاواه المبسوطة منها العقائد والعبادات، والمعاملات وغيرها من المسائل أو الشؤون الاجتماعية العديدة، ويتضح جلياً من ذلك أنه أنفق جهده الكثير في ربط الحياة الاجتماعية بالفقه الإسلامي وكذلك يتبين من تآليفه الفقهية أنه قد ألقى نظرة اجتهادية على مسائل المجتمع المعاصر على ضوء الكتاب والسنة، وأعلى ورفع الفكر الاجتهادي الذي هو روح الفقه الإسلامي.

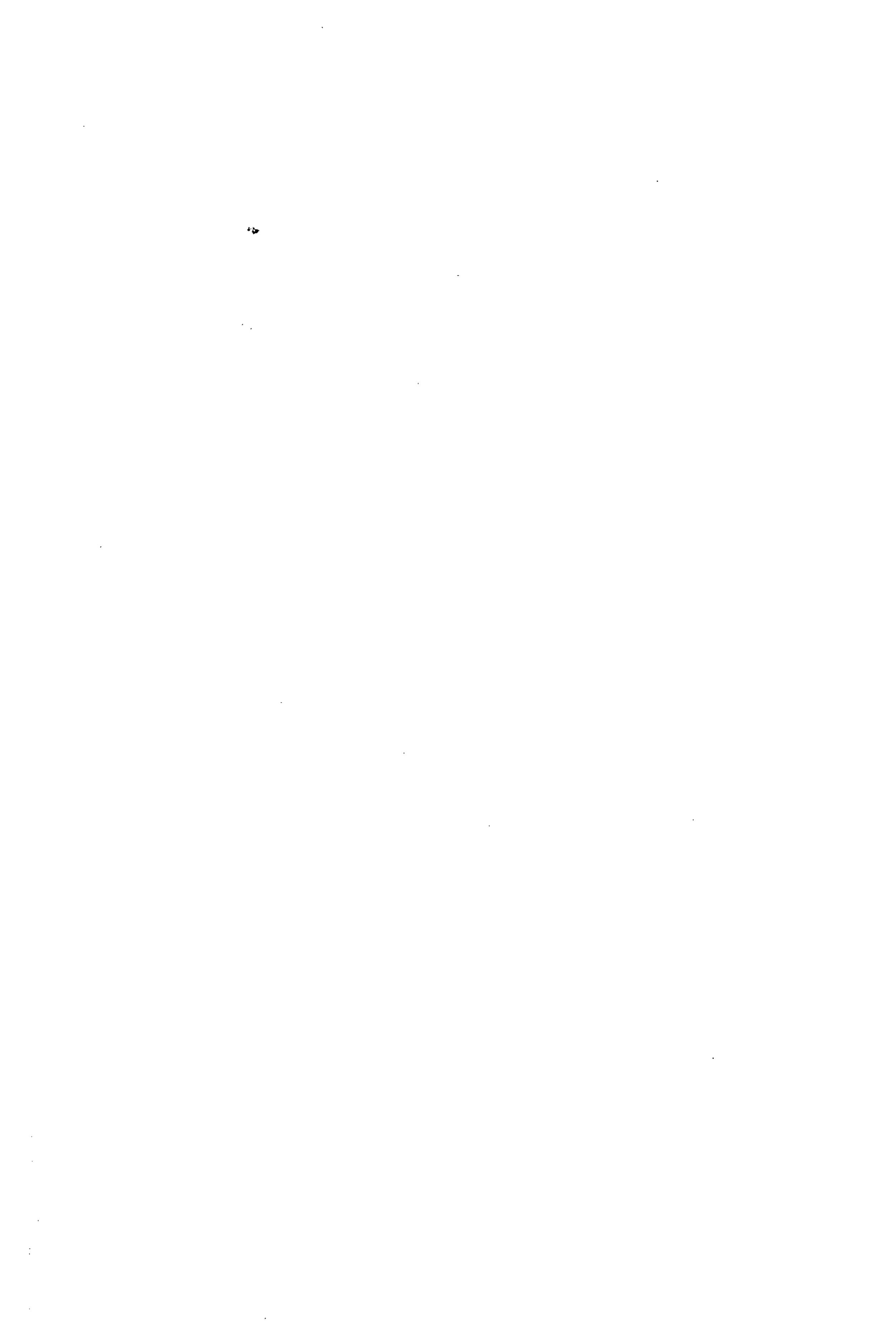
والحقيقة أن النزاعات والاختلافات الفقهية والتعصبات المسلكية تدفع بالأصول والمناهج الفقهية التي أوضحها ابن تيمية رحمه الله، وكذلك يقضي بها على الجمود والتعطيل في الفقه الإسلامي ويحيى بها الفكر الاجتهادي،

---

(١) راجع للتفصيل في الحيل الفقهية رسالته، وإعلام الموقعين ٣/٣٩٣ ـ ٣٩٥، وتذكرة أبي الكلام آزاد ٨٥ ـ ١٠٢.

على أنه اتباعاً بمنهاج استدلاله الذي عالج به المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية معالجة فقهية لا بد من إلقاء النظرة العميقة على المسائل الاجتماعية المتجددة التي قد صارت سبباً لتوزع فكرة عامة الأمة المسلمة وخاصتها وتشرد خاطرها والتي يحتاج إلى تشريحها وتوضيحها واستنباطها على الوجهة الفقهية. فالله أسأل أن يجعل هذا الاجتماع المنعقد تحت اهتمام الجامعة السلفية ببنارس نحو ذلك خطوة طيبة مثمرة.







موقف ابن تيمية من الفقه الإسلامي

محمد نعيم الرحماني، مونغير، بهار
نقله إلى العربية/ علي حسين علي السلفي

الفقه الإسلامي:

إن من أعظم عناياته تعالى وأكبر مننه على عباده أن يفقههم في الدين ويمنحهم البصيرة النافذة والفراسة النيرة في إدراك أسراره وفهم حكمه، لأنه لا ريب أنه منبع كل خير وبر، كما إنه طريقة لقضاء الحياة السعيدة المظفرة في الدنيا، كذلك هو ذريعة وحيدة لابتغاء وجه الله تعالى ورضوانه والفوز بالنجاة والسعادة في الآخرة، إن الذي لم يعرف الدين ولم يحظ بفقهه وفهمه، بل حرم منه فقد حرم من كل حسنة وصلاح، فقد قال النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

إن تحصيل علم الدين واكتسابه، والمعرفة بطبيعة الدين وروحه، والخبرة بأحكامه ومسائله فريضة متقدمة، لأن العمل على أحكامه كما ينبغي لا يمكن بدونه، ولا يتم الغرض ولا تتحقق الغاية من التعاليم الإسلامية بغيره، فالذي يتصف بتلك الصفات يقال له في اصطلاح الشرع: الفقيه، فإذن إن الفقيه هو عالم ديني له نظرة عميقة في الكتاب والسنة يفهم مقاصد الدين ويعلم بواطنه، يعرف طبيعة الشريعة، ويقف على أسرارها وحكمها، له قوة فائقة وموهبة كاملة في تفقه واستنباط واستخراج المسائل المحيطة بشؤون الحياة الإنسانية كلها من أضواء الكتاب والسنة وأصولهما.

ومن الحقائق الواضحة أن إبقاء الجسم وحفظه ضرورة إلى بقاء الروح كذلك لا بد من علم الفقه وكون الفقهاء لاستبقاء دين الإسلام وحفظه وصيانته وإقامته.

إن الإسلام قانون كامل ودستور شامل أبدى، يُهدي الناس هداية كاملة في كل وقائع الحياة ومراحلها، ويرشد كذلك للدنيا في كل عصر ودهر، ولا يرضى لأصحابه المسلمين حيناً من الأحيان بأنهم يتذللون أمام غيرهم، لأن المسائل العارضة المتجددة في هذه الدنيا المتطورة في أي عصر وعهد وكيفما تكون، لم تزل تحل على ضوء الكتاب والسنة لكي يتسهل ويتيسر لجميع المسلمين وعامتهم أن يقضوا حياتهم على وفق التعاليم الإسلامية الصحيحة والهدايات الربانية الكاملة وأن يعملوا عليها.

العلامة ابن تيمية رحمه الله:

كان ابن تيمية ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ صاحب الخصائص والمزايا المتنوعة، ولا ريب أنه كان من ذوي الصفات القدسية، فإن مثله قلما يتولد إلا بعد مضي القرون، إن أرباب العلم والفن يعتنون ويولعون غالباً بفن أو بفنين أو ثلاثة فنون، فنحن نشاهد في الوقت الحاضر كل يوم أن الذي هو متفرد بتفسير القرآن لا صلة له بفلسفة وتاريخ، وأن الذي هو محدث عصره بدون نزاع فليس من المستحيل أنه لا علاقة له بعلم الكلام.

كذلك منهم من انتهت منزلته من التفقه إلى حد تفتخر وتعتز المعمورة العلمية أن تنقاد وتستسلم فيه له إلا أنه لا علاقة له من بعد بمعضلة منطقية لفظية، ومنهم من ينادي بأعلى صوته في مجالات فنون المنطق والفلسفة: أنا أنا لا غيري إلا أنه يتلكأ ويتلقم ويتكدر في مساهمة في حدائق فنون الأدب والبلاغة المزهرة، وكذلك شأن بعض المحاضرين والكتاب الذين لو أنفقت سوق محاضراتهم وإنشائهم من جانب ولكن من جانب آخر يكفي لارتعاش قلوبهم وارتعاد أفئدتهم ذكر المعركة الساخنة بينهم وسماعها، ولكن حينما نلفت النظرة إلى شخصية العلامة ابن تيمية نجدها جامعة الصفات، ليست فارسة في ميادين العلوم والفنون فقط، بل هي لامعة مشرقة في فن

الحرب والضرب، فذة فريدة في عالم الزهد والتقى وحسن الأخلاق والسيرة، أي كمال لا يوجد في ذاته البارزة وأي جوهر كان لا يفتخر ولا يعتز بانتسابه إليها، وأية منقبة كانت لا تفتخر بها.

تيري جواهر طرف كوكيا ديكهين
هم أوج طالع لعل وكهر كو ديكهني هين

فقه ابن تيمية رحمه الله:

عندما نلقي نظرة عابرة في بصيرة ابن تيمية الفقيهة وموهبته ومنزلته يبدو لنا أنه كان فقيهاً فخماً عظيماً، وكانت له نظرة عميقة في أقوال وآراء المتقدمين والمتأخرين، وكان له إلمام كامل باستنباطات أصحاب القياس، وكان له اطلاع تام أيضاً على انتقادات أصحاب الحديث، ودقائق أصحاب التخريج، وأما كماله في البصيرة الفقهية فهو إرجاع النتائج إلى المقدمات والفروع إلى الأصول والمسببات إلى الأسباب في المسائل الفقهية حتى ينكشف الستر عن وجه لب الشريعة ومغزاها.

التعريف بمذهبه:

إن أسرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وبيئته التي فتح عينيه فيها كانت كلها حنبلية، ولذا كان من الطبيعي قطعاً أن يتلقى دروساً من الفقه الحنبلي فأخذ علم الفقه من والده العلامة عبد الحليم شهاب الدين، وأتم وأكمل الكتاب المعروف في الفقه الحنبلي، بالمسودة في أصول الفقه الذي قد ساهم واشترك في تصنيفه جده ثم أضاف إليه أبوه، هذا الكتاب في الفقه الحنبلي معتمد معروف، فلذلك يعده أكثر العلماء حنبلياً بحتاً، لأن آراءه التحقيقية مأخوذة ومشتقة في أصلها من الفقه الحنبلي، وقد كان يدافع وينافح عن الحنابلة، وإن كان قد انتهى إلى أن خالف رأيه رأي الحنابلة في بعض المسائل، بل يبدو في بعض الأحيان أنه يختار موقفاً أو فكرة يخالف موقف أو فكرة جميع المذاهب الأربعة أيضاً، وانفرد بها عنها جميعاً، ومع ذلك لم يخرجه أكثر فقهاء الحنابلة من صفته الحنبلية، إذ هو في كل ما

وصل من التفرد لم يخرج عن الأصول الحنبلية، بل يرجح ويقدم مذهب الإمام أحمد على غيره من المذاهب الأخرى الفقهية، ومهما يكن مقدار انطلاقه من القيود المذهبية فإنه كان يعتبر مذهب أحمد أمثل المذاهب الإسلامية وأقربها إلى السنة، ولذلك يقول فيه:

«أحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصاً كما يوجد لغيره، ولا يوجد في مذهبه قول ضعيف إلا وفي مذهبه قول يوافق القول الأقوى».

تقدير الفقهاء وتوقيرهم:

إن ابن تيمية إذن حنبلي النزعة، يفضل ويرجح مذهب الإمام أحمد على سائر المذاهب الأربعة ويتقيد في استنباطه بأصوله، ويعتبر أمثل المذاهب الإسلامية المذهب الحنبلي وخير الفقه الإسلامي الفقه الحنبلي، إذ يجد فيه خصوبة لا يجدها في غيره، ولكنه مع ذلك يوقر جميع الأئمة والفقهاء كل التوقير كما يقدر الإمام أحمد كل التقدير لكونه متبعاً لمذهبه، وذلك يبدو حينما يراعي آراءهم وأقوالهم عند تحقيق المسائل كل المراعاة، ويوازن بينها ويميز صوابها من خطئها من حيث لا يعتريه كسل ولا فتور ولا شيء من التعصب المذهبي، ويختار القول الذي يوافق الصواب ويرد ما يخالفه من الأقوال في نظره، ويعتذر عن قائليها بكل احترام، وقد كتب في ذلك رسالة سماها رفع الملام عن الأئمة الأعلام، وذكر الأسباب العديدة للآراء المخالفة للأحاديث، وقد قال في مقدمتها:

«وبعد فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، وخصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء والذين جعلهم بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا.

وبعد ذلك التمهيد قال: وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته في دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول، وعلى كل فإذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه».

وإنا بهذا نقدر أن ابن تيمية الفقيه كيف كان يوقر الفقهاء والأئمة والأعلام حق التوقير. وكم كان وسيع الصدر وبعيد النظر، وكم كان حظي بالعلم الوافر من الفقه الإسلامي.

لو نطالع فقه ابن تيمية بنظر عميق لعرفنا أن فقهه كان فقه المجتهد، فهو لا يقلد ولا يتبع أحداً بغير دليل وبرهان، هو في فتاواه متخير مستنبط كما هو في اختياراته، بيد أنه في اختياراته لا يتقيد بمذهب، ولذا لو قيل: إنه كان فقيهاً مجتهداً، ولم يكن مقلداً، بلا ريب لكان صحيحاً قطعاً، وعلى كل حال فقد كان يراعي مذهبه الفقهي، ومع ذلك نجد المسائل التي انفرد بها عن الأئمة الأربعة قليلة كقوله: في الحلف بالطلاق، وقوله: في الطلاق الثلاث، وكقوله: في السفر المرخص للإفطار في رمضان، وقصر الصلاة، من أنه يطلق ما يسمى سفراً، وكتجويزه جمع الصلاتين للحاجة ولو في الحضر، وغيرها من المسائل ولكن مثل هذه التفردات التي لا توجد في مذهب فقهي، قليلة جداً.

إن مسائل ابن تيمية هذه منتشرة مبسوطة مفصلة مبرهنة مدللة في مختاراته وفتاواه وتآليفه، نعم إن مسألة الطلاق الثلاث من بين هذه المسائل التي تفرد بها ابن تيمية قد كتب فيها مباحث طويلة بسيطة، وقد صنفت فيها أيضاً رسائل، وبهذا يقدر أهمية هذه المسألة، فينبغي لنا أن نذكر آراءه ونظرياته ودلائله فيها حتى يتضح صحة الموقف فيها.

الطلاق الثالث: هو الذي يجمع الطلقات الثلاث في لفظ واحد وهي أن يطلقها ثلاثاً بكلمة واحدة وفي طهر واحد مثلاً.

يقول الزوج لزوجته: طلقتك ثلاثاً، أو يقول: طلقتك، طلقتك،

طلقتك، أو طلقتك عشر تطليقات.

قال الإمام الشافعي: يقع ثلاثاً، ولا إثم فيه، لأن البدعة في نظر الشافعي مقصورة على الطلاق وقت الحيض أو في طهر أصابها فيه.

وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة والإمام مالك والإمام أحمد رحمهم الله: إنه طلاق محرم، ولكن يقع به الثلاث، وهو الذي اختاره أكثر أصحاب الإمام أحمد، وهذا القول منقول أيضاً عن كثير من السلف من الصحابة والتابعين. وقال كثير من السلف من أصحاب رسول الله ﷺ مثل الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف، وعليّ وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين: إنه محرم لا يقع به إلا طلقة واحدة، وهو قول داود الظاهري وأكثر أصحابه، وهو مذهب أبي جعفر محمد الباقر بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق أيضاً، وإليه ذهب ابن تيمية رحمه الله.

دلائل هذه المسألة: ويستدل ابن تيمية لاختياره ذلك أي إنما تقع طلقة واحدة ولو طلق الثلاث أو أكثر في طهر بدليل من القرآن ومن السنة ومن الأقيسة الفقهية والاعتبار.

الدليل القرآني: وأما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ﴾، وهذا التعبير يقتضي أن الطلاق لا يقع دفعة واحدة بل يقع مرة بعد مرة، ويقول في هذا: لم يقل طلقتان، بل قال: مرتان، فلو قال لامرأته: أنت طالق اثنتين أو ثلاثاً، أو عشراً، أو ألفاً، لم يكن قد طلقها إلا مرة واحدة.

الدليل من السنة: وأما أدلته من السنة فهي ما روى طاووس عن عبد الله بن عباس أنه قال:

(كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر رضي الله عنه: «إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم») أخرجه مسلم وغيره، وفي رواية لمسلم عن طاووس أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر

واحدة؟ قال: قد كان كذلك، فلما كان في زمن عمر تتايع الناس في الطلاق فأجازه عليهم، وروى الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: طلق ركانة بن عبد يزيد امرأته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً، فسأله رسول الله ﷺ كيف طلقتها؟ قال: طلقتها ثلاثاً، قال: في مجلس واحد؟ قال: نعم، قال: فإنما تلك واحدة فأرجعها إن شئت، فراجعها.

الدليل من القياس: هذه أدلة ابن تيمية من السنة، أما دليله من القياس فهو أن رسول الله ﷺ قد أباح الطلاق وعينه على نحو معين فما خالف ذلك النحو فقد خالف إذن الله، والطلاق في الأصل ممنوع ولم يأذن به الله إلا في أحوال معينة، وهو الطلاق في وقت معلوم وبعدد معلوم، فما خالف الإذن كان على أصل المنع، فالطلاق قد جاء المشروع منه على هذا النحو الذي بينه القرآن فما جاء على غير المشروع فهو في دائرة الممنوع، والممنوع باطل، وفوق ذلك إن الشارع إذا أباح عقداً أو تصرفاً على نحو معين فغيره غير مباح، وغير المباح باطل، هذه هي دلائل ابن تيمية رحمه الله التي قد استفرغ قوته في الاستدلال بها على اختياره.

قبل أن نخوض في دلائل ابن تيمية رحمه الله هل هي صحيحة أو غير صحيحة نبذل الوسع في أن نعلم في أية أوضاع رجح رأيه المختار، وبذل الوسع في إثباته، وقد أثبته وحققه، ثم ننظر ما هي عوامله وبواعثه.

إن الشيخ أبا الطيب محمد عطاء الله حنيف الفوجياني قال بعد أن حقق ونقح رأي ابن تيمية هذا، ذاكراً لهذه الأسباب والعلل:

إن الشريعة المحمدية قد جعلت اجتماع الزوجين وافتراقهما أمراً خطيراً مهماً، وقد دبرت ونظمت في شد ثقوب الافتراق كلها، ولكن عامة الناس كانوا يطلقون ثلاثاً لعدم الوقوف على خطورته مندفعين بدافع العواطف، وأحياناً كانوا يحلفون حلفاً تقع به الفرقة. فابن تيمية رحمه الله لما نظر وفكر في هذه الحقيقة بأنهم كانوا يقدمون على هذا الأمر الخطير، ولكن حينما يجيء نيل عواقب أمرهم بسبب فتاوى فقهاء عصرهم الرائجة يذهبون

إلى حضراتهم فزعين لمعالجة صعوباتهم، فيعالج هؤلاء المفتون هذه المشاكل بأن يحللوا، يعني: الذي فرق زوجته بالطلقات الثلاث أو بالطلاق الحلفي بالكلية يعطي زوجته المطلقة لأحد بنكاح مؤقت بشرط أن يطلقها بعد خلوة صحيحة، لكي يعمل بهذه الحيلة الشنيعة على حكم آية: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، وتحل زوجته المطلقة.

فالإمام ابن تيمية رحمه الله إذاً رأى هذا العمل الوقح (عمل التحليل) رائجاً عاماً، مع أن أحاديث النبي الصحيحة الصريحة وأقوال السلف وآراءهم تدل على قباحة هذا التحليل وشناعته، ولكن الجهلاء بجهالتهم وأكثر الفقهاء بدون تفكر وتدبر كانوا يسرعون منطلقين إلى هذا المنهج الرائج، ولكن الاستعجاب يزداد ويتضاعف حينما نتفكر في أن العمل الذي تكرهه النجابة الإنسانية فكيف يتسع في الشريعة المطهرة. ولذلك نجد أنه بحث عن حقيقة المسألة بعلمه الوافر والبصيرة الاجتهادية على ضوء مصادر الشريعة وأصولها بحثاً أولياً يخالف المنهج العام الشائع، فانتهى به ذلك إلى أن بناء شيوع التحليل أو الحلالة على وقوع الطلقات الثلاث بدفعة واحدة وعلى كون الطلاق الحلفي لازماً شرعياً، فقد قلدوا أنفسهم في أعناقهم قلائد لزوم الأغلال والسلاسل هذه واتخذوا التوسع والتفسح في الكتاب والسنة ظهرياً فإن المنهج الذي كان في عهد النبوة والخلافة إذا أحيي فلا تبقى حاجة ما قطعاً إلى الحلالة الملعونة، ولذلك صنف الإمام ابن تيمية في إبطال الحلالة الرائجة كتاباً ضخماً سماه: «إقامة الدليل على إبطال التحليل» تبلغ صفحاته إلى أكثر من خمسين ومائتي صفحة، وحقق فيه المسألة نفسها مع بيان عواملها ووجوهها، وفصل القول في ذكر مفاسدها ومعايبها تفصيلاً حسناً، بل درس دراسة عميقة غير الحلالة من الحيل الشائعة في المسائل العقدية، التي فتح أبوابها الفقهاء، وردها بالبراهين الساطعة والحجج الدامغة التي لن ترد أبداً، كذلك كشف الستار عن حقيقة مسألة الطلقات الثلاث أيضاً، فبتحقيقاته البديعة ودراساته الأنيقة ارتفعت الستور الثخينة التي كانت مطروحة عليها من القرون الثلاثة إلى ما بعدها، وأثبت أن هذه المسائل إن تركت على هيئتها الأصيلة الساذجة فلن تبقى أية ضرورة إلى الحلالة الرائجة.

هذه هي العوامل والأسباب التي بينها الشيخ محمد عطاء الله حنيف الفوجياني لإثبات رأي الإمام ابن تيمية وهو أن الرجل إذا طلق الطلاق الثلاث بكلمة واحدة في مجلس واحد تقع به طلقة واحدة فقط.

فلو سلم موقف ابن تيمية رحمه الله ودلائله والأسباب التي اختار لها هذا الموقف لأمكن أن يقال: إن الأحكام والمسائل إن تبدلت وتغيرت بمثل هذه العلل والبواعث كمراعاة طبائع العوام والظروف المتطورة في الدنيا فقد صار الدين هزواً، والشريعة ملعبة الصبيان.

لعل الإمام ابن تيمية رحمه الله أول رجل خالف الفقهاء من الأئمة وغيرهم وذلك واحد من الأسباب التي تسببت في غضبهم وسخطهم عليه.

وقد أجيب عن تلك الدلائل من الأئمة الأربعة وغيرهم من الفقهاء إجابات، وصنفت فيها تصانيف، وألفت فيها مؤلفات، ونشرت المقالات والمضامين، فقد كتب سماحة الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي في مسألة الطلقات الثلاث رسالة مفصلة مدللة، سماها الأعلام المرفوعة، وكذلك صنف قبيل عدة سنوات سماحة الشيخ صغير أحمد الرحماني شيخ الحديث بالجامعة الرحمانية مونكير رسالة باسم «نهج استخدام الطلاق» قد فصل القول فيها في مسائل الطلاق لا سيما هذه المسألة، فقد أوضحها إيضاحاً تاماً صافياً، وبرهن على وقوع الطلاق الثلاث في حالة إيقاع الطلاق الثلاث في لفظ واحد بدفعة واحدة.

وقد أدت كذلك اللجنة الإسلامية للقانون الشخصي لعموم الهند في هذا الصدد خدمات جليلة، وكذا رئيس هذه اللجنة حضرة الشيخ السيد أبو الحسن علي الندوي، ورئيسها العام سماحة الشيخ السيد منة الله الرحماني أمير الشريعة لبيهار وأريسا ـ أطال الله عمرهما، وقبل مساعيهما الجميلة ـ قد نشرا كلاهما من اللجنة كتيبات ورسائل عديدة، أحياناً باسم «إن الطلاق أمر قبيح»، وأحياناً باسم «منهج» استخدام الطلاق، وأحياناً باسم الطلاق الواحد وأحياناً باسم الطلاقان، ومرة باسم الطلقات الثلاث، وأحياناً باسم الطلاق والنكاح، وقد عرفا بها جميع مسلمي الإقليم من المسائل، وإن هذه الحركة بحمد الله لم تزل ناجحة.

ليرسخ في الذهن أن الطلاق الثلاث لو وقع في مجلس واحد تقع به الثلاث كلها، سواء وقع بكلمة واحدة أو وقع بكلمات عديدة، ولا تصح بعد ذلك المراجعة، مسألة الشريعة الإسلامية هذه مسألة مهمة اتفق عليها أهل السنة والجماعة، الأئمة الأربعة، الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد رحمهم الله، وهذا هو رأي غيرهم من الأئمة الكبار للفقه والحديث مثل الأوزاعي، والنخعي، والزهري، والثوري، وإسحاق، وأبي ثور، والإمام البخاري، بل قال به جماهير الصحابة والتابعين وجميع الأئمة من السلف والخلف.

قال الإمام النووي في شرحه لمسلم:

«وقد اختلف العلماء في من قال لامرأته: أنت طالق ثلاثاً، فقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد وجماهير العلماء من السلف والخلف: يقع الثلاث[1]».

وقال العلامة ابن الهمام في فتح القدير شرح الهداية:

«وذهب جمهور من الصحابة والتابعين من بعدهم من أئمة المسلمين إلى أنه يقع الثلاث[2]».

وقال العيني في عمدة القارىء شرح البخاري:

«ومذهب جماهير العلماء من التابعين ومن بعدهم منهم الأوزاعي والنخعي والثوري وأبو حنيفة وأصحابه ومالك والشافعي وأبو ثور وعبيد وآخرون كثيرون على أن من طلق امرأته ثلاثاً وقعن ولكن يأثم[3]».

قصارى القول أنه ينبغي للزوج في جميع الأحوال أن يختار للتطليق أحسن الطرق وخير المناهج، ولكن إن خالفها أحد بأن طلق ثلاثاً في مجلس واحد فيقعن به جملة، وذلك أن لكل رجل مؤمن اختياراً في إيقاع

---

(١) ١/ ٢٤٨.
(٢) ٣/ ٢٥.
(٣) ٩/ ٥٣٧.

الثلاث، فإن استخدم هذا الاختيار على نهج قويم أو على طريق غير صحيح فلا بد لهذا العمل من أثر ونتيجة، كما أن إيقاع الطلاق في حالة الحيض معصية كبيرة ولكن يقع به الطلاق، كذلك لا ريب أن التطليق ثلاثاً في مجلس واحد يوجب المعصية إلا أنه لا جرم أنه يترتب منه أثر ونتيجة وقد جاء في موطأ الإمام مالك حديث لفظه:

«إن رجلاً جاء إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: إني طلقت امرأتي ثماني تطليقات، فقال ابن مسعود: فما قيل لك: فقال: قيل لي: إنها قد بانت منك، فقال ابن مسعود: صدقوا، هو مثل ما يقولون».

وكما تنص تلك الأحاديث على وقوع الطلاق الثلاث في مجلس واحد، كذلك تدل أيضاً على أن هذه المسألة معروفة جداً حتى إن الصحابة العظام رضي الله عنهم لا يحتاجون إلى الاستفسار من النبي ﷺ للإجابة عنها، ومثل تلك الأحاديث كثيرة جداً لا تتسع في هذه المقالة الموجزة، ولا تطلبه الظروف ولم يقصد ذلك من هذا الجلوس العظيم المنفرد في نوعه.

وقد أجمع الصحابة الكرام رضي الله عنهم أيضاً على هذه المسألة، وخاض المحدثون فيها وأطالوا الكلام والبحث فيها، ونقلوا آراء أصحاب النبي ﷺ، فانظر للتفصيل المجلد الثاني من شرح معاني الآثار، والمجلد التاسع من فتح الباري، والمجلد الثاني من أعلام الموقعين وغيرها.

إن العلامة أبا البركات عبد السلام جد شيخ الإسلام ابن تيمية قد تكلم في هذه المسألة، ونقل إجماع الصحابة رضي الله عنهم بألفاظه الآتية:

«وهذا كله يدل على إجماعهم على صحة وقوع الثلاث بالكلمة الواحدة[1]».

فتوى المراجعة: بناء على تلك الروايات وإجماع الصحابة، فقد اعتبر المحدثون والأئمة الكرام والعلماء والفقهاء من بعدهم الطلاق الثلاث في مجلس واحد ثلاثاً، سواء وقعت هذه الثلاث بلفظ واحد أو في مجلس

---

(١) منتقى الأخبار ص ٢٣٧.

واحد بثلاث مرات فإن أفتى عالم وخالف هذا الإجماع لم تلتفت طائفة كبيرة من المحدثين والفقهاء إليه، وقد قال العلامة الزرقاني في شرح موطأ الإمام مالك:

«والجمهور على وقوع الثلاث، بل حكى ابن عبد البر الإجماع قائلاً: إن خلافه شاذ لا يلتفت إليه، بل أظهر بعض المحدثين فيها رأياً أغلظ وأشد منه فقالوا: إن اختيار موقف مخالف لهذا الموقف في هذه المسألة مخالفة لما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، بل هو بدعة، فلا يلتفت إليه قطعاً، ومنهم العلامة العيني فقد قال في شرح البخاري:

وقالوا: من خالف فيه شاذ لأهل السنة، وإنما تعلق به أهل البدع، ومن لا يلتفت إليه لشذوذه من الجماعة».

المحقق ابن الهمام والعلامة ابن نجيم المصري، قالا:

«لا حاجة إلى الاشتغال بالأدلة على رد قول من أنكر وقوع الثلاث جملة، لأنه مخالف للإجماع كما حكاه في المعراج، ولذا قالوا: لو حكم حاكم بأن الثلاث بفم واحد واحدة لم ينفذ حكمه، لأنه لا يسوغ فيه الاجتهاد، لأنه خلاف، ولا اختلاف»[1].

وقد نقل عبد الرزاق في مصنفه فتوى الإمام الزهري، وعبارتها هكذا:

قال الإمام الزهري: «إن طلق أحد زوجته ثلاثاً وأفتى آخر بأن يراجعها فراجعها فوطئها فيعاقب عقاباً ذا عبرة، ويفرق بينهما ويغرم بالوطئ الحرام» إن الزهري هو محدث كبير عظيم المرتبة إمام عصره تكفي فتواه لكل أحد عبرة وموعظة وهداية.

ولا شك أن الأئمة الأربعة لهم حجة قائمة، فهم يضعفون أكثر الأحاديث التي ساقها ابن تيمية، ويخالفونه في تفسير بعضها، كما يخالفونه في تفسير آية: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ ويدعون أن الإجماع قد انعقد بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أن الطلاق الثلاث يقع ثلاثاً، وأن لهذا الإجماع

---

(١) فتح القدير ٢/١٤٩، والبحر الرائق ٣/٢٧٥.

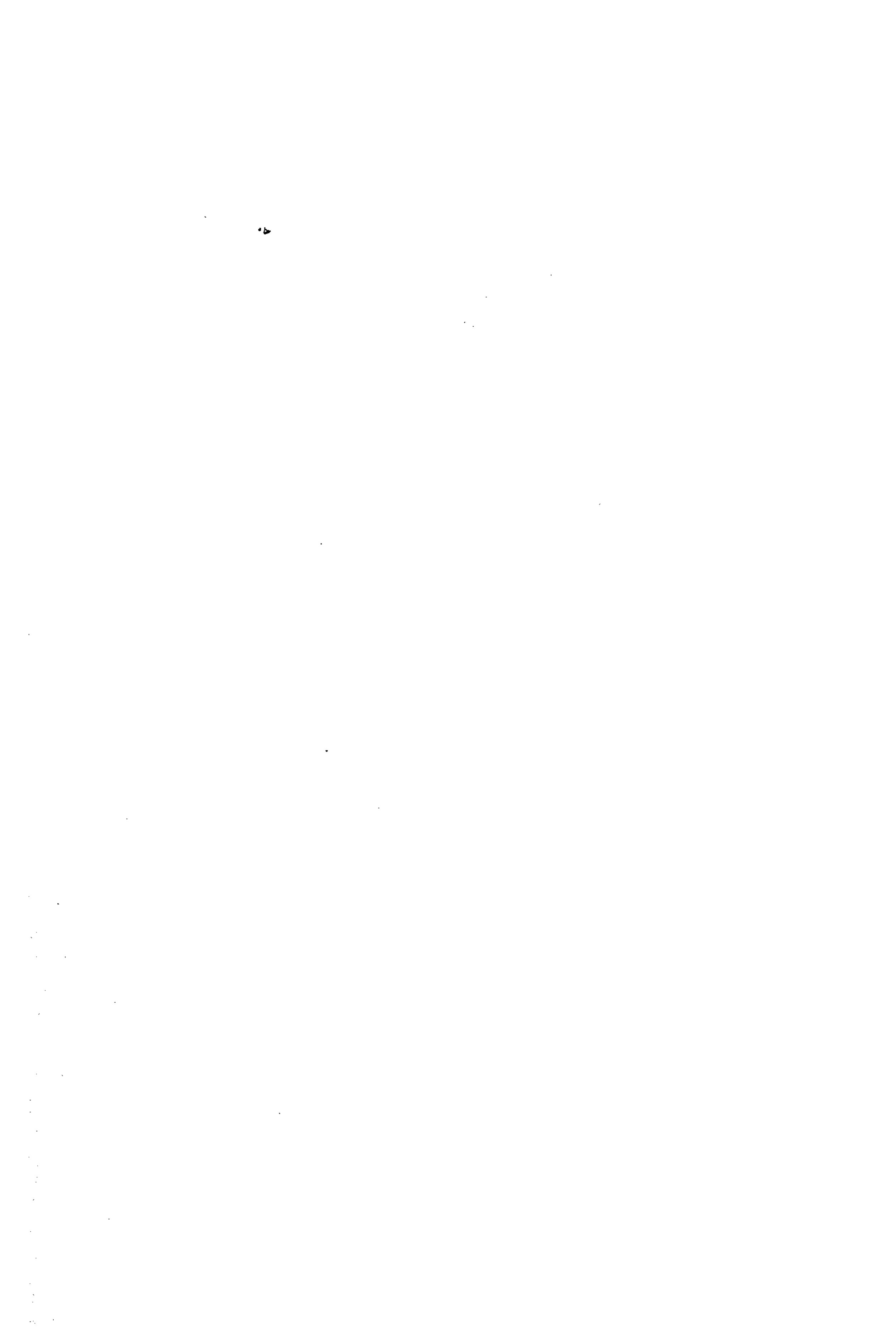
مستنداً من الشرع، ولا بد أنه كان معروفاً عند الصحابة رضي الله عنهم الذين وافقوا عمر رضي الله عنه، فما كان يسوغ لمثلهم وفيهم أمثال علي وابن عباس وزيد بن ثابت أن يوافقوا الفاروق عن غير بينة، والإجماع حجة قاطعة، والاستنباط فيه على النحو الذي انعقد عليه الإجماع يرفعه من مرتبة الظني إلى مرتبة القطعي، ويجب علينا أن ننقاد ونستسلم لقول النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين».

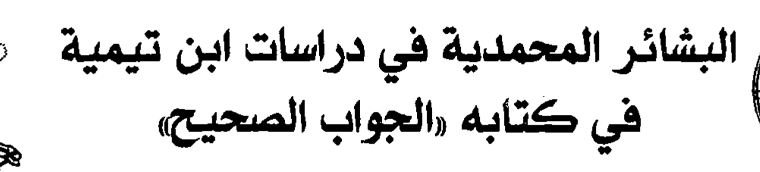
ففي هذه المناسبة السعيدة يجب علينا جميعاً أن نفكر في هذه المسألة من ناحية أخرى أيضاً بأن السلف والخلف كلهم إن اتفقوا على مسألة ما، وكلمتهم موحدة فيها والمسألة دائرة بين الحرمة والحلة، فالأحوط في هذا المقام أن يختار القول بالحرمة تجنباً من المعصية لا أن يفتح الباب لارتكاب الحرمة التزاماً لقول أحد مهما ارتفعت منزلته من الفخامة والعظمة، لأن ذلك لا يلائم روح الشريعة المطهرة، ولا يكون أية خدمة علمية وتحقيقية.

ولكن مع ذلك لا يمكن لأحد أن ينكر الخدمات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية إمام وقته وعلامة عصره، وشخصيته العلمية ومنزلته الرفيعة في العلوم، ودقة فهمه وحدة ذهنه وسعة قلبه وصدره، إنه قد ربى ذهنه ودماغه بطريق أجود، وتلقى جميع العلوم التي كانت متداولة في زمنه، ومما قال معاصره العلامة الزملكاني في شأنه:

«لقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه».

والله سبحانه وتعالى نسأل أن يوفق جميع العلماء والمسلمين أن يستفيدوا من خدماته الجليلة الثمينة ومآثره القيمة، آمين.





البشائر المحمدية في دراسات ابن تيمية في كتابه «الجواب الصحيح»

د. محمد سيد أحمد المسير الأستاذ المساعد
بكلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر

إن الحمد لله، نحمده ونصلي على رسوله الكريم محمد بن عبد الله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فإن من أهم كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» فهذا كتاب قيم يرد على شبهات راهب نصراني ومزاعمه حول الرسالة والرسول والقرآن، وفيه بيان فساد عقائد النصارى من الأقانيم والتثليث والاتحاد، كما تضمن دراسة مقارنة عن الإسلام واليهودية والنصرانية:

وقد تعرض للبشائر المحمدية في كتبهم وذكر بعضها، إلا أنه أفاض في بشارتين لهما أهمية خاصة، الأولى تتعلق بمكة ودعوة إبراهيم، والأخرى تدور حول كلمة «الفارقليط».

البشارة الأولى(١):

نص من التوراة يقول:

(١) جـ ٣، ص ٣٠٠ ط مطابع المجد التجارية.

«جاء الله من طور سيناء ـ وبعضهم يقول في الترجمة ـ تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران».

قال كثير من العلماء ـ واللفظ لمحمد بن قتيبة ـ:

ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض، لأن مجيء الله من طور سيناء إنزاله التوراة على موسى من طور سيناء، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا.

وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من ساعير ـ أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة ـ وباسمها سمى من اتبعه من نصارى.

وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ، وجبال فاران هي جبال مكة.

قال شيخ الإسلام: «وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة، فإن ادعوا أنها غير مكة فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم».

ثم أخذ ابن تيمية يشرح ويستدل على أن فاران هي مكة بما جاء في التوراة من أن إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وإسماعيل فاران.

وقد علم بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربي بمكة.

والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران، ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه نزل كتاب ـ بعد المسيح ـ في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي.

فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ، وهو ـ سبحانه ـ ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزمني، فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه.

وقال في الأول: «جاء» أو «ظهر»، وفي الثاني «أشرق» وفي الثالث «استعلن».

وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك.

ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ازداد به النور والهدى.

وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، ولهذا قال: «استعلن من جبال فاران» فإن النبي ﷺ ظهر به نور الله وهداه في شرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا سماه الله سراجاً منيراً وسمى الشمس سراجاً منيراً.

والخلق محتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج، فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت، بل قد يتضررون به في بعض الأوقات.

وأما السراج المنير فيحتاجون إليه في كل وقت، وفي كل مكان ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية.

وقد قال النبي ﷺ: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها».

ثم يسوق ابن تيمية توضيحاً آخر فيقول[1]:

«من ذلك ما في التوراة التي بأيديهم، في السفر الأول منها، وهي خمسة أسفار، في الفصل التاسع، في قصة هاجر، لما فارقت سارة وخاطبها الملك، فقال: يا هاجر من أين أقبلت؟ وإلى أين تريدين؟

ارجعي فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسمينه إسماعيل، لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك، وولدك يكون وحي الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الكل به، ويكون مسكنه على تخوم جميع أخوته».

---

(١) جـ ٣، ص ٣١٣.

قال المستخرجون لهذه البشارة:

معلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحاق، بل كان في بني إسحاق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب، فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لما بعث موسى، وكانوا مع موسى أعز أهل الأرض، لم يكن لأحد عليهم يد.

ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله.

وسلط الله عليهم بعد ذلك بختنصر، فلم يكن لبني إسماعيل عليهم أمر، ثم بعث المسيح، وخرب بيت المقدس الخراب الثاني حيث أفسدوا في الأرض مرتين.

ومن حينئذٍ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أمماً، وكانوا تحت حكم الروم والفرس والقبط، ولم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم.

فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم. لا أهل الكتاب ولا الأميين، فلم تكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع حتى بعث الله محمداً ﷺ الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث قالا:

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٢٩).

فلما بعث صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع، فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين.

فظهر بذلك تحقيق قوله في التوراة: «وتكون يده فوق الجميع، ويد الكل به» وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر.

البشارة الثانية[1]:

تدور هذه البشارة حول كلمة «الفارقليط»، وقد أورد ابن تيمية مجموعة نصوص تضمنتها مثل:

قال يوحنا الإنجيلي: قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من إنجيله: «إن الفارقليط روح الله الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء».

وقال يوحنا التنميذ أيضاً عن المسيح أنه قال لتلاميذه:

«إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقتلوه لأنهم لم يعرفوه، ولست أدعكم أيتاماً لأني سآتيكم عن قريب».

وقال أيضاً:

«إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله، روح الحق الذي من أبي، هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه».

وقال أيضاً:

«إن خيراً لكم أن أنطلق لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته لكم، فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق، ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب».

ويقول يوحنا الحواري:

«قال المسيح إن أركون العالم سيأتي، وليس لي شيء».

وأخذ الإمام ابن تيمية يوضح هذه البشارة، ويناقش أفهام النصارى حولها، وبدأ بلفظ «الفارقليط» في لغتهم، والأقوال التي ذكرت.

---

(١) جـ ٣، ص ٦.

فقيل إنه الحماد، وقيل إنه الحامد، وقيل إنه المعز، وقيل إنه الحمد. . . ورجح هذا طائفة وقالوا:

الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد، والدليل عليه قول يوشع: من عمل حسنة تكون له فارقليط جيد - أي حمد جيد.

ومن قال: معناه المخلص فيحتجون بأنها كلمة سريانية، ومعناها المخلص، وقالوا: هو مشتق من قولنا «فار» ويقال بالسريانية «فاروق»، فجعل «فارق».

قالوا: ومعنى «ليط» كلمة يراد بها التثبت والتقدير، كما يقال في العربية رجل هو، وبدر هو.

والذين قالوا هو المعز، قالوا هو في لسان اليونان المعز.

ويعترض على هذين القولين بأن المسيح لم تكن لغته سريانية ولا يونانية بل عبرانية.

ويجاب عنه بأنه تكلم بالعبرانية وترجم عنه بلغة أخرى.

لكن من الفارقليط؟

وكيف يفسره النصارى؟

نقل ابن تيمية أقوالاً ثلاثة هي:

١ - روح نزلت على الحواريين.

٢ - ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ ففعلت الآيات والأعاجيب.

٣ - المسيح نفسه لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يوماً وكونه قام من قبره.

وتوالت بعد ذلك مناقشات ابن تيمية وتحليلاته الدقيقة، ونحن نرتبها ونوجزها فيما يلي:

إن تفسير الفارقليط بالروح أو المسيح باطل من وجوه:

١ ـ إن روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وهذا ما اتفق عليه أهل الكتاب، وليست موصوفة بهذه الصفات.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ (سورة المجادلة، الآية: ٢٢).

وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت لما كان يهجو المشركين:

«اللهم أيده بروح القدس».

وقال: «إن روح القدس معك ما زلت تنافح عن نبيه».

٢ ـ قوله: «فارقليط آخر» دل على أنه ثان لأول كان قبله، ولم يكن معهم في حياة المسيح إلا هو لم تنزل عليهم روح.

فعلم أن الذي يأتي بعده نظيراً له، ليس أمراً معتاداً يأتي الناس.

٣ ـ أنه قال: «يثبت معكم إلى الأبد»، وهذا إنما يكون لما يدوم ويبقى معهم إلى آخر الدهر.

ومعلوم أنه لم يرد بقاء ذاته، فعلم أنه بقاء شرعه وأمره، فعلم أن الفارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد.

وهذا يبين أن الثاني صاحب شرع لا ينسخ بخلاف الأول، وذلك إنما ينطبق على محمد ﷺ.

٤ ـ أخبر عن الفارقليط أنه يشهد له وأنه يعلمهم كل شيء وأنه يذكرهم كل ما قال المسيح.

ومعلوم أن هذا لا يكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها الناس، ولا يكون هذا شيئاً في قلب طائفة قليلة.

ولم يشهد أحد للمسيح شهادة سمعها عامة الناس إلا محمد ﷺ فإنه أظهر أمر المسيح، وشهد له بالحق، وعلم أهل الأرض أنه صدق، ونزهه عما افترته عليه اليهود وعما غلت فيه النصارى.

٥ ـ أخبر المسيح أن الفارقليط يوبخ العالم علىٰ الخطيئة، ولم يوجد أحد وبخ جميع العالم على الخطيئة إلا محمد ﷺ، فإنه أنذر جميع العالمين من أصناف الناس، وبخهم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان، وبخ المشركين والمجوس وأهل الكتاب المحرفين وقال في الحديث الصحيح:

«إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب».

٦ ـ إن المسيح أخبر عن الفارقليط أنه يعرفهم جميع ما للأب، وهذه الصفة لا تنطبق إلا على محمد ﷺ، وذلك أن الإخبار عن الله بما هو متصف به من الصفات، وعن الملائكة، وعن الملكوت الأعلى وما أعده الله في الجنة لأوليائه، وفي النار لأعدائه... أمر لا يحتمل عقول كثير من الناس معرفته على التفصيل.

وليس في الإنجيل من صفات الله وصفات ملكوته ومن صفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة، وكذلك التوراة ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة.

ومحمد ﷺ قد أخبر بكل ما يأتي من أشراط الساعة والقيامة والحساب والصراط والميزان والجنة ونعيمها والناس وعذابها... «وكان إذا ذكر الساعة علا صوته واحمر وجهه واشتد غضبه كأنه منذر جيش، وقال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

وقال: «أنا النذير العريان».

فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يخبر به نبي من الأنبياء فضلاً عن أن يوجد شيء ينزل على قلب بعض الحواريين.

إن معنى «الفارقليط» إن كان هو الحامد أو الحماد، أو الحمد أو

المعز، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ، فإنه وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو ـ ﷺ ـ صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته.

ولم يعرف قط نبي أعز أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزهم محمد ـ ﷺ ـ فهو أحق باسم المعز من كل إنسان.

وأما معنى المخلص فهو أيضاً ظاهر فيه، فإن المسيح هو المخلص الأول كما ذكر في الإنجيل، ويكون المخلص الآخر الذي يثبت معهم إلى الأبد هو محمداً ﷺ.

وأما ما ينزل في القلوب فلم يسمه أحد مخلصاً ولا فارقليطاً.

٧ ـ عبارة إنجيل يوحنا عن المسيح:

«إن أركون العالم سيأتي وليس لي شيء».

وقد ذكروا أن الأركون بلغتهم عظيم القدر، والأراكنة العظماء، وقد أخبر أنه سيأتي، فامتنع أن يكون هذا الأركون المسيح أو أحداً مثله.

ومعلوم باتفاق أهل الأرض وبالضرورة أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم باطناً وظاهراً، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السر والعلانية، في محياه وبعد مماته، في جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقاً وغرباً، أحد غير محمد ﷺ.

فإن الملوك يطاعون ظاهراً لا باطناً، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله.

ومن خلال هذا التفصيل الدقيق، وهذا العلم الغزير، وهذه الحجج المتوالية يؤكد ابن تيمية حقيقة هامة، هي:

لولا محمد ما عرف الأنبياء..!!

كيف؟!

يقول ابن تيمية:

«محمد - ﷺ - أظهر دين الرسل قبله، وصدقهم، ونوه بذكرهم وتعظيمهم.

فبه آمن بالأنبياء والرسل مثل موسى والمسيح وغيرهما أمم عظيمة، لولا محمد لم يؤمنوا بهم.

ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب، كانوا مختلفين فيهم، لاختلاف أهل الكتاب في المسيح، وكانوا يقدحون في داود وسليمان وغيرهما بما هو معروف عندهم.

وأيضاً فإنه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم[١].

البيان القرآني حول البشائر:

تظاهرت آيات القرآن[٢] المجيد مؤكدة حقيقة البشارة بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وقد اتخذ البيان القرآني أنماطاً متعددة في التعبير عنها.

كما حرص القرآن على تأكيد أن الرسول المبشر به في التوراة والإنجيل إنما هو النبي العربي الهاشمي، فذكره بالاسم[٣] ليقطع الطريق على الأدعياء، ولتتضح الحقيقة لكل ذي عينين، وأردف ذلك بأن النصر المؤزر لرسول الهدى أحمد وأن رايته ستعلو خفاقة في العالمين.

من هذا العرض السريع وتلك الإلمامة اليسيرة يتضح أن القرآن أكد تأكيداً قوياً، واحتج احتجاجاً ظاهراً على نبوة سيدنا محمد ببشارات التوراة والإنجيل، وألزم أهل الكتاب ضرورة الإيمان بهذه النبوة المحمدية تصديقاً

---

(١) جـ ٤ ص ١٨.

(٢) الآية رقم ٨٩ من سورة البقرة، وانظر لسبب نزولها، في الروض الأنف للسهيلي (١/ ٢٤٥) والآية رقم ١٤٦ منها، والآية رقم ٢٠ من سورة الأنعام، والآية رقم ١٥٧ من سورة الأنعام، والآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف، ٥١ ـ ٥٥ من سورة القصص، والآية رقم ٢٩ من سورة الفتح، والآيات ٦ ـ ٨ من سورة الصف، وسورة البينة.

(٣) سورة الصف ٦ ـ ٨.

لما معهم وما ثبت لديهم من أنه ﷺ جاء بالحق وصدق المرسلين.

ويعتبر هذا الاتجاه القرآني فريداً في إثبات النبوة.

يقول الإمام الرازي:

«وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل، لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات.

والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول قوله.

فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته[1]».

وفي هذا المعنى أيضاً يقول الإمام ابن تيمية:

«نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة، واستشهاده بأهل الكتاب وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم.

فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد من مؤمن وكافر، أنه كان من أعقل أهل الأرض، فإن المكذبين له لا يشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم الذي لم يحصل لأحد مثله لا قبله ولا بعده.

فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به، وهو من أحرص الناس على تصديقه، وأخبرهم بالطرق التي يصدق بها، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به.

---

(١) التفسير الكبير جـ ١٥، ص ٢٦.

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم بل علم انتفاء ذلك لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقل الناس عقلاً، لأن فيه إظهار كذبه عند كل من آمن به منهم، وعند من يخبرونه، وهو ضد مقصوده، وهو بمنزلة من يريد إقامة شهود على حقه فيأتي إلى من لا يعلم أنه لا يكذب، ويعلم أنه ليس بشاهد، ولا حضر قضيته ويقول: هذا يشهد لي، فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية.

فيقول أولئك: لسنا نشهد له، ولا حضرنا هذه القضية.

فهذا لا يفعله عاقل يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين، وأنهم يكذبونه ولا يشهدون له[1]».

ويعتبر ابن تيمية هذا الطريق من أظهر الحجج على أهل الكتاب وأظهر الأعلام على نبوته ﷺ.



(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٣، ص ٢٩٢، مطابع المجد التجارية.

أثر ابن تيمية في المفكرين العرب المعاصرين

د. محمد راشد الندوي، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة علي كره الإسلامية
نقله إلى العربية/ أصغر علي السلفي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وبعد:

أشكر القائمين على هذا المؤتمر الإسلامي عن حياة شيخ الإسلام ودعوته ومآثره الخالدة، وفي الحقيقة إقامة مثل هذه المؤتمرات الإسلامية، لها أهمية كبيرة، وحاجة ماسة لما نرى في مجتمعنا اليأس والقنوط مخيماً عليه، ودب القلق والاضطراب في نفوس المسلمين، فإن دراسة الشخصيات البارزة الذين كانت حياتهم عبارة عن العمل الإسلامي المتواصل الدؤوب، والحركة الدائمة المستمرة فيها عبر ونصائح للأجيال، وهي مفيدة جداً للمجتمع الإسلامي، وهي ضرورة علمية من ناحية ومن ناحية أخرى هي من وسائل نهضة مسلمي الهند بإذن الله.

وقد سمعنا كثيراً عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه عالم ومجتهد ومحدث وفقيه ومتكلم ماهر، ومؤرخ بارع، وفوق كل شيء هو أعظم إنسان في عصره، إنسان دائم التفكير في إصلاح المسلمين وتجديد الدين، وهو أكبر دليل وأعظمه على شخصيته العظيمة لأنه قد يوجد عالم من علماء الفنون إلا أن هذا التفكير المتواصل، والقلق على حالة الأمة السيئة، والتحمس للدين والمحاولة الجادة لإصلاح الوضع، فلم يكن لهذا العالم منها نصيب يذكر، وبالتالي ما يكون له دور يذكر، ولا عمل يشار إليه في ميدان الإصلاح والتجديد.

وقد ترك شيخ الإسلام ابن تيمية في حياته دروساً وعبراً للناس إذ أعاد ثقة المسلمين بالرسالة الخالدة التي جاء بها النبي الخاتم ﷺ، وبالوحي المبين الذي أنزل عليه من ربه، وبيَّن لهم أن الكتاب والسنة هما مصدران أساسيان لهداية البشرية.

ومع جلالته وجلالة أعماله نرى أنه لم تظهر دعوته كما كان ينبغي، فحاول كثير من الفقهاء والمتصوفة والمتكلمين والأمراء النيل من شخصيته، والقضاء على مآثره فخفيت شخصيته النيرة إلى مدة من الزمن بعدما كانت بارزة أيما بروز، وناجحة بعيدة الأثر، يقول العلامة أبو الكلام آزاد: إن أهل الصين صلوا على ابن تيمية صلاة الغائب بعد ثلاثة أيام من وفاته، واتفقت كلمة الجميع في الثناء عليه، حيث قالوا جميعاً: الصلاة على ترجمان القرآن.

وفي هذا دلالة على وصول دعوته إلى أنحاء العالم الإسلامي في حياته، فشتان ما بين الصين ودمشق والقاهرة.

هذا، وإني أريد في هذه العجالة أن أبحث عن العوامل التي خفيت لأجلها شخصية شيخ الإسلام الذي اشتهر أمره في حياته لمحاربته المتصوفة والمتفقهة المقلدين، والمبتدعة وغيرهم من الضالين والزائغين، وقد يستغرب من يسمع أن أهل دمشق لا يعرفون عن بلديهم في زماننا، إلا أناس قليلون يعدون على الأصابع.

وكادت دعوة شيخ الإسلام أن تكون نسياً منسياً، إلا أن الله أنعم على العالم الإسلامي بوجود الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي قام بنشر دعوة شيخ الإسلام ومآثره، في بلاد نجد والحجاز، وقضى على البدع والخرافات والتقاليد، وقد واجهت دعوته مشاكل كثيرة إلا أن الله كتب لها نجاحاً في عهد محمد بن عبد الوهاب والعصور التالية.

وحسب اطلاعي ومعرفتي عن سبب عدم نجاح دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو موقف الحكومة العثمانية العدائي منها لأجل الجهل وعدم المعرفة بالدعوة، وقد واجه الشيخ كرد على مشكلة كبيرة بمجرد ذكر اسم

محمد بن عبد الوهاب في مذكراته، حيث علق على أفكاره وآرائه ودعوته ووجه إليه انتقادات في بعض الأمور، فكان مصيره الحبس والاعتقال كما حكاه هو عن نفسه، فقال: عندما طبعت هذه المذكرة زجوني في السجن لأن ذكر اسم الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان من الجرائم الكبيرة، وكل من تصدى بذكر شخصية ابن عبد الوهاب عدوه من المجرمين والمرتدين عن الدين الحنيف ولكن سرعان ما زالت المعوقات والعراقيل حتى اشتهر أمر ابن تيمية في نجد والحجاز بسبب نجاح دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكن الناس لم يقدروه حق قدره، ولم يفهموا دعوته كما ينبغي، فبغى كثير من المسلمين عليه ورموه بالبغي، وقديماً قيل: رمتني بدائها وانسلت.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية في صورته العلمية في الأوساط العلمية حيث قام الشيخ محمد عبده المصري تلميذ جمال الدين الأفغاني لإظهار فكر ابن تيمية وبث آرائه القيمة، وليس هذا القول مجرد دعوى عار عن الدليل، بل أول كتاب ألفه محمد عبده هو رسالة التوحيد، وهذه الرسالة بجميع ما فيها من أفكار وآراء تمثل آراء شيخ الإسلام في هذه المسألة، لأن الشيخ محمد عبده كان مطلعاً على الأفكار الموجودة، وخبيراً بالأحوال، وفي نفس الوقت كان مظلوماً من قبل معاصريه مع كونه مصلحاً عظيماً ومجتهداً كبيراً، متحمساً للدعوة إلى الله، فلم يحصل له الطمأنينة والاستقرار في بلده، فكان جهاده ضد عدوان الحكومة وعامة الناس والمتصوفة، وقد أراد إصلاح شؤون الأزهر، فقبضوا على يديه، وكبلوا رجليه، ومع هذا كله نجح الشيخ محمد عبده في نشر أفكار ابن تيمية في البلاد الإسلامية.

ومن حسن الحظ أنه استقر بدمشق بعد أن أخرج من مصر وسافر إلى باريس ثم إلى دمشق فاستقر بها، ومن المعلوم أن دمشق كانت مقر دعوة ابن تيمية ومنطلق حركته الإصلاحية والتجديدية، ثم قيض الله للدعوة الإسلامية رجلاً بث دعوة محمد عبده وبالتالي دعوة ابن تيمية، أعني به الشيخ العلامة محمد رشيد رضا المصري، الذي كان مستوطناً بمصر، وكان

السيد رشيد رضا في وطنه في طرابلس مطمئن البال ومرتاحاً بها، وكان الناس يحترمونه ويقدرونه، إلا أن الرجل أحس بما أصاب المسلمين من نكبات في مجال العلم والعقيدة والحكم والسياسة والتصوف والسلوك، فحصل أن اتصل بالشيخ محمد عبده.

وهذه هي المرحلة الأولى لظهور شخصية شيخ الإسلام أمام الناس في البلاد العربية في أسلوب جديد وطريقة حديثة، فأنشأ الشيخ محمد رشيد رضا مجلته الشهيرة «المنار» في عام ١٨٩١م، وهي أول مجلة أدبية إسلامية علمية صدرت في العالم الإسلامي والعربي، رفيعة القدر ذات شهرة طيبة في الأوساط العلمية والدينية، وقد قامت المجلة بنشر أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية في أسلوب جديد.

ونفس الشيخ محمد عبده حينما بدأ بتفسير القرآن الكريم انتهج منه منهج أهل الاجتهاد واستفاد من علوم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وقضى على الطريقة التقليدية الموروثة القديمة، يقول الشيخ محمد عبده: العالم في أشد حاجة إلى الاستفادة من الإسلام والتنهل من منهله الصافي، والطمأنينة التي يضطرب لها العالم بأجمعه تنشد ضالتها المنشودة في تعاليم الإسلام وتحصل الراحة الكاملة والأمن التام من الاعتناق بها، ولكن الشرط الأول لتحصيل هذه الغاية العليا أن يفهم القرآن الكريم في ضوء الكتاب والسنة لا عن طريق الفقهاء والمتكلمين.

وعلى هذا الفكر مشى ابن تيمية، وكان انتهج منهج ابن تيمية في الدعوة، وقد ألف الشيخ محمد رشيد رضا في ضوء أفكار ابن تيمية كتابين مهمين: الوحي المحمدي، ودرس فيه مسائل الإعجاز، والتوحيد والرسالة، واليوم الآخر، ودعم بحثه بأدلة من الكتاب والسنة.

فعن طريقه ظهرت شخصية شيخ الإسلام في أسلوب جديد.

وكذلك نشر الشيخ طاهر الجزائري أفكار ابن تيمية كما حكاه الشيخ محمد كرد على أن الشيخ محمد عبده بث أفكار ابن تيمية في عصر الدولة العثمانية التي كانت تعد الجهر باسم ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب أكبر

جريمة، وعلماء الشام قد بلغوا إلى حد النهاية في بغضهم لابن تيمية وابن عبد الوهاب، فكنت أنا وأستاذي نقوم بنقل كتب ابن تيمية وإزاحة الغلاف عنها ونوزعها بين الناس ثم نسألهم: كيف وجدتم الكتاب، فيمدح الجميع هذه الكتب ويبالغ في مدحها.

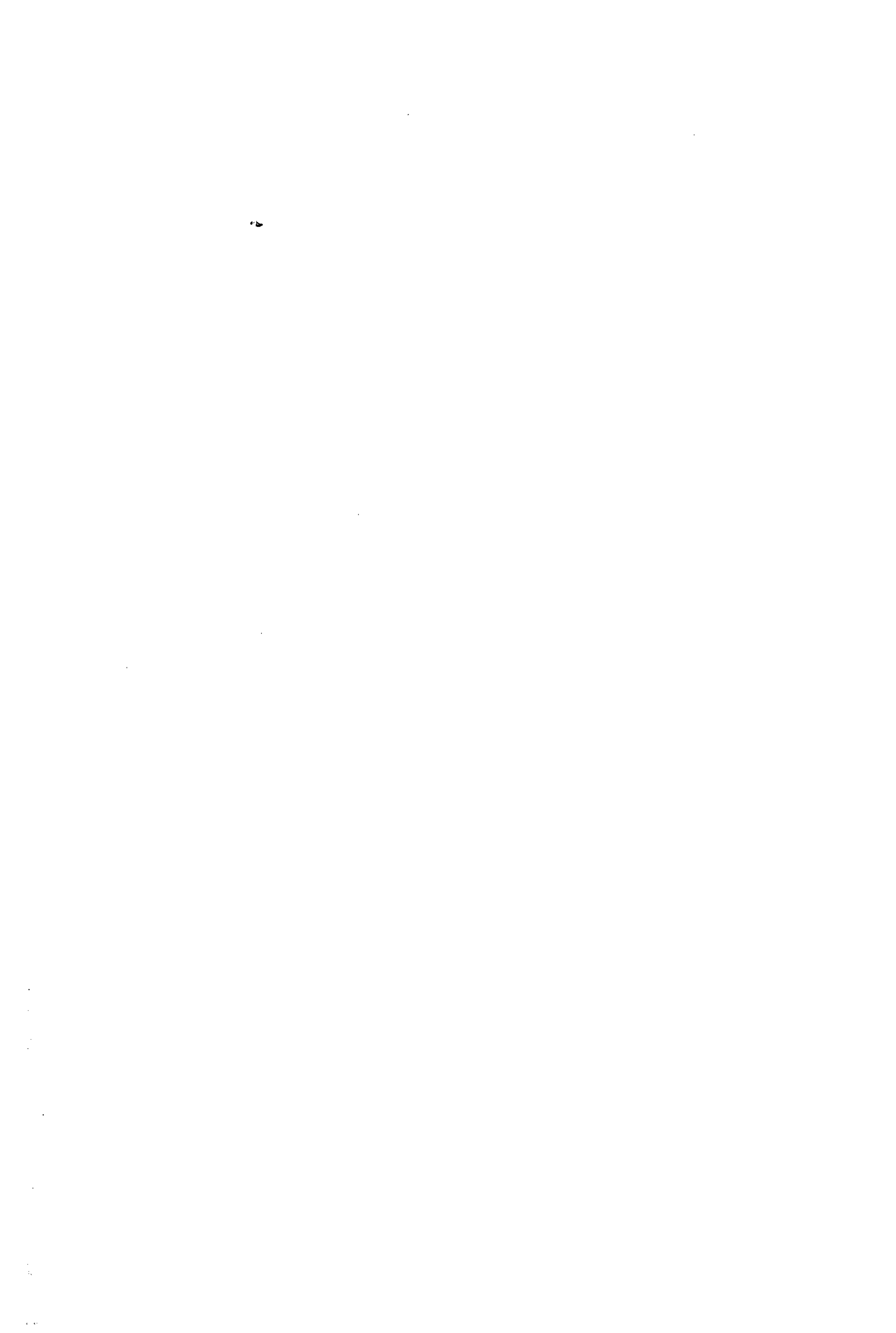
وكانوا يقولون: وشاهدنا أنه شرح على هذه الطريقة الفكر الإسلامي الأصل الصحيح، ونعتقد في مصنف هذه الكتب أنه متكلم الإسلام، ولكن هؤلاء المساكين لم يعرفوا أن الرجل هو ابن تيمية الذي كانوا يبغضونه.

وقد صرح الشيخ كرد على أن الفضل يرجع إلى الشيخ طاهر الجزائري في نشر مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية في الشام، الذي أعطاها رواجاً عاماً.

ونحمد الله ونشكره على ما نشاهد اليوم في كل مكان المشتغلين بعلوم ابن تيمية ودراستها والاستضاءة بأعماله ومآثره.

وقد تجلت أفكار شيخ الإسلام في تصريحات علماء مصر والشام عندما حاولوا تقنين الأحوال الشخصية فقالوا بأنه لا يمكن أن يكون دستورنا خاضعاً للفقه الحنفي أو المالكي أو الشافعي أو الحنبلي، بل ينبغي أن نتمسك بأصلح القوانين الإسلامية الغراء حسب المسائل المستجدة، وفي الحقيقة هذا كان صدى قوياً لأفكار شيخ الإسلام.

هذا، ونلاحظ الآن أن جميع العالم العربي والإسلامي قد عرف شخصية ابن تيمية، وأقبل على دراسة مؤلفاته واعترف بمدحه، وكانت من ثمرات هذه الجهود العلمية والمساعي الإصلاحية أننا تمكنا أن نلقي الضوء على شخصية شيخ الإسلام في حرية تامة، ونرشد الشباب إلى دراسة علومه والاستفادة من آرائه، وهذا دليل عظيم على أن دعوته نجحت، وأفكاره تبلورت، ونظرياته انتشرت، فتحطمت القيود، وزالت العقبات، وانفلق الصبح، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.



ملامح المجتمع الإسلامي عند شيخ الإسلام في ضوء كتابه القيم «اقتضاء الصراط المستقيم»

للدكتور عبد الباري، القسم العربي
الجامعة الإسلامية، علي كره
نقله إلى العربية عبد الوهاب الحجازي

القرآن يشهد بأن الله قد منح الإنسان دينه الكامل ليحيى حياة نافعة متكاملة وهو الصراط المستقيم الذي لا يزيغ عنه إلا هالك، ومن نهج هذا الطريق ارتبط ارتباطاً متزناً بكائنات العالم وخالقه من ناحية وبأبناء جنسه من ناحية أخرى، فمن هذه الحياة الفردية المتوازنة تتشكل الحياة الاجتماعية التي هي أساس وجود المجتمع الإسلامي، مجتمع خال عن الإفراط والتفريط ومبني على العدالة الاجتماعية.

التاريخ ينبيء والحقائق تشهد بأن مئونة الحياة ومتاعها قد تحصل بغاية اليسر، ولكن السؤال الذي أحار الإنسان عن جوابه هو الذي نشأ عن منهج الحياة الفردية والاجتماعية كيف يعيش الإنسان من الناحيتين حياة طيبة لا يدور حولها الفساد الفردي والجماعي.

انظر إلى عصر ما قبل الإسلام، فإنك تجد جميع الانحراف والفساد منبعه هو عدم الاتزان في شرائع المجتمع وأعرافه، وهكذا سرى الفساد من مجتمع إلى مجتمع ومن قوم إلى قوم حتى انتشر وحوى مشارق الأرض ومغاربها وجعل حياة الإنسان عاليها سافلها.

والتساؤلات التي تثار حول الحياة الإنسانية تنتهي إلى هذه النقطة بأن الإنسان لو لم يختر التوازن السليم في حياته الفردية والجماعية ستمتد

المشاكل والفتن، والعدالة الاجتماعية المبنية على التصور المتوازن السليم هي الحل الوحيد لكافة مشاكل الإنسان.

المجتمع الإسلامي هو المجتمع الإنساني لا غير، فإننا نرى بأن الإسلام يلقي نظرة الاتعاظ والعبرة كاملة على فسادٌ مجتمع الإنسان، قال رسول الإسلام ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فالعالم كيفما كان يعيش وسلاسل الأعراف الفاسدة وأغلال الشرائع الباطلة مهما كانت قبضت عليه فإن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أعلن جهاراً: «ألا كل أمر من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع» لا تسمح لها الفرص أن تتربأ.

المجتمع الإسلامي ينبني على أساس مكارم الأخلاق وهي مأخوذة من القرآن الحكيم، وأسوة الرسول الكريم، وآثار الصحابة رضوان الله عليهم، فإن شيخ الإسلام العلامة ابن تيمية رحمه الله كان مرمى نظره هذا المجتمع الإسلامي المؤسس على المبادىء السليمة المذكورة، المجتمع الذي يسلك دائماً على الصراط المستقيم، والشيخ العلامة لا يغيب عن خاطره بأن الحفاظ على الصراط المستقيم لا بد له من أن يستحكم بناء مكارم الأخلاق، لأن الإنسان متى ما سلك منهج الأعراف والعادات والبدع الفاسدة عادت إلى المجتمع روح الجاهلية التي جعلها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه تحت قدميه، هذا من مبادىء التاريخ الثابتة التي صدقها مهرة فلسفة الاجتماع، والعلامة ابن تيمية كان نصب عينيه التاريخ وجميع حقائق علوم الاجتماع، ونظر إلى بصيرته العظمى في هذا الفن يمكن أن نقول حقاً بأنه كان مفكراً عظيماً في علم الاجتماع والتاريخ (Social thinker).

المجتمع الإسلامي قد هجمت عليه عبر القرون تيارات جارفة من العادات والأعراف الفاسدة، وغلب عليه الضعف والاضمحلال، ولكن العمل بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد جدد للأمة الإسلامية معالم حياتها، وكان العصر الذي ظهر فيه العلامة ابن تيمية قد بلغ المجتمع الإسلامي فيه تدهوراً نهائياً، ففتنة التتر وغلبهم السياسي والحملات الصليبية والحروب الداخلية والانهيار الخلقي كلها قد زادت المجتمع الإسلامي مزيداً

من المفاسد والاضمحلال، فكانت الضرورة تستدعي الجهد المركز المتواصل لبقاء كيان الأمة الإسلامية من حيث دينها وشريعتها، ففي مثل هذه الأحوال إذا شنت الحروب ولجأ الناس إلى الحكم الأجنبي وتقلبت الأمور السياسية وضاعت الأموال لا يهم هذه الأمور أكثر من قضايا العقيدة والإيمان وبقاء الثقافة الإسلامية وصلاحها.

إن آثار ثقافات الأمم وحضارتها وخاصة أوان سيطرتها على الآخرين تنتشر بمزيد من السرعة والسهولة في مجتمع المغلوبين والمتشتتين ديناً وفكراً بل يمكن لنا أن نقول حقاً وفق مصطلح العصر الجديد بأن المجتمع المقلوب يأتي تحت هجمات تغسيل المخ وأخطاره (Cultural brain wash) ولا يزال يتلاشى ويتفانى كيان المجتمع الديني مع الشعور وعدمه ومثل هذه الآونة في حياة المجتمع تكون من الأزمنة العصيبة ونحن نجد مثال تغسيل المخ (Cultural brain wash) في أواخر عصر بني أمية في التاريخ الإسلامي، حينما نرى الخليفة الأموي وليد بن يزيد قد صار مصيداً لهذا، فإنه لم يستطع أن يصون نفسه من وقوعها في مهاوى التزندق، وكان من أهم أسبابه أنه بدأ يصاحب رجالاً وعلماء يحملون أفكاراً منحرفة، ولا يزال يحصل له قربة من الثقافة المسيحية واشتراكه في مهرجانات الكنيسة وأعياده الملونة قد صبغه بغير ما كان مطلوباً لدى الدين الحنيف وتركه في مكان لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

والعلامة ابن تيمية كان له شعور بالغ بأحوال عصره العصيبة، وللحفاظ على المجتمع الإسلامي من مثل تغسيل المخ (Cultural brain wash) صنف شيخ الإسلام كتابه الشهير في الآفاق، «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» فقد صنف هذا الكتاب مع الشعور العميق التاريخي بالمؤتمرات الاجتماعية والثقافية، فهو أول كتاب كامل منفرد في موضوعه في الأدب الإسلامي.

اسم الكتاب جميل كمسماه، دال على محتوياته الشاملة، قد اتفق كبار العلماء على أن العلامة ابن تيمية قد صنف أكثر من مائتي كتاب ولكن

الكتاب المذكور يعد من أنفس مؤلفاته.

ومن الأمور الهامة عندي أن العلامة قد جعل الحفاظ على كيان الملة موضوعاً لهذا الكتاب وقدم حلولاً للقضايا وفق مبادىء علم النفس والاجتماع في ضوء الكتاب والسنة مستخدماً بصيْرته العلمية ومثل هذه الأمور الهامة تختص دائماً بعالم كبير ومفكر عظيم.

قد طبع الكتاب مراراً خالياً عن التحقيق والتحشية، وطبع من مطبعة أنصار السنة بالقاهرة سنة ١٩٥٠م مع تعليقات الشيخ محمد حامد طبعة نفيسة مشتملة على خمسين ومائتين صفحة.

وكانت الحاجة ماسة للتصحيح والتعليق وفق مقتضيات مبادىء التحقيق الجديد فسررنا جداً حينما شاهدنا نسخة جميلة للكتاب الذي قد طبع مع تحقيق الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل مشتملاً على ألفين وخمس مائة صفحة في مجلدين من الرياض سنة ١٩٨٤م.

يحتوي الكتاب على عشرة أبواب في عشرة مباحث، والقضية التي صنف الكتاب فيها، هي عدم التشبه بأهل الكتاب والأعاجم والفرس والروم والكفار والمشركين في ثقافاتهم وحضارتهم، والحجر الأساسي لهذا البحث القيم هو الحديث النبوي الشريف: «من تشبه بقوم فهو منهم».

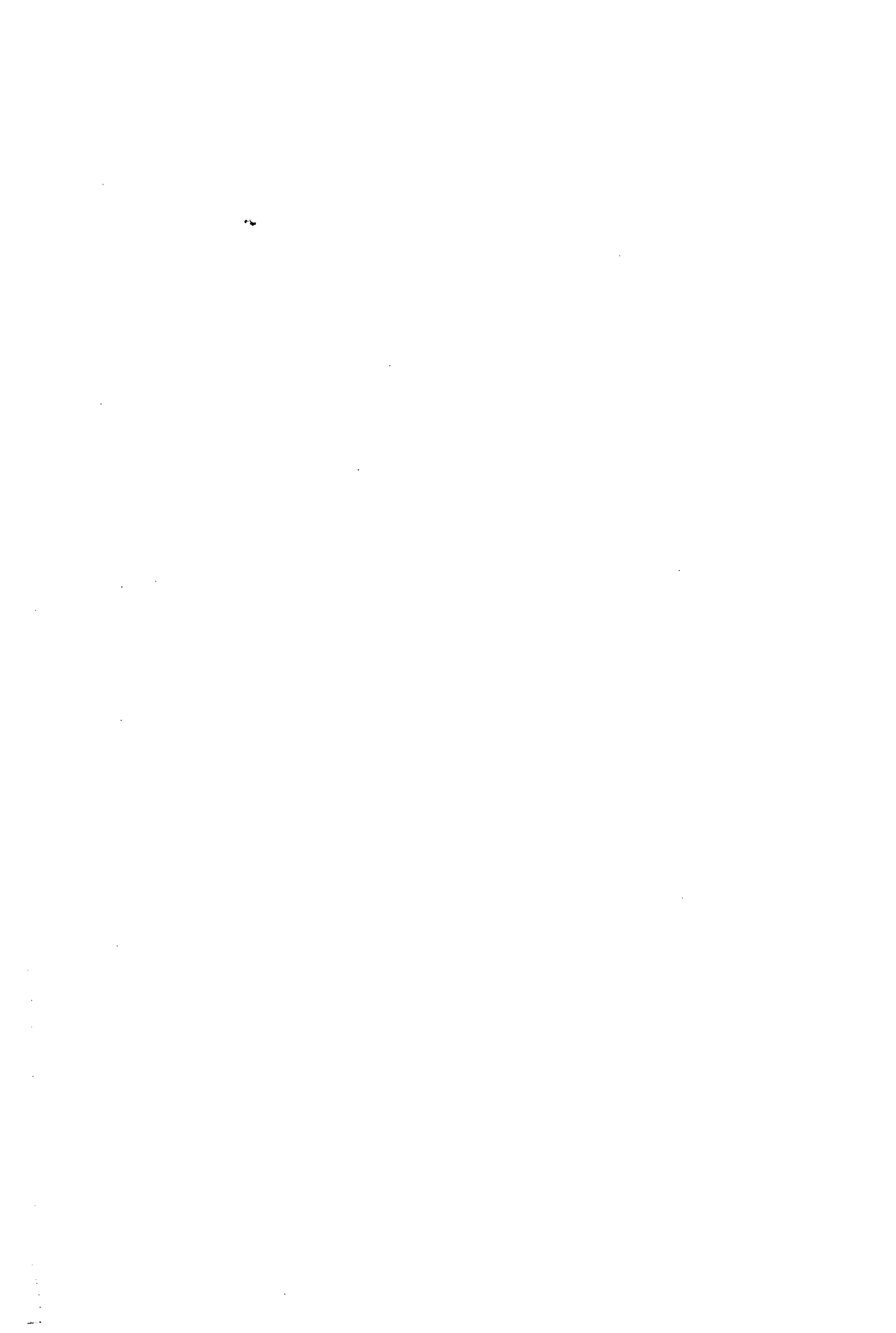
من أهم مميزات الكتاب أنه قد ألف جميع مباحثه على أساس كمال الاعتدال والفكر السليم ولا يفوت على القارىء الفهيم أن يشعر بأن المصنف العلامة قد كان أمامه مبدأ متزناً معلوماً لجمع محتوياته العلمية والفكرية حوله، ما قدم فيه شيئاً من الأمور على أساس التعصب الديني والتصلب الشرعي غافلاً عن العواقب والنتائج حتى أنه قد خصص باباً مستقلاً في بيان التشبه الذي لا بد من اختياره في الصور الاستثنائية نظراً إلى الظروف والأحوال في عصر من الأعصار الخاصة.

ومن أهم مميزات الكتاب أيضاً، أن أهمية هذا الكتاب القيم وإفادته في العصر الحالي قائمة دائمة مثل ما كانت في زمن المؤلف، ووجهه أن الأمة المسلمة في شتى أنحاء العالم تواجه هجمات الثقافة الجديدة والحضارة

الراهنة، وهذه الهجمات تشن عليها من ناحيتي الفكر والحضارة والثقافة، فإن الحلول التي قدمها العلامة ابن تيمية لمشاكل المجتمع الإسلامي في عصره يمكن لنا حقاً أن نستنير بها في أداء واجباتنا تجاه تغسيل المخ الخطير (Cultural brain wash) في عصرنا.

ولا يريبني أن أقول بأن هذا الكتاب يليق أن يحظى مكانة مرموقة بين الكتب القيمة في المكتبة الإسلامية، والسلام عليكم ورحمة الله.







الإمام ابن تيمية ودراسة التاريخ الإسلامي

للدكتور محمد ياسين مظهر الصديقي
نقله إلى العربية/ الدكتور مقتدى حسن الأزهري،
والدكتور عبد الرحمن الفريوائي

دارسة التاريخ الإسلامي وكتابته أمران يحتاج كلاهما إلى التفكير السليم والنظرة العادلة، بحيث لو فقد أحدهما أو كلاهما فإن ذلك يخل بالعقيدة والإيمان. إن الأمة الإسلامية أنتجت تراثاً ضخماً في التاريخ والسيرة لا نرى له مثيلاً، ولكن المؤسف أنه لم يتم الالتزام بأصول تنقية المواد وتهذيب الكتابة في ترتيب سيرة الرسول ﷺ وتاريخ صحابته وخلفائه رضي الله عنهم، وجمعه وتبويبه وتعليمه. والسبب في ذلك إما حرص الرواة والناقلين على الاستيعاب والاستقصاء، أو خلو المؤرخين المسلمين من شعور النقد والشمول، زد على ذلك تلاعب أعداء الإسلام بوقائع التاريخ ومحاولتهم تشويهه. وبهذا السبب صارت مصادرنا للتاريخ والسيرة «مجموعة الخير والشر» و«ديوان الغث والسمين». إن دراستنا للتاريخ نتجت وتكونت من مختلف العصبيات الفكرية والآراء المبيتة والميول المذهبية، وصلتها بالحقيقة ضعيفة، وخاصة فيما يتعلق ببداية عهد الفتنة بل من عصر عثمان رضي الله عنه إلى نهاية الخلافة الأموية، فإن وجهة نظرنا لا تختلف كثيراً عن وجهة نظر الشيعة والسبئية والخوارج، بل كثيراً ما يتلاشى الفرق بينها، وقد حاول عديد من علمائنا ومفكرينا تنقية التاريخ الإسلامي من هذه الأخطاء حتى يتم القضاء على الفوضى الفكرية والضلال.

ومن هؤلاء العلماء الذين قاموا بتطهير التاريخ الإسلامي من الشوائب

وتنقيته من آثار التشويه والتحريف، شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠ ربيع الأول ٦٦١هـ/٢٣ يناير ١٢٦٣م = ٢٠/ذي القعدة ٧٢٨هـ/ ٢٦ سبتمبر ١٣٢٨م) تكلم الإمام أحمد بن تيمية عن التاريخ الإسلامي والصحابة الكرام وخلفاء الرسول ﷺ في عديد من مؤلفاته. ومما يجب التنبه له أن العلامة ابن تيمية لم يكن مؤرخاً ولم يترك كتاباً حول التاريخ الإسلامي، ولكنه باطلاعه الواسع وذهنه الثاقب وفكره العميق قد درس التاريخ الإسلامي في رؤيته الشاملة، وفي الوقت نفسه استفاد من القرآن والسنة والتاريخ والكلام والعلوم الإسلامية الأخرى واستدل بهذه المصادر وكتب كتابة خصبة عن مختلف أدوار التاريخ الإسلامي والخلفاء الكرام والشخصيات الأخرى.

يمكن تقسيم مؤلفات شيخ الإسلام إلى قسمين:

الأول: المؤلفات التي تم تأليفها كالرد والإلزام، وقد رد شيخ الإسلام في هذه المؤلفات على مطاعن المسلمين وغيرهم، وكشف عن المحاولات التي بذلت في سبيل تشويه أعمال الخلفاء والصحابة وشخصيات الإسلام الأخرى. وقد وصف بعض علمائنا ومفكرينا ممن يعترف بخدماتهم العظيمة للإسلام، هذه المؤلفات القيمة النافعة بأنها «محضر محامي الدفاع». ولكن الحقيقة أن هذه المؤلفات مهمة جداً لأنها تتضمن الرد على المطاعن الموجهة إلى أسلافنا، ولو صرفنا النظر عن مثل هذه المؤلفات الجوابية، لصار تاريخنا، بل مجموعة العلوم الأخرى أيضاً مهملاً. ومن أهم كتب هذا القسم كتاب «منهاج السنة».

أما القسم الثاني: الذي يتضمن الاتجاه الإيجابي لابن تيمية فيمثله مجموع فتاوى شيخ الإسلام الذي نشر في ٣٧ مجلداً.

منهاج السنة النبوية ألف في الرد على العالم الشيعي ابن مطهر الحلي (٦٤٨ ـ ٧٢٦هـ) في كتابه منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، ويصرف النظر في بعض الأوساط العلمية عن هذا الكتاب بناء على أنه رد إلزامي، ولكن الحق أنه تنقيح وتهذيب في الأدب التاريخي الإسلامي. لخص هذا الكتاب الحافظ أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ) وحاول أن

يقدم اتجاهاً إيجابياً إلى حد ما، وأفكار شيخ الإسلام ابن تيمية تكتسب أهمية إذا لاحظنا أنها وردت في مجموع فتاويه بصورة إيجابية. ومقالنا هذا مبني على هذه الكتب الثلاثة، ونبحث فيه عن أفكار ابن تيمية واتجاهاته التي تتعلق بالقرن الأول للتاريخ الإسلامي.

بداية الخلافة الإسلامية ومراحلها، وانتخاب الخلفاء ومكانتهم، وموقف الصحابة نحو المراحل المهمة في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وبعض المسائل الخاصة بنوعية الحكم الإسلامي، كل ذلك قد اكتسب أهمية في مختلف أدوار التاريخ حتى انقسمت الأمة المسلمة في الطوائف السياسية التي تحولت إلى فرق دينية. ومن أهم هذه الفرق الشيعة والخوارج. ومثل عقائدهما الدينية تعرضت مذاهبهما التاريخية أيضاً للإفراط والتفريط والانحراف في التفكير، ولذا يرفضها عامة الناس، والمؤسف أن آثار هذا الانحراف قد أثرت في اتجاه كثير من علماء أهل السنة ومفكريهم، فوقع عديد منهم فريسة لما قامت به تلك الفرق من التحريف والتشويه.

حدد الإمام ابن تيمية أولاً معنى الخلافة في ضوء القرآن والحديث واللغة والأدب، فقال إن معنى الخليفة في اللغة أن الخليفة يخلف وينوب عن سابقه، كما كان أبو بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ، وكما كان الخلفاء الذين ينوبون عن رسول الله ﷺ في سياسة الأمة حينما يغيب عن المدينة المنورة.

وقد انتقد ابن تيمية شديداً الرأي القائل بأن المراد من الخليفة النائب الإلهي، وبالخلافة الخلافة الإلهية، إنه حكم بفساد هذا الرأي، لأن الله تعالى ليس له خليفة. وقد ساق في تأييد قوله أدلة من العقل والنقل.

يرى ابن تيمية أن الخلافة الإسلامية على قسمين: الأولى خلافة النبوة، والثانية خلافه الملك وإقامة الأولى واجب ومقصود أصلي، وهي أحسن من الثانية، وليس هناك حد جامع ومانع لخلافة النبوة، ولكن يظهر بما ورد عنها في الأحاديث والآثار أن خلافة النبوة هي الخلافة والحكومة التي تلائم السنة النبوية وسنة الخلفاء، وأورد الحديث النبوي: عليكم بسنتي

وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، دليلاً على قوله، ويبدو أن خلافة النبوة عند ابن تيمية هي خلافة الخلفاء الأربعة التي انتهت بشهادة علي رضي الله عنه، ويعتقد ابن تيمية أن خلافة الملك بدأت بعد مدة خلافة النبوة، واستمرت إلى مدة معينة. إنه لم يحدد هذه الخلافة مثل تحديده لخلافة النبوة، ولكن يبدو أنه يحدد عصر الخير والرحمة بالحديث النبوي المعروف خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

وفي مبحث تحديد خلافة النبوة ندرك نظرة شيخ الإسلام ابن تيمية الواسعة على ذخيرة الحديث النبوي الواسعة، والاطلاع الكامل على روح الإسلام وروح الحديث، وقدرته التامة على التحليل والانتقاد. فإنه قد حاول استيعاب الأحاديث النبوية حول موضوع الخلافة، وإلقاء الضوء على هذه النقطة يقتضي مقالاً مستقلاً، ولكني أريد الآن إلقاء نظرة على مصدر مهم لهذا البحث، إن الإمام ابن تيمية بحث عن هذه النقطة في منهاج السنة في مواضع متفرقة وبالاختصار، ولكنه خصص لها فصلاً مستقلاً في مجموع فتاويه، واستوعب كثيراً من الروايات والأحاديث والآثار.

وبناء على الأحاديث النبوية جعل ابن تيمية خلافة الخلفاء الأربعة خلافة النبوة، ولم يسلم لمن يطعن فيهم دليلاً.

ومما نراه أن النبي ﷺ قد أعطى عن الخلفاء الثلاثة خاصة وعن الأربعة عامة إشارات وقرائن تدل على وقوع خلافتهم بنفس ذلك الترتيب التاريخي والوقوعي، وقد ذكر ابن تيمية هنا ـ نقلاً عن ابن حزم ـ أربعة مذاهب لعلماء الأمة، واختار منها المذهب الذي يقول: إن تعيين أبي بكر كخليفة لرسول الله ﷺ كان قد تم بتصريح. وقد أيده بأدلة من القرآن الكريم والحديث النبوي والتاريخ الإسلامي.

ونظرية ابن تيمية في انعقاد الخلافة وتعيين العاقدين:

ويثبت بتصريحات ابن تيمية رحمه الله أن أهم الشروط عنده لانعقاد الخلافة ثلاثة: الأول: السيطرة على عرش الخلافة، والثاني: إجماع الأمة على خلافته، والثالث: قدرته على تحقيق مقاصد الخلافة. ويرى ابن تيمية الانتخاب

والشورى طريقاً أفضل للسيطرة على عرش الخلافة، ولكنه في الوقت نفسه لا يحرم السيطرة بقوة السيف. ولا يريد بإجماع الأمة إجماع الأمة بأسرها، بل يريد اتفاق أهل القوة والشوكة وتأييدهم. ويرى أن كل حكومة وكل خلافة تقوم بتنفيذ أحكام الشريعة وتحاول إعلاء كلمة الله فهي إسلامية.

وبناء على مذهبه هذا يجعل ابن تيمية مختلف طرق انعقاد البيعة للخلفاء الأربعة طريقة إسلامية صحيحة، لأن إجماع الأمة انعقد على خلافة كل واحد منهم، وقد صرح عن كيفية هذا الإجماع بأن إجماع الأمة الذي انعقد على خلافة الخلفاء الثلاثة، كان أقوى وأعم وأشمل، وإنه بهذه الصفة لم يتحقق للخليفة الرابع، لأن طبقات المدينة التي يعتد بها وكذا بعض الإمارات الأخرى لم تعترف بخلافة علي الخليفة الرابع.

والإمام ابن تيمية لم يثبت خلافة النبوة للشيخين فحسب، بل فند بأدلة النقل والعقل جميع المطاعن التي توجه إليهما، وكذلك قام بتفنيد مطاعن بعض الطبقات والمثقفين من أهل السنة إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه. ومما يؤسف كثيراً أن الخليفة الثالث تعرض لمطاعن بعض منا فضلاً عن مطاعن غيرنا وأعدائنا. ومن هذه المطاعن إيثار أهل القرابة في إسناد الأعمال، وعدم توفر الكفاءة ومستوى التقوى والتعفف فيهم، وسوء التصرف في أموال بيت المال، وتشجيع العصبية القبلية بدل القضاء عليها، وتسامح الطبع دون توازن، وتجاوز سنة الرسول ﷺ والشيخين.

وقد جعل بعض المفكرين المسلمين، في ضوء أصول الحكم في الإسلام وتاريخ الخلافة الإسلامية، النصف الثاني من عصر خلافة عثمان رضي الله عنه بداية الملوكية في الإسلام والمرحلة الأولى للابتعاد عن الخلافة على منهاج النبوة، ولكن العلامة ابن تيمية لا يسلم ذلك، بل يعتبر خلافة عثمان خلافة النبوة ولو كانت أقل درجة من خلافة الشيخين، حيث كانت أمور الدولة تسير على منهاج النبوة متسقة مع روح الإسلام وموافقة لقوانين الشريعة. إنه رد على جميع المطاعن الموجهة إلى عثمان بتحمس وقوة وأدلة تاريخية.

وقد دافع ابن تيمية عن عمال عثمان رضي الله عنه مثل معاوية بن أبي سفيان ووليد بن عقبة، وعبد الله بن أبي سرح، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر بن كريز، وأثبت براءتهم، ثم صرح بأنه من الممكن أن توجه مثل هذه المطاعن إلى عديد من عمال الخليفة الرابع علي رضي الله عنه. وإنه بهذا التصريح لا يريد أن يجعل خلافة علي على غير منهاج النبوة، ويصدق المطاعن الموجهة إلى عماله، بل إنه يريد نوعاً من التشبيه والدلالة على أن الخليفة الثالث وعماله براء من تلك المطاعن. كما أن الخليفة الرابع وعماله براء منها.

ويقول في نهاية هذا المبحث: نحن لا نعتقد العصمة في عثمان، لكن نراه خليفة بحق، ونجعل خلافته خلافة النبوة.

كثرت البحوث حول الحكومة التي قامت بعد خلافة النبوة من ناحية صفتها الشرعية والقانونية، وقد نشطت وحميت هذه البحوث في العصر الحاضر على أنه عصر النشأة الثانية للإسلام.

وقد ظهرت بهذا الصدد ثلاث نظريات:

الأولى: أن الخلافة الأموية والخلافة العباسية وبعض الحكومات الأخرى كانت إسلامية، وهي وإن لم تكن خلافة راشدة، أو كانت ساقطة عن المستوى المطلوب ودرجة الكمال للخلافة الإسلامية، ولكنها لالتزامها بالشريعة الإسلامية وإقامتها الجهاد بالسيف والقلم لإعلاء كلمة الله، كانت خلافة أو حكومة إسلامية.

وظهرت هناك نظرية ثانية وهي أن الملوكية قامت بعد الخلافة الراشدة، وهي غير إسلامية، فانتهت الحكومة الإسلامية بالفعل، وإن كان الخليفة مسلماً، والعمال مؤمنين، وسلطة الشريعة قائمة إلى حد ما، إنها لم تكن خلافة ولا إسلامية، بل ملوكية.

والنظرية الثالثة أن ذلك العصر كان عصر غلبة الشر وفقدان الخير، وكان نظام الحكم غير إسلامي بالكلية، ولذا كانت الثورة والخروج عليه من الواجبات مهما كان النظام اللاحق. والفرق بين النظرية الثانية، والنظرية

الثالثة خفيف وأحياناً تتحدان، وعلى هذا رأت بعض طبقات الأمة تغيير الحكومة واجباً، بل جعلوا الحركات الثورية ضد الخلافة الأموية والخلافة العباسية جائزة، أو رأوها مستحقة للتأييد إزاء تلك الحكومات.

والحكومة التي قامت بعد خلافة النبوة هي خلافة عند ابن تيمية، ولكنها خلافة الملك وليست خلافة النبوة، وعلى هذا جعل ابن تيمية معاوية رضي الله عنه أول ملك للمسلمين، وأجاز تسميته خليفة، وسمى أول عام من عهده عام الجماعة (أي الاتحاد) وجعل عصره عصر ملك ورحمة، ثم أصدر فتواه بأنه يجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين «خلفاء» وإن كانوا ملوكاً، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء، وأيد رأيه بالحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا قال: فوا ببيعة الأول فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم».

فقوله «فيكثرون» دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيراً: وحيث أن النبي ﷺ أطلق على الحكام بعد الراشدين لقب الخلفاء، فإنهم خلفاء وحكومتهم خلافة. وعلى هذا يكون معاوية خليفة، وعصره ملكاً ورحمة.

وعند ابن تيمية دليل آخر على كون الخلافة الأموية ملكاً ورحمة، وهو حديث «خير القرون قرني إلخ» إن النبي ﷺ حصر خير القرون في ثلاثة أدوار: الأول: عهد النبوة، والثاني: عهد من بعد النبوة: والثالث: عهد من جاء بعد أهل القرن الثاني. ويعتقد ابن تيمية أن انقراض أهل قرن بانقراض جمهوره، فالقرن الأول كان عصر جمهور الصحابة، وهم أكابرهم، وانتهى هذا الدور بانتهاء خلافة الخلفاء الأربعة، والقرن الثاني كان عصر أصاغر الصحابة وجمهور التابعين، وقد انتهى أثناء إمارة عبد الله بن الزبير وإمارة عبد الملك. والقرن الثالث كان عصر بقية التابعين وجمهرة أتباع التابعين، وقد انقرض بانقراض الدولة الأموية أو أواخرها، وهذا الشرح

لحديث خير القرون ذو أهمية بالغة، فكما يرى ابن تيمية تستحق الخلافة الأموية كلها مع خلافة يزيد لقب «الحكومة الإسلامية» وهناك فتوى أخرى لابن تيمية أهم من تعبيره عن القرون الثلاثة، وهي أن شوب الخلافة بالملك ليس بقادح بل إن ذلك جائز في شريعتنا ولا ينافي العدالة، وإن كانت خلافة النبوة أو الخلافة المحضة أفضل.

وما ذهب إليه في هذا العصر بعض المفكرين والعلماء المسلمين من وصف الخلفاء الأربعة بالراشدين، وحكموا على حكوماتهم بأنها إسلامية وغير إسلامية، فإنه ليس بمعارض لنظرية ابن تيمية فحسب، بل ينافي الحقيقة أيضاً، بل أهم من ذلك أنه يتصادم مع ما قررته الأحاديث النبوية وحددته بصفة أوسع. لأن مدة خير القرون بالمعنى اللغوي والاصطلاحي لن تنتهي بانتهاء حكومة الخلفاء الأربعة. ولأن هناك عصرين آخرين لغلبة الخير بين خلافة النبوة والملك العضوض. ولأن الحديث النبوي ذكر كثرة الخلفاء. ولأن تلك القرون كانت قرون الصحابة والتابعين وأتباعهم، وهم خير الأمة على كل حال.

والإمام ابن تيمية اتخذ موقفاً متوازناً واقعياً ملائماً للروح الإسلامية حينما فكر وكتب عن مشاجرات الصحابة، موقفاً لم نعهده عند أكثر علماء أهل السنة، وخاصة عند المفكرين المتأخرين. إنه يرى أن السكوت والتوقف في هذه المشاجرات أفضل، ولا يجوز لأحد أن يلوم الصحابة على فعلهم هذا، وهذا المذهب الذي اختاره ابن تيمية تؤيده. أولاً: الأحاديث النبوية التي منع فيها رسول الله ﷺ المسلمين من لوم الصحابة ومن أن يتخذ أحد موقف أحدهم وسيلة للطعن في موقف الآخر. وثانياً: أن الاقتداء بأحد منهم يضمن الهداية للمقتدي، ولذا لا يمكن تخطئة جماعة منهم. وثالثاً: اتفق علماء أهل السنة على عدالة الصحابة، ولذا لا يصح وصف فعل أحد منهم بأنه غير شرعي ومتجاوز للشرع ومبني على الخطأ.

ومما يجب التنبيه عليه هنا هو أن مقياس الخطأ والصواب ليس الذي حدده المتأخرون، بل المعيار الأصلي ما حدده الصحابة في ضوء القرآن

والسنة، إن مقياس الخطأ والصواب والصحيح والغلط ليس بأيدينا، بل الله تعالى هو يحكم بذلك، وإلا لزم أن تخطىء طبقة من الأمة جماعة من الصحابة، وطبقة أخرى جماعة أخرى منهم، وطبقة ثالثة جماعة ثالثة منهم. فالحكم بالصحة والغلط يصعب جداً. ويلزم أن تصبح جميع طبقات الصحابة على الخطأ ولا تبقى العدالة لأحد منهم، ولذا يجب أن يتجنب إطلاق الخطأ على أحد منهم، وهذا معنى حديث «لا تجعلوا أصحابي غرضاً. . . إلخ».

ويقول ابن تيمية عن وقعة الجمل إن الصحابة انقسموا حينذاك إلى ثلاث طبقات: الأولى أكثر الصحابة، وهم لم يقاتلوا من جانب، والثانية: أصحاب علي، والثالثة: الصحابة الذين أيدوا طلحة والزبير وعائشة. ويرى ابن تيمية أن الوضع كان هكذا في وقعة صفين أيضاً فالذين اشتركوا في الوقعتين من الصحابة وغيرهم كلهم كانوا مسلمين مؤمنين على الحق، فإنهم لم يقتتلوا إلا تأييداً لموقفهم بنية صحيحة. وأصحاب رسول الله ﷺ خيار المؤمنين، ولما كان لفظ «الصحبة» فيه عموم وخصوص كان من اختص من الصحابة لما يتميز به عن غيره يوصف بتلك الصحبة، دون من لم يشركه فيها. ومن لعن أحداً من أصحاب النبي ﷺ، كمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ونحوهما، ومن هو أفضل من هؤلاء كأبي موسى الأشعري وأبي هريرة ونحوهما، أو من هو أفضل من هؤلاء كطلحة والزبير وعثمان وعلي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق وعمر وعائشة أم المؤمنين وغير هؤلاء من أصحاب النبي ﷺ، فإنه مستحق للعقوبة البليغة باتفاق أئمة الدين.

وبعد التحليل الفكري المذكور صرح ابن تيمية عن وقعة جمل بأن موقف طلحة والزبير وعائشة كان صحيحاً، فإنهم خطوا خطوة صحيحة في سبيل قصاص عثمان، أما إشعال نار الحرب فقام به من خالفهم أو المتآمرون وقتلة عثمان.

ومن يرى الأمير معاوية وأصحابه أنهم الطائفة الباغية يستشهد بالآية

الـكـريـمـة ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ إلـخ. ويـدعـي أنـهـم هـم المقصودون بالطائفة الباغية، الذين أخطأوا خطأً بيناً في خروجهم على علي رضي الله عنه، الذي كان محقاً هو وأصحابه في موقفه من القضاء على البغاة وإخضاعهم للخليفة.

ويستدلون بحديث عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي قال فيه النبي ﷺ: «يا عمار تقتلك الفئة الباغية» فأطلق أعداء معاوية هذا الحديث عليه وعلى عساكره، إذ كان عمار من قبل علي، فلما قتل معه في هذه الحرب، ثبت أن من خالفهم وهم معاوية وجماعته يصدق عليهم هذا الحديث، وبالتالي كان عداده في البغاة.

وبناء على ما ذكر قد ذهب إلى هذا الرأي كثير من العلماء والمفكرين، وأغفلوا جميع الأحاديث الواردة في فضل الصحابة، وموقف أهل السنة الجماعي هو الإمساك عما شجر بين الصحابة وعدالة الصحابة.

وأبدى شيخ الإسلام موقفه من الآية والحديث بكل اتزان وصدق فدرس المسألة من الناحية الفقهية: هل كان قتال البغاة أولى أو الاجتناب عنه، ثم نقل عن بعض الأئمة أن الأولى كان الإمساك عن القتال في الفتنة.

وذكر مذاهب الأئمة في الفريقين:

١ ـ إن علياً رضي الله عنه كان على الحق والصواب، وكانت خلافته صحيحة، وثابتة بالحديث، فمقاتله من الطائفة الباغية، ثم ساق أدلة هؤلاء منها حديث عمار المذكور، يقول شيخ الإسلام، وهذا أيضاً يدل على صحة إمامة علي، ووجوب طاعته، ومقاتله مخطىء وإن كان متأولاً أو باغ بلا تأويل، وقال: وكذلك أنكر يحيى بن معين على الشافعي استدلاله بسيرة علي في قتال البغاة المتأولين قال: أيجعل طلحة والزبير بغاة؟ رد عليه الإمام أحمد فقال: ويحك وأي شيء يسعه أن يصنع في هذا المقام: يعني إن لم يقتد بسيرة علي في ذلك لم يكن معه سنة من الخلفاء الراشدين في قتال البغاة[1].

---

(١) منهاج السنة (٤/٤٣٨).

ولا يصح الاستدلال بسيرة علي البتة لوجود قتال أبي بكر ما نعي الزكاة، والمرتدين والمتنبئين، ثم يمكن الاستدلال بسيرة علي في قتال البغاة: قتاله بالخوارج، وكيف يمكن الاستدلال بوقعة الجمل وصفين.

والقول الثاني أن كلاً منهما مصيب، وهذا بناء على قول من يقول: كل مجتهد مصيب، وهو قول طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية.

وفيها قول ثالث: أن المصيب واحد لا بعينه، ذكر الأقوال الثلاثة ابن حامد، والقاضي وغيرهما، وهذا القول يشبه قول المتوقفين في خلافة علي من أهل البصرة وأهل الحديث وأهل الكلام.

ثم وجه انتقاده إلى القول الثالث، وقال: ولم يسترب أئمة السنة وعلماء الحديث: أن علياً أولى بالحق وأقرب إليه.

وخلاصة كلام ابن تيمية أن الفريقين: معاوية وعلي على الحق والصواب وأن علياً كان أولى بالحق وأقرب إليه.

وقد أطال شيخ الإسلام النفس في تفسير الآية الكريمة.

وخلاصتها أن الله أمر بقتال الطائفة الباغية، ولو كان المراد بها الفريق المخالف لم يتخلف أعيان الصحابة عن قتالهم، فإنهم صاروا حياديين في ضوء قول النبي ﷺ، وإذا سلمنا في تفسير الآية أن الفريق المخالف هو الباغي يمكن أن يتهم أكثر الصحابة بعدم طاعة حكم الله، وهم كانوا منزهين عن هذا.

فهم ما قالوا بأن المراد بالطائفة الباغية الفريق المخالف، وهذا مذهب علماء أهل الحديث وعامة أهل السنة، حتى قيل إنه لو لم يكن يقاتل علي لكان أفضل، ثم أشار في تأييد هذا المسلك إلى فعل الحسن في الإصلاح وترك القتال، ثم ذكر أقوال أحمد وغيره من أئمة السلف والخلف في وجوب القتال أو أفضلية تركه، ويرى شيخ الإسلام أن تركه كان أفضل من فعله.

وقال: ومن المعلوم أنهم إذا لم يبدأوه بقتال فلو لم يقاتلهم لم يقع أكثر مما وقع من خروجهم عن طاعته، لكن بالقتال زاد البلاء وسفكت الدماء وتنافرت القلوب.

ثم تعرض شيخ الإسلام لبداية القتال، ثم إصلاح أمر المسلمين، ثم حدوث البغي، وفصل القول في قتال الطائفة الباغية وذكر فروع المسألة، وبين أدلة الفريقين علي ومعاوية، وذكر حديث الصحيحين الذي كان يحتج به معاوية وأصحابه في تأييده: لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة.

وهو معارض للحديث الذي ورد فيه تقتلك يا عمار الفئة الباغية فدرس شيخ الإسلام هذه النصوص دراسة متأنية وحاول بينها الجمع والتطبيق. ووصل إلى نتيجة أن الفريقين علياً ومعاوية على الحق والصواب، مع أن علياً كان أولى بالحق ممن فارقه، وأن عماراً قتلته في الحقيقة الفئة الباغية التي قتلت علياً، وأحدثت في الإسلام الفتنة والفرقة ولم يخرج أي الفريقين من الإسلام بالقتال لأن الآية تشتمل على المؤمنين من الفريقين، وذكر شيخ الإسلام أن ابتداء القتال كان من علي، ثم تنطبق الآية على من نقض العهد، ومعاوية رضي الله عنه لم ينقض التحكيم فلا يصدق عليه الآية.

ثم قارن بين حكمهما وذكر أن علياً لم يقاتل بعد وفاة النبي ﷺ كافراً ولا فتح مدينة، بل قاتل أهل القبلة ولم يكن للإسلام غلبة في عهده، بل حدثت الفتن والمفاسد، استغلها الكفار والنصارى والمجوس في المشرق وبلاد الشام، وحاولوا القضاء على أهل الإسلام... وكان علي عاجزاً عن ظلم رجال جيشه وما كان أصحابه يطيعونه في أوامره.

أما معاوية: فإنه بقي في الشام عشرين سنة أميراً، وعشرين سنة خليفة ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له وهو من أعظم الناس إحساناً إليهم وتأليفاً لقلوبهم...

وقد أقام الجهاد براً وبحراً، وفتح البلاد، وزادت شوكة الإسلام

وتوسعت رقعة الإسلام وراج الدين المبين.

وقد بين شيخ الإسلام مناقب معاوية في فصل مستقل.

وقد قارن كثير من العلماء المنتسبين إلى السنة بين معاوية وبين عمر بن عبد العزيز على وجه الاختصار، ويذهبون إلى أن عداد عمر بن عبد العزيز من الخلفاء الراشدين مع أن معاوية رضي الله عنه أول ملوك الإسلام وأحسنهم، وقارن بينهما ابن تيمية لكنه يختلف كثيراً عن مقارنة الآخرين، فذكر أن كل من صحب النبي ﷺ أفضل ممن لم يصحبه مطلقاً، ثم ذكر فضائل القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية وأن الأمة أجمعت أن الصحابة أفضل من غير الصحابة وذكر أقوال أهل العلم بهذا الصدد ونقل عن بعض الناس أنهم معترفون بأن سيرة عمر بن عبد العزيز أعدل من سيرة معاوية قالوا: لكن ما حصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر لا يساويه ما يحصل لغيرهم بعمله.

فظهر أنه إذا أمكن أن يعد عمر بن عبد العزيز لعدله من الخلفاء الراشدين فمعاوية يكون بالدرجة الأولى لشرف الصحبة.

فإذا أمكن لغير الصحابة لأجل إيمانه وعقيدته أن يفضل على صحابي، فلا يفضل أحد عليه بعلمه، هذا ما يقتضيه العقل والمنطق وروح الدين.

ثم هناك مسألة تحتاج إلى بحث وهو فضل عمر بن عبد العزيز على معاوية في عدله وزهده، ولم تلصق بحياته الروايات الوضعية والقصص المختلقة تجلت حياته في صورة أنيقة، ولكن انعكس الأمر في سيرة معاوية رضي الله عنه، فلما نبعد عن ما ألصق به من الموضوعات والمختلقات، ونجرد ما صح عنه وندرس حياته في ضوء هذه المعلومات الصحيحة تتجلى شخصيته ومآثره.

وقد تطرق الخلاف إلى صفوف المنتسبين إلى السنة في مسألة يزيد بن معاوية ودرس شيخ الإسلام هذه القضية فقال في موضع:

فالرافضة لما كانت تسب الصحابة صار العلماء يأمرون بعقوبة من

يسب الصحابة، ثم كفرت الصحابة... ولم يكن أحد إذ ذاك يتكلم في يزيد بن معاوية، ولا كان الكلام فيه من الدين، ثم حدثت بعد ذلك أشياء، فصار قوم يظهرون لعنة يزيد بن معاوية، وربما كان غرضهم بذلك التطرق إلى لعنة غيره، فكره أكثر أهل السنة لعنة أحد بعينه فسمع بذلك قوم ممن كان يتسنن فاعتقد أن يزيد كان من كبار الصالحين وأئمة الهدى.

وصار الغلاة فيه على طرفي نقيض، هؤلاء يقولون: إنه كافر زنديق، وأنه قتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وقتل الأنصار وأبناءهم بالحرة ليأخذ بثأر أهل بيته الذين قتلوا كفاراً... ويذكرون عنه من الاشتهار بشرب الخمر وإظهار الفواحش أشياء.

وأقوام يعتقدون أنه كان إماماً عادلاً مهدياً، وأنه كان من الصحابة أو أكابر الصحابة، وأنه كان من أولياء الله تعالى، وربما اعتقد بعضهم أنه كان من الأنبياء.

ويروون عن الشيخ حسن بن عدي أنه كان كذا وكذا ولياً، وفي زمن الشيخ حسن زادوا أشياء باطلة نظماً ونثراً.

«وهذا الغلو في يزيد من الطرفين خلاف لما أجمع عليه أهل العلم والإيمان».

يقول ابن تيمية: إن يزيد بن معاوية ولد في خلافة عثمان، ولم يكن ممن أدرك النبي ﷺ ولا كان من الصحابة باتفاق العلماء، ولا كان من المشهورين بالدين والصلاح وكان من شبان المسلمين، ولا كان كافراً ولا زنديقاً، وتولى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين ورضا من بعضهم، وكان فيه شجاعة وكرم، ولم يكن مظهراً للفواحش كما يحكي عنه خصومه.

ثم قال: وجرت في إمارته أمور عظيمة، أحدها مقتل الحسين رضي الله عنه، وهو لم يأمر بقتل الحسين، ولا أظهر الفرح بقتله، ولا نكت بالقضيب على ثناياه ـ رضي الله عنه ـ ولا حمل رأس الحسين إلى الشام، لكن أمر بمنع الحسين وبدفعه عن الأمر، ولو كان بقتاله، فزاد النواب على أمره...

وقال: وحض الشمر بن ذي الجوشن على قتله لعبيد الله بن زياد، فاعتدى عليه عبيد الله بن زياد، وأمر عمر بن سعد بقتاله، فقتلوه مظلوماً.

وكان قتله من المصائب العظيمة، فإن قتل الحسين وقتل عثمان قبله كانا من أعظم أسباب الفتن في هذه الأمة وقتلتهما من شرار الخلق عند الله.

وقال: ولما قدم أهلهم على يزيد، أكرمهم وسيرهم إلى المدينة وروى عنه أنه لعن ابن زياد على قتله، وقال: كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين، لكنه مع هذا لم يظهر منه إنكار قتله، والانتصار له، والأخذ بثأره وكان هو الواجب عليه، فصار أهل الحق يلومونه على تركه للواجب مضافاً إلى أمور أخرى، وأما خصومه فيزيدون عليه من الفرية أشياء.

وقال: وأما الأمر الثاني، فإن أهل المدينة المنورة نقضوا بيعته، وأخرجوا نوابه وأهله، فبعث إليهم جيشاً، وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثاً... ثم أرسل جيشاً إلى مكة المكرمة فحاصروا مكة... وهذا من العدوان والظلم الذي فعل بأمره.

ولهذا كان الذي عليه معتقد أهل السنة وأئمة الأمة أنه لا يسب ولا يحب، وروى عن أحمد أنه لا يكتب الحديث عنه.

قال: فيزيد عند علماء أئمة المسلمين ملك من الملوك، لا يحبونه محبة الصالحين، وأولياء الله، ولا يسبونه.

قال: وطائفة من أهل السنة يجيزون لعنه لأنهم يعتقدون أنه فعل من الظلم ما يجوز لعن فاعله.

وطائفة أخرى ترى محبته، لأنه مسلم تولى على عهد الصحابة، وبايعه الصحابة ويقولون: لم يصح عنه ما نقل عنه، وكانت له محاسن أو كان مجتهداً فيما فعله.

وقال: والصواب هو ما عليه الأئمة من أنه لا يخص بمحبة ولا يلعن ومع هذا، فإن كان فاسقاً، أو ظالماً فالله يغفر للفاسق والظالم، لا سيما إذا أتى بحسنات عظيمة.

ثم ذكر من صحيح البخاري حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له».

وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية، وكان مع أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: فالواجب الاقتصار في ذلك، والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية وامتحان المسلمين به فإن هذا من البدع المخالفة لأهل السنة والجماعة، فإنه بسبب ذلك اعتقد قوم من الجهال أن يزيد بن معاوية من الصحابة، وأنه من أكابر الصالحين وأئمة العدل وهو خطأ بيِّن.

وقد اختار شيخ الإسلام نفس هذا الموقف من يزيد بن معاوية في منهاج السنة كما تقدم عنه مفصلاً.

وذكر عن أهل السنة أنهم يعتقدون أنه ملك جمهور المسلمين وخليفتهم في زمانهم، صاحب السيف كما كان أمثاله من خلفاء بني أمية وبني العباس، وهذا أمر معلوم لكل أحد، ومن نازع في هذا كان مكابراً، فإن يزيد بويع بعد معاوية، وصار متولياً على أهل الشام ومصر والعراق وخراسان وغير ذلك من بلاد المسلمين[1].

وأبان شيخ الإسلام عن موقفه من خروج الحسين أن تركه كان أفضل من ابتلاء الأمة بفتنة القتال، ولم يكن يمدح من اشترك من الصحابة رضي الله عنهم في وقعة الجمل وصفين ولا قدح فيهم، ولم يبح لأحد أن يخرج ضد يزيد بن معاوية بعد عقد البيعة، وكان يذهب إلى تحريم الخروج وإحداث الفتن والثورة واستخدام أساليب التهديد والقمع، وانقلاب الحكومات عن هذه الطرق، لأنها ترمي إلى التخريب والفساد بدل الإصلاح وقد أيد مذهبه بأدلة نقلية وعقلية وبأحداث التاريخ إذ لم تستفد الأمة من جميع هذه الثورات والفتن بل أخرت الحكومة الإسلامية وزحزحتها.

قال: «فإذا تولى خليفة من الخلفاء... فإما يقال يجب منعه، من الولاية وقتاله حتى يولى غيره... فهذا رأي فاسد، فإن مفسدته أعظم من

(١) منهاج السنة (٢/٣١٠).

مصلحته وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة، وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك بالعراق، وكابن المهلب الذي خرج على أبيه بخراسان وكأبي مسلم صاحب الدعوة الذي خرج عليهم بخراسان أيضاً، وكالذين خرجوا على المنصور بالمدينة والبصرة وأمثال هؤلاء، وغاية هؤلاء إما أن يغلبوا وإما أن يغلبوا، ثم يزول ملكهم، فلا يكون لهم عاقبة».

وصرح في هذا الباب أنه لما تولى أحد الخلفاء الحكم، فالذي يحاول إحباطه، فيبني رأيه هذا على أمر فاسد، ويجر هذا إلى القتال والدمار، ولو كان صاحب الخروج متقياً وصالحاً، واستدل لرأيه بالنصوص الشرعية والأحاديث الصحيحة وآثار السلف، وعرض عليها خروج الحسين، وقال بعد: «فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك إذ لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا بل تمكن أولئك الظلمة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه مظلوماً شهيداً، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن يحصل لو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير، ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه، وقتله، ونقص الخير بذلك، وصار سبباً لشر عظيم»[(١)].

وأبان عن رأيه عن هذا الحادث الأليم أنه لا يعصب الجناية على يزيد فلا يجوز لعنه وهو مذهب أهل السنة والجماعة ولا شك أن قتل الحسين جريمة عظيمة، ومن قتله أو أعان على قتله أو رضي بذلك يستحق عقاب الله إلا أن الذي ثبت تاريخياً أن هذا ليس بأعظم من قتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه.

وموقف شيخ الإسلام من سائر التاريخ الإسلامي أن خلافتهم لم تكن خلافة النبوة، فلما لم يكونوا خلفاء النبوة فكيف تكون خلافتهم خلافة

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٢١٤).

النبوة، وموقفه من الخلفاء الأمويين صريح وواضح جداً كما مر في مباحث القرون الثلاثة الموصوفة بالخيرية، وخلافة النبوة وخلافة الملك والرحمة، فإنه يعدهم أئمة عدولاً، ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكاً، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء، وكان يقصد بهم ملوك الرحمة لا ملوك الكفر والشرك، ويستدل على ذلك بأن الملوك والخلفاء في سيرتهم وفي حسناتهم وسيئاتهم مثل عامة الناس، فكانت خلافتهم وملكهم تحمل حسنات وسيئات.

وقد قارن شيخ الإسلام بين العهد الأموي والعهد العباسي، كما قارن بين العهود المختلفة في الخلافة الراشدة، وأثبت بالأدلة والبراهين أن الخلفاء الأمويين كانوا أفضل وأحسن من الخلفاء العباسيين، وقد درس شيخ الإسلام هذه المباحث في فتاواه وفي مؤلفاته الأخرى في ضوء الأصول، والعقل، والتاريخ، وأهم ما وصل إليه هو شرعية الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية بعد الخلافة الراشدة، ولا يقول بعدم جوازهما وعدم شرعيتهما مع قوله بحصول الضعف والاضمحلال من عهد إلى عهد لأنها لم تكن خلافة النبوة، إلا أنها كانت خلافة الرحمة، وملك الرحمة.

إن هذه الدراسة التي قدمناها كانت في ضوء كتابات شيخ الإسلام المتنوعة وهي دراسة موجزة مختصرة لعهد الخلافة الإسلامية أو التاريخ الإسلامي، وكان يستند شيخ الإسلام في آرائه دائماً إلى الكتاب والسنة وآثار الصحابة والسلف، وأهم ما يتميز به في هذا الجانب أنه يدرس جميع المواد المتوفرة حول الموضوع ثم يظهر رأيه في ضوء الاستدلال، فإنه لا يستنبط مسألة ولا يحكم على قضية في ضوء بعض الأحاديث والآثار والوقائع والحوادث بل يستوعب النصوص ويستنتج النتائج بالاستقراء التام، وهذا يدل على تبحره وتوسعه من جانب وعلى دقة نظره، وتمكنه من تحليل المسألة ودراستها دراسة متأنية.

والميزة الثانية التي نجدها في ابن تيمية هو اتزان فكره ورزانة أسلوبه فإنه لا يتنازل عن الصدق والأمانة حباً لطبقة أو شخص، كما لا يتهم

الآخرين لعداوة ومنافسة، وهذا الذي يسمونه في العصر الحديث بالدراسة الحيادية، نجدها عند شيخ الإسلام ابن تيمية وقبله عند ابن خلدون.

والميزة الثالثة لأسلوبه أنه في غاية من النزاهة، إذ يقول ما يريد أن يقول بكل رزانة ومتانة من غير طعن.

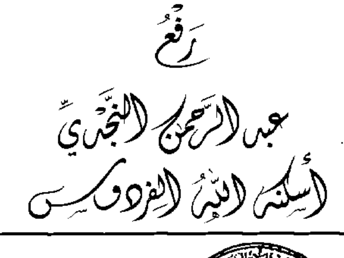
ومن أساسيات منهج شيخ الإسلام لدراسة التاريخ التحليلية أنه يوافق روح الإسلام وأحكامه وقوانينه الشرعية، فإنه لا يحاول إخضاع المبادىء الفكرية والأسس الاعتقادية لصالح ما يراه أو يكره، ولا يزور الحقائق التاريخية لأفكاره الوضعية ومبادئه المخترعة.

وقد اخترع في هذا الباب أصلاً مهما وهو أنه كما نرجع نحن إلى آثار الصحابة وأقوالهم ونعتمد على فهمهم وبصيرتهم، فعلينا أن نرجع إلى طريقتهم في الخلافة والحكم والتاريخ الإسلامي، حتى تكون جميع معاييرنا الحقة والباطلة خاضعة لفهمهم وطريقتهم.

وإن دراسة منهج شيخ الإسلام ابن تيمية التاريخي تحتاج منا إلى مؤلف ولا يسع له المقام، إلا أن الذي أريد أن أقوله في آخر مقالي هذا، إننا بحاجة ماسة إلى فهم منهج شيخ الإسلام لدراسة التاريخ الإسلامي وتبينه، فإنه في غاية من العدل والرزانة، وبه تنحل جميع القضايا التاريخية التي يتخذها الناس وسيلة لتوجيه الطعن إلى التاريخ الإسلامي بل إلى الإسلام نفسه، والله ولي التوفيق.







موقف شيخ الإسلام من الحسين بن علي ويزيد بن معاوية

بقلم: الشيخ عبد السلام الرحماني
وكيل جامعة سراج العلوم، بونديهار
نقله إلى العربية/ الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله عز وجل قد نصح أهل الكتاب، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٧٧).

وقد نصح النبي ﷺ أمته فقال: «إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[١].

ونلاحظ أن الأمر الذي أضل الأمم عن سواء السبيل، وأهلكهم هو نفس سبب وقوع غالبية هذه الأمة في الضلال وابتعادهم عن سواء السبيل.

فلم نرهم على الصراط المستقيم لا في العقائد والعبادات ولا في تقديس الشخصيات ومحبتهم، والتشنيع عليهم وبغضهم.

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه وأحمد وصححه ابن خزيمة.

ومن هذه الشخصيات التي غلا كثير من الناس فيهم إطراء وبغضاً، شخصية الحسين بن علي ويزيد بن معاوية، فنرى كثرة كاثرة من الناس في بداية كل عام هجري يقع في هذا الأمر الشنيع، ونرى الخطباء والكتاب في كتاباتهم يمدحون إما الحسين بن علي أو يزيد بن معاوية ويبلغون إلى حد الاطراء، ويعددون مثالب ثانيهما بكل غلو ومبالغة.

وقد راجت الروايات المختلقة والقصص الموضوعة بكثرة كاثرة بحيث تقصر همم أهل العلم عن الوصول إلى الحقيقة في أمرها، كما يقعون في وهم وخطأ.

إن الرجل العبقري شيخ الإسلام الذي منحه الله التبحر في الكتاب والسنة والتاريخ والفرق، مع بصيرة نافذة، وذكاء نادر، وفقه لكشف الستار عن معضلات الغلو والاطراء، والبغض والقدح.

قد كتب كثيراً في كتبه وفتاويه حول مسألة الحسين، ويزيد، وبين الحق والصواب فيهما، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأنصف حسب عادته في المسألة وسلك مسلك التحقيق وإثبات الحق.

وتحينت الفرصة لتقديم آراء شيخ الإسلام في هذه المسألة التي ضل فيها كثير من الخلق من قديم الزمان.

لقد درس شيخ الإسلام هذا الموضوع في كتابه المشهور منهاج السنة في الرد على الشيعي ابن مطهر الحلي في كتابه منهاج الكرامة في معرفة الإمامة[١].

والنقول الآتية من هذا المصدر وبالله التوفيق.

قال شيخ الإسلام رداً على سؤال: وأما الحسين رضي الله عنه، فقتل

(١) (٢/ ٢٣٧ ـ ٢٥٦)، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٤، ٢٥ و٢٧، وغيرها من الأجزاء في المؤلفات الأخرى.

بكربلاء قرية من الفرات ودفن جسده حيث قتل، وحمل رأسه إلى قدام عبيد الله بن زياد بالكوفة، هذا الذي رواه البخاري في صحيحه وغيره من الأئمة[1].

وقال: والحسين رضي الله عنه أكرمه الله تعالى بالشهادة في هذا اليوم، وأهان بذلك من قتله، أو أعان على قتله، أو رضي بقتله، وله أسوة حسنة بمن سبقه من الشهداء، فإنه وأخوه سيدا شباب أهل الجنة، وكانا قد تربيا في عز الإسلام، لم ينالا من الهجرة والجهاد والصبر على الأذى في الله ما ناله أهل بيته، فأكرمهما الله تعالى بالشهادة تكميلاً لكرامتهما، ورفعاً لدرجاتهما، وقتله مصيبة عظيمة، والله سبحانه قد شرع الاسترجاع عند المصيبة بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ثم ذكر حديثاً متفقاً عليه بهذا المعنى وحديثاً آخر من مسند أحمد وابن ماجه، وقال: وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية[2]».

وفي هذا درس لمن يرتكب هذه المنكرات على شهادة الحسين.

ويقول في أمر يزيد بن معاوية:

الناس في يزيد طرفان ووسط، قوم يعتقدون أنه من الصحابة أو من الخلفاء الراشدين المهديين، أو من الأنبياء، وهذا كله باطل، وقوم يعتقدون أنه كافر منافق في الباطن، وإنه كان له قصد في أخذ ثأر كفار أقاربه من أهل المدينة، وبني هاشم، ثم ذكر بعض الأبيات التي ذكروا أنه أنشدها في ذلك لإظهار السرور في أخذ الثأر، وقال: وكلا القولين باطل يعلم بطلانه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٥٠٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٥١١ ـ ٥١٢.

كل عاقل، فإن الرجل ملك من ملوك المسلمين، وخليفة من الخلفاء الملوك، لا هذا، ولا هذا.

وأما مقتل الحسين رضي الله عنه، فلا ريب أنه قتل مظلوماً شهيداً كما قتل أشباهه من المظلومين الشهداء... وليس ما وقع من ذلك بأعظم من قتل الأنبياء فإن الله تعالى قد أخبر أن بني إسرائيل كانوا يقتلون النبيين بغير حق، وقتل النبي أعظم ذنباً ومصيبة وكذلك قتل علي رضي الله عنه أعظم ذنباً ومصيبة وكذلك قتل عثمان رضي الله عنه أعظم ذنباً ومصيبة وإذا كان كذلك فالواجب عند المصائب الصبر والاسترجاع كما يحبه الله ورسوله[١].

وقال: صار الناس في قتل الحسين رضي الله عنه ثلاثة أصناف: طرفين ووسطاً، أحد الطرفين يقول: إنه قتل بحق، فإنه أراد أن يشق عصا المسلمين، ويفرق الجماعة، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: من جاءكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه...، وقال بعض هؤلاء: هو أول خارج خرج في الإسلام على ولاة الأمر، والطرف الآخر قالوا: بل كان هو الإمام، الواجب طاعته الذي لا ينفذ أمر من أمور الإيمان إلا به ولا تصلى جماعة إلا خلف من يوليه ولا يجاهد عدو إلا بإذنه ونحو ذلك.

وأما الوسط فهم أهل السنة الذين لا يقولون هذا ولا هذا، بل يقولون: قتل مظلوماً شهيداً، ولم يكن متولياً أمر الأمة، والحديث المذكور لا يتناوله، فإنه لما بلغه ما فعل بابن عمه مسلم بن عقيل ترك طلب الأمر، وطلب أن يذهب إلى يزيد أو إلى الثغر أو إلى بلده فلم يملكوه، وطلبوا منه أن يستأسر لهم، وهذا لم يكن واجباً عليه.

وصار الشيطان بسبب قتل الحسين رضي الله عنه يحدث للناس بدعتين: بدعة الحزن والنوح يوم عاشوراء من اللطم والصراخ والبكاء والعطش وإنشاد المراثي، وما يفضي إليه ذلك من سب السلف ولعنهم

---

(١) منهاج السنة ١/ ٣٢١.

وإدخال من لا ذنب له مع ذوي الذنوب حتى يسب السابقون الأولون، وتقرأ أخبار مصرعه التي كثير منها كذب، وكان قصد من سن ذلك فتح باب الفتنة والفرقة بين الأمة فإن هذا ليس واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين، بل إحداث الجزع والنياحة للمصائب القديمة من أعظم ما حرمه الله ورسوله.

وكذلك بدعة السرور والفرح. وكانت الكوفة بها قوم من الشيعة المنتصرين للحسين وكان رأسهم المختار بن أبي عبيد الكذاب، وقوم من الناصبة المبغضين لعلي رضي الله عنه وأولاده، ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: سيكون في ثقيف كذاب، ومبير، وكان ذلك الشيعي هو الكذاب، وهذا الناصبي هو المبير فأحدث أولئك الحزن، وأحدث هؤلاء السرور، ورووا أنه من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته وقال أحمد: لا أصل له وليس له إسناد ثابت.

ورووا أنه من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام، ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام، فصار قوم يستحبون في يوم عاشوراء الاكتحال والاغتسال والتوسعة على العيال واتخاذ أطعمة غير معتادة، وهذه بدعة أصلها من المتعصبين بالباطل على الحسين رضي الله عنه، وتلك بدعة أصلها من المتعصبين بالباطل له، وكل بدعة ضلالة، ولم يستحب أحد من الأئمة الأربعة وغيرهم لا هذا ولا هذا، ولا في شيء من استحباب ذلك حجة شرعية بل المستحب يوم عاشوراء الصيام عند جمهور العلماء، ويستحب أن يصام معه التاسع، ومنهم من يكره إفراده بالصيام.

والذين نقلوا مصرع الحسين زادوا أشياء من الكذب كما زادوا في قتل عثمان، وكما زادوا فيما يراد تعظيمه من الحوادث، وكما زادوا في المغازي والفتوحات وغير ذلك، والمصنفون في أخبار قتل الحسين منهم من هو من أهل العلم كالبغوي وابن أبي الدنيا وغيرهما ومع ذلك فيما يروونه آثار منقطعة وأمور باطلة، وأما ما يرويه المصنفون في المصرع بلا إسناد،

فالكذب فيه كثير، والذي ثبت في الصحيح أن الحسين لما قتل حمل رأسه إلى قدام عبيد الله بن زياد، وأنه نكث بالقضيب على ثناياه، وكان بالمجلس أنس بن مالك رضي الله عنه وأبو برزة الأسلمي، ففي صحيح البخاري عن محمد بن سيرين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين فجعل في طست فجعل ينكث وقال في حسنه شيئاً، فقال أنس: كان أشبههم برسول الله ﷺ وكان مخضوباً بالوسمة...

وقد روى بإسناد مجهول أن هذا كان قدام يزيد، وأن الرأس حمل إليه وأنه هو الذي نكث على ثناياه، وهذا مع أنه لم يثبت، ففي الحديث ما يدل على أنه كذب، فإن الذين حضروا نكثه بالقضيب من الصحابة لم يكونوا بالشام، وإنما كانوا بالعراق، والذي نقله غير واحد أن يزيداً لم يأمر بقتل الحسين ولا كان له غرض في ذلك بل كان يختار أن يكرمه ويعظمه كما أمره بذلك معاوية رضي الله عنه، ولكن كان يختار أن يمتنع من الولاية والخروج عليه، فلما قدم الحسين وعلم أن أهل العراق يخادعونه ويسلمونه طلب أن يرجع إلى يزيد، أو يرجع إلى وطنه أو يذهب إلى الثغر فمنعوه من ذلك حتى يستأسر فقاتلوه حتى قتل مظلوماً شهيداً رضي الله عنه، وأن خبر قتله لما بلغ يزيد وأهله ساءهم ذلك، وبكوا على قتله، وقال يزيد: لعن الله ابن مرجانة يعني عبيد الله بن زياد، أما والله لو كان بينه وبين الحسين رحم لما قتله، وقال: كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين، وأنه جهز أهله بأحسن الجهاز وأرسلهم إلى المدينة لكنه مع ذلك ما انتصر للحسين، ولا أمر بقتل قاتله، ولا أخذ بثأره.

أما ما ذكر من سبي نسائه والدوران بهم في البلدان وحملهم على الجمال بغير أقتاب، فهذا كذب وباطل، وفي الجملة فما يعرف في الإسلام أن المسلمين سبوا امرأة يعرفون أنها هاشمية، ولا سبي عيال الحسين، بل لما دخلوا دار يزيد قامت النياحة في بيته، وأكرمهم، وخيرهم بين المقام عنده والذهاب إلى المدينة، فاختاروا الرجوع إلى المدينة، ولا طيف برأس الحسين، وهذه الحوادث فيها من الكذب ما ليس هذا موضع بسطه.

ولا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب وأن فاعل ذلك والراضي

به والمعين عليه مستحق لعقاب الله الذي يستحقه أمثاله، لكن قتله ليس بأعظم من قتل من هو أفضل منه من النبيين والسابقين الأولين. ومن قتل في حرب مسيلمة وكشهداء أحد والذين قتلوا ببئر معونة، وكقتل عثمان، وقتل علي، لا سيما والذين قتلوا أباه علياً كانوا يعتقدونه كافراً أو مرتداً وأن قتله من أعظم القربات بخلاف الذين قتلوا الحسين، بأنهم لم يكونوا يعتقدون كفره وكان كثير منهم أو أكثرهم يكرهون قتله، ويرونه ذنباً عظيماً لكن قتلوه لغرضهم، كما يقتل الناس بعضهم بعضاً على الملك.

وبهذا وغيره يتبين أن كثيراً مما روى في ذلك كذب، ثم ذكر عدة أحاديث موضوعة وبين بطلانها[1].

وقال في مسألة لعنة يزيد: إن القول في لعنة يزيد كالقول في لعنة أمثاله من الملوك والخلفاء وغيرهم، ويزيد خير من غيره، خير من المختار بن أبي عبيد الثقفي أمير العراق الذي أظهر الانتقام من قتلة الحسين فإن هذا ادعى أن جبريل يأتيه، وخير من الحجاج بن يوسف فإنه أظلم من يزيد باتفاق الناس، ومع هذا، فيقال: غاية يزيد وأمثاله من الملوك أن يكونوا فساقاً، فلعنة الفاسق المعين ليس مأموراً بها، إنما جاءت السنة بلعن الأنواع كقول النبي ﷺ: «لعن الله السارق يسرق البيضة، فتقطع يده»، وقوله: «لعن الله من أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً»، وقوله: «لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه»، وقد ثبت في صحيح البخاري أن رجلاً كان يدعى حماراً وكان يشرب الخمر وكان يؤتى به إلى النبي ﷺ، فيضربه، فأتي به إليه مرة فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله، فقد نهى النبي ﷺ عن لعنة هذا المعين الذي كان يكثر شرب الخمر معللاً ذلك بأنه يحب الله ورسوله مع أنه ﷺ لعن شارب الخمر مطلقاً، فدل ذلك على أنه يجوز أن يلعن المطلق، ولا تجوز لعنة المعين الذي يحبه الله ورسوله ومن المعلوم أن كل مؤمن لا بد أن يحب الله ورسوله.

---

(١) منهاج السنة ١/٣٢١ ـ ٣٢٥.

... والذي يجوز لعنة يزيد وأمثاله يحتاج إلى شيئين: إلى ثبوت أنه كان من الفساق الظالمين الذين تباح لعنتهم، وأنه مات مصراً على ذلك. والثاني أن لعنة المعين من هؤلاء جائزة، وأما قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهي آية عامة كآيات الوعيد... وهذا يقتضي أن هذا الذنب سبب اللعن والعذاب لكن قد يرتفع موجبه لمعارض راجح، إما توبة، وإما حسنات ماحية، وإما مصائب مكفرة، فمن أين يعلم الإنسان أن يزيد أو غيره من الظلمة لم يتب من هذه، أو لم تكن له حسنات ماحية تمحو ظلمه ولم يبتل بمصائب تكفر عنه، وأن الله لا يغفر له ذلك مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له»، وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد، والجيش عدد معين لا مطلق، وشمول المغفرة لآحاد هذا الجيش أقوى من شمول اللعنة لكل واحد من الظالمين، فإن هذا أخص، والجيش معينون.

ونحن نعلم أن أكثر المسلمين لا بد لهم من ظلم، فإن فتح هذا الباب ساغ أن يلعن أكثر موتى المسلمين، والله تعالى أمر بالصلاة على موتى المسلمين، لم يأمر بلعنتهم... وفي الحديث: «لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»، حتى أنه قال: لا تسبوا أمواتنا، فتؤذوا أحياءنا لما كان قوم يسبون أبا جهل ونحوه من الكفار الذين أسلم أقاربهم فإذا سبوا ذلك، آذوا قرابته، والمنصوص الثابت عن الإمام أحمد من رواية صالح أنه قال: ومتى رأيت أبا بكر يلعن أحداً[1].

وقال: وقد قيل: إن الخليفة الناصر لما بلغه نهي الشيخ عبد المغيث عن لعنة يزيد قصده، وسأله عن ذلك وعرف عبد المغيث أنه الخليفة، ولم يظهر أنه يعلمه، فقال: يا هذا أنا قصدي كف ألسنة الناس عن لعن خلفاء المسلمين وولاتهم، وإلا فلو فتحنا هذا الباب لكان خليفة وقتنا أحق

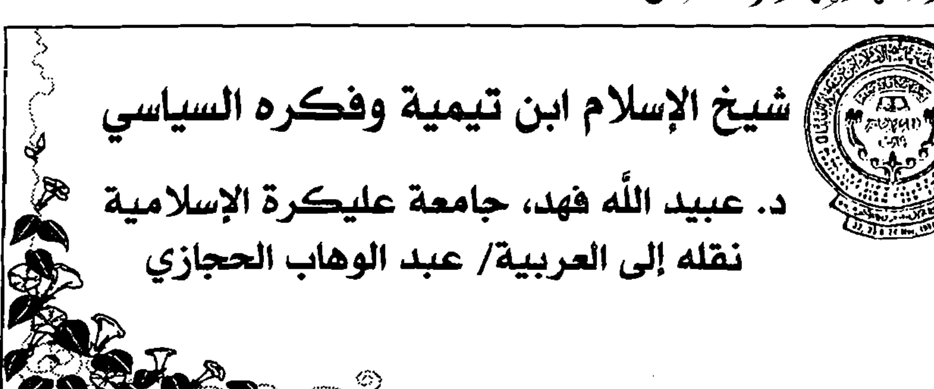
(١) منهاج السنة ١/٣٢٩ ـ ٣٣٠.

باللعن، فإنه يفعل أموراً منكرة أعظم مما فعله يزيد، فإن هذا يفعل كذا، ويفعل كذا، وجعل يعدد مظالم الخليفة حتى قال له: ادع لي يا شيخ، وذهب[1].



(١) منهاج السنة ١/٣٢٩ ـ ٣٣٠.





شيخ الإسلام ابن تيمية وفكره السياسي

د. عبيد الله فهد، جامعة عليكرة الإسلامية
نقله إلى العربية/ عبد الوهاب الحجازي

العصر الذي حمل فيه شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية راية تجديد الدين وإحيائه كان التتر قد مزقوا شمل عالم الإسلام وفرقوا جمعه وانهارت خلافة العباسيين، وقد أهرقوا دماء مئات الملايين من المسلمين، وعلماء الأمة وفقهاؤها كانوا مشتغلين بالمناظرات والمجادلات فيما بينهم غافلين عن أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعامة المسلمين قد غلب على عقائدهم وسلوكهم أفكار وعادات أجنبية، فجاء شيخ الإسلام في هذه الظلمات الحالكة ووقف أمام الفرق الضالة الباطلة مثل الجبرية والقدرية والشيعة والرافضة والمتصوفة وغيرها واستأصلها من جذورها. وحث المسلمين على الجهاد ضد التتار الكفار وقاتلهم مع المسلمين حتى غلب عليهم وهذه هي الميزة الكبرى أعني الجهاد بالقلم واللسان والسيف جميع أعداء الدين والأمة الإسلامية التي لا يشاركه فيها أحد من العلماء الكبار في التاريخ الإسلامي.

ومن الأزمات الكبيرة أن جميع كتاباتنا عبر القرون الماضية قد ترعرعت تحت ظلال الملوكية، فلذا نرى أن المفكرين والعلماء من المسلمين لا يذكرون في كتاباتهم قضية هيئة الرياسة وكيفية تشكيلها ولا تجد في كتب الفقه جميعاً كلام الفقهاء في مسألة الشورى، بل هم ما أقاموا باباً

في كتبهم حول هذا الموضوع، والمفكرون السياسيون ما جاهدوا في سبيل التطبيق بين المبادىء السياسية الإسلامية الكبرى وأحوال عصورهم، ولكن شيخ الإسلام يثبت أهمية الرئاسة ويقول إن تشكيلها ضرورة اجتماعية ولا يمكن الحفاظ على مصالح المجتمع بغيرها، والسبيل الوحيد عنده لإقامة الرئاسة أن يعترف بحكم الله ورسوله والدين الإسلامي والشريعة الإسلامية، فالله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكرات والمضرات ويحل الحلال والطيب ويحرم المحرمات والخبائث وهي حقائق ثابتة لا بد من الاعتراف بها لكافة البشرية، فإقامة الرئاسة والخلافة أمر واجب ثابت من الكتاب والسنة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، حتى استدل بما رواه الإمام أحمد «إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر». ولكن هذه الرئاسة تختلف تماماً عن عقيدة إمامة الشيعة والروافض فإنهم يعتقدون أن إقامة الإمامة واجب على النبي، والإمام عندهم يكون دائماً معصوماً ملهماً، وهذه من الضلالات البعيدة، وهو يرد عليهم قائلاً بأن النبي نبي ونبوته دائمة إلى يوم القيامة وليس هو إماماً ولا من واجبه إقامة الإمامة التي تفنى مع موت الإمام، والإمامة والخلافة عنده قسمان: الأول: خلافة النبوة التي استمرت بعد وفاة الرسول ﷺ ثلاثين سنة، والثاني: الخلافة العامة والملوكية، ولكن خلافة علي رضي الله عنه ليست عنده من خلافة النبوة ولا من الملوكية.

الشورى وأصحاب السلطة

شيخ الإسلام ابن تيمية يعترف بالنظام السياسي المعاصر ولا يجوز الخروج عليه ديناً وشرعاً ويحض عامة الناس على نصرة أعيان الحكومة ولو كانوا ظالمين مستدلاً عليه بأحاديث الرسول الكريم ﷺ ولكنه يشير عليهم أن ينهجوا شرائع الإسلام ويتجنبوا المنكرات وأن يشاوروا العلماء الصالحين في الأمور مستدلاً بالآية الكريمة: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٥٩) وغيرها من الآيات والأحاديث.

مسؤوليات الحكومة: الخليفة والشخص الحاكم قد تلقى على عاتقه عند شيخ الإسلام ابن تيمية مسؤوليتين:

١ ـ الأمانة في الولاية.

٢ ـ الأمانة في الأموال.

واستشهد للأول منهما بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ (سورة النساء، الآية: ٥٨)، وقال في تفسيره: يجب على الحاكم البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار، ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب، بل يكون ذلك سبباً للمنع، فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو مرافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين. وجعل شيخ الإسلام للولاية ركنين:

١ ـ القوة.

٢ ـ الأمانة.

واستدل لهما بالآيات القرآنية: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ وقول صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وقول الله تعالى في صفة جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ فالقوة في إمامة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب وغيرها، والقوة في الحكم ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام، والأمانة ترجع إلى خشية الله وأن لا يشتري بآياته ثمناً قليلاً، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع ـ وإن كان فيه فجور ـ على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً، والوالي الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين، ليعتدل الأمر ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يؤثر استنابة خالد، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤثر عزل خالد واستنابة أبي

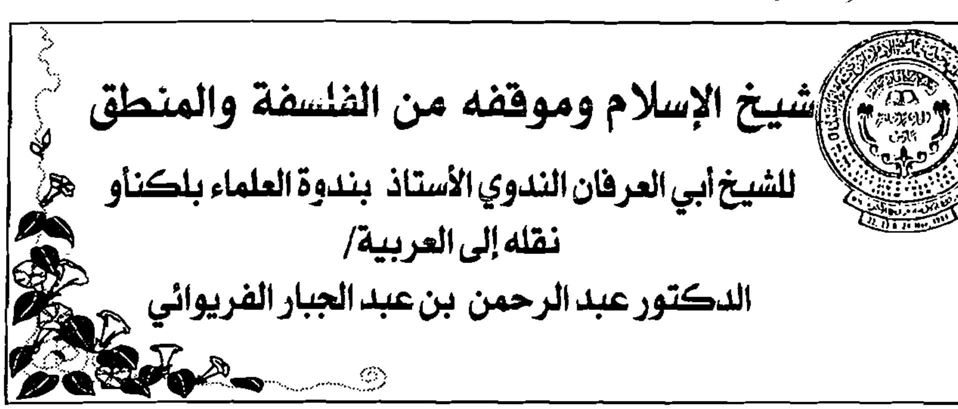
عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لأن خالداً كان شديداً كعمر بن الخطاب وأبا عبيدة كان ليناً كأبي بكر وكان الأصلح لكل منهما أن يولي من ولاه، ليكون أمره معتدلاً.

أما الأمانة في الأموال فيدخل فيه الأعيان، والديون الخاصة والعامة، مثل رد الودائع ومال الشريك والموكل والمضارب ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف وغيرها، وهذا القسم يتناول الولاة والرعية، فعلى كل واحد منهما أن يؤدي إلى الآخر ما يجب أداؤه إليه، والأموال السلطانية التي أصلها في الكتاب والسنة ثلاثة أصناف: الغنيمة، والصدقة، والفيء، وقد بيَّن شيخ الإسلام أحكامها في ضوء الكتاب والسنة مفصلاً.

ومن أهم واجبات الولاة إقامة الحدود أيضاً التي قد جعلها شيخ الإسلام من أمور الولايات الهامة استشهاداً بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا بد للناس من إمارة برة كانت أو فاجرة، فقيل: يا أمير المؤمنين! هذه البرة قد عرفناها فما بال الفاجرة؟ فقال: يقام بها الحدود وتأمن بها السبل، ويجاهد بها العدو ويقسم بها الفيء، وجعل إقامتها واجباً على الشريف والوضيع والضعيف ولا يحل تعطيله لا بشفاعة ولا بهدية، ومن عطله فهو ظالم، وبين شيخ الإسلام حكمة إقامة الحدود بأنها تجلب الرزق وتدفع الخوف من العدو كما يدل عليه الكتاب والسنة، فإذا أقيمت الحدود ظهرت طاعة الله ونقصت معصية الله تعالى فجعل الرزق والنصر والمعاصي سبب لنقص الرزق والخوف من العدو، ولا يجوز أن يؤخذ من الزاني أو السارق أو الشارب أو قاطع الطريق أو نحوهم مال تعطل به الحدود.

وولي الأمر إذا ترك إنكار المنكرات وإقامة الحدود عليها بمال يأخذه كان بمنزلة القواد الذي يأخذ ما يأخذه ليجمع بين اثنين على فاحشة، وكان حاله شبيهاً بحال عجوز السوء امرأة لوط التي كانت تدل الفجار على ضيفه.





شيخ الإسلام وموقفه من الفلسفة والمنطق

للشيخ أبي العرفان الندوي الأستاذ بندوة العلماء بلكناو
نقله إلى العربية/
الدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي

من ميزات هذا الدين الإسلامي ارتباطه بالعلم ارتباطاً وثيقاً قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وإن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ وقال النبي ﷺ: «إنما بعثت معلماً»، وقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وهذه النصوص شواهد لما قلنا، ولأجل هذا لم تنقطع سلسلة ازدهار العلوم والفنون بينهم من عهد النبوة إلى الآن، مع أننا قد لاحظنا طروء الضعف والانهيار في مراحلها المختلفة، إلا أننا ما وجدنا التعطل والجمود فيها البتة.

وتعتبر شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية سلسلة ذهبية من هذه السلسلة العلمية، فإنه كان متضلعاً بالعلوم الدينية والعقلية ومتبحراً فيها، ومن مآثره الإصلاحية والتجديدية تجديد العلوم والفنون، وتصحيح مسارها في عصره، ولا نرى غير الشاه ولي الله الدهلوي من يمثله في مجال التعلم والتعليم إلا أن شيخ الإسلام يميل إلى البسط والتوسع، ويميل الدهلوي إلى الإيجاز والاختصار.

ولا يسع الوقت لبيان مآثر شيخ الإسلام ابن تيمية التجديدية والعلمية، وليس هذا موضوعي، وإنما أريد أن أتناول بعض آرائه ومباحثه في العلوم

العقلية والفلسفية التي كانت رائجة في عصره.

ونلاحظ أن المعتزلة والأشاعرة والماتريدية كانوا يردون على الفلسفة اليونانية في سبيل الدفاع عن العقائد الدينية ثم كانوا يستخدمون نفس المنطق اليوناني والعقلية اليونانية للدفاع عن العقائد، وقد ابتلي بمثل هذا التناقض الغزالي والرازي، فالغزالي يرد على الفلسفة اليونانية في كتابه تهافت الفلاسفة. وهكذا فعل الرازي في المباحث الشرقية مع فلاسفة اليونان حيث نقضهم عروة عروة ثم بنى طريقة بحثه واستدلاله على المنطق اليوناني والعقلية اليونانية وقد أشار إلى هذا التناقض من قال فيه: دخل في جوف الفلاسفة ولم يخرج.

والذي كان خطراً كبيراً في نظري هو التسليم لعقلية اليونان والاعتقاد في سلامتها والاستفادة منها في مجال العلم والفكر التي اعتبروها حقيقة مسلمة.

والغزالي لم يكتف بإباحة الاستفادة من المنطق اليوناني بل أوجبه وأفصح عنه بأنه آلة عاصمة عن الخطأ، ولم يتجرأ أحد من أصحاب الرأي والفكر أن يخطئه، وكان اعترافه هذا بمثابة تصويبة للعقلية اليونانية.

فكان في نظري من مسؤولية العلماء من المعتزلة القدامى إلى متأخري الأشاعرة أن يقوموا بالرد على العقلية اليونانية والمنطق اليوناني مثل ما قاموا بالرد عليهم في الإلهيات.

وقد تنبه شيخ الإسلام لأول مرة لهذه الحقيقة، ولهذا التناقض في الأخذ والاستفادة والرد والإنكار، فقام بالرد على الفلسفة اليونانية ونقض آراء علماء اليونانيين ومفكريهم عروة عروة في رسائله الكثيرة، وسلط الضوء على الأسباب التاريخية لنشأة الفلسفة الإلهية اليونانية التي أذهبت الرعب من قلوب الناس لهذه الفلسفة، إلا أن أهم ما قام به شيخ الإسلام هو كسر طاغوت العقلية اليونانية التي لم يقم به أحد سواه خلال ستة قرون، فألف كتاباً كبيراً باسم الرد على المنطقيين، وكتاباً صغيراً باسم نقض المنطق، وطبق بين الرأي والرواية، وبهذا قام بعمل تجديدي في هذا الميدان.

قال لي مرة السيد سليمان الندوي رحمه الله: إذا أردت أن تخوض بحار المنطق والكلام بدون أي خوف وهيبة فعليك بشيخ الإسلام، فإن الغزالي، والرازي يردان على الفلسفة اليونانية إلا أنهما متأثران بها وتعتريهم الهيبة، والذي لا يبالي بمؤسس المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية وبرجالها ومفكريها ولا نرى فيه أي شائبة الهيبة والرعب والتأثر بها هو شيخ الإسلام ابن تيمية. وقد رفع عمله هذا مكانته العظيمة بين العلماء، وقد سد كتاباه «الرد والنقض» احتياج الأمة في مجال العلم والفكر عبر القرون، وكشف اللثام عن الحقائق العلمية التي لم يصل إلى كنهها الغزالي، والرازي إلى مدة مديدة، فقد قال قولته المشهورة في نقض المنطق اليوناني في أول كتابه «الرد على المنطقيين»: المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد، وهذه الكلمة الصريحة تكشف عن أهمية قائلها وتقييمه للمنطق اليوناني ومهارته في هذا الفن. والعاقل يدري بهذه الكلمة ما يحتوي عليه هذا الكتاب، يذكر شيخ الإسلام أن الشكل الأول من الأشكال الأربعة في المنطق اليوناني يوصل إلى النتائج اليقينية عند الفلاسفة من غير حاجة إلى النقيض والعكس. كما يرى أنه يلزم الدور والمصادرة على المطلوب في الكبرى في الشكل الأول من المنطق، فمثلاً كل إنسان حساس، ودليله كل إنسان حيوان، وكل حيوان حساس، فكل إنسان حساس. ووجه المغالطة في هذا أنه يتوقف كون كل حيوان حساساً على صحة دعوى أن كل إنسان حساس، فلا يثبت بعد النتيجة ما أثبت على وجه النتيجة في أول الأمر لأنه قد أثبت هذا قبل النتيجة.

وأن الذي له مساس بعلم المنطق يحس قوة دليل شيخ الإسلام.

ويرى شيخ الإسلام أن أساس منطق اليونان هو القياس ومعنى ذلك أنهم يحاولون أن يصلوا إلى الجزئيات عن طريق الكليات، ولكنه من الضروري للحكم الكلي أن يثبت ذلك الحكم لكل أجزائه ولذا يرى شيخ الإسلام أنه يلزم الدور والمصادرة على المطلوب.

والطريق الصحيح عنده للوصول إلى نتيجة صحيحة هو الوصول إلى

الكليات عن طريق الجزئيات، أي يثبت أن كل فرد من أفراد الحيوان (كالإنسان والفرس) حساس، ثم يوضح كلية بأن كل حيوان حساس، لا أن يسلم الكلية، ويقال إن كل حيوان حساس، فكل إنسان حساس.

والترتيب الصحيح في هذه القضية أن يثبت أولاً كون الإنسان حساساً، ثم يثبت كون جميع أفراد الإنسان حساساً، ثم يحكم حكماً كلياً بأن كل حيوان حساس. وحينما أعاد أهل الغرب النظر في العلوم والفنون بعد النهضة الأوروبية رد عالم المنطق المشهور «مل» المنطق اليوناني بهذا الدليل الذي رده به شيخ الإسلام، فذهبت آثار المنطق القياسي الذي كان مؤسسه أرسطو، وصار المنطق الاستقرائي معياراً لصحة المعلومات.

وهكذا لا يسلم شيخ الإسلام للكليات الخمس: الجنس، والنوع، والفصل، والخاص، والعرض العام، وما يترتب عليه من حدود وتعريفات ودرجاتها ومدارجها من الحد التام والحد الناقص والرسم التام والرسم الناقص، والجزء والحقيقة والخارج عن الحقيقة من أسس المنطق وقواعده.

ويتساءل ابن تيمية ما هو المعيار الذي يجعل صفة النطق داخلة في ذات الإنسان وجزءاً فيه وتخرج صفة الضحك خارجة عن حقيقة الإنسان، فنصطلح للأول الفصل، وللثاني الخاصة، وهكذا يجعل الحيوان داخلاً في حقيقة الإنسان جزءاً عاماً ولا يكون الماشي والنائم بهذه المثابة، وعلى هذا الأساس تجعل الحيوان جنساً، والماشي والنائم عرضاً.

وقد رد شيخ الإسلام قضايا المنطق فقال في أول كتابه: «الرد على المنطقيين»: فإني كنت دائماً أعلم أن «المنطق اليوناني» لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة، لما رأيت من صدق كثير منها ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه، وكتبت في ذلك شيئاً.

وقال: وتبين لي أن كثيراً مما ذكروه في أصولهم في الإلهيات، وفي المنطق هو من أصول فساد قولهم في الإلهيات مثل ما ذكروه من ترتيب الماهيات من الصفات التي سموها «ذاتيات» وما ذكروه من حصر طرق العلم

فيما ذكروه من الحدود والأقيسة البرهانيات بل وفيما ذكروه من الحدود التي بها يعرف التصورات، بل ما ذكروه من صور القياس ومواد اليقينيات[1].

ثم ذكر في فصل جديد ملخص أصول المنطق واصطلاحاته بغاية من الصراحة والإيجاز والاختصار، وهذا دليل على تبحره في هذا الفن، وكان بودي أن أسوق هذا الفصل في هذه المقالة إلا أن قلة الوقت واختصار القول يمنعان من هذا، وأنا أنصح كل من يريد أن يطلع على مبادىء المنطق ومسائله أن يطالع هذا الفصل، ليعرف مباحثه في لحظة واحدة.

وقد ألف الغزالي لهذا الغرض كتاباً مستقلاً باسم مقاصد الفلاسفة، إلا أن كتابة شيخ الإسلام الموجزة التي لا تعدو أربع صفحات، عمل جليل من أعماله.

يقول فيه: مع أنا قد بسطنا في غير هذا الموضع الكلام أن كل قياس شمول فإنه يعود إلى التمثيل كما أن كل قياس تمثيل فإنه يعود إلى شمول، وإن جعلهم قياس الشمول يفيد اليقين دون قياس التمثيل خطأ[2].

ويقول في الرد على قولهم: «إن التصورات غير البديهية لا تنال إلا بالحد».

المقام الأول في قولهم: إن التصورات غير البديهية لا تنال إلا بالحد، والكلام في هذا من وجوه:

أحدها: أن يقال: لا ريب أن النافي عليه الدليل إذا لم يكن نفيه بديهياً، كما أن على المثبت الدليل، فالقضية ـ سواء كانت سلبية أو إيجابية ـ إذا لم تكن بديهية، فلا بد لها من دليل، وأما السلب بلا علم، فهو قول بلا علم.

فقول القائل: إنه لا تحصل هذه التصورات إلا بالحد قضية سالبة،

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ط. الأزهر.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٦.

وليست بديهية، فمن أين لهم ذلك؟ وإذا كان هذا قولاً بلا علم كان في أول ما أسسوه القول بلا علم، فكيف يكون القول بلا علم أساساً لميزان العلم ولما يزعمون أنها «آلة قانونية» تعصم مراعتها الذهن أن يزل في فكره[1].

ذكر شيخ الإسلام أن المنطق ينبني على أربعة دعاوى: اثنان مثبتان، واثنان نافيان.

أما المنفيان: فأحدهما التصورات غير البديهية لا تنال إلا بالحد، والثاني لا يصدق المجهول إلا بالقياس.

والمثبتان: تعرف التصورات غير البديهية بالحد على وجه اليقين، وتعرف التصورات غير البديهية بالقياس والبرهان على وجه اليقين.

أما الدعوى السلبية فقد رد عليها شيخ الإسلام في العبارة المذكورة، وقد ساق أحد عشر دليلاً في الرد عليها، وقد مضى منها اثنان.

المقام الإيجابي في الحدود والتصورات

كان من دعواهم أنه يمكن تصور الأشياء المجهولة بالحدود على وجه اليقين يقول شيخ الإسلام: إنما دخل هذا (الحد اليوناني والقياس اليوناني) في كلام من تكلم في أصول الدين والفقه بعد أبي حامد في أواخر المائة الخامسة، وأوائل المائة السادسة، فأما أبو حامد (الغزالي)، فقد وضع مقدمة منطقية في أول المستصفى وزعم أن من لم يحط بها علماً فلا ثقة له بشيء من علومه، وصنف في ذلك «محك النظر» و«معيار العلم» ودواماً اشتدت به ثقته.

وأعجب من ذلك أنه وضع كتاباً سماه «القسطاس المستقيم» ونسبه إلى أنه تعلمه من الأنبياء، وإنما تعلمه من ابن سينا وهو تعلمه من كتب أرسطو.

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٦.

وهؤلاء الذين تكلموا في الأصول بعد أبي حامد، هم الذين تكلموا في الحدود بطريقة أهل المنطق اليوناني[1].

مراد كلام شيخ الإسلام أن الحد يميز المحدود من غير المحدود، وهذا إذا حصل من بيان صفة، فهو الحد في الاصطلاح، ويجب في المنطق اليوناني أن يبين صفتين أو أكثر للحد، ويجب لها أن تكون جزءاً لحقيقة المحدود وماهيته، الجزء الأول هو الجزء العام ويطلق عليه الجنس، والجزء الثاني الخاص وهو الفصل.

ولم يكن المتكلمون من الأشاعرة والكرامية حتى المعتزلة يحددون الحد في الصفتين الذاتيتين كما في المنطق اليوناني، فأول من أدخله في العلوم هو الغزالي ثم اتبعه الناس ودخل المنطق اليوناني في الفقه وأصوله.

وكان الناس قبل الغزالي يذكرون الصفات المميزة بما يميز المحدود من غيره سواء ذكروا صفة أو أكثر، أو ذكروا أجزاء الحقيقة، وصفة عامة[2]؟

قال شيخ الإسلام في الرد على المنطقيين: تحت صناعة الحد وضع اصطلاحي غير فطري: إن العلوم العقلية تعلم بما فطر الله عليه بني آدم من أسباب الإدراك لا تقف على ميزان وضعي لشخص معين، ولا يقلد في العقليات أحد.

ويقول في موضع آخر في هذا الفصل: وقد كانت الأمم قبلهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذا الوضع، وعامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وضعهم[3].

وقال: وهم إذا تدبروا أنفسهم وجدوا أنفسهم تعلم «حقائق» الأشياء بدون هذه الصناعة الوضعية[4].

---

(١) الرد على المنطقيين ص ١٤.
(٢) الرد على المنطقيين ص ٢٦.
(٣) الرد على المنطقيين ص ٢٨.
(٤) الرد على المنطقيين ص ٢٨.

وقال: ثم إن هذه الصناعة زعموا أنها تفيد تعريف حقائق الأشياء ولا تعرف إلا بها وكلا هذين غلط.

ويقول بعد ذلك: فكانت الصفات الذاتية مادة الحد الوضعي والترتيب الذي ذكروه هو صورته.

ولما كان ذلك مستلزماً للتفريق بين المتماثلين أو المتقاربين كان ممتنعاً أو عسراً.

إذ يفرقون بين صفة وصفة بجعل أحدهما ذاتية دون أخرى، مع تساويهما أو تقاربهما، ويفرقون بين ترتيب وترتيب بجعل أحدهما معرفاً للحقيقة دون الآخر مع تساويهما أو تقاربهما.

وطلب الفرق بين المتماثلات طلب ما لا حقيقة له، فهو ممتنع وإن كان بين المتقاربين كان عسراً، فالمطلوب إما متعذر، وإما متعسر[1].

ثم سرد كثيراً من الأدلة في الرد على الحد المنطقي الذي يسميه هو الحد الوضعي.

وبين بطلان التفريق بين الذاتي والعرضي في الوجه السادس، وذكر تعريفاتهم وقال:

فذكروا هذه الفروق الثلاثة، وطعن محققوهم في كل واحد من هذه الفروق الثلاثة وبينوا أنه لا يحصل به الفرق بين الذاتي وغيره كما قد بسطت كلامهم في غير هذا الموضع[2].

ويرد شيخ الإسلام على بعض هؤلاء الذين يحاولون الاستدلال للمنطق اليوناني بالحديث الشريف: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام» فيقول: وفي لفظ: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام» قد يظن بعض الناس أن النبي ﷺ ذكر هذا على النظم المنطقي ليبين النتيجة بالمقدمتين كما يفعله المنطقيون،

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٩.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٦٣.

وهذا جهل عظيم ممن يظنه، فإن النبي ﷺ أجل قدراً من أن يستعمل مثل هذا الطريق في بيان العلم، بل من هو أضعف عقلاً وعلماً من آحاد علماء أمته لا يرضى لنفسه أن يسلك طريقة هؤلاء المنطقيين، بل يعدونهم من الجهال الذين لا يحسنون الاستدلال ويقولون: هؤلاء قوم كانوا يحسنون الصناعات كالحساب والطب ونحو ذلك، وأما العلوم البرهانية الكلية اليقينية، والعلوم الإلهية، فلم يكونوا من رجالها[1].

وقد مر سابقاً أن الطريق الذي ينال به التصور في المنطق اليوناني هو الحد الذي لا يتصور المجهول إلا به، وقد رددنا عليه من كلام شيخ الإسلام.

وهكذا نرى أن فيه لا يمكن الوصول إلى تصديق المجهول إلا بالقياس، وقد رد عليه وعلى القول به في كتابه الرد على المنطقيين، يقول فيهما:

فنقول: هذا الذي قالوه إما أنه يكون باطلاً، وإما أن يكون تطويلاً يبعد الطريق على الطالب المستدل.

فلا يخلو عن خطأ يصد عن الحق، أو طريق طويل يتعب صاحبه حتى يصل إلى الحق مع إمكان وصوله بطريق قريب كما كان يمثله بعض سلفنا بمنزلة من قيل له: أين إذنك؟ فرفع يده فوق رأسه رفعاً شديداً، ثم أدارها إلى إذنه اليسرى، وقد كان يمكنه الإشارة إلى اليمنى، أو اليسرى من طريق مستقيم، وما أشبه هؤلاء بقول القائل:

أقام يعمل أياماً رويته
وشبه الماء بعد الجهد بالماء[2]

ذكر شيخ الإسلام أنهم حصروا الدليل على القياس والاستقراء والتمثيل، فاستدلالهم على الحصر بقولهم: إما أن يستدل بالكلي على

---

(١) الرد على المنطقيين ص ١١١.

(٢) الرد على المنطقيين ص ١٦٢.

الجزئي، أو بالجزئي على الكلي، أو بأحد الجزئين على الآخر والأول هو القياس، والثاني هو الاستقراء والثالث هو التمثيل.

وقد رد شيخ الإسلام تقسيمهم وحصرهم هذا ببراعة كاملة في فصل خاص فيقول رحمه الله:

بطلان حصر الأدلة في القياس والاستقراء والتمثيل.

بيان ذلك أن ما ذكروه من حصر الدليل في القياس والاستقراء والتمثيل حصر لا دليل عليه، بل هو باطل.

وقولهم أيضاً: إن العلم المطلوب لا يحصل إلا بمقدمتين لا يزيد ولا ينقص قول لا دليل عليه، بل هو باطل.

واستدلالهم على الحصر بقولهم إما أن يستدل بالكلي على الجزئي، أو الجزئي على الكلي، أو بأحد الجزئين على الآخر، والأول هو القياس، والثاني هو الاستقراء والثالث هو التمثيل.

يقال: لم تقيموا دليلاً على انحصار الاستدلال في هذه الثلاثة فإنكم إذا عنيتم بالاستدلال بجزئي على جزئي قياس تمثيل لم يكن ما ذكرتموه حاصراً.

وقد بقي الاستدلال بالكلي على الكلي الملازم له، وهو المطابق له في الخصوص والعموم.

وكذلك الاستدلال بالجزئي على الجزئي الملازم له بحيث يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر، ومن عدمه عدمه، فإن هذا ليس مما سميتموه قياساً ولا استقراء ولا تمثيلاً، وهذه هي الآيات.

الاستدلال بالكلي على الكلي وبالجزئي على الجزئي الملازم له.

وهذا كالاستدلال بطلوع الشمس على النهار وبالنهار على طلوع الشمس.

فليس هذا استدلالاً بكلي على جزئي، بل الاستدلال بطلوع معين على

نهار معين استدلال بجزئي على جزئي وبجنس النهار على جنس الطلوع استدلال بكلي على كلي.

وكذلك الاستدلال بالكواكب على جهة الكعبة استدلال بجزئي على جزئي كالاستدلال بالجدي وبنات نعش والكوكب الصغير القريب من القطب الذي يسميه بعض الناس «القطب» كما يسمي بعض الناس «الجدي» «القطب» وإن كان القطب في الحقيقة جزءاً من الفلك قريباً من ذلك الكوكب الصغير.

وكذلك الاستدلال بظهور كوكب على ظهور نظيره في العرض والاستدلال بطلوعه على غروب آخر وتوسط آخر ونحو ذلك من الأدلة التي اتفق عليها الناس قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾.

والاستدلال على المواقيت والأمكنة بالأمكنة أمر اتفق عليه العرب والعجم وأهل الملل والفلاسفة.

فإذا استدل بظهور الثريا على ظهور ما قرب منها مشرقاً ومغرباً ويميناً وشمالاً من الكواكب كان استدلالاً بجزئي على جزئي لتلازمها وليس ذلك من قياس التمثيل.

وإن قضي به قضاء كلياً كان استدلالاً بكلي على كلي، وليس استدلالاً بكلي على جزئي، بل بأحد الكليين المتلازمين على الآخر.

ومن عرف مقدار أبعاد الكواكب بعضها من بعض، وعلم ما يقارن منها طلوع الفجر، استدل بما رآه منها على مقدار ما مضى من الليل وما بقي منه.

وهو استدلال بأحد المتلازمين على الآخر، ومن علم الجبال، والأنهار والرياح استدل بها على ما يلازمها من الأمكنة[1].

وليعلم أن شيخ الإسلام لا ينكر الاستدلال والتفكر والتعقل، إلا أنه

---

(١) الرد على المنطقيين ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

يعارض المنطق اليوناني والعقلية اليونانية في دعواها والإصرار عليه أنه لا يحصل العلم الصحيح إلا بالحد والقياس.

وقد سبق شيخ الإسلام في الرد على نظريات المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية المعتزلة والأشاعرة كالغزالي والرازي على وجه الخصوص من أئمة الأشاعرة.

وقد أظهر أبو البركات في كتابه المعتبر اختلافه من آراء أرسطو في أماكن كثيرة، إلا أن هذه الردود والاعتراضات تدور حول المسائل الجزئية.

ويعد كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي والمباحث الشرقية للرازي من الكتب المهمة في نقض الفلسفة اليونانية إلا أن أسلوب شيخ الإسلام ابن تيمية يختلف عنهم تماماً، فإنه هاجم المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية، والعقلية اليونانية المتسترة وراءهما فكسر طاغوتها، وأزال آثارها المستمرة على العلوم الإسلامية خلال ستة قرون ولا يحصل هذا المقصود برد بعض الآراء والمعتقدات في الإلهيات والفلكيات فقد زعم الغزالي أن من لم يحط بالمنطق اليوناني علماً فلا ثقة له بشيء من علومه فلا بد من الرجوع إلى المنطق اليوناني للعلم الصحيح، وأن طلبه فرض على الكفاية.

وقد رد شيخ الإسلام على هذه الفكرة مصرحاً باسمه أحياناً وبدون ذكر اسمه أحياناً أخرى كما مر من النقول بهذا الصدد.

وقد ألف في الرد على الفلسفة اليونانية رسائل كثيرة وهي موجودة في مجموع فتاويه، ولا أذكرها نظراً إلى ضيق الوقت فعلى الراغبين في العلوم العقلية مراجعة هذه الأجزاء للاستفادة منها.

وقد تعرض شيخ الإسلام في أثناء ردوده ومناظراته إلى حياة أرسطو وأبي علي ابن سينا وتطرق إلى بيان عصرهما الذي تم نشأتهما فيه.

ففي رأيي لو قرأ إنسان هذا الكلام لعلم حقيقة المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية والعقلية اليونانية.

وهذا التصريح والتوجيه لم يسبقه إليه أحد من علماء الكلام الذين

قاموا بمقاومة الإلهيات في الفكر اليوناني، فقد أغفلوا هذا الجانب المهم من زيغ هذا الفكر.

أيها السادة! حاولت في بحثي هذا من خلال عبارات الرد على المنطقيين، أن أوضح آراء شيخ الإسلام في المنطق اليوناني، وقد اخترت من عباراته ما رأيته سهلاً ميسوراً، وتجنبت ذكر كلامه في المسائل الدقيقة والقضايا العويصة، الذي يدل على سعة اطلاعه ودقة نظره وطول باعه في العلوم العقلية.

وكتابه الرد على المنطقيين ثروة عظيمة وعديمة النظير في المكتبة الإسلامية وجميع الكتاب عبارة عن الخير. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.







شيخ الإسلام ابن تيمية ورأيه السديد حول علم المنطق

الشيخ أبو العاص الوحيدي، المدرس بجامعة سراج العلوم، بونديهار، غوندة، يوبي
نقله إلى العربية/علي حسين السلفي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد قال النبي ﷺ:

«خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً[١].

إن هذا الحديث ينص على أن الصحابة والتابعين وأتباعهم خير الأمة، وأفضلها. وإن هذه القرون الثلاثة يقال لها القرون المشهود لها بالخيرية.

ودراسة التاريخ العميقة تشهد أن هذه القرون الثلاثة أو الأربعة التي نهايتها في سنة ٢٢٠ هـ بوفاة تبع الأتباع فيه، كانت أحسن القرون وأفضلها ديناً وثقافة وحضارة، وحكومة وسياسة، ولذلك ما زالت الوحدة الدينية قائمة، والقوة السياسية والاجتماعية مستحكمة، والأمة المسلمة معتدلة في الأمور الاعتقادية والفقهية في هذه العصور الذهبية، وكان فيها ذوق نظيف

(١) الجامع الصحيح الجزء الرابع عشر، باب فضائل الصحابة.

نقي للأخذ والاستفادة من القرآن والحديث.

بقاء الفكر الإسلامي في شكل مصون

إن القرون المشهود لها بالخيرية ميزة بارزة، وهي أن الدين كان فيهم محفوظاً بجميع خصائصه من السذاجة الاعتقادية والبساطة الفقهية والتأثيرات الإيمانية والعملية وغيرها، ففي هذه القرون المباركة لم تزل سلسلة الفتوحات الإسلامية تبقى وتستمر، يقول رسول الله ﷺ موضحاً هذه الميزة في هذه القرون المشهود لها بالخيرية:

«لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة[١]».

إن هذا الحديث يؤيد الحديث السابق الذي جعل فيه النبي الكريم ﷺ أول العصور الإسلامية أفضلها وخيرها، وتتجلى به أيضاً حقيقة تاريخية عظيمة، وهي أن العقيدة الدينية النقية الأصيلة سوف تبقى محفوظة مصونة إلى هذه العهود المباركة، والأفكار والنظريات الغير إسلامية لن تتغلب ولن تسيطر عليها، وعصر أتباع التابعين حالما انتهى ابتليت الملة الإسلامية بكثير من الفتن الاعتقادية والضلالات الفكرية كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني عما ظهر من البدع والخرافات بعد هذه العصور النقية:

«وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن، وظهر قوله ﷺ: «ثم يفشو الكذب»، ظهوراً بيناً حتى شمل الأقوال والأفعال والمعتقدات[٢]».

تأثير العلوم اليونانية على العالم الإسلامي

وبعد مضي خير القرون تغيرت أوضاع العالم الإسلامي تغيراً شديداً،

---

(١) الصحيح لمسلم، الجزء الثاني، كتاب الإمارة.

(٢) فتح الباري شرح الجامع الصحيح للبخاري الجزء الرابع عشر، باب فضائل الصحابة.

ولذلك عوامل كثيرة، بيد أن أكبرها وأعظمها كان سيل العلوم والفنون اليونانية، التي نقلت في عهود الخلافة العباسية إلى العربية وتأثرت بها أذهان المسلمين وأفكارهم كثيراً فضعفت قبضة الفكر الإسلامي الخالص ووقعت الزلزلة العظيمة في بناء أفكارهم ونظرياتهم الإسلامية.

«ولقد نمى ذلك الاتصال (الاتصال بالفلسفة اليونانية) باتساع حركة الترجمة التي نقلت أرسال الفكر اليوناني والفارسي والهندي في العصر العباسي، ولقد كان لذلك أثره في الفكر الإسلامي، وكان تأثيره مختلف الأنواع على حسب قوة العقل والدين عند من نال من هذه الفلسفة، فمن الناس من كانت لهم عقول مستقيمة، وإيمان صادق، فكانوا بقوة عقولهم وقوة إيمانهم يسيطرون على ما يرد إليهم من أفكار، فتهضمها نفوسهم، ويستفيدون منها نماء في تفكيرهم ومداركهم ورياضة في عقولهم، ومنهم من لا تقوى نفوسهم على احتمالها فتضطرب عقولهم عند ورودها بين قديمها وحديثها، فتكون فوضى فكرية، لا استقرار فيها، ولذلك رأينا قوماً بعضهم شعراء وبعضهم كتاب، وبعضهم ينتسبون للعلم، قد غرتهم تلك الأفكار فلم تقو على هضمها عقولهم فاضطربوا وصاروا حائرين[1]».

شيوع الفلسفة والمنطق عند المسلمين *

إن علم المنطق الذي هو موضوع بحثي، له ارتباط قوي مع الفلسفة، بل هو سلمها ومدخلها، ولذلك سمته المناطقة العلم الآلي أيضاً، لأنه آلة وأداة للعلوم الفلسفية، وقد وصل إلى المسلمين مترجماً من اللغة اليونانية إلى العربية في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ)، قال صاعد الأندلسي في طبقات الأمم:

إن أول علم اعتني به من علوم الفلسفة علم المنطق والنجوم، فأما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة أي العباسية، عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي كاتب أبي جعفر المنصور، فإنه ترجم كتب أرسطاطاليس

---

(١) أبو حنيفة حياته وعصره: لأبي زهرة ص ٨٦.

المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق، وهي فاطاغورياس، وكتاب درباي أرمنياس، وكتاب أنولوطيقا، وترجم مع ذلك المدخل المعروف بإيساغوجي لفور فوريوس الصوري[١].

والمأمون قد اعتنى غاية الاعتناء بأمر ترجمة المؤلفات الفلسفية، وحض الناس على دراستها وتعلمها، فنفقت سوقها وقامت دولتها في عصره، وقد برع في كثير من أجزائها أولو النباهة والفطنة في عصره لما كانوا يرون من اعتنائه بهم وتقديره لهم، فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية، وهكذا كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها[٢].

وأما البواعث على اعتناء المسلمين بالمنطق والفلسفة في العهد العباسي فهي كثيرة، ومن أهمها وأبرزها مقاومة مخالفي الإسلام ومخاصمتهم، والدفاع عن الإسلام، كما صرح به أحمد أمين المصري:

وكان كل من اليهودية والنصرانية تسلح من قبل بالمنطق اليوناني، والفلسفة اليونانية، يستخدمها في الجدل، فأحس المسلمون أنه لا بد من محاربتهم بآلاتهم، فعكفوا على المنطق والفلسفة يستخدمونها في أغراضهم، وفيما هم كذلك شعروا بلذة عقلية من دراسة الفلسفة، فبعد أن كانت تطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت غاية في نفسها تطلب لذاتها[٣].

ومما فصلت من وجوه شيوع المنطق والفلسفة في المسلمين تنكشف وتتجلى عدة حقائق مرة. الأولى: أن الروم التي كانت مهد العلوم اليونانية في وقت ما، حينما طلبت الكتب اليونانية منها في العهد العباسي كانت هذه العلوم قد خملت فيها، وكانت النصرانية منعتها من حيث الوجهة المذهبية، لأنهم كانوا يحسبون أن كتب المنطق والفلسفة إذا انتشرت فلا بد من أن

---

(١) طبقات الأمم ص ٤٩، ضحى الإسلام لأحمد أمين المصري ١/ ٢٦٩.
(٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين المصري ١/ ٢٦٩ نقلاً عن طبقات الأمم ص ٤٧.
(٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين المصري ١/ ٢٦٦.

يتأثر بذلك المذهب النصراني، ولكن المسلمين قد ترجموها إلى العربية، ونتيجة لذلك واجه الإسلام المخاطر العديدة، وقد تمت أهداف قيصر والأحبار، الذين كانوا بعثوا الكتب اليونانية إلى دار الخلافة في بغداد، ألا وهي أن دين الإسلام يتأثر بذلك وحماسة المسلمين الدينية تخمد، والضلالات تنتشر في العالم الإسلامي، وللأسف الشديد لم تخطر في قلوب العلماء المشتغلين بهذه العلوم هذه العاقبة الخطيرة، بل ازدهرت علوم المنطق والفلسفة باعتناء السلاطين والأمراء المسلمين.

الثانية: أنه وإن سلمت صحة القول بأن الغرض من الاعتناء بالمنطق والفلسفة في العهد العباسي لم يكن إلا الدفاع عن العقائد الإسلامية، ولذلك تعلمها علماء المسلمين حتى يقاوموهم بآلاتهم. ولكن لم يقتصر أمرهم إلى ذلك الحد، بل قد جعلوهما مقصودهم الأصلي بدلاً من جعلهم إياها ذريعتين، وبالغوا في الاعتناء بهما أشد المبالغة، فتسيطر رعبهما على العالم الإسلامي حتى اليوم، ومن هنا نرى أن علماء الإسلام إلى اليوم واقعون في قبضتها.

سلطة المنطق والفلسفة على علماء الإسلام والحاجة إلى مناقشتها العلمية

يلوح من دراسة تاريخ شيوع العلوم اليونانية في المسلمين أن نفوذ المنطق ورعبه على المسلمين كان أكثر من الفلسفة، وكتب المنطق قد شاعت في القرن الثالث الهجري بحيث أن أسلوب المنطق قد غلب على الفقه وأصوله وغيرهما من العلوم الدينية.

وقد اعتنى الإمام أبو حامد الغزالي أيضاً بالمنطق غاية الاعتناء في القرن الخامس الهجري بحيث جعله مقدمة لجميع العلوم، قال في مقدمة كتابه المنفرد، المستصفى:

«هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلا[1]».

---

(١) رجال الفكر والدعوة ٢/ ١٨٢، نقلاً عن المستصفى.

فهذه الوجهة المحفوفة بالغلو عن المنطق والفلسفة، قد اختارها الإمام أبو حامد الغزالي وأمثاله من علماء الإسلام في العصور المختلفة، وأيضاً كانوا ينظرون إلى المنطق اليوناني بنظر التقدير والتحسين دائماً، ولم يزالوا مرتعبين من دعاويه ومقدماته وأصوله وكلياته.

قال السيد أبو الحسن علي الندوي في رجال الفكر والدعوة عن سلطة منطق أرسطو وفلسفته على العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، والحاجة إلى مناقشتهما العلمية:

«ولد شيخ الإسلام ابن تيمية قبل وفاة نصير الدين الطوسي بعشر سنين، وكان للفلسفة والمنطق اليونانيين غلبة وازدهار عظيم بتأثير نصير الدين الطوسي وتلاميذه البارعين، وكان يعتبر منتهى الذكاء، ومقياسه آنذاك أن يفهم المرء مسائلهما وبحوثهما، ولم يكن لأحد أن يتجرأ على القول بإزائهما أو ضدهما، ولم يكن المحدثون والفقهاء فرساناً في هذا الميدان، وجل ما كان يسعهم هو أن يفتوا بحرمتهما، إلا أن هذا السيل ما كان يقف بهذا ومثله من الأعمال، فقد كان العالم الإسلامي كله يعيش تحت ضغطهما، ولقد كان للتشكك والارتياب جولة في بعض الأوساط التي كانت تتصل بالفلسفة اليونانية مباشرة، ويوجد فيها اتجاه نحو إنكار حقائق الأشياء، أما الطبقة التي ابتعدت عنها، ولم تتصل بها مباشرة فقد وقعت فريسة مركب النقص والشعور بالعجز، ولمحاربة هذا الوضع كانت الحاجة ماسة إلى نقد صريح واستعراض علمي حر للفلسفة والمنطق، وإلى إزاحة الستار عن مواضع ضعفها العلمية»[1].

ابن تيمية رحمه الله ومنطق اليونان وفلسفتها

إن شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) رحمه الله قد اتخذ ذلك موضوعاً مستقلاً، وانتقد منطق اليونان وفلسفتها وناقشهما مناقشة علمية، وتناول شخصية أرسطو، التي اعتبرها علماء الفلسفة ما فوق البشر، بالجدل

---

(١) رجال الفكر والدعوة ٢/ ١٦٧.

والمناظرة، والحقيقة أن ابن تيمية رحمه الله قد أدى حق الانتقاد المبرهن والمناقشة العلمية.

مؤلفات ابن تيمية رحمه الله النقدية على منطق اليونان وفلسفتها

إن نقد ابن تيمية رحمه الله على منطق اليونان وفلسفتها نقد جامع مبرهن مدلل يستحق غاية التقدير والإعظام، ولا ريب في أن مناقشته العلمية المملوءة بالدلائل والحجج القوية قد شققت ومزقت لحمتهما وسداهما، وأثبت بها أن عمارتهما قائمة على الدعائم التي هي في غاية الضعف والوهن، وتصنيفاته في هذا الصدد على قسمين، أما الأول فمؤلفاتٌ موضوع بحثها هو النقد العلمي عليهما، وهي على مبلغ علمي ثلاثة كتب، أحدها في غاية البسط والتفصيل، وهو كتاب «الرد على المنطقيين» نشرته المطبعة القيمة ببومبائي (١٩٤٩م ـ ١٣٦٨ هـ) وأما ثانيها فهو موجز جداً، اسمه «نقض المنطق»، وفي هذين الكتابين نقد مفصل على المنطق، فقد تناول فيهما قضاياه ودعاويه وحدوده وتعريفاته وجزئياته وكلياته بالبحث والمناقشة تناولاً علمياً. وفي هذين الكتابين نقد شديد على الفلسفة أيضاً، وأكد فيهما أن المباحث الفلسفية من نتائج اضطراب الأفكار والأنظار، وأن دلائلها وبراهينها في نهاية الضعف والوهن، نقلاً وعقلاً. وأما ثالثها فهو أيضاً مختصر ولكن فيه شيء من البسط والسرد، واسمه «نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان»، وفي الحقيقة أنه ليس تصنيفاً مستقلاً، بل هو ملخص كتاب الرد على المنطقيين، وقد لخصه واختصره العلامة السيوطي، وله اسم آخر: جهد القريحة في تجريد النصيحة، وقد نشر هذا الكتاب ونقض المنطق حيناً من الأحيان على الانفراد، ولكن الآن هذا المختصر جزء من نقض المنطق في المجلد التاسع من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد صنف ابن تيمية رحمه الله عدة مؤلفات ليست مواضيعها المناقشة العلمية على المنطق والفلسفة، ولكن جاءت فيها هذه المباحث استطراداً. منها منهاج السنة النبوية في رفض الشيعة والقدرية، وكتاب العقل والنقل وهو موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول وهي كتب تستحق التقدير

والتعظيم. أما الأول فهو في أربع مجلدات، وموضوعه الحقيقي الرد على الشيعة وغيرها من الفرق الضالة. وأما الثاني والثالث فموضوعهما أنه لا يمكن أن يتعارض العقل الصحيح والنقل الصحيح، وفي القرآن والحديث دلائل عقلية أيضاً، وفي كل منها نقد علمي قوي على المنطق والفلسفة.

بواعث النقد على المنطق والفلسفة

وبعد تعريف تصانيف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التي تتعلق بالنقد والرد على المنطق والفلسفة أرى الآن أن ألخص أسباب ذلك النقد وبواعثه.

يلوح من مطالعة مؤلفات ابن تيمية رحمه الله أن لذلك عدة أسباب:

منها: أن طبيعة علماء الإسلام قد أصبحت عقلية محضة بسبب عكوفهم على المنطق والفلسفة، وما زالت العقائد والفقهيات تتأثران بتأثيراتهما، وهذه العقلية قد أحدثت في مسألة الذات والصفات تعقيدات جعلت حقيقة التوحيد مشكلة، وأما تأثيراتهما على الفقه وأصوله فقد كانت أيضاً ظاهرة واضحة.

ومنها: أن المنطق إنما كان وضعه الصابئون اليونانيون، والحقيقة أن شبكات معابد الأوثان والكواكب وهياكلها كانت منتشرة جداً، وفلسفة اليونان التي دخلت مترجمة في العالم الإسلامي ثم وصلت إلى أوروبا، كانت غائصة في عبادة هذه الأصنام والكواكب وغيرهما، وقد نقلت فلاسفة اليونان عقائدهم المذهبية ونظرياتهم الشركية إلى اصطلاحات الفلسفة المحيرة للعقول، وفلاسفة الإسلام وعلماؤه الذين لم يكن لهم اطلاع على تاريخ اليونان المذهبي قد اتخذوها موضوع تفكيرهم وتمحيصهم، على أنها حقائق علمية.

ومنها: أن علماء الإسلام قد غلوا في المنطق والفلسفة أشد الغلو بحيث أنهم ذهبوا يظنونهما لازمين لفهم حقائق الإسلام، وأخذوا يعتنون بدلائلهما بإزاء براهين القرآن والحديث والحال أن الدلائل التي أوجدها

المنطق والفلسفة لإثبات الحقائق الإسلامية كانت تخلق جراثيم الشك والريبة، بدلاً عن غضاضة الإيمان ونضارة الإيقان.

ومنها: أن من سوء حظ العالم الإسلامي أنه ابتلى بأرسطو أحد حكماء اليونان الذي كان كثير البعد عن روح الأديان السماوية والمفاهيم الدينية، حامياً للفكر والنظر الماديين، وداعياً إليهما، فلذلك رأى ابن تيمية رحمه الله النقد على فلسفته ومنطقه واجباً، وأما سبب عدم وقوفه على روح المذاهب السماوية فقد ذكر طائفة ممن جمع أخبارهم أن أساطين الأوائل - كفينا غورس وسقراط وأفلاطون - كانوا يسافرون إلى أرض الأنبياء بالشام، ويتلقون عن لقمان الحكيم ومن بعده من أصحاب داود وسليمان، وأن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكن عنده من العلم بإثاره الأنبياء ما عند سلفه، وكان عنده قدر يسير من الصابئية الصحيحة، فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية، وصارت قانوناً مشى عليه أتباعه.

ومنها: أن دعائم علمي المنطق والفلسفة دعائم ضعيفة جداً، وأن الحدود والتعريفات المنطقية أكثرها مخدوشة ضعيفة، ومع ذلك ينطبق عليه المثل السائر: «كوه كندن وكاه بر أوردن» أي حفر الجبل وخرج منه الكلأ، أي الكلام فيه كثير والبحث فيه طويل، والمقصود والمطلوب منه أقل من القليل، كما قال ابن تيمية رحمه الله في نقض المنطق.

إن نفس الحذاق منهم لا يلتزمون بقوانينه في كل علومهم، بل يعرضون عنها، إما لطولها، وإما لعدم فائدتها، وإما لفسادها، وإما لعدم تميزها وما فيها من الإجمال والاشتباه، فإن فيه مواضع كثيرة: هي لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل[١].

التعريف الموجز لعلم المنطق

إن أول ما يبحث عنه علماء المنطق هو حده وتعريفه وغرضه وغايته

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ٩/٦.

والحاجة إليه، لأن الفكر الإنساني لا يكون صواباً دائماً، وكيف، ولو كان الأمر كذلك ما وقع الاختلاف والتناقض بين أصحاب الفكر والنظر، مع أنه قد وقع في المسائل العديدة التي لا تعد ولا تحصى، فمن قائل يقول: العالم حادث، ومن قائل يقول: العالم قديم، فلا جرم أن أحد المفكرين صحيح حق، والآخر غلط فاسد، فجاءت الحاجة في ذلك إلى قانون تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ في الفكر، فهذا القانون هو المنطق والميزان، ومن هنا علم حد المنطق وهو علم بقوانين تعصم مراعاتها الإنسان عن الزلل والخطأ في الفكر، ومن ثم انكشف وتبين أن غاية علم المنطق الإصابة في الفكر وحفظ الرأي عن العثرة والخطأ في النظر[١].

نظرة عابرة على المعرف والحجة

قد تقرر عند المناطقة أن لإدراك المعلومات طريقتين مختلفتين، لأن العلم إما تصور وإما تصديق، وكل منهما إما بديهي، وإما نظري، والنظري منهما لا بد له من طريق ينال به، فالطريق الذي ينال به التصور هو الحد، والطريق الذي ينال به التصديق هو القياس (الحجة)، والحد يقال له المعرف والقول الشارح أيضاً.

وأما القياس فهو مؤلف من مقدمتين، والمقدمة قضية إما موجبة، وإما سالبة، وكل منهما إما كلية وإما جزئية، فيبحث فيه عن القضايا وأنواعها المتعددة، وقد يستدل عليها بنقيضها وبعكسها وبعكس نقيضها، فإنها إذا صحت بطل نقيضها وصح عكسها وعكس نقيضها، فيتكلم فيه في تناقض القضايا وعكسها المستوى وعكس نقيضها.

والقضايا التي يتركب منها القياس هي مواده، والهيئة الحاصلة من اجتماع هذه المواد هي صورته، وقد مضت أقسام القياس باعتبار صورته، وأما القياس باعتبار مواده، فهو خمسة أقسام، لأنه إن كانت مادته يقينية فهو البرهان خاصة وإن كانت مسلمة فهو الجدل وإن كانت مشهورة فهو

---

(١) توشيخ التهذيب ص ٢٢لمولانا عبد الرحمن بقا الغازيفوري.

الخطابي، وإن كانت مخيلة فهو الشعري، وإن كانت مموهة فهو السوفسطائي، ويقال لها الصناعات الخمسة أيضاً.

أما اليقينيات التي يتألف منها القياسي البرهاني فقد جعلها المناطقة ستة أقسام:

١ ـ الأوليات يعني البديهيات.

٢ ـ القطريات.

٣ ـ الحدسيات.

٤ ـ المشاهدات.

٥ ـ المتواترات.

٦ ـ التجريبيات.

وأما ما عداها فهي خارجة من اليقينيات عندهم[١].

تأثيرات المنطق على اللسان والذهن

وأما زعم المناطقة في علم المنطق بأن تأثيره يقع على النطق الظاهري كما يقع على الباطني، يعني يشحذ قوة التكلم والتحدث ويصقل قوة الإدراك والفهم فليس له أساس ولا نصيب من الصحة عند ابن تيمية رحمه الله، يقول ابن تيمية رحمه الله:

وما زال نظار المسلمين يعيبون طريق أهل المنطق، ويبينون ما فيها من العي واللكنة وقصور العقل وعجز النطق، ويبينون أنها إلى إفساد المنطق العقلي واللساني أقرب منها إلى تقويم ذلك، ولا يرضون أن يسلكوها في نظرهم ومناظراتهم، لا مع من يوالونه ولا مع من يعادونه[٢].

---

(١) راجع لذلك الكتاب الرد على المنطقيين، ومقالات الشبلي، والمرقاة، وتوشيح التهذيب وغيرها.

(٢) كتاب الرد على المنطقيين ص ١٩٤.

لماذا تكون عبارات المشتغلين بالمنطق معضلة معقدة، ولماذا يكون في تعبيراتهم طول لا طائل تحته يوجه ذلك ابن تيمية رحمه الله فيقول:

«إذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها، وإذا ضاقت العقول والتصورات بقي صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان، كما يصيب أهل المنطق اليوناني، تجدهم من أضيق الناس علماً وبياناً، وأعجزهم تصوراً وتعبيراً، ولهذا من كان منهم ذكياً إذا تصرف في العلوم، وسلك مسلك أهل المنطق طول وضيق وتكلف وتعسف، وغايته بيان البين وإيضاح الواضح من العي، وقد يوقعه ذلك في أنواع من السفسطة التي عافى الله منها من لم يسلك طريقتهم»[1].

وقد استثنى بعضهم وأبان عن علته فقال:

«ومن وجد في بعض كلامه فصاحة أو بلاغة كما يوجد في بعض كلام ابن سينا وغيره فلما استفاده من المسلمين، من عقولهم وألسنتهم، وإلا فلو مشى على طريقة سلفه، وأعرض عما تعلمه من المسلمين لكان عقله ولسانه يشبه عقولهم وألسنتهم»[2].

وأما ادعاؤهم في المنطقي بأنه يعرف حقائق الأشياء ويعلم أجناسها وفصولها وأنواعها ولوازمها وخواصها، فهو في غاية اللغو والبطلان، لأن معرفة حقائق الأشياء ليست في قدرة البشر، وإنما هو شأن خالق القوى والقدر، وقد اعترف الشيخ أبو علي ابن سينا في التعليقات بأننا لا نعرف من الأشياء إلا الخواص واللوازم، ثم يقول: إنا لا نعرف حقيقة الأول يعني الواجب تعالى، ولا العقل ولا النفس ولا الفلك ولا النار ولا الهواء ولا الماء، والأرض والسماء، ولا نعرف حقيقة الجوهر، وكذلك لا نعرف حقيقة الجسم، وإنما نعرف شيئاً له هذه الخواص، وهي الطول والعرض والعمق[3].

---

(١) كتاب الرد على المنطقيين ص ١٧٧ ـ ١٦٧.

(٢) كتاب الرد على المنطقيين ص ١٩٩.

(٣) حاشية مرقاة المنطق ص ٤.

ليس المنطق ميزاناً للعلوم العقلية

يقول شيخ الإسلام بهذا الصدد: إن المنطق ميزان العلوم العقلية، ومراعاته تعصم الذهن عن أن يغلط في فكر، كما أن العروض ميزان الشعر، والنحو والتصريف ميزان الألفاظ العربية المركبة والمفردة، وآلات المواقيت موازين لها.

ولكن ليس الأمر كذلك، فإن العلوم العقلية تعلم بما فطر الله عليه بني آدم من أسباب الإدراك، لا تقف على ميزان وضعي لشخص معين، ولا يقلد في العقليات أحد بخلاف العربية، فإنها عادة لقوم لا تعرف إلا بالسماع، وقوانينها لا تعرف إلا بالاستقراء بخلاف ما به يعرف مقادير المكيلات والموزونات والمزروعات والمعدودات، فإنها تفتقر إلى ذلك غالباً، لكن تعيين ما به يكال ويوزن بقدر مخصوص أمر عادي كعادة الناس في اللغات[١].

الاستغناء عن المنطق في نظرة

إن ابن تيمية رحمه الله يهاجم المنطق من هذه الناحية فيثبت أنه ليس له فائدة علمية ولا نظرية يقول رحمه الله:

«إننا لا نجد أحداً من أهل الأرض حقق علماً من العلوم وصار إماماً فيه مستعيناً بصناعة المنطق، لا من العلوم الدينية ولا غيرها، فالأطباء والحساب والكتاب ونحوهم يحققون ما يحققون من علومهم وصناعتهم بغير صناعة المنطق.

وقد صنف في الإسلام علوم النحو واللغة والعروض والفقه وأصوله والكلام وغير ذلك، وليس في أئمة هذه الفنون من يلتفت إلى المنطق، بل عامتهم كانوا قبل أن يعرب هذا المنطق اليوناني.

وبعد ذلك ألقى ابن تيمية رحمه الله على القرون الثلاثة المشهود لها

---

(١) الرد على المنطقين ص ٢٦ ـ ٢٧.

بالخيرية نظرة عابرة، وذكر أنه كان لهم أذواق علمية سليمة وتبحر كامل، وتحقيق عميق في العلوم إلا أن فضائلهم وكمالاتهم لم تكن لأجل المنطق، ثم وازن بين حاملي علوم النبوة وبين علماء الفلسفة والمنطق الماهرين والمتأخرين موازنة علمية لطيفة جداً، يقول رحمه الله:

«وأما العلوم الموروثة من الأنبياء صرفاً وإن كان الفقه وأصوله متصلاً بذلك فهي أجل وأعظم من أن يظن أن لأهلها التفات إلى المنطق، إذ ليس في القرون الثلاثة من هذه الأمة - التي هي خير أمة أخرجت للناس - وأفضلها القرون الثلاثة: من كان يلتفت إلى المنطق أو يعرج عليه، مع أنهم في تحقيق العلوم وكمالها بالغاية التي لا يدرك أحد شأوها، كانوا أعمق الناس علماً، وأقلهم تكلفاً، وأبرهم قلوباً، ولا يوجد لغيرهم كلام فيما تكلموا فيه إلا وجدت بين الكلامين من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق، بل الذي وجدناه بالاستقراء أن من المعلوم أن الخائضين في العلوم من أهل هذه الصناعة أكثر الناس شكاً واضطراباً، وأقلهم علماً وتحقيقاً، وأبعدهم عن تحقيق علم موزون، وإن كان فيهم من قد يحقق شيئاً من العلم فذلك لصحة المادة والأدلة التي ينظر فيها، وصحة ذهنه وإدراكه لا لأجل المنطق، بل إدخال صناعة المنطق في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيداً، واليسير منه عسيراً، ولهذا تجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك لم يفد إلا كثرة الكلام والتشقيق مع قلة العلم والتحقيق، فعلم أنه من أعظم حشو الكلام، وأبعد الأشياء عن طريقة ذوي الأحلام»[١].

نقد ابن تيمية رحمه الله على علم المنطق اجتهادياً فنياً وتفصيلياً

إن ابن تيمية رحمه الله لم يكتف في هدم المنطق والنقد عليه بأنه لا جدوى فيه، وبأنه ليس ميزان العلوم كلها وبأن تأثيراته مضرة للفكر والنظر، والذهن والعقل، واللسان والبيان، بل انتقده انتقاداً اجتهادياً فنياً وتفصيلياً،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٣ - ٢٤.

كما قال السيد أبو الحسن علي الندوي حفظه الله موضحاً طرق نقده عليه:

لم يكتف ابن تيمية رحمه الله بتوجيه النقد الإجمالي والإيرادات الأساسية إلى فن المنطق، بل إنه تناول الفن بأسره بالنقد والاجتهاد والاحتساب العلمي، ورفض كثيراً من أصوله ومسلماته، وانتقدها من الناحية العقلية والفنية الخالصة، وأثبت ضعف كثير من حدوده ونقضها، وأورد له حدوداً أحسن منها، وخالف عديداً من قضاياه وترتيبها وأثبت ترجيح الاستقراء بإزاء القياس الذي هو أساس منطق أرسطو، وادعى أن الاستقراء طريق طبعي أضمن وأسهل إلى طلب العلم واليقين، كما أنه قدم عدة نظرات جديدة في المنطق والفلسفة وزاد على هذا الفن[١].

نشر انتقادات ابن تيمية رحمه الله على علم المنطق في بلاد الهند وباكستان

إن العلامة شبلي النعماني أول[٢] من نقل آراء شيخ الإسلام ابن تيمية إلى اللغة الأردية كما صرح به تلميذه السيد سليمان الندوي[٣].

حدود المنطق وتعريفاته ناقصة جداً غير مفيدة

إن دعوى المناطقة الإيجابية والسلبية في شأن التصورات - أعني إنما يمكن حصول التصور المجهول بالحد المنطقي، ولا يمكن أن ينال التصور المطلوب بغيره دعوى لا يسلم صحتها ابن تيمية رحمه الله، لأن حدود المنطق ليست جامعة مانعة على وجه الكمال والتمام، بل ليست كاملة فنياً، وقد أبدى رأيه الإجمالي العمومي في حدود المنطق وتعريفاته وأساليب المناطقة وادعائهم بالعلم والتحقيق، فينبغي أن يلاحظ في هذا المقام سرعة جريان قلمه السيال وأسلوبه المملوء بالفصاحة والبلاغة قال شيخ الإسلام:

---

(١) رجال الفكر والدعوة ٢/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) كتاب الرد على المنطقيين ص ٧.

«وصاروا يعظمون أمر الحدود، ويدعون أنهم المحققون لذلك، وأن ما يذكره غيرهم من الحدود إنما هي لفظية لا تفيد تعريف الماهية والحقيقة، بخلاف حدودهم، ويسلكون الطرق الصعبة الطويلة، والعبارات المتكلفة الهائلة، وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان وإتعاب الأذهان، وكثرة الهذيان، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان، وشغل النفوس بما لا ينفعها، بل قد يضلها عما لا بد لها منه وإثبات الجهل الذي هو أصل النفاق في القلوب، وإن ادعوا أنه أصل المعرفة والتحقيق»[(١)].

كون التصورات والتصديقات بدهية ونظرية أمر نسبي

إن المناطقة قد اخترعوا وابتدعوا الحدود والتعريفات للأشياء المتعددة وجعلوها لازمة لإدراك المعلومات ووجه ذلك أنهم يرون أن بعض التصورات والتصديقات بدهية وبعضها نظرية، وذلك لأنه لا يدرك التصورات والتصديقات النظرية بدون التصورات والتصديقات البدهية وهذا هو السبب لإيجابهم وإلزامهم الحد والقياس، ولكن ابن تيمية رحمه الله لا يسلم صحة هذه النظرية أصلاً ورأساً فإنه يرى ـ وهو الحق والصواب ـ أنهما لا تكونان بدهيتين ولا نظريتين في ذاتهما، بل كونهما نظريتين وبدهيتين شيء نسبي عنده يعني بعضها بدهية عند بعض الناس الأذكياء، وهي نفسها نظرية عند بعضهم الأغبياء، فلذلك لا حاجة لإدراك العلوم إلى القياس والحد. يقول ابن تيمية رحمه الله:

«كون العلم بدهياً أو نظرياً هو من الأمور النسبية الإضافية، مثل كون القضية يقينية أو ظنية، إذ قد يتيقن زيد ما يظنه عمرو، وقد يبد زيد من المعاني ما لا يعرفه غيره إلا بالنظر، وقد يكون حسياً لزيد من العلوم ما هو خبري عند عمرو، وإن كان كثير من الناس يحسب أن كون العلم المعين ضرورياً أو كسبياً أو بدهياً أو نظرياً، هو من الأمور اللازمة له بحيث يشترك في ذلك جميع الناس، وهذا غلط عظيم، وهو مخالف للواقع».

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٣١.

في تعريف الإنسان بالحيوان الناطق نظر

إذا تعذرت معرفة الذاتيات والعرضيات فلا يمكن حد الشيء في الواقع كما يقول الشبلي رحمه الله: إن ذلك هو وجه النظر والاعتراض في تحديدات وتعريفات اصطلاحات العلوم والفنون المختلفة مثلاً إن النحاة ذكروا للاسم بضعة وعشرين حداً، وكلها معترض عليها على أصلهم، بل ذكر بعضهم له سبعين حداً لم يصح منها شيء، وكذلك ذكر الأصوليون للقياس بضعة وعشرين حداً، وكلها معترض عليها على أصلهم، وكذلك عامة الحدود المذكورة في كتب الفلاسفة والأطباء والنحاة والأصوليين والمتكلمة معترضة على أصلهم حتى قيل إنه لا يوجد حد صحيح لشيء، فلو كان تصور الأشياء موقوفاً على الحدود لم يكن إلى الساعة قد يتصور الناس شيئاً من هذه الأمور، والتصديق موقوف على التصور، فإذا لم يحصل تصور لم يحصل تصديق، فلا يكون عند بني آدم علم في عامة علومهم، وهذا من أعظم السفسطة[1].

وإن من الحقائق الثابتة أنه لم يمكن لأحد أن يوجد إلى الآن مثالاً واحداً للمعرف والحد التام يطمئن القلب بانطباقه التام عليه غير الإنسان والحيوان الناطق، وقد مرت عليه القرون، فإذا أمعن النظر في هذا المثال القديم فقد علم أنه أيضاً غير صحيح والعجب بل الأسف أن الإنسان إلى الآن لا يزال يتخبط في معرفة نفسه وطلب ماهيته وحقيقته. فإن أوجد حداً واحداً بعد تجشم المشقة والكلفة ففيه أيضاً نظر قوي وعليه اعتراض شديد، بل هو غير صحيح قطعاً كما يوضح ذلك ابن تيمية رحمه الله[2].

«إلى الساعة لا يعلم للناس حد مستقيم على أصلهم، بل أظهر الأشياء الإنسان وحدّه بـ الحيوان الناطق، عليه الاعتراضات المشهورة»[3].

لماذا صار تعريف الإنسان بالحيوان الناطق محل نظر، وما هي

---

(١) المقالة الثالثة من مقالات الشبلي ٧/ ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٨.

(٣) الرد على المنطقيين ص ٨.

الإيرادات التي تورد عليه؟ قد وضح ذلك العلامة الشبلي في مقالة له فيقول:

يقال: إن الحد التام للإنسان الحيوان الناطق، فالحيوان جنس قريب والناطق فصل قريب، ولكن ما معنى الناطق؟ يعبر المناطقة عنها بمدرك المعقولات وعارفها وعالمها، ثم بقي هنا سؤال، هل تدخل في حقيقة الناطق الحيوانية أو لا؟ فإن لم تكن داخلة فيها ففيه نظر فإن الملائكة والعقول المجردة يوجد فيهما أيضاً النطق، لأنهما من الذين يكونون أعرف وأعلم بالمعقولات منها فلا يكون الناطق حينئذٍ فصلاً بل يكون جنساً، لأن الذاتي الذي يكون مشتركاً في غير واحد فهو جنس لا فصل، وإن كانت داخلة فيها فهذا أيضاً غلط بوجهين، الأول أنه لم تكن فائدة في إدخال الحيوان في المعرف، والثاني أنه كيف يمكن أن يثبت أنه يكون في الحيوانات إدراك المعقولات ومعنى إدراك المعقولات استنباط الكليات من الجزئيات، وهذه القوة، قلت أم كثرت توجد في غالب الحيوانات[١].

أن القياس ليس بلازم لحصول التصديقات

وما مر من البحث في كون التصورات والتصديقات بدهية ونظرية، فيه رد قوي على ما ادعاه المناطقة ادعاء سلبياً من أن التصديقات لا تنال إلا بالقياس، إلا أن ابن تيمية رحمه الله قد تناوله بالبحث والنقد العلمي المستقل، ورد عليه رداً قوياً جامعاً شاملاً لكل الجهات بدلائل قوية، وقرر أنه لا حاجة إلى القياس لحصول التصديقات قطعاً، ويراجع لهذا المقام الثالث في كتاب الرد على المنطقيين.

وقد أثبت ابن تيمية رحمه الله في مقام أن جعل القياس شرطاً لعلم التصديقات دعوى بلا برهان، ثم إن دعوى المناطقة السلبية جملة خبرية سالبة تحتمل الصدق والكذب، ولهذا يجب عليهم أن يثبتوا أولاً صدق وصحة دعواهم بالدليل، ولن يمكن لهم ذلك أبداً فبقيت دعواهم بلا دليل، يقول:

---

(١) المقالة الثالثة من مقالات الشبلي ٧/ ٢٠ ـ ٢١.

قولهم: إنه لا يعلم شيء من التصديقات إلا بالقياس، قضية سلبية نافية ليست معلومة بالبداهة، ولم يذكروا على هذا السلب دليلاً أصلاً، فصاروا مدعين ما لم يبينوه بل قائلين بغير علم، إذا العلم بهذا السلب متعذر على أصلهم، فمن أين لهم أنه لا يمكن أحداً من بني آدم أن يعلم شيئاً من التصديقات التي ليست عندهم بدهية إلا بواسطة القياس المنطقي الشمولي[1].

إن القياس المنطقي لا يفيد العلم بالتصديقات

وأما ما ادعته المناطقة ادعاء إيجابياً من أن القياس يفيد العلم بالتصديقات قد مضى الرد عليه في بحث، وهو أنه لا يحصل علم شيء من الموجودات بالقياس، ولكن ابن تيمية قد أقام عنواناً مستقلاً (المقام الرابع) للرد على دعواهم الإيجابية، كما يقول راداً عليها ومثبتاً بأن القياس المنطقي ليس بمؤثر في شيء من العلم.

إن الذي بينه نظار المسلمين في كلامهم على هذا المنطق اليوناني المنسوب إلى أرسطو صاحب التعاليم أن ما ذكروه من صور القياس ومواده، مع كثرة التعب العظيم، ليس فيه فائدة بل كل ما يمكن علمه بقياسهم المنطقي يمكن علمه بدون قياسهم المنطقي، وما لا يمكن علمه بدون قياسهم لا يمكن علمه بقياسهم، فلم يكن في قياسهم، لا تحصيل العلم بالمجهول الذي لا يعلم بدونه، ولا حاجة به إلى ما يمكن به بدونه، فصار عديم التأثير في العلم وجوداً وعدماً، ولكن فيه تطويل كثير متعب، فهو مع أنه لا ينفع في العلم، فيه إتعاب الأذهان وتضييع الزمان وكثرة الهذيان[2].

إن علوم الشريعة أشرف العلوم وليس شيء منها موقوفاً على علوم المناطقة وإنما نجاح الدنيا والآخرة في علوم الشريعة والدين، فإذا لا تحصل

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٨٨.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٢٤٨.

فائدة فيها بالقياسي المنطقي فزعمهم بأن العلم بالتصديقات إنما يحصل بالقياس في غاية الفساد والبطلان كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله.

«إن شريعة الإسلام ومعرفتها ليست موقوفة على شيء يتعلم من غير المسلمين أصلاً، وإن كان طريقاً صحيحاً، وهكذا كل ما بعث به الرسول ﷺ مثلاً العلم بجهة القبلة، والعلم بمواقيت الصلاة، والعلم بطلوع الفجر والعلم بالهلال: فكل هذا يمكن العلم به بالطرق المعروفة التي كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يسلكونها، ولا يحتاج معها إلى شيء آخر، وإن كان كثير من الناس قد أحدثوا طرقاً أخرى، وكثير منهم يظن أنه لا يمكن المعرفة بالشريعة إلا بها، وهذا من جهلهم[١].

وهذا المنطق قد أثر على الفكر الإسلامي تأثيرات سيئة جداً، ومن هذه التأثيرات القبيحة أن ابن سيناء وغيره قد جعلوا علوم النبوة علوماً مكتسبة، يعني أن علوم النبوة نتيجة لأذواق الأنبياء ووجدانهم وطهارة أنفسهم وصفاء قلوبهم، ولا شك أن هذا الكلام كلام مضل، زائف كاذب، غلط جداً، فإن هذه النظرية الكاسدة لا تبقي ولا تذر قيمة العقيدة الإسلامية في الوحي والإلهام رأساً، كما يوضح ذلك ابن تيمية رحمه الله:

إنه جعل علوم الأنبياء من العلوم الحدسية لقوة صفاء تلك النفوس القدسية وطهارتها، وإن قوى النفوس في الحدس لا تقف عند حد، ولا بد للعالم من نظام ينصبه حكيم فيعطي النفوس المؤيدة من القوة ما تعلم به ما لا يعلمه غيرها بطريق الحدس، ويتمثل لها ما تسمعه وتراه في نفسها من الكلام، ومن الملائكة ما لا يسمعه غيرها، ويكون لها من القوة العملية التي تطيعها بها هيولي العالم ما ليس لغيرها، فهذه الخوارق في قوى العلم مع السمع والبصر، وقوى العمل والقدرة: هي النبوة عندهم[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٨.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٩/١٤.

بعض الجوانب في إفادة علم المنطق

إن انتقادات ابن تيمية رحمه الله السالفة على علم المنطق في اعتدال وتوازن وصحة وجد وعمق وغور، فإن طالعها أحد بعدل وإنصاف وديانة وأمانة وفكرة صحيحة إسلامية وجدها كذلك، ولكن العجب لأديب العالم الإسلامي ومؤرخه الشهير السيد أبي الحسن علي الندوي حفظه الله تعالى، فإنه كيف توجس وتوسم فيها التطرف والغلو كما يكتب مقدراً لها ومبدئاً لهذه الفكرة الانتقادية:

وإن يكن لون التطرف والغلو ـ قل أم كثر ـ يلوح من آراء ابن تيمية رحمه الله ونظرياته في المنطق اليوناني، ولكن لا ريب في أن هذه الانتقادات قد أوقعت ضربة قاسية على طلسم عظمة المنطق وقداسته التي كانت عامة رائجة غالبة على العالم الإسلامي من بعد القرن الخامس الهجري[١].

ولكن ليس الأمر كما ظن، بل نحن نرى أنه وإن انتقد على علم المنطق انتقاداً شديداً عنيفاً قوياً من جانب فمن جانب آخر فقد اعترف أيضاً ببعض وجوه إفادته اعتراف المنصف العادل بأنه رياضة ذهنية ودماغية، وبه يشحذ الأذهان، كما يقول في الرد على المنطقيين:

«وأيضاً فإن النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدربه ويقويه على العلم فيصير مثل كثرة الرمي بالنشاب، وركوب الخيل، تعين على قوة الرمي والركوب وإن لم يكن ذلك وقت قتال، وهذا مقصد حسن»[٢].

وكذلك يسلم إفادة علم المنطق في الجدل والمناظرة، وذلك أن بعض المخالفين الذين لا يكفيهم أن يتلى عليهم القرآن فحسب، ولا أن يوجهوا إلى الكون للتبصر فيه، فيجب أن يقنع أمثال هؤلاء بالدلائل العقلية أو يجتهد في إفحامهم وإلزامهم، فيناسب أن يستخدم الطريق التي هي معروفة

---

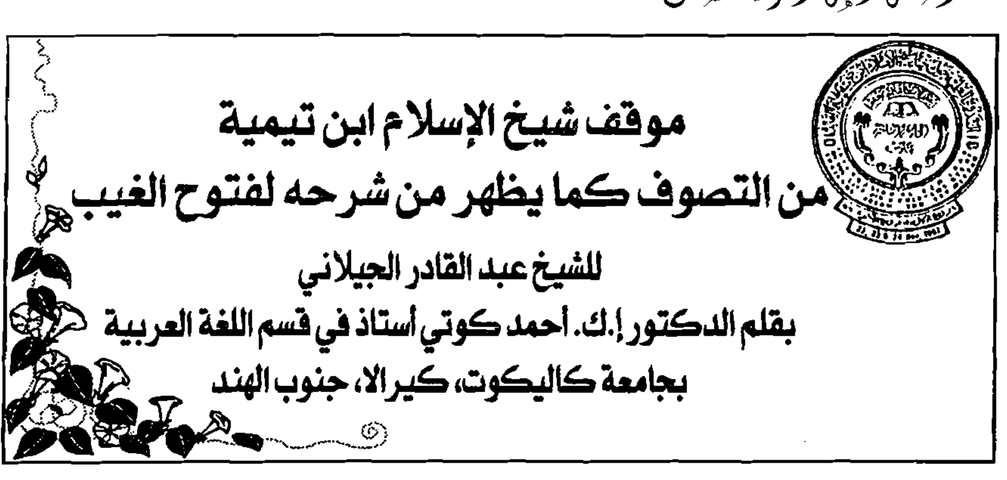
(١) رجال الفكر والدعوة ٢/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) كتاب الرد على المنطقيين ص ٢٥٥.

رائجة لديهم حتى يتمكن من أن يلزموا ويفحموا بنفس نظرياتهم التي يسلمونها، كما وضح ذلك المحقق العلامة محمد عطاء الله حنيف الفوجياني في تعليقات حياة شيخ الإسلام ابن تيمية.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من التصوف كما يظهر من شرحه لفتوح الغيب للشيخ عبد القادر الجيلاني

بقلم الدكتور إ.ك. أحمد كوتي أستاذ في قسم اللغة العربية
بجامعة كاليكوت، كيرالا، جنوب الهند

ماذا كان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من التصوف؟ يظن كثير من الناس أنه كان عدواً لدوداً للتصوف على الاطلاق ولكن الأمر ليس كذلك إنما كان عدواً لذلك النوع من التصوف الذي يخالف كتاب الله وسنة رسوله والتوحيد والعقائد الإسلامية الخالصة. وأما ما يوافق منه الكتاب والسنة والتعاليم الإسلامية فأجازه ولم يعارضه. بل شجعه وأيده.

قد عبر الإمام ابن تيمية عن هذا الموقف في بعض مؤلفاته. على أنني اخترت واحدة منها فقط للبحث عن موقفه من التصوف، وهي رسالته في شرح كتاب «فتوح الغيب» للشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني المسمى «شرح كلمات لعبد القادر في كتاب فتوح الغيب»[(١)].

تناولت هذا الكتاب بالدراسة دون سائر كتبه لأن صاحب «فتوح الغيب» الذي شرحه فيه هو الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني الذي يعد من أكابر متصوفة الإسلام، وكتابه «الفتوح» من أجل المؤلفات في مجال التصوف.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة الحكومة الرياض ١٣٨٦، جـ ١٠ ص ٤٥٥ ـ ٥٤٨.

إن دراسة هذا الكتاب تلقي ضوءاً وافراً ليس على موقف ابن تيمية من الشيخ عبد القادر الجيلاني فقط، بل على موقفه من التصوف أيضاً.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن ابن تيمية كان من مريدي الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر. وهذا الادعاء ليس بصحيح ولا تؤيده الشواهد التاريخية.

ولكن مما لا شك فيه أن ابن تيمية كان يكن لعبد القادر احتراماً وتقديراً بالغين كما يظهر من شرحه «لفتوح الغيب» مثلاً يذكر ابن تيمية الشيخ عبد القادر بلقب «شيخنا».

إن الفكرة الأساسية التي يعبر عنها ابن تيمية في هذه الرسالة أن الامتثال بأوامر الشريعة واجتناب نواهيها واجب على كل مسلم سواء كان متصوفاً أم غير متصوف. وهذا في رأيه هي «الحقيقة» التي تجتهد المتصوفة لتبلغها. فليس للمتصوف أن يستغني عن هذا الواجب مهما كانت المرحلة ـ «كالمقام»، أو «الحال»، أو «الكرامة» ـ التي يصل إليها من حين إلى حين في رحلته الروحانية، فيستشهد ابن تيمية لهذا بكلمات الشيخ عبد القادر في «فتوح الغيب» إذا كان التصوف متصفاً بهذه الصفة، أي موافقته مع الشريعة، فهو مجهود طيب مبارك يستحق التشجيع والتقدير.

إن التصوف، في رأي ابن تيمية، اتباع رسول الله ﷺ والسلف الصالح الذين تقربوا إلى الله بالنوافل، بعد أداء الفرائض، وغايته ليس الاتحاد بين ذات العبد وذات الله كما يزعم بعض المتصوفة الضالة، بل هي اتحاد الإرادة، بمعنى أن العبد لا يريد ولا يرغب إلا ما يريد ويرغب ربه؛ وفي عبارة أخرى، الاستجابة التامة لمتطلبات الشريعة الإسلامية.

على هذا الأساس قد رفض ابن تيمية كثيراً من المعتقدات والنظريات والأعمال الصوفية الخاطئة الباطلة كالفناء في الله و«الاتحاد» به.

ومن ثم قد يظهر تناقض بين هذا الرأي لابن تيمية وبين ما ذكر الشيخ عبد القادر في «الفتوح» من فناء الإرادة في الله والتسليم لقضاء الله وقدره (بدلاً من التسليم لأوامره ونواهيه كما يرى ابن تيمية). ولكن ليس هناك

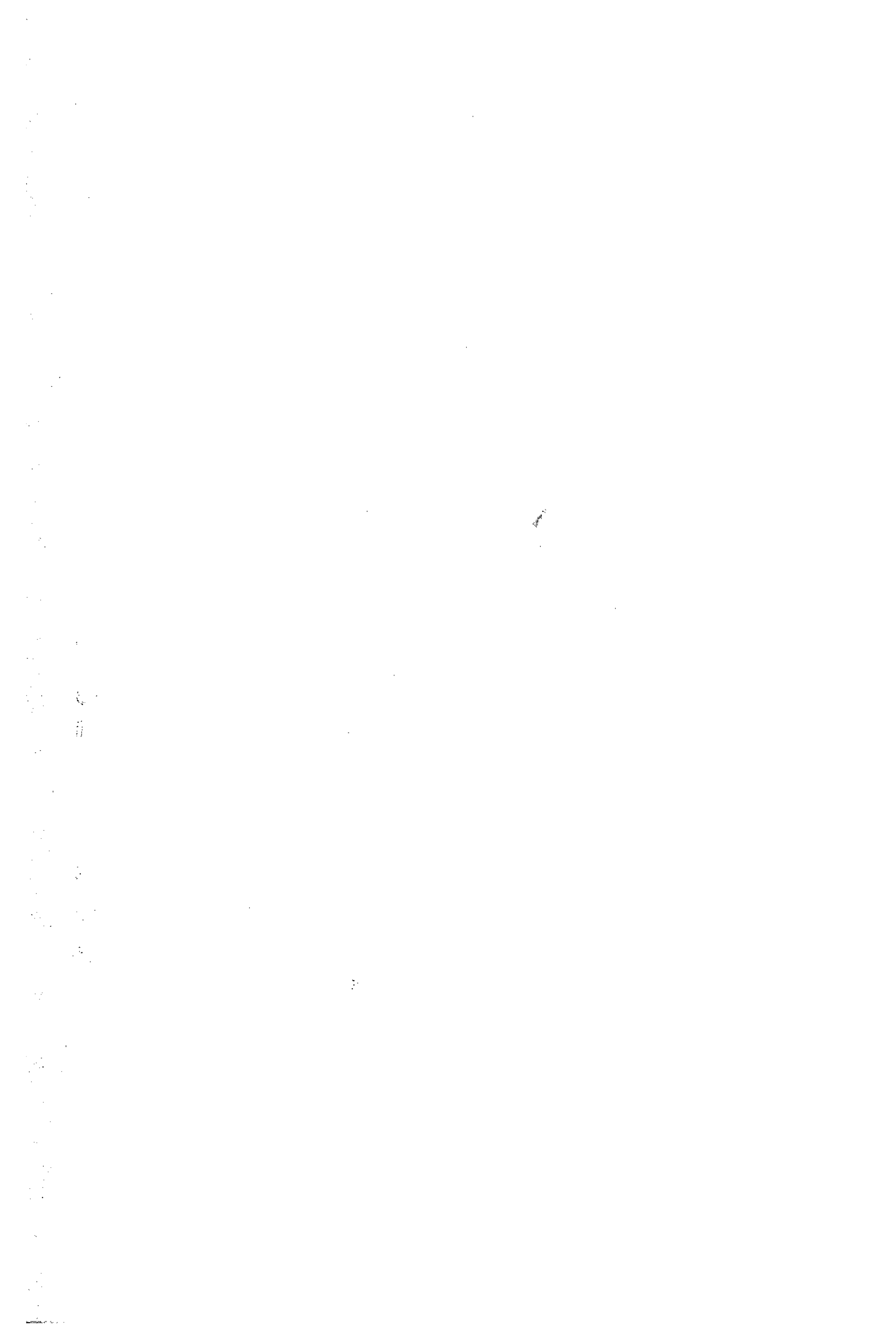
تناقض بين الموقفين فكلاهما يعبر عن حقيقة واحدة، إنما الفرق في الطريقة التي يسلك كل واحد منهما للوصول إليها. ومما يلاحظ هنا أن ابن تيمية يجد بعض المشقة في التوفيق بين موقف الشيخ عبد القادر وموقف نفسه، ولكنه لم يفشل في هذه المحاولة.

وأما ما ذكر الشيخ عبد القادر في «فتوح الغيب» من أن «السالك» لا بد من أن يعرض حتى عن الرغبات الجائزة فيفسره ابن تيمية بأنه يريد بذلك ترك الحلال احتياطاً وخوفاً من ارتكاب الذنب لأن في فعله قد يكمن خطر تأدية فاعله إلى الاغترار والإثم والشرك. ويستدل لذلك بعادة شد الناس رحالهم إلى بعض «الشيوخ».

ذكرنا أن ابن تيمية يرى غاية التصوف في الاتحاد بين إرادة الله وإرادة العبد. قد يكون بعض الأوقات لا يستطيع فيها «السالك» أن يعرف إرادة الله في بعض الأمور التي يريد أن يخوضها ولا يجد الهداية والنور من القرآن والسنة والاجتهاد بهما رغم بذله كل الجهود لذلك ـ فإذاً ماذا يصنع؟ يرى ابن تيمية أن للسالك، في تلك الأحوال، أن يعتمد على «الإلهام» و«الذوق» ويهتدي بهما لأن فطرة الإنسان، إن كانت مؤيدة بتقوى الله، لا ترى إلا الحق والخير ـ وهذا من مساهماته الأصلية في الفكر الديني في الإسلام.

هكذا نرى أن ابن تيمية في رسالته في شرح «فتوح الغيب» لا يستنكر التصوف إن كان موافقاً للقرآن والسنة والعقائد الإسلامية الصحيحة، بل يحاول أن يوفق بين التصوف الصحيح والشريعة، وبين «الإلهام الصوفي» والفقه، وبين «الحقيقة» الصوفية والتعاليم الإسلامية، على ضوء أفكار الشيخ عبد القادر الجيلاني التي يتضمنها كتابه «فتوح الغيب».







شيخ الإسلام ابن تيمية والتصوف

للشيخ محمد أحمد الأثري
الجامعة الأثرية مئو أعظم كره
نقله إلى العربية/ عبد الوهاب الحجازي

نشأ شيخ الإسلام في عصر ساد جوه التصوف الذي يستقي من منابع مختلفة وارتفع طائره من حدود الشريعة الإسلامية، ونظرية وحدة الوجود ظهرت كمدرسة صار كافة المتصوفين أسيراً لها، وجميع السيئات في نظر الدين والخلق الحسن استحسنها المتصوفون.

مجتمع القرن السابع والثامن الإسلامي قد ظهر الفساد في بره وبحره وكانت الأحوال تتقاضى بأن يقوم من يبدل الفساد بالصلاح، يقوم بعمل تنقية الغبار من وجه الدين الحنيف فيجعله كما كان أبيض نقياً ليله مثل نهاره، واصطفى الله جل وعلا لهذا العمل الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أوقد مصباح الكتاب والسنة حتى ولى ظلام الباطل هارباً، وسل سيف الدين الحق حتى قضى على طلاسم التصوف وأباطيله.

ما حكم شيخ الإسلام على المتصوفين جميعاً أنهم مبتدعون وخارجون عن السنة ولا مدحهم بل سلك فيهم سبيل العدل والاتزان حتى قال:

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل الطاعة ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من الصنفين من يجتهد فيخطىء وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه.

وقسم شيخ الإسلام المتصوفين حسب أحوالهم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: متصوفوا العقائد الذين يعكفون على عبادة الله بعيدين عن الخلق للحفاظ على دينهم، لا يتجاوزون حدود الله ويستنون بهدي الكتاب والسنة في العبادة والرياضة.

الثاني: متصوفوا الأرزاق الذين يستقرون في الخوانق ولا يشترط لهم أن يكونوا من أهل الحقائق يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم، يتحلون بآداب التصوف الشرعية غير البدعية ولا يلتفتون إلى جمع الأموال.

الثالث: متصوفوا الرسم الذين يكتفون بالنسبة إلى المتصوفين ولباسهم، لا صلة لهم بالمتصوفين حقيقة، وهم يخادعون عامة الناس بهيئتهم الظاهرة.

عقائد المتصوفين التي تضاد الكتاب والسنة هي:

١ ـ عقيدة وحدة الوجود.

٢ ـ عقيدة الحلول.

٣ ـ الولاية أفضل من النبوة.

٤ ـ جواز السماع.

٥ ـ الحيرة أفضل من الاستقامة.

١ ـ الأصل الذي بنى عليه الاتحاديون مذهبهم هو كما قال شيخ الإسلام:

إن وجود المخلوقات والمصنوعات حتى وجود الجن والشياطين، والكافرين والفاسقين والكلاب والخنازير، والنجاسات والكفر، والفسوق والعصيان عين وجود الرب لا أنه متميز عنه منفصل عن ذاته، وإن كان مخلوقاً له مربوباً مصنوعاً له قائماً به[1].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/١٤٢.

وقد حكم عليهم قائلاً: هؤلاء الاتحادية: فرؤوسهم هم أئمة كفر يجب قتلهم. ولا تقبل توبة أحد منهم إذا أخذ قبل التوبة، فإنهم من أعظم الزنادقة الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وهم الذين يفهمون قولهم، ومخالفتهم لدين المسلمين، ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم، أو ذب عنهم، أو أثنى عليهم، أو عظم كتبهم، أو عرف بمساعدتهم ومعاونتهم أو كره الكلام فيهم، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدرى ما هو؟ أو من قال: إنه صنف هذا الكتاب، وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق، بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم ولم يعاون على القيام عليهم فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات، لأنهم أفسدوا العقول والأديان، على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء وهم يسعون في الأرض فساداً ويصدون في سبيل الله.

فضررهم في الدين أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم ويترك دينهم كقطاع الطريق وكالتتار الذين يأخذون منهم الأموال ويبقون لهم دينهم ولا يستهين بهم من لم يعرفهم، فضلالهم وإضلالهم: أعظم من أن يوصف، وهم أشبه الناس بالقرامطة والباطنية.

وأما من قال: لكلامهم تأويل يوافق الشريعة، فإنه من رؤسهم وأئمتهم، فإنه إن كان ذكياً فإنه يعرف كذب نفسه فيما قاله، وإن كان معتقداً لهذا باطناً وظاهراً فهو أكفر من النصارى، فمن لم يكفر هؤلاء، وجعل لكلامهم تأويلاً كان عن تكفير النصارى بالتثليث والاتحاد أبعد[1].

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الحلولية تعتقد أن الله قد يحل ببشر، وبهذا يقول النصارى والروافض ومتبعوهم، ويقولون أيضاً إن الله يحل بجميع الأمكنة كما تقول الجهمية التي تعتقد بحلول الله في كل مكان.

وقد قسم شيخ الإسلام الحلول والاتحاد إلى أربعة أقسام:

الأول: الحلول الخاص، وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ١٣٣.

الذين يقولون: إن اللاهوت حل في الناسوت، ووافقهم من هذه الأمة غلاة الروافض الذين يقولون: إنه حل بعلي بن أبي طالب وأئمة أهل بيته وغالبية النساك أيضاً يعتقدون بحلوله في الأولياء.

الثاني: الاتحاد الخاص وهو قول يعقوبية النصارى كالسودان والقبط يقولون إن اللاهوت والناسوت امتزجا كاختلاط اللبن بالماء وهو قول موافقيهم من منتسبي الإسلام.

الثالث: الحلول العام وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، وقد رد عليهم أئمة أهل الحديث والسنة كثيراً.

الرابع: الاتحاد العام وهو قول الملاحدة الذين يقولون إنه عين وجود الكائنات، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى.

٢ ـ وقال ابن عربي في فصوصه: إن مرتبة الولاية أعظم من النبوة، لأن الولي يأخذ بلا واسطة والنبي بواسطة، وقال بعض الاتحاديين: إن الولي قد يعطى قول «كن» وقال ابن عربي: لا يبعد عن قدرة الولي شيء من الممكنات، وقال بعض المتصوفين: إن الولي يعلم جميع ما يعلمه الله وتحصل له القدرة على جميع ما يقدر الله عليه.

وصرح الغزالي بأن قتل من ادعى أن رتبة الولاية أعلى من رتبة النبوة أحب إليه من قتل مائة كافر لأن ضرر هذا في الدين أعظم.

٣ ـ قال شيخ الإسلام في السماع: إنه يفرق بين سماع المتقربين وبين سماع المتلعبين، فالسماع الذي شرعه الله لعباده وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم، فهو سماع آيات الله تعالى، وهو سماع النبيين والمؤمنين وأهل العلم وأهل المعرفة، هذا السماع هو الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر والعشائين وغير ذلك، وهذا هو السماع الذي كان النبي ﷺ يشهده مع أصحابه، وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح، والمعرض عنه ضال شقي، فإن هذا السماع هو أصل الإيمان، فأما سماع المكاء والتصدية فهذا هو سماع المشركين، ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء كان

السلف يسمون من يفعل ذلك من الرجال مخنثاً ويسمون الرجال المغنين مخانيثاً[1].

هذه نبذة من معارف شيخ الإسلام في التصوف، ومما لا ريب فيه أن التصوف قد شارك في تهيئة جو ديني في المجتمع الإسلامي ولكن ضرره أكبر من نفعه وهو كما يلي:

١ ـ وضع المتصوفون قواعد لا تلائم مبادىء الإسلام وهي التي هوت بهم وبمتبعيهم إلى مكان سحيق من سبل الشريعة الإسلامية.

٢ ـ تأول المتصوفون الكتاب والسنة لجواز السماع والوجد والرقص والغناء وآلات الطرب واللهو بتأويلات لا تلائم الشريعة الإسلامية بتاتاً.

٣ ـ اخترعوا البدع ووضعوا لتأييدها أحاديث موضوعة.

ومثل هذه السيئات قد كدرت بها منبع الشريعة الإسلامية التي قد أفسدت على الأمة سلوك العاملين بها أعاذنا الله من مضارها.



---

(١) مجموع الفتاوى ١١/٥٥٧.



شيخ الإسلام ابن تيمية وعقيدة وحدة الوجود

للشيخ محمد الأعظمي
شيخ الجامعة العالية، مئو أعظم كره
نقله إلى العربية/ عبد الوهاب الحجازي

من العقائد الباطلة والنظريات الفاسدة التي راجت في المجتمع الإسلامي في عصر شيخ الإسلام ابن تيمية واشتدت المناظرة والمخاصمة فيها بين الناس عقيدة وحدة الوجود التي قد بلغت ذروة سنام الكفر والإلحاد، وقد ساهم في نشوء هذه العقيدة وترويجها طائفة ضالة من المتكلمين والمتصوفين وقد انتقلت إلى الأجيال القادمة مع كل ضلالتها وفسادها حتى لا تزال ترتفع أصواتها من الخوانق على مر العصور.

عقيدة وحدة الوجود مسألة هامة ذات شعاب طويلة وجذور عريقة لا يمكن لكل عالم من العلماء أن يدرك حقيقتها ومضراتها وعواقبها ثم يجري عليها أعمال الجراحة، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فهو الذي حظى بقريحة سيالة وقلب منور وذوق سليم لمعرفة التوحيد الخالص فعرف خفايا كفرها وإلحادها وهجم عليها بأدلة الكتاب والسنة والأصول العقلية بغاية الجرأة والاستقامة وجاهد بالقلم واللسان جهاداً لا يزال يتحدى أهل عقيدة وحدة الوجود في كل زمان ومكان، ولا شك أنه من أعماله الممتازة إذ جدد معالم عقيدة التوحيد وسلب عن وجه عقيدة وحدة الوجود ستار روعة الجمال والجلال وتركه سافراً مكروهاً قبيحاً كما كان. فقد صنف في رد هذه العقيدة كتباً مستقلة.

تعريف وحدة الوجود: ونحن نذكر هنا خلاصة المباحث التي ذكرها شيخ الإسلام في تعريف مسألة وحدة الوجود من أمهات كتبهم التي صنفوها في هذه المسألة.

الوجود واحد لا غير، وجود كافة المخلوقات والمصنوعات عين وجود الله حتى الجن والشياطين والكفار والفاسقين والكلاب والخنازير والكفر والنجاسات والفسوق والعصيان والأصنام والأوثان كلها عين وجود الله، ولا فرق بين وجود الله ووجود عالم الكون ووجود الواجب، ووجود الممكن. لأن ما سوى الله لا وجود له، فلا يفرق بين العبد والمعبود والخالق والمخلوق بل الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق فالذين اتخذوا العجل من قوم موسى وعباد الأصنام من المشركين كلهم موحدون وعباد لله، لأن الله عين كل شيء، فقول فرعون «أنا ربكم الأعلى» عين حق، ولهم أشعار في هذه المسألة.

وفي كل شيء له آيه
تدل على أنه عينه

وما أنت غير الكون بل أنت عينه
ويفهم هذا السر من هو ذائقه

الرب حق والعبد حق
يا ليت شعري من المكلف

تاريخها: هذه العقيدة كانت سائدة في بلاد مصر قبل شيخ الإسلام، والشاعر الصوفي ابن الفارض (٦٣٢هـ) كان داعياً نشيطاً لها، والمرشد الأكبر للمتصوفين ومشايخ السلوك في الدين ابن عربي (٦٣٨هـ) كان داعياً عظيماً ونشيطاً لوحدة الوجود فذكر في جميع كتبه وخاصة في الفتوحات المكية وفصوص الحكم عقيدة وحدة الوجود فزينها بتحقيقاته ومزعوماته وحسب أنها هي عقيدة التوحيد الإسلامي ومن تلاميذه ابن سبعين، وصدر الدين الرومي وعفيف التلمساني قد ضلوا من مغالاتهم وشدتهم في هذه العقيدة ضلالاً بعيداً عن الإسلام والشريعة الإسلامية فهؤلاء كانوا يقولون بأن عقيدة

وحدة الوجود هي التوحيد الحقيقي الذي تسبب إلى ضلالة جديدة وأزمة هالكة في الأمة الإسلامية، بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية إن انهيار الشريعة الإسلامية وأهوال فتنة التتر من نتاج فتنة وحدة الوجود، وهذه الأحوال هي التي هيجت غيرة شيخ الإسلام لدينه وإقامته لأداء واجبه تجاه الشريعة الإسلامية والأمة الإسلامية.

فقد أدرك شيخ الإسلام أثناء مطالعته الكتب المصنفة في عقيدة وحدة الوجود أن جميع تحقيقات أهل الوحدة ومزعوماتهم مضادة للكتاب والسنة والقواعد الشرعية والعقلية حتى قال الشيخ رحمه الله:

وإن المقالات الثلاث هي ملجؤهم وأساس لعقائدهم الباطلة.

المقالة الأولى لابن عربي، الشيء ينبني على أصلين، الأول: المعدوم شيء ثابت في العدم يعني به: كل شيء موجود في الخارج قبل وجوده وكونه، فبناء على هذا الأصل كل معدوم ممكن الوجود ولو كان ممتنعاً عند ابن عربي ومتبعيه، ووجود عالم الكون عين وجود الحق لأن ذوات الكون من حيث كونها ثابتة في العدم متميزة متفرقة ولكنها متحدة مع وجود الحق، فالماهيات والأعيان ليست مخلوقة ولا مجبولة ولا الله خالقها، أما الوجود فهو قدر زائد على الماهية.

قال شيخ الإسلام رداً على هذا الأصل: «المعدوم شيء ثابت في العدم» أنه يشبه قول قدم العالم أو قدم مادة العالم وهو باطل في نفسه، بل هو كفر صريح عند متكلمي أهل السنة ومنشأ هذا الاشتباه أنه قد يظهر من قول الله عزّ وجلّ بادىء الرأي ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ أن المعدوم الذي يخلقه الله تعالى يكون متميزاً في علمه وإرادته وقدرته فظنوا أن ذات المعدوم تكون متميزة ثابتة لأن التميز يكون في الشيء الثابت ولكن استدلالهم هذا ليس بصحيح لأن كثيراً من الأمور نعلمها ونتصورها إثباتاً ونفياً وتردداً وهي لا تثبت أعيانها في الخارج من أذهاننا وعلمنا بمجرد علمنا وتصورنا، مثلاً إذا تصورنا جبل الياقوت وإنسان الذهب وفرس الحجر فلا يلزم منه أن تكون هذه الأشياء ثابتة في الخارج،

فالحق الذي لا مرية فيه أن الشيء قبل خلقه وكونه متميز ثابت في علم الله وكتابه لا في الخارج، هذا الذي نسميه في مصطلح الشرع بقدر الله السابق، كما روي في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» وقد روى بهذا المعنى الإمام أحمد في مسنده عن ميسرة قال: قلت يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ وفي رواية: متى كتبت نبياً؟ قال: وآدم بين الروح والجسد، هذه هي ألفاظ الحديث الصحيح، ولكن ذكر بعض الجهال مثل ابن عربي «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» وهذه الألفاظ لا أصل لها وما روى أحد من العلماء الصادقين هذه الألفاظ ولا توجد في أي كتاب يعتمد عليه، بل هي باطلة حسب الواقع، لأن آدم ما كان بين الماء والطين قط، فإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مشهورة في بيان خلق آدم ونفخ الروح فيه.

فقد أخبر الرسول الكريم ﷺ في هذا الحديث أن نبوته كانت مقررة مكتوبة حينما كان خلق آدم بين مرحلة الروح والجسد، وكون نبوته ثابت في علم الله السابق وتقديره الكتابي من قبل، وهذا الكون يغاير كون الوجود العيني لأن وجود نبوته الخارجي قد ثبت حينما قضى الرسول الكريم أربعين سنة من عمره وأنزلت أول الآيات من سورة القلم، والله قد بيَّن في هذه السورة الوجود العيني والوجود العلمي، فعلم أن الشيء قبل كونه لا يكون ثابتاً في الخارج.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم على أن المعدوم لا شيء في نفسه وثبوت الشيء ووجوده وحصوله أمر واحد لا فرق بينها يدل عليه الكتاب والسنة والإجماع، قال الله جل وعلا لزكريا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ وقال في موضع ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ ومثل هذه الآيات كثير يدل على أن المعدوم ليس بشيء، وعلى أن الماهيات مجعولة ليست ثابتة بذاتها، وماهية كل شيء عين وجوده، ووجود الشيء ليس قدراً زائداً على ماهيته لأنه لا فرق بين الوجود والماهية، وإن كان فهو اعتباراً بالمحل.

والأصل الأول الذي قرره ابن عربي قد جاء فيه الخطأ من جهة أنه لم يفرق فيه بين ثبوت الشيء ووجوده في نفسه وبين ثبوت الشيء ووجوده في العلم إذ هي من الحقائق الثابتة أن الصورة الأولى من الوجود وجود عيني خارجي حقيقي، والصورة الثانية من الوجود وجود ذهني علمي، ولا شيء يخلو من قسمي الثبوت والوجود، ولكن إثبات وجود الشيء في الخارج قبل أن يكون موجوداً معلوم الفساد عقلاً وسمعاً ويضاد من الكتاب والسنة والإجماع.

والأصل الثاني الذي قرره ابن عربي «أن وجود الأعيان والخلائق عين وجود الحق» ولا وجود لسواه، فالحق وجميع الخلائق واحد من حيث الوجود وبائن من حيث الماهية والأعيان. والوجود لما جرت فيوضه على الأعيان الثابتة ظهر الوجود فيها، وهذه الأعيان الثابتة مظاهر للوجود والاختلاف والفرق الذي يبدو في المظاهر بادي الرأي يظن بسببه الفرق والاختلاف في الظاهر ووجود الكائن مع أن الوجود واحد لا سواه، كالنور يتلون بألوان مختلفة في مرآة ذات ألوان مع أن النور واحد لا غير.

قد خالف ابن عربي بهذا الأصل جميع المسلمين واليهود، والنصارى والمجوس والمشركين، لأنهم يثبتون وجود الصانع، ووافق القرامطة وفرعون الذين ينكرون وجود الصانع، لأن إثبات وجود الأعيان عيناً لوجود الحق انتفاء لوجود الحق صراحة، فبناء على هذا القول لا رب ولا مربوب ولا خالق ولا مخلوق غير الأعيان الثابتة والوجود القائم بها، والأعيان أزلية أبدية عليها مدار الكائن، فلا مربوب ولا مخلوق من الأعيان والوجود، وقال ابن عربي: إن الله لا يعلم الأشياء علماً ذاتياً بل من حيث رؤيته الأشياء ثابتة في العدم يعلم أن هذه الأشياء كذا وكذا، هذا الذي يسميه ابن عربي سر القدر وفلسفة القدر.

والمقالة الثانية لصدر الدين الرومي وهي تختلف من مقالة ابن عربي، فالوجود عنده ليس قدراً زائداً على الماهية، وليس الله بوجود خاص، بل الله وجود مطلق غير متعين ومتميز، داخل في جميع الأشياء والأعيان

مختلط بها، والذي نسميه الخلق هو التعيين والتميز الناشىء من هذا الوجود المطلق. فالفرق والكثرة بين الأشياء والأعيان تأتي من جهة الوجود المعين ولا فرق بينها من حيث الوجود المطلق لأن الوجود المطلق واحد فقط ولا وجود لما سواه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا القول أشد كفراً وجحوداً من قول ابن عربي بل هو مصداق مذهب القرامطة وفرعون، فإن نظرية الوجود المطلق باطلة لا أصل لها لأن المطلق على قسمين، مطلق بشرط الإطلاق وهو الكلي العقلي، ومطلق لا بشرط الإطلاق وهو الكلي الطبيعي فإن أراد بالوجود المطلق المطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له في الخارج فلزم منه أنه لا وجود للحق وإن أراد بالوجود المطلق المطلق لا بشرط الإطلاق فيكون وجوده معيناً في الخارج فلزم منه أن وجود الرب جزء من وجود الخلائق، وقال الرومي: إن الوجود المعين هو الخلق لا الحق فيلزم منه أنه لا وجود لله وخلاصة هذا الكفر والإلحاد أن الله هو الوجود المطلق في قول الرومي: إذ الحقيقة أنه لا وجود للوجود المطلق فلزم منه أنه لا وجود لله، أعاذنا الله من ذلك.

والمقالة الثالثة تحتوي على كفر عفيف التلمساني وإلحاده، وهو أشد كفراً منهما إذ يقول: إنه لا فرق بين الماهية والوجود المطلق والمعين، ولا شيء غير الوجود، والله عنده جملة الوجود والكائن أجزاؤها وأبعاضها، كالأمواج في البحر والأعضاء في بدن الإنسان، فالله مجموع العوالم والكوائن لا يختص بموجود، بل كل موجود مرتبة من مراتب وجوده ومظهر من مظاهره.

قال شيخ الإسلام هذا القول أشد من القولين السابقين كفراً وزندقة لأن قائله لا يسلم الفرق بين الظاهر، والمظاهر، فإنه يقول: إن الكثرة والتفريق تخيلات أذهان البشر، فلما يرتفع ستار التخيلات من قلبه يرى أنه لا وجود للغير ولما سواه وقد غالى التلمساني في إثبات نظريته في وحدة الوجود حتى ما بقي عنده حد بين الحلال والحرام وما كان يجوز الفرق بين

الأم والزوجة وبهذا السبب كان التلمساني من أعظم الكفرة الزنادقة في الاتحاديين.

قال شيخ الإسلام بعد الرد على المقالات الثلاث بالدلائل الشرعية والعقلية «لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه، هذه المقالات من نتاج فتنة التتر أو الفتنة من نتاجها».

نظرية وحدة الوجود حقيقة قول فرعون «وما رب العالمين» فإنه أنكر رب العالمين، وما كان منكراً لوجود العالم، وهؤلاء الملاحدة أيضاً يعترفون بوجود العالم ومنكرون للغير ولما سواه، ففرعون هو رئيسهم، والرد المذكور في القرآن على فرعون تضمن الرد عليهم، وما الفرق إلا أن فرعون كان ينكر الرب جهاراً وعلانية بلا خوف، أما هؤلاء المنكرون فلا ينكرون الله جهاراً بل يسلكون سبيل النفاق ويضللون الناس.

ومن أعظم دلائل أهل وحدة الوجود وأصولهم الكلام الذي ينسبونه إلى الرسول عليه ألف تحية أنه قال: كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، وهذا الكلام كذب صريح على الرسول ﷺ، واتفق العلماء على كونه موضوعاً ومختلقاً ما ذكر في أحاديث الرسول في أي كتاب وما رواه عالم من العلماء بإسناد صحيح أو ضعيف أو مجهول، قد اخترعه بعض متكلمي الجهمية لنفي صفات الله الذي قد أخذه منه هؤلاء الاتحاديون، وقد اعترف ابن عربي أن طرف الكلام «كان الله ولا شيء معه» روي في الحديث، ولكن «وهو الآن على ما عليه كان» استزاده العلماء من عند أنفسهم، وقد وقع في صحيح البخاري وغيره من الكتب ألفاظ الحديث المشهورة هكذا «كان الله ولا شيء معه وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء».

أما «وهو الآن على ما عليه كان» زيادة من الإلحاديين وهو أساس متين لمذهب أهل وحدة الوجود، فقال هؤلاء مستدلين به: إنه لما لم يكن مع الله شيء في الأزل لا يثبت وجود شيء معه إلى الأبد، فهذا الكون ليس غيره وما سواه، بل الله عين الخلائق ونفس الكوائن ولا وجود إلا لله فقط

ولا شيء معه، وهذا الاستدلال يلزم كون الخلائق والمصنوعات عين الخالق والبارىء، وهو نهاية الكفر والشرك.

وهذا القول مع كونه موضوعاً مختلقاً يضاد الكتاب والسنة والإجماع من وجوه متعددة وكلام أهل وحدة الوجود المنثور والمنظوم يحتوي على كثير من مزعوماتهم وطلاسمهم الباطلة غير الأصول المذكورة الفاسدة، قد وزنها شيخ الإسلام على ميزان الكتاب والسنة ونبه الأمة من نتائجها الوخيمة ولوازمها الفاسدة حتى قال مراراً راداً على أقوالهم: إنه قد ثبت من الكتاب والسنة والإجماع وجود الغير سوى الله وجميع الخلائق وما سوى الله لا عين ذات الله، وقد أنكر الله سبحانه في القرآن على عباده غير الله أو الآمرين بعبادة غير الله قائلاً ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وقوله ﴿**قل أفغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض**﴾ وقوله ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فلو لم يثبت وجود الغير لما صح الإنكار ولا القول بأنهم مشركون.

وقد قال الرسول ﷺ في حديث صحيح «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...».

وقد اتفق جميع السلف والخلف من الأمة الإسلامية وكافة مشايخ الإسلام على أن الله سبحانه ليس عين الخلائق ولا جزءها وصفتها بل هو منزه عن الخلائق وهو الأعلى والأحد والبائن عن جميع خلائقه، والكتب السماوية الأربع التوراة والزبور والإنجيل والقرآن تدل على هذا، وهذا هو الدين الفطري للبشر.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





الإمام ابن تيمية ودوره في الرد على البدع والخرافات

الدكتور السيد عبد الحفيظ السلفي
مدير الجماعة الأحمدية السلفية، بدربهنجة، بهار
نقله إلى العربية/ أصغر علي السلفي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بنصرة الدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

كان شيخ الإسلام قدوة الأنام، جامع المعقول والمنقول، العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، المعروف بابن تيمية الحراني ثم الدمشقي المولود في ١٠ ربيع الأول ٦٦١هـ، المتوفى ٢٢ ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ من الشخصيات الفذة الذين كان نصب أعينهم تجديد الدين وإحياء السنة المطهرة، وحماية السلف الصالح، والقضاء على الشرك والبدع والخرافات.

وقد رافقته نصرة الله وتأييده في جهوده الجبارة ومرامه الصحيح ففاز بنجاح باهر، وقد نوه العلماء المسلمون بخدماته الجليلة للدين الإسلامي، وقد بذل الشيخ جهوداً عظيمة في رد الشرك والبدع، وتنتفع الأمة بالتراث الذي خلفه الشيخ وتعتز بأعماله الخالدة في المستقبل - إن شاء الله -.

وكان شيخ الإسلام فريد عصره ووحيد دهره، آية من آيات الله في أرضه لم ير مثله في القرون الماضية القريبة قبله ولا بعده بقرون، وبما كان ينتمي إلى أسرة عريقة في العلم والدين وقد وهبه الله ﷻ ذاكرة قوية منقطعة النظير، والذكاء الحاد فخدم الإسلام خدمة عظيمة حيث أزاح جميع السُتُر التي ألقيت على تعاليم الإسلام، وقضى على البدع والخرافات وجميع المنكرات التي كانت منتشرة في ذاك الوقت، وجاهد في الله جهاداً كبيراً وبذل فيه جهده البالغ وقضى فيه حياته، وبرع بين أقرانه في جميع العلوم والفنون، في الحديث والتفسير والفقه وأصوله، والفلسفة والمنطق، وكل ذلك كان لحماية الإسلام وشرائع الدين. يقول الإمام الذهبي رحمه الله: لقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها[1].

والمطالع لمؤلفات شيخ الإسلام يجد أكثرها ردوداً على أهل البدع والإلحاد، والقائلين بوحدة الوجود والفلاسفة وغيرهم من أهل الملل والنحل المختلفة.

قال الشيخ: الفروع أمرها قريب فإذا قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطأه، وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة والقائلين بوحدة الوجود والدهرية والقدرية... وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة على كل دين وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة مقبلاً على مقولاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه أو اعتقاده، فلما رأيت الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم وزيف دلائلهم ذباً عن الملة الحنيفية والسنة الصحيحة الجلية.

---

(١) نقلاً عن التاج المكلل ص ٤٢٣.

فهذا ونحوه الذي أوجب لي أن صرفت جل همي إلى الأصول وألزمني أن أورد مقالاتهم وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية[1].

وقد تبين بهذه العبارة المذكورة أن شيخ الإسلام الذي أكمل دراسة العلوم الشرعية والعقلية ومهر فيها وقام بالتدريس والإفتاء بدمشق ولم يتجاوز عمره عشرين سنة وقضى كل لمحة من حياته في ردود الشرك والبدع وحماية الدين وصيانة السنة، ولم يكن الشيخ بحراً لجياً في العلوم والفنون فحسب بل كان على ذروة من الشجاعة فارساً مغواراً رابط الجأش قوي الهمة الذي جمع بين السيف والقلم وما أقل اجتماعهما في شخص واحد، لم يبال بما يعتريه من العراقيل والمشاكل في سبيل نشر الدين الصحيح ولا يخشى في الله لومة لائم، ولم يعبأ بالأخطار المحدقة به فكان يجهر بالحق في مؤلفاته وخطبه فيستأصل البدع العقدية والعملية من جذورها بكل وسائله التي كان يملكها، ونذكر هنا بعض الجهود التي بذلها الشيخ في سبيل رد الشرك والبدع.

١ ـ **البدعة في الاعتقاد**: العصر الذي عاش فيه شيخ الإسلام خاصة في مصر والشام كانت السيطرة فيه للأشاعرة، وكان لهم حماية كاملة من الدولة، وكانت المناظرة بين الأشاعرة والحنابلة مستمرة، والأشاعرة كانوا يستدلون بالدليل المنطقي والعقلي وكانت الحنابلة تستند في أدلتهم إلى الكتاب والسنة وكانت ترجح كفة الأشاعرة أحياناً لما فيها من الجدل والمكابرة والدلائل المنطقية، فتمكن الشيخ من العلوم العقلية وبلغ الذروة في هذه العلوم حتى دهش بعلمه حكماء اليونان وفلاسفتها.

وكانت الظروف هكذا إذ ورد عليه استفتاء من بعض سكان الشام عن صفات رب العالمين فأفتى فيه الشيخ في رسالته المشهورة «الحموية» حتى أثبت للناس أن عقيدته هي عقيدة السلف الصالح في ضوء الكتاب والسنة

---

(١) نقلاً عن مقدمة عبد الله بن حميد المجلد الأول من مجموع الفتاوى.

والدلائل العقلية وبين نظره في ذلك بياناً وافياً، ورد بأسلوبه الخاص على مذاهب المبتدعة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة من منكري الصفات المشبهة الذين يشبهون صفات الخالق بصفات المخلوق وعلى الأشاعرة المؤولين الذين يثبتون سبع صفات ويؤولون بقية الصفات، وعند ذلك كان خصومه من الأشاعرة، قد أثاروا الحكومة ضده تسجنه وتكبله. وقد نالوا منه فحبسوه نحو ثمانية عشر شهراً، ومن هنا بدأ دور الابتلاء والمحن[1].

وقد أبلى الشيخ بلاء حسناً في محاربة التتر ولما انتهى من قضيتهم توجه مرة ثانية بكل جد ونشاط إلى عمله المحبوب نشر السنة الصحيحة ومحاربة البدع والخرافات وجعل يعلم الناس شعائر دينهم التي استبدلوها بشعائر اليهود والنصارى والمتصوفة الجهلة الضالة بكثرة الاختلاط بهم فتسربت فيهم شعائر الجاهلية الأولى والأعمال الشركية والعبادة لغير الله وهم لا يشعرون بها. فقام الشيخ يحارب عقيدتهم الفاسدة. وشعائرهم الدخيلة بكل قوة وحماس، يقول ابن كثير: ـ وفي نفس الشهر (رجب ٧٠٤هـ) راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد التارنج وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها، قطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح من المسلمين شبهتهم، كان شرها عظيماً.

انظر إلى هذه الغيرة الدينية والحمية الصادقة للدين الحنيف حيث حارب البدعة بقوته وشجاعته وعزمه الصميم الذي كان يتمتع به، وكان عنده جماعة من التلامذة الذين كانت وظيفتهم الإنكار على الحكام والأمراء في أعمالهم المخالفة للشريعة الإسلامية، وأكثر الأحيان كان يقوم بهذا الجهاد بالقول والفعل بنفسه مصداقاً لقول الرسول الأكرم ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده».

فما كان يتحمل الأمور البدعية مهما كانت الظروف بل كان يقوم أمامها كالصخرة ويحاربها بكل قوة وسيلة يملكها، يقول الإمام ابن كثير:

---

(١) البداية والنهاية.

وفي شهر رجب ٧٠٤هـ، أحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق فتناهبه الناس من كل جانب، وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً وأمر بحلق رأسه وكان ذا شعر، وقلم أظفاره وكانوا طوالاً جداً، وحف شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات وغيرها[١].

ومن أعماله الخالدة التي قام بها الشيخ كشف القناع عن ضلالات الروافض والخوارج والباطنية المتصوفة وبدعهم، واستعمل كل ما يملك من الوسائل ضد هؤلاء الدجالين الكذابين وضعف قوتهم وكسر شوكتهم وتأليفه المشهور «منهاج السنة» شاهد عدل على خدماته الجليلة ومحاربته للروافض.

وقد كان هجومه على بدعة عقيدة وحدة الوجود الدخيلة التي اخترعها ابن عربي ونشرها تلاميذه الرومي والتلمساني وابن سبعين، وكانوا متحمسين في نشر مذهب الاتحاد الصوفي - يقول الشيخ مشنعاً على مذهب وحدة الوجود: أصلهم الذي نبوا عليه أن وجود المخلوقات والمصنوعات حتى الجن والشياطين والكافرين والفاسقين، والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر والفسوق والعصيان عين وجود الرب لا أنه متميز عنه منفصل في ذاته انتهى - والعياذ بالله.

وهذا النوع من الشرك لم ير في الدنيا منذ وجودها إلى أن جاء به ابن عربي فشد الشيخ وطأته للقضاء على هذه العقيدة الفاسدة حتى رسم له بالحبس، فلما أحضر إليه مركوباً يركبه إلى السجن. أظهر السرور والفرح بذلك. وقال: أنا كنت منتظراً لذلك وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة.

وبعد أيام من اعتقاله قدم إليه بعض الشروط للخروج من السجن ولكنه رفضها وأحيى سنة يوسف عليه الصلاة والسلام: «السجن أحب إلي مما يدعونني إليه».

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣٣.

وقد منع ابن تيمية منعاً باتاً شد الرحال إلى قبور الصالحين والأنبياء والسفر إليها ولم يستثن الروضة الشريفة من عموم حكمه، بل أدخلها في العموم وتكلم عليها خاصة واحتج بالحديث الصحيح: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى.

وألف شيخ الإسلام في هذه المسألة كتابه القيم «الرد على الأخنائي» فأجاد وأفاد كما شنع على مذهب التوسل بقبور الأولياء والصالحين والتقرب إليهم وألف لمحاربة هذه العقيدة كتابه القيم «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» وبين الفرق بين التوسل الشرعي والتوسل البدعي.

٢ ـ **البدعة في العمل**: أنكر الإمام الهمام على كثير من الأمور البدعية والشركية في ضوء الكتاب والسنة الصحيحة التي كان الناس يظنون أنها من الدين ويرجون الثواب والأجر ومن هذه البدع الاحتفال بالمولد النبوي في ١٢ ربيع الأول فرد الشيخ على هذه البدعة بقاعدة التخصيص بلا مخصص كما رد جميع العبادات التي تختص بالليالي والأيام والأمكنة وليس عليها دليل شرعي صحيح فأنكر الصلوات مع الركعات المعينة في أول ليلة من رجب وأول خميس من هذا الشهر، وإحياء ليلة الخامس عشر من شعبان بركعات معينة مع الجماعة والاهتمام بهما، كما رد على الروافض لما يقومون به في عاشوراء المحرم من الحداد والنياحة وضرب الخدود وشق الجيوب، ورد على الخوارج الذين يتزينون في عاشوراء ويلبسون الألبسة الفاخرة ويأكلون أنواع الطعام تفاؤلاً لأنهم يعتقدون أنه يتسبب إلى حسن المعيشة والمأكل طول السنة.

وبيَّن فساد هذا المعتقد وأوضح لهم شعائر الإسلام ومنع المسلمين من التشبه بالكفار وألف في ذلك كتاباً قيماً سماه اقتضاء الصراط المستقيم. وجدير أن يقرأ المسلم هذا الكتاب في هذا الزمان الذي اختلط فيه الحابل بالنابل.

وكان الإمام ابن تيمية بلغ درجة الاجتهاد والاستنباط متمسكاً بالكتاب والسنة الصحيحة وكان يرجح في المسألة ما أدى إليه اجتهاده وإن كان

مخالفاً للأئمة الأربعة والجمهور ويفتي بما بدا له من الكتاب والسنة وقد اعترف كثير من المحققين أنه مجتهد مطلق. وخالف فقهاء المذاهب الأربعة في مسألة الطلاق الثلاث في مجلس واحد وأفتى ببدعته وأثبت أنه طلاق واحد رجعي، كما أفتى في الطلاق في حالة الحيض على أنه باطل لا يعتد به، وليس الشيخ في هذه المسائل منفرداً شاذاً، ولكن شهرة هذه المسألة في الآفاق كانت بسببه، وكل من طالع كتبه ومؤلفات تلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية يطمئن قلبه ويشفي عليله ويروي غليله بما فيها في الدلائل الواضحة ومن المسائل التي خالف فيها الشيخ جمهور العلماء مسألة الحلف بالطلاق لما أنكر أن تكون هذه المسألة من مسألة الطلاق المعلق بل أثبت أنه نوع من أنواع الإيمان والحلف وألزم الحالفين كفارة اليمين وهذه المسألة تسببت في اعتقاله. ثم أطلق بعد خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة من الهجرة.

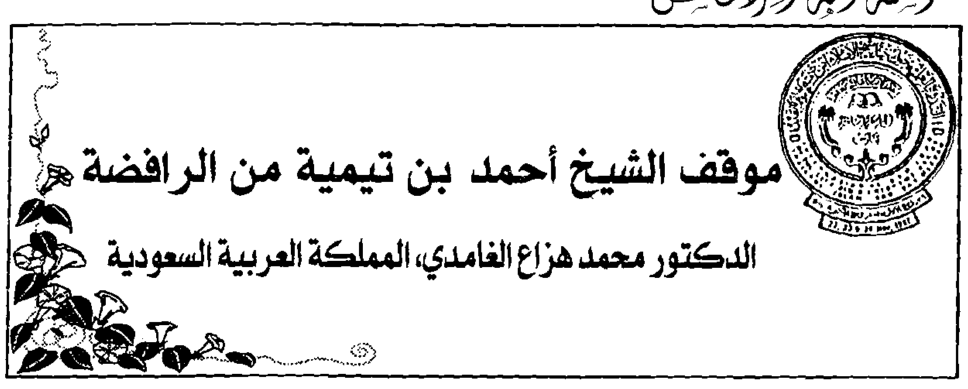
وفي فترة ما بين ٧٢١ و٧٢٦ الهجرة اشتغل الشيخ بالتأليف والإفتاء في جو ملائم وبيئة هادئة والذي لم يرض به أعداؤه فأثاروا الفتن مرة ثانية في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين والتوسل بهم التي كانت خفية وساكنة، وأثاروا الأمراء ضد الشيخ حتى انتهى الأمر إلى اعتقال الشيخ وحبسه فرحب به الشيخ بكل فرح وسرور ففي سنة ٧٢٦ هـ حبس مع أعوانه وأنصاره بقلعة دمشق وقد رافقه تلميذه الرشيد الحافظ ابن قيم الجوزية في حبسه إلى أن انتقل الشيخ إلى رحمة الله وكنفه ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ.

هذه لمحة عن خدمات الشيخ في محاربة البدع والخرافات مع الاعتراف بقصور باعي وقلة علمي في بيان مناقب هذا العملاق الألمعي العبقري وجهوده المخلصة جزاه الله خيراً ونفع الله بخدماته الأمة الإسلامية ويهديهم إلى سواء السبيل.

ولنا أسوة حسنة وقدوة فذة في جهوده المخلصة في القضاء على الأفكار الدخيلة والآراء الهدامة وفي عزمه الصميم وثباته الراسخ وإنكاره على البدع والمنكرات ـ وفقنا الله لخدمة دينه والذب عن شريعته.

الحمد لله وصلى الله على محمد وآله وأصحابه ومن قام بنصرة دينه بإحسان إلى يوم الدين.





موقف الشيخ أحمد بن تيمية من الرافضة

الدكتور محمد هزاع الغامدي، المملكة العربية السعودية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها الأخوة الكرام إنه لشرف عظيم أن أشارككم في هذه الندوة عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله فما أن تلقيت دعوة أمين عام هذه الجامعة للمشاركة في هذه الندوة حتى بادرت مسرعاً بالإجابة حباً في المشاركة العلمية والاستفادة من التجمع الكريم الذي تسعى إليه هذه الجامعة بين حين وآخر إن فكرة إقامة هذه الندوة عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية لفكرة صائبة. فشيخ الإسلام قدم لهذه الأمة ثروة علمية عظيمة جداً تستحق منا أيها الإخوة الكرام الاهتمام بها والأخذ بما جاء فيها والبحث والتقصي عن أمور نحن أحوج ما نكون إليها في وقتنا الحاضر فضلاً عن حياة هذا الرجل العظيمة ومواقفه الخالدة التي يجب الاستفادة منها، وهذا ما أدركته هذه الجامعة الموقرة فطرحت عن ذلك مواضيع عديدة كان منها «موضوع ابن تيمية مع الرافضة» ولقد اخترت هذا الموضوع إيماناً مني بأهميته في وقتنا الحاضر وإن كانت بقية المواضيع التي طرحت للبحث في هذه الندوة لا تقل أهمية عن هذا الموضوع، وموقف ابن تيمية من الرافضة كموقفه من بقية الفرق إذ يرى أن كل فرقة خرجت عن ما جاء به السلف الصالح أمرها مردود لا محالة.

موقفه كان صريحاً وواضحاً إذ يقول: إن أصل مذهب الرافضة إنما

جاء عن طريق ذلك اليهودي «عبد الله بن سبأ» الذي أظهر الإسلام نفاقاً ودسَّ إلى الجهال دسائس يقدح بها في أصل الإيمان، ولهذا كان الرفض أعظم أبواب النفاق والزندقة فإنه يكون الرجل واقفاً ثم يصير مفضلاً ثم يصير سباباً ثم يصير غالياً ثم يصير جامداً معطلاً، ولهذا انضمت إلى الرافضة: أئمة الزنادقة من الإسماعيلية ومن النصيرية وأنواعهم من القرامطة والباطنية والدرزية وأمثالهم من طوائف الزندقة والنفاق، ويقسم الشيخ أحمد بن تيمية فرق الروافض إلى ثلاث طوائف.

الطائفة الأولى: هي من تقول بأن «علياً» إله، وهؤلاء لما ظهر عليهم الإمام علي أحرقهم بالنار وخد لهم أخاديد عند باب مسجد بني كنده، وقيل: إنه أنشد:

لـــمـــا رأيـــت الأمـــر أمـــراً مـــنـــكـــراً
أجـــجـــت نـــاري ودعـــوت قـــنـــبـــراً

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: أتي علي بزنادقة فحرقهم بالنار، ولو كنت أنا لم أحرقهم لنهى النبي ﷺ أن يعذب بعذاب النار ولضربت أعناقهم لقوله «من بدل دينه فاقتلوه» وهذا الذي قاله ابن عباس هو مذهب أكثر الفقهاء.

الطائفة الثانية: السابة وكان قد بلغ الإمام علي عن أبي السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر فطلبه ليقتله لكنه هرب.

الطائفة الثالثة: المفضلة الذين يفضلون «علياً» على أبي بكر وعمر، فتواتر عنه أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، وروى ذلك البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه: من خير الناس بعد رسول الله ﷺ فقال: أبو بكر، قال: ثم من؟ قال: عمر.

أيها الإخوة من خلال استعراضنا لفرق الرافضة[1] حسبما نجد

---

(١) ١ ـ كالزيدية (وهم أقرب الفرق الشيعية إلى أهل السنة والجماعة وأكثرها اعتدالاً).
ومنهم الجارودية، والسليمانية، والبترية. =

تفاصيلها في الكتب المؤلفة في الفرق والأديان والمذاهب اتضح لنا ما يلي:

١ ـ **الكذب**: عمدت هذه الفرقة إلى تدعيم حججهم بأقوال كاذبة وأحاديث ملفقة جاءت خلافاً عن ما جاء في القرآن والسنة، لذلك يقول الشيخ أحمد بن تيمية رحمه الله: «إن هذه الطائفة من أكثر الطوائف كذباً وادعاء للعلم المكتوم، ولهذا انتسب إليهم الباطنة والقرامطة، ويرى أنه لا يمكن الثقة برواية أحد من شيوخهم وذلك لكثرة الكذب فيهم، ولهذا يقول: لقد أعرض عنهم أهل الصحيح فلا يروي البخاري ومسلم أحاديث «علي» إلا عن أهل بيته كأولاده مثل الحسن والحسين ومثل محمد بن الحنفية وكاتبه عبد الله بن رافع وابن مسعود.

إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن «علي» فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم. وعلى هذا مضى ابن تيمية فلم يقبل بأقوالهم أو أحاديثهم. ويورد الشيخ أحمد بن تيمية مثالاً على كثرة الكذب في رواياتهم فيقول: رأيت كتاباً كبيراً قد صنفه بعض أئمة الرافضة «محمد بن النعمان» الملقب بالشيخ المفيد سماه أبو جعفر الطوسي «الحج إلى زيارة المشاهد» ذكر فيه من الآثار عن النبي ﷺ وأهل بيته، وزيارة هذه المشاهد والحج إليها ما لم يذكر مثله في الحج إلى بيت الله الحرام، وعامة ما ذكره من أوضح الكذب وأبين البهتان حتى إني رأيت في ذلك من الكذب والبهتان أكثر مما رأيته من الكذب في كثير من كتب اليهود والنصارى.

= ٢ ـ والإمامية ومنهم الباقرية، والمحمدية والقطعية والناروسية، والشمطية، والعمادية، والمباركية، والموسوية، والرازية، واليونسية، والشيطانية، والكاملية، والإسماعيلية والهاشمية.

٣ ـ والكيسانية أتباع مختار الثقفي.

٤ ـ والغلاة ومنهم السبئية والبيانية والمغيرية والمنصورية، والخطابية والحلولية والمقنعية، والغرابية والذبابية والنفسية، والنصيرية والقرامطة.

٢ ـ موقفهم من بعض الصحابة رضوان الله عليهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

لقد أخذت هذه الفرق على عاتقها موقفاً معادياً من بعض الصحابة رضوان الله عليهم لأشياء في نفوسهم يطمعون في تحقيقها من وراء ذلك فلفقوا تهماً باطلة لبعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كتهمتهم لأبي بكر وعمر وعثمان بالظلم من أجل الحصول على ولاية المسلمين، لكن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية أقام الحجة عليهم فقال: «هؤلاء لم يقاتلوا مسلماً على الولاية» وإنما قاتلوا المرتدين والكفار وهم الذين كسروا كسرى وقيصر وفتحوا بلاد فارس وأقاموا الإسلام وأعزوا الإيمان وأهله وأذلوا الكفر وأهله، وعثمان دون أبي بكر وعمر في المنزلة ومع ذلك فقد طلبوا قتله وهو في ولايته لم يقاتل المسلمين ولا قتل مسلماً على ولايته، وبهذا تبين أن الرافضة أمة ليس لها عقل صريح ولا نقل صحيح ولا دين مقبول ولا دنيا منصورة بل هم أعظم الطوائف كذباً وجهلاً.

ولم يقتصر الأمر على مجرد التهم فقط بل تعدى ذلك إلى البغض واللعن والتكفير، فأبو بكر وعمر كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية أبغضتهما الرافضة ولعنتهما دون غيرهم من الطوائف ولهذا قيل للإمام أحمد: من الرافضي؟ قال: الذي يسب أبا بكر وعمر، وبهذا سميت رافضة فإنهم رفضوا زيد بن علي لما تولى الخليفتين أبا بكر وعمر لبغضهم لهما، فالمبغض لهما هو الرافضي، وقيل: إنما سموا الرافضة لرفضهم أبا بكر وعمر. قال بعض السلف: حب أبي بكر وعمر إيمان وبغضهما نفاق وحب بني هاشم إيمان وبغضهم نفاق، قال عبد الله بن مسعود: حب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنة أي من شريعة النبي ﷺ التي أمر بها فإنه قال: «اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر» ولهذا كان معرفة فضلهما على من بعدهما واجباً لا يجوز التوقف فيه» والغريب في الأمر أن تتجرأ هذه الفرق فتسب أصحاب رسول الله ﷺ مع علمهم بقوله «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً لم يبلغ قدر أحدهم ولا نصيفه» وقوله ﷺ في صاحبه أبي بكر رضي الله عنه: «لو كنت

متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً».

وقوله في عمر رضي الله عنه «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين».

وقوله «إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم» وقد وافق عمر ربه في عدة أشياء جاء بها القرآن الكريم.

وقوله في عثمان رضي الله عنه «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة» والحديث عن هؤلاء الصحابة يطول ولكن خير قول فيهم قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾.

وقد أورد ابن تيمية رحمه الله أن سب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم يأت إلا بعد الشيعة الأولى حيث كانت الشيعة الأولى لا يتنازعون في تفضيل أبي بكر وعمر، وإنما كان النزاع في علي وعثمان، ولهذا قال شريك بن عبد الله: إن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر، فقيل له: تقول هذا وأنت من الشيعة؟ فقال: كل الشيعة كانوا على هذا، وهو الذي قال هذا على أعواد منبره أفتكذبونه فيما قال؟ ولهذا قال سفيان الثوري: من فضل «علياً» على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار وما أرى أن يصعد له إلى الله عزّ وجلّ عمل.

٣ ـ **الإمامة**: ظلت الإمامة عند فرق الرافضة شغلهم الشاغل فقد صرفوا جل وقتهم وأغلب حديثهم فيمن تكون له الولاية؟ ويرون أحقية الإمام علي وأهل بيته من بعده وذلك لأمور أورد الشيخ ابن تيمية جانباً منها مع ما يناسبها من رد مقنع وجواب مفيد، فهم يقولون: إن إسلام علي معلوم بالتواتر، مع أن إسلام أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وغيرهم معلوم كذلك بالتواتر، والطعن في هؤلاء إما في إسلامهم أو في عدالتهم، فإن قالوا «علي» ثبت بثناء النبي ﷺ قلنا: هذه الأحاديث إنما نقلها الصحابة الذين تطعنون فيهم، ورواة فضائلهم سعد بن أبي وقاص وعائشة وأبو حميد الساعدي وأمثالهم والرافضة تقدح في هؤلاء فإن كانت رواية هؤلاء وأمثالهم

ضعيفة بطل كل فضيلة تروى «لعلي» ولم يكن للرافضة حجة وإن كانت روايتهم صحيحة ثبتت فضائل علي وغيره، فمن روى فضائله كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم.

فإن قال الرافضي، فضائل علي متواترة عند الشيعة كما يقولون: إن النص عليه بالإمامة متواتر.

قيل له: أما الشيعة فليسوا من الصحابة فإنهم لم يروا النبي ﷺ ولا سمعوا كلامه ونقلهم نقل مرسل منقطع إن لم يسند إلى الصحابة لم يكن صحيحاً.

قال عليه الصلاة والسلام: يا «علي» تكون أنت في الجنة وشيعتك يكونون في الجنة وسيكون بعدي قوم يدعون ولايتك يدعون الرافضة، فإن وجدتهم فقاتلهم فإنهم مشركون فقال علي: وما علامتهم يا رسول الله؟ فقال: لا يكون لهم جمعة ولا جماعة، ويشتمون أبا بكر وعمر.

٤ ـ **التشبيه والصفات**: علق الشيخ أحمد بن تيمية على هذا الموضوع في مواضع عدة من كتبه ورسائله وفتاويه واستنكر ما أقدمت عليه هذه الفرقة ويرى أنهم بعملهم هذا معطلة «أي يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته يوم القيامة» والذي يراه ابن تيمية رحمه الله أنهم من شرار الخلق، ودليل ابن تيمية على ذلك ما ورد في أحاديث الصحاح فيما يتعلق برؤية الله سبحانه وتعالى، وقد تلقاها السلف الصالح بالقبول والتصديق، ثم أقبل على تصديقها من بعدهم أهل السنة والجماعة.

ولم يكذبها ويحرفها سوى الجهمية ومن مضى على شاكلتها من المعتزلة والروافض، والتشبيه الذي جاءت به هذه الفرقة كفر محض باتفاق جميع المسلمين وقد أخذوا تشبيههم هذا من اليهود حين نسبوا إليه الولد فقالوا: عزير ابن الله وأثبتوا له المكان والحد والنهاية والمجيء والذهاب. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولهذا المعنى شبه النبي ﷺ الروافض باليهود فقال: «الروافض يهود هذه الأمة» وقال الشعبي: إن الروافض شر من اليهود والنصارى فإن اليهود سئلوا عن أحبار ملتهم فقالوا: أصحاب موسى. والنصارى سئلوا عن أحبار ملتهم فقالوا: الحواريون الذين كانوا مع عيسى

عليه السلام، وسئلت الرافضة من شر هذه الأمة فقالوا: أصحاب محمد ﷺ، فلا جرم أن يكون سيف الحق مسلولاً عليهم إلى يوم القيامة، ولا يرى لهم قدم ثابت ولا كلمة مجتمعة ولا راية منصوبة ولا ينصرهم أحد إلا صار مخذولاً لشئوم بدعتهم.

٥ ـ **البدعة**: إن أشهر الطوائف بالبدعة هم الرافضة، لذلك يقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: إن العامة لا تعرف من شعائر البدع إلا الرفض، والسني في اصطلاحهم من لا يكون رافضاً، وذلك لأنهم أكثر مخالفة للأحاديث النبوية ولمعاني القرآن، وأكثر قدحاً في سلف الأمة وأئمتها، وطعناً في جمهور الأمة من جميع الطوائف، فلما كانوا أبعد عن متابعة السلف كانوا أشهر بالبدعة، فعلم أن شعار أهل البدع هو ترك انتحال اتباع السلف، ولهذا قال الإمام أحمد في رسالة عبدوس بن مالك: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه ﷺ.

وقد أورد نموذجاً من بدعهم منها أنهم لا يمسحون القدمين على الخف ويؤخرون الفطور والصلاة إلى طلوع النجم ويجمعون الصلاتين من غير عذر ويقنتون في الصلوات الخمس ويحرمون الفقاع وذبائح أهل الكتاب وذبائح من خالفهم من المسلمين لأنهم عندهم كفار، ويقولون على الصحابة رضي الله عنهم أقوالاً عظيمة.

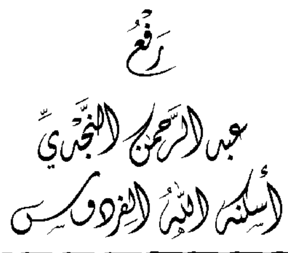
هذه لمحة قصيرة عن مواقف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية تجاه فرقة الروافض، وقد اتضح لنا أيها الأخوة الكرام مدى قوته وثباته وسلامة وقوله وبراعة حواره وعمق جدله يفحم خصومه وأن يرد الأمور إلى أصولها وأن يجرد القيم مما أضيف إليها من دخائل في سماحة من غير تعصب، وفي علم ومعرفة على أساس تحرير الرأي من قيود الشعوبية وأوهام التقليد والبدع. هذا بجانب مواقف الشيخ التي شهد التاريخ لها، فقد حارب الروافض بالسيف في جبل كسروان بلبنان وأثبت قدرته في معاركه الحربية كقدرته في معاركه العلمية فكان يقاتل ببسالة عظيمة وشجاعة نادرة، وكان إذا ركب الخيل يجول في العدو كأعظم الشجعان ويطعن كأثبت الفرسان

ويخوض المعارك خوض الجسور الذي لا يخاف الموت. هذه هي صور مشرقة من مواقف هذا الرجل العظيم. وإني بهذه المناسبة الطيبة أجد لزاماً علي أن أناشد أهل هذه الطائفة أن يحكموا كتاب الله تعالى كما أنزل بعيداً عن الأهواء والأغراض والأحقاد كما أناشدهم أن ينقحوا التفسيرات الشيعية لكتاب الله تعالى وأولها تفسير علي بن إبراهيم القمي من تلك الأقوال التي تجعل من القرآن الكريم كتاباً حزبياً كأنه نزل للشيعة وحدهم وآيات الله سبحانه وتعالى أسمى من هذا التحريف والتأويل وآيات المديح لعلي وآيات الذم لأبي بكر وعمر وعائشة، ثم إن على هذه الفرقة العودة إلى الأصول النقية والنصوص الخالصة التي لا تشوبها إضافة المتكلمين أو حشو القصاص، وعليهم أن يسلكوا في ذلك المنهج المقارن بدراسة ما ورد عن هؤلاء الأئمة وعلى ألسنتهم لدى طوائف الشيعة الأخرى لا سيما الزيدية وكذلك كتب أهل السنة، وهي دعوة صادقة بعيدة عن التعصب وذلك خدمة للإسلام والمسلمين إنني على ثقة أنه متى جاء دور الباحث النزيه في قوله وعمله سوف يكون في ذلك تحول طيب يخدم الإسلام في هذا الوقت العصيب. إنني هنا لا أطالب بأن يتخلى علماء الشيعة عن مذهبهم ويعتنقون مذهب أهل السنة بل إن ما أريده أن يكون هناك عودة سليمة إلى الأصول الصحيحة التي يمكن أن تكون منارة طيبة يمكن العمل بها على ضوء كتاب الله تعالى والسنة النبوية الشريفة.

وختاماً أرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت في بحثي هذا المتواضع وإني أستسمحكم عذراً فيما صدر مني من تقصير راجياً من الله التوفيق والنجاح.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.







شيخ الإسلام ابن تيمية
في ضوء كتابه منهاج السنة النبوية

الشيخ عبد الرشيد طاهري

نقله إلى العربية/الدكتور عبد الرحمن الفريوائي

إن الله يبعث لحماية دينه وتجديده من يختاره من المصلحين والمجددين عبر القرون والأجيال، فبعث أبا بكر لقمع فتنة الردة إثر وفاة النبي ﷺ وبعث الحسن بن علي للتصالح بين فئتين مسلمتين، كما بعث أحمد بن حنبل للقضاء على فتنة خلق القرآن، ومن هؤلاء المجددين شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يقل نظيره من بين المجددين في مواجهة المصائب والفتن والتحديات، وبذل الجهود المخلصة لنشر السنة والعقيدة.

وكتابه منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لا يوجد له نظير في فنه، وقد رد فيه شيخ الإسلام على معتقدات الروافض، وكشف أباطيلهم بالأدلة القاطعة.

ومن هذه البدع والخرافات التي روجها الروافض في الأمة تعظيم القبور والمشاهد وعبادتها وشد الرحال إليها، قال فيه شيخ الإسلام: ويعظمون المشاهد المبنية على القبور فيعكفون عليها مشابهة للمشركين.

وقال: وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك.

وقال: والله تعالى أمر في كتابه بعمارة المساجد، ولم يذكر المشاهد.

وقد صرح به شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد فقال: وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور وهم أول من بنى عليها المساجد(١).

ونحن نشاهد أن الروافض تشتد رغبتهم في الذهاب إلى بلاد نجف وكربلاء وقد قال النبي ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى. (متفق عليه).

والبدعة الثانية القبيحة التي روجها هؤلاء الروافض هي بدعة النياح وتنظيم المظاهرات المصطحبة بالأضرحة المبنية بالأخشاب والأوراق والزهور في أيام عاشوراء في المحرم، وهذه البدعة أشبه بطقوس «رام ليلا» التي ينظمها الوثنيون في بلاد الهند، وليس لها أي علاقة بالشريعة الإسلامية بل هي بدعة ضالة مضلة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

يقول شيخ الإسلام: وصار الشيطان بسبب قتل الحسين رضي الله عنه يحدث للناس بدعتين: بدعة الحزن والنوح يوم عاشوراء من اللطم والصراخ والبكاء والعطش وإنشاد المراثي، وما يفضي إليه من سب السلف ولعنهم وإدخال من لا ذنب له مع ذوي الذنوب حتى يسب السابقون الأولون، وتقرأ أخبار مصرعه التي كثير منها كذب، وكان قصد من سن ذلك فتح باب الفساد والفرقة بين الأمة، فإن هذا ليس واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين، بل إحداث الحزن والنياحة للمصائب القديمة من أعظم ما حرمه الله ورسوله، وكذلك بدعة السرور والفرح(٢).

وقد عدت هذه البدع الشنيعة جريمة في الشرع الإسلامي كما في الأحاديث النبوية حتى هدد النبي ﷺ فاعلها أنه ليس منا ففي صحيح البخاري: ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

---

(١) كتاب التوحيد ص ١٩٠.

(٢) منهاج السنة ٢/٢٤٨.

والبدعة الثالثة: سب الصحابة وتكفيرهم وتوجيه اللعن إليهم، ومن المعلوم أن الخلفاء الراشدين المهديين لهم فضائل جمة ومناقب كثيرة وهي ثابتة في الكتاب والسنة وبإجماع السلف، وقد أثني عليهم من غير الملة الإسلامية كالزعيم الهندي المشهور غاندي الذي كان متأثراً بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يثني عليه كثيراً، ثم العشرة المبشرون بالجنة على لسان النبوة على صاحبها ألف صلاة وتحية، وشهداء بدر وأحد وشركاؤهما، وأصحاب بيعة الرضوان، وشركاء غزوة خيبر وتبوك ومن حج مع النبي ﷺ في حجة الوداع من الصحابة والصحابيات، وأمهات المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين، إن فضائل هؤلاء الأصحاب ومناقبهم معروفة ومشهورة في دواوين الإسلام، إلا أن الروافض عميت أبصارهم فأنكروا فضائلهم واخترعوا أكاذيب وافتراءات وروجوها بين الناس وتسربت هذه الخرافات والأكاذيب إلى الكتب العلمية.

وشيخ الإسلام ابن تيمية بدوره ينكر عليهم إنكاراً عظيماً ويكذبهم ويدافع عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ويبين فضائلهم ومناقبهم، ويذكر بأن هذه الأكاذيب لا توجد في شيء من كتب المسلمين المعتمدة لا في الصحاح ولا الجوامع ولا المعجمات(١).

ومن بدعهم الشنيعة أنهم وضعوا أحاديث كثيرة في مناقب علي رضي الله عنه وأهل البيت، وهم في غنى عن أكاذيب الوضاعين والكذابين، وقد كشف شيخ الإسلام اللثام عن زيف هذه المرويات المختلقة في مواضعها بكل توسع وتمكن بما لا مزيد عليه.

وهكذا تظهر شخصية شيخ الإسلام العلمية في كتابه منهاج السنة النبوية الذي خصصه شيخ الإسلام للرد على كلام الشيعة والقدرية، وتفنيد آرائهم الخبيثة، ومزاعمهم الباطلة، وكشف أضاليلهم وخرافاتهم وأباطيلهم.

وقد ظهر في عصرنا رافضي متحرق جلد وهو الخميني الذي اشتهر

---

(١) منهاج السنة ٤/٥.

أمره، وطبل له زعماء الأحزاب الإسلامية، وأطروا في الثناء عليه وتمجيده، وقد حذا حذو أئمته الإمامية في الطعن والسب والهمز واللمز في أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام وأرجو من إخواننا المنتسبين إلى السنة أن يعيدوا النظر في تعاملهم مع الخميني وإعطائه لقب الإمامة في مجلاتهم وصحفهم وفي مؤتمراتهم وحفلاتهم، ويتوبوا من هذه القولة الشنيعة، فإنه لن يكون إمام السنة أبداً، ولا زعيمهم ومجتهدهم، بل هو إمام الظالمين الممقوتين إمام الروافض أصحاب السب والطعن واللعن والهمز، لكي لا ينطبق عليهم الحديث النبوي الشريف: «من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام» ولا يكونوا من الذين أفسدوا حياتهم الأخروية بلحياة الدنيوية العاجلة: «إن من شر الناس منزلة يوم القيامة عبد أذهب آخرته بدنيا غيره» (رواه ابن ماجه).

وليعلم أن المحققين الأفاضل عدّوا فتنة الرفض والتشيع مكيدة عبد الله بن سبا اليهودي، ومن المعلوم أن النصارى كانوا يغالون في حواري عيسى عليه السلام ويظنونهم أفضل من إبراهيم وموسى وغيرهما، وقلدهم الروافض فجعلوا الأئمة الاثني عشر أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وقد عدهم شيخ الإسلام أشر من الكفار والمشركين وأخطرهم.

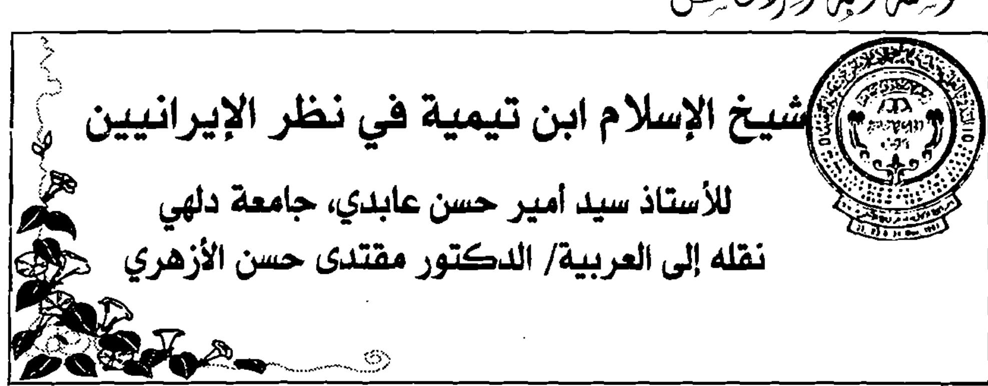
ومع ترويجهم لأباطيلهم وأكاذيبهم اتخذوا التقية ديناً، ونكاح المتعة شريعة، والإمامة عقيدة وهذه العقائد والأعمال كلها من قبيل الخرافات والترهات، وقد رد على هذه الأفكار الباطلة شيخ الإسلام ابن تيمية في المنهاج في ضوء الكتاب والسنة، ومصطلح الحديث وفن أسماء الرجال، ولأجل هذه الجهود العظيمة والخدمات الجليلة طار صيته في الآفاق، حتى ازدحم على جنازته جميع الخلق الموجودون بدمشق إلا أنفس، ونادى رجل بأعلى صوته: هكذا تكون جنائز أئمة المسلمين.

اللهم احفظنا من شرور الروافض وفتنهم وبدعهم، ووفقنا لما تحبه وترضاه من السير على طريق السلف الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «ما أنا

عليه وأصحابي» وما ذلك على الله بعزيز، وهو ربنا رب العرش الكريم والسلام على رسوله النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.







شيخ الإسلام ابن تيمية في نظر الإيرانيين

للأستاذ سيد أمير حسن عابدي، جامعة دلهي
نقله إلى العربية/ الدكتور مقتدى حسن الأزهري

تأسس الإسلام في بدايته على الكتاب والسنة، والسنة هي عبارة عن قول الرسول ﷺ وفعله وتقريره وسيرته، ولكن تسربت إليه على مر الأيام الأفكار اليونانية والاتجاهات العجمية والدينية الأخرى، وإن ساعد ذلك على انتشار الإسلام وتوسعه من ناحية، فإنه من ناحية أخرى أدى إلى أن زينته حضارات العالم الكبرى بلونها. وبذلك نشأت في أتباعه جماعة تسعى لأن تجعله خالصاً ومن ناحية أخرى نشأ المفكرون والمصلحون الذين تأثروا مباشرة أو بالواسطة بالفلسفات الأخرى. وقع ذلك للإسلام كما وقع لغيره من الديانات. وقد حاول البعض التوفيق بين الطبقتين، بينما أصر البعض الآخر على الحفاظ على صفاء الإسلام ونقائه. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية (م٧٢٨هـ) من العلماء الكبار الذين أصروا على أن يبقى الإسلام خالصاً غير مشوب.

والذي أراه أن جميع علمائنا ومثقفينا يستحقون منا أن نذكرهم ونثني على خدماتهم الدينية والثقافية، ومن هنا ينبغي أن نشكر هذه الجامعة على أنها عقدت ندوة علمية حول شخصية دينية كبيرة.

إن هذه الندوة طرحت أمام الباحثين (٢٦) عنواناً، ولكنني اخترت موضوعاً جديداً غير العناوين المذكورة، ولعله يكون خارجاً عنها، وأود أن أوضح هنا أيضاً أن الشريعة والطريقة ليستا عندي متباينتين، بل متحدتين.

يقول صاحب معجم دهخذا (علي أكبر دهخذا) إن ابن تيمية لم يكن يتجاوز القرآن والحديث، وبما أنه كان على قدر كبير من الجرأة والحماس فإن أصحاب المذاهب الأخرى قد وقفوا ضده. وإنه لم يقم بالجهاد ضد المغول فحسب، بل باشر بنفسه القتال ضدهم، وكذلك كان يعارض أصحاب السلطة إذا رأى منهم شيئاً يعارض الدين، ونتج عن ذلك أنه منع من الفتوى حيناً وعن الكتابة حيناً آخر. ولم تقلل هذه المعارضة من احترام الناس له واعتقادهم فيه، فلما توفى شيع جنازته نحو مائتي ألف من الرجال وخمسة عشر ألفاً من النساء. إنه جادل الأشاعرة والصوفية والفلاسفة وكل من لم يكن على منهاج السلف، لأنه لم يكن يجيز تجاوز المعنى الظاهر للقرآن والحديث، وكذلك حكم على زيارة قبور الأولياء بالبدعة (ص ٩٢٧).

وقد ذكر الدكتور قاسم غني في كتابه عن الحافظ الشيرازي أن ابن خلدون وابن تيمية وابن الجوزي متفقون على أن المصطلحين «الصوفي» و«التصوف» مشتقان من الصوف (ص ٤٦).

وفي نفس الكتاب يقول: لم يكفر أحد المعتدلين من الصوفية وأصحاب الصحو، وقد احترم ابن الجوزي وابن تيمية (وهما من ألد أعداء الصوفية) شخصية الإمام الغزالي وأمثاله دائماً، إنهما كفرا المفرطين من الصوفية، وتلامذة ابن عربي والمؤمنين بالاتحاد. وأكبر نزاع قام حول عقيدة وحدة الوجود. (ص ١٧٢).

وقد ذكر أستاذي الدكتور ذبيح الله صفا في كتابه تاريخ العلوم العقلية في التمدن الإسلامي أن المستشرق بال كراس Paul Kraus قام بنشر رسائل محمد بن زكريا الرازي، وفي كتاب منهاج السنة لابن تيمية نقول عن مؤلفات الرازي هذا (ص ١٦٨).

وأثناء إقامتي في طهران قابلت الأستاذ عبد الحسين زرين كوب مؤلف كتاب مكانة تراث الصوفية، وقد ذكر في هذا الكتاب عن الغزالي أن ابن تيمية وغيره قام بالرد على الغزالي ونقده، ومع ذلك كسدت بجهود الغزالي

سوق الفلاسفة وارتفعت منزلة الصوفية. (ص ٧٠).

ثم قال: إن أقوال ابن عربي تتضمن كثيراً من الأمور الإلحادية، ولذلك اختلفت فيه أقوال العلماء، فبعضهم كفروه، وبعضهم وصفوه بالولاية. ومن الذين ذموه الحافظ الذهبي وابن إياس والتفتازاني وخاصة ابن تيمية. وقد وضع هؤلاء القائلين بالتأويل في عداد القرامطة والصابئين والفلاسفة، وقد وجه ابن الجوزي وابن تيمية نقداً لاذعاً إلى الصوفية. (ص ١١٣).

وللأستاذ زرين كوكب كتاب آخر عن الغزالي اسمه الهروب من المدرسة، وقد ذكر في هذا الكتاب أن ابن تيمية اعترض على الغزالي بأنه جعل علم المنطق لازماً لكل علم في كتابه المستصفى. وكذلك اعترض بأنه نسب «القسطاس المستقيم» إلى الأنبياء، مع أنه مأخوذ من ابن سينا وأرسطو. (ص١٩٣).

ثم يقول: موقف الغزالي من التصوف قد جعل توجيهاتهم ذات تأثير أكثر، والحقيقة أن ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من العلماء قد وجهوا اللوم إلى الغزالي لهذا السبب. (ص٢٠٥).

وختاماً لهذه السطور أقول: إننا قد منينا بتخلف علمي رهيب، فلا يوجد فينا الآن لا الإمام ابن تيمية ولا بيت الحكمة ولا تشجيع البرامكة للعلم. ولذا لا يكفي أن نتذاكر أسماء الأعلام، ونثني على مآثرهم العلمية، بل نحتاج إلى أن نعد مثل هذه الشخصيات العلمية الكبيرة.





أهمية دراسة ابن تيمية في العصر الحاضر

للأستاذ الدكتور نور الحسن الأنصاري
أستاذ ورئيس قسم اللغة الفارسية بجامعة دلهي
نقله إلى العربية الدكتور مقتدى حسن الأزهري

كان القرن السابع الهجري قرن المحنة والابتلاء للمسلمين، إن الهجوم على العالم الإسلامي بدأ بالجيوش الجنكيزية واشتد على يد هولاكو خان الذي قضى على الخلافة العباسية، وسد بذلك منفذاً للتاريخ الإسلامي. إن المغول قد أوقعوا الأمة الإسلامية في متاهات الخوف واليأس التي صعب الخروج منها، والناجون من الدمار والهلاك كانوا كالأموات، والأمة الإسلامية كانت تتسلى بأنها عاجزة لا تقدر على شيء أمام قضاء الله وقدره.

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٦٦١هـ، بعد انتهاء الخلافة العباسية وخراب بغداد، وفي هذا الجو القاتم كانت شرارة الأمل تلمع حيناً بعد آخر في مدينة بغداد، وكانت مصر وبعض المناطق من غرب آسيا لا تزال بعيدة عن العدوان المنغولي.

في انتصار المغول ضد المسلمين عبرة لدارس التاريخ، فإنهم لم ينتصروا إلا بالجد والمثابرة ومواصلة الجهود وتحمل المشاق والتضحية والابتعاد عن الراحة والترف. كان همهم الوحيد السيطرة على البلاد وفتح الأمصار، وكانوا لا يبالون بأي شيء في سبيل تحقيق هذا الهدف، إنهم لم يكونوا يهدفون إلى نشر عقيدة أو تبليغ ديانة، ولو فعلوا ذلك لتغير مجرى التاريخ تماماً. أما انهزام المسلمين مقابل هؤلاء المغول فلم يكن سببه إلا

أن المسلمين ركنوا إلى الكسل والدعة، وفقدوا الصفات العليا التي تؤهل الأمم لسيادة العالم، واختلفوا فيما بينهم في الأمور التافهة، وأضاعوا في ذلك جميع القوى والمواهب. إن عامة الناس انشغلوا بحاجات الحياة المادية، والعلماء بدأوا يعيشون في عالم الخيال، وهربوا عن مواجهة مسائل الحياة. وهؤلاء العلماء كان فيهم الفقهاء والصوفية والفلاسفة والمتكلمون.

والذي يدرس حياة ابن تيمية يعرف جيداً موقف هؤلاء العلماء والفقهاء والصوفية من الإمام، إنهم نصبوا له العداوة حتى زج به في السجن، إن طبقة من الفقهاء والعلماء وقفت مع الحكومة ضد هذه الشخصية العلمية الفذة، وحاولت بذلك تحقيق أغراضها ومطامعها. والصوفية نشأوا معارضين لهذه الطبقة من الفقهاء وأبدوا كرههم للحكام وأصحاب المناصب، وزهدوا في متع الحياة ولذائذ الدنيا، ولكنهم سرعان ما تخلوا عن مبادئهم الزهدية، وبدأوا يتقربون إلى الحكام والأثرياء، ويخترعون الحيل والأسباب لجمع المال والاستمتاع بلذائذ الحياة، ويهتمون باستمالة الناس بالكشف والكرامة، معرضين عن الوظيفة الحقيقية من تزكية النفس وتربية الروح. أما الفلاسفة والمتكلمون فكانوا ينظرون إلى الشيء بمنظار العقل، ويحكمونه في أمور الدين والدنيا، ويدعون أنهم يظفرون بالحق بالاستدلال والبرهان، إنهم أفرطوا في الاعتماد على العقل، وغفلوا عن فشل هذا المعيار في كثير من الأمور والمسائل.

هذه الطبقات الثلاث للمجتمع كانت بعيدة عن الجد والاجتهاد، منشغلة بما عندها من الأفكار والمبادىء، متحاربة حول المسائل الفرعية، متعطلة عن العمل الجاد والخطوة البناءة. والطبقة الحاكمة كانت تستميل طبقة أو أخرى حسب الظروف والأحوال، وتحاول إرضاءها على حسب المبادىء والأهداف.

إن الدرس الذي يكمن في هجمات المغول على العالم الإسلامي جدير بالعناية، إن المغول قد اشتهروا بالظلم والوحشية، ولكنهم في نفس الوقت اتصفوا بالشجاعة وتحمل الشدائد والتضحية المستمرة لتحقيق

الأهداف، بينما حرم المسلمون هذه الصفات، وتكاسلوا في سبيل تحمل المسؤوليات التي كلفوا بها نحو الأمة والدين.

اهتدى المغول إلى الإسلام بعد بسط سيطرتهم على العالم الإسلامي، ولكن نظرتهم إلى السيطرة وحصول الغنائم لم تتغير كثيراً، إنهم لم يريقوا دماء المسلمين مثل سلفهم جنكيز وهولاكو، ولكن لم يكن ذلك بمجرد حبهم للسلام، بل لأن العالم الإسلامي كله كان قد خضع لهم تماماً، فلم يكونوا بحاجة إلى استخدام القوة إلا في حدود القضاء على الثورات التي كانت تنشب حيناً بعد آخر في بعض المناطق.

وكما سبق أن أشرنا كانت بلاد الشام وفلسطين ومصر بعيدة عن سيطرة المغول، وفي سنة ٦٩٩هـ هجم الحاكم المغولي غازان على دمشق، وتحقق له الإنتصار في هذا الهجوم بعد أن واجه مقاومة من الشعب، وقد لعب الإمام ابن تيمية دوراً مهما في تحريض المسلمين على الجهاد والدفاع عن المسلمين وبلادهم، وقد حاول الحاكم المغولي استمالة الإمام وصرفه عن الدعوة إلى الجهاد، ولكن الإمام أصر على الدفاع عن بلاد المسلمين وصد الهجمات الخارجية عنها.

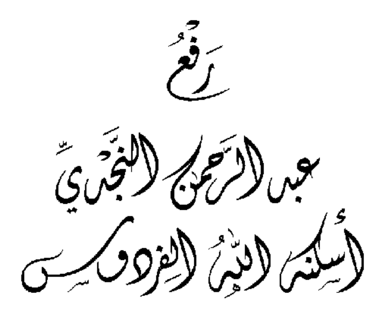
ومن مواقف ابن تيمية المشرفة أن غازان رضي بالإفراج عن أسرى الحرب المسلمين، ولكن الإمام أبي إلا أن يفرج غازان عن الأسرى اليهود والنصارى أيضاً الذين اشتركوا في صد الهجوم المغولي. وبهذا الموقف الإنساني العظيم ملك الإمام قلوب اليهود والنصارى. وأثبت أمام غازان أنه على مبدأ ثابت أصيل.

وقد نجحت جهود الإمام ابن تيمية في حث الناس على الجهاد، ففي سنة ٧٠٠هـ هجم غازان على دمشق مرة ثانية، ولكنه مني بالهزيمة في هذا الغزو، وعاد خائباً إلى تبريز. وقد أوضح ابن تيمية في رسالة له إلى المسلمين أن هزيمة المسلمين في العام الماضي لم تكن إلا بسبب ابتعادهم عن الإسلام، وبسبب المعاصي والذنوب التي وقعوا فيها، والانتصار على الأعداء لا يتحقق إلا بالاعتصام بحبل الله والصبر على الجهاد والتوكل على الله في جميع الأمور.

وعاد غازان مرة ثالثة إلى غزو دمشق، ولكنه انهزم في هذا الغزو أيضاً مثل الغزو السابق، وقد شارك الإمام ابن تيمية شخصياً في القتال، وقام بتعبئة المسلمين وتحريضهم على مقاتلة المغول. وقد واجه من قبل بعض المنافقين معارضة لدعوة الجهاد، فإنهم أشاعوا أن المغول مسلمون، فلا يجوز قتالهم، وحينما رد عليهم ابن تيمية، وأوضح أن المغول مثل الخوارج، وأنهم غارقون في المعاصي والفجور، وبذلك يجوز قتالهم. وبعد ذلك تعلل هؤلاء المنافقون بأن الجنود المسلمين لا يرضون بالإفطار في شهر رمضان، فكيف يقاتلون الأعداء وهم صائمون؟ وقد رد عليهم ابن تيمية بأن الله تعالى أباح للمسافر الإفطار ولو لم يتعرض للتعب، فكيف لا يباح للمسلم أن يفطر وهو يقاتل أعداء الإسلام؟

إن الإمام ابن تيمية أعمل فكره في مواجهة الأمرين المذكورين، واجتهد برأيه في قتال المغول وفي الإفطار لأجل الجهاد، وقد أصاب في الأمرين، وموقفه هذا من الاستنباط والاجتهاد يصلح أن يكون مشعلاً ينير الطريق في هذا العصر الذي عرف بتعقد الأمور وتشتت الآراء وقصور الهمم.

يرى دارس حياة ابن تيمية أنه لم يعرف اللين والمداهنة في العقائد والأفكار، ولم يكن يتفاهم إلا بالحق وللحق، ولكن ذلك لا يعني أنه كان يعادي من خالفه في الرأي والعقيدة، بل كان يعامل غير المسلمين باللين واللطف، ويحسن إليهم، ويرفق بهم في الأمور التي لا تمس العقيدة والدين. والرسالة التي وجهها إلى ملك قبرص ودعاه فيها إلى الإفراج عن أسرى المسلمين، تصلح أن تنير لنا الطريق في إقامة الصلات مع الأمم الأخرى على الصعيد العالمي.



فهرس بحوث الندوة العالمية
عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية

الرقم	العنوان	الصفحة

الرقم	العنوان	الصفحة

الرقم	العنوان	الصفحة